

إينارو
على فهمي خشيم

إينـــــــارو

رواية تاريخية

د . علي فهمي خشيم

الغلاف والرسوم الداخلية : أزواوا

الطبعة العربية الثانية : يناير 1998

رقم الإيداع : 13638 / 97

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-291-044-6



- مركز الحضارة العربية ، مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية ، إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشرها وتوزيعها .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : محمد الغليونى

4 ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : 3448368

د. علي فهمي خشيم

إينارو

رواية تاريخية

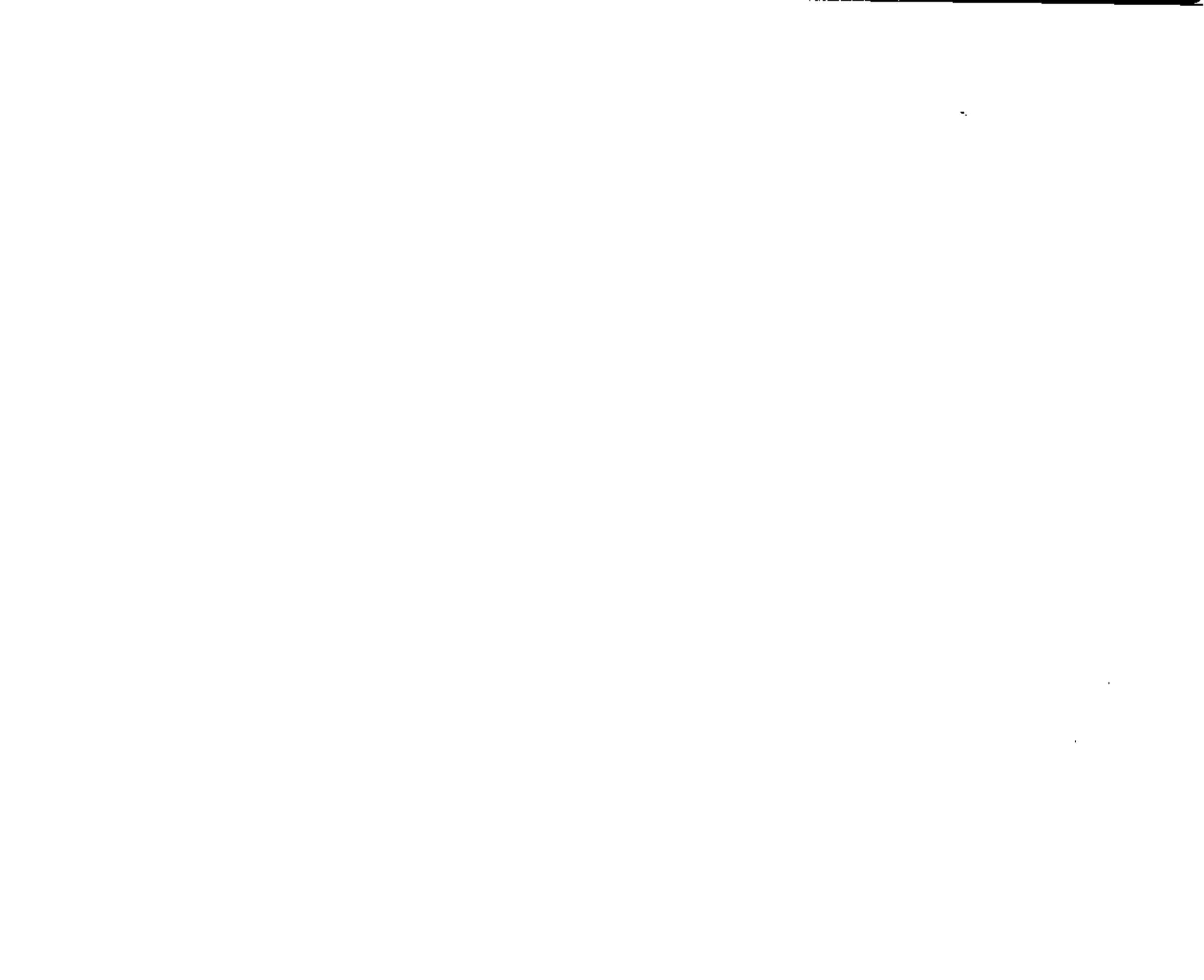
الطبعة الثانية

يناير 1998



إلى أحبائي

هيثم، وهاشم، وهديل.



" عندما علم أهل مصر بموت أحشويرش والصراع على الحكم واختلال النظام في مملكة فارس قرروا الضرب في سبيل حريتهم ... ونصّبوا عليهم ملكاً رجلاً يدعى إينارو "

ديودروس الصِّقلّي - المكتبة التاريخية
الكتـــاب الرابـع - 71 فقــــرة 3

" نظّم إينارو بن بسامتيك ، الليبي ملك الليبيين ، على حدود مصر .. ثورة على الملك الفارسي أرتحششتا شملت مصر كلها تقريباً "

ثيوسيديدس - حرب البيلوبونيز
الكتـــــاب الأول - فقــرة 104

" ما من أحد على الإطلاق سبّب للفرس من الخسارة والعناء أكثر مما فعل إينارو وامنروت "

هيرودوت - التواريخ
الكتـــاب الثـــالث

القسم الأول

الفصل الأول



١

فتح قمبيز عينيه دهشة وفغر فاه ذهولا وهو لا يصدق ما سمعته أذناه ، ثم هز رأسه مستنكرا ، وسأل زوجته الجميلة ، نتت ، في استغراب :

- ماذا ؟ أنت تكذبين ؟ زوجة قمبيز بن قورش ، أعظم ملوك الأرض وأشدهم قوة ، تكذب؟ هل لا تزالين بأفكارك وقيمك الغريبة بعد هذه المدة التي قضيتها معنا في فارس ؟ ألا تعلمين أن الفرس يعتبرون الكذب ...

فأسرعت نتت قبل أن يكمل الجملة :

- أعرف يا مولاي ... أعرف أن الكذب عندكم أكبر الكبائر ، وأنه جريمة عقابها الموت دون إبطاء . لكنني يا مولاي .. أنا لم أكذب ، ولن أكذب - إن فعلت - في حضرة زوجي وسيدي وسيد الكون بأسره .

فدفع قمبيز بكأس الشراب في يده جانبا ، وقام يخب في ثوبه الفضفاض متجها نحو نافذة كبيرة في مخدعه الملكي الفاخر الأثاث ، وألقى نظرة على عاصمة فارس ، اصطخر ، التي عرفها الإغريق باسم برسوبوليس ، ثم استدار بغتة واقترب من المرأة الواقفة في منتصف الغرفة ، تمثالا خمري اللون أسود العينين الواسعتين ، وقد غطت جبينها خصلات شعر قصت بالطريقة المصرية المعروفة . وقال والغضب يرجه :

- اسمعي يا نتت ؛ كنت تقولين إنك لست ابنة فرعون مصر ، أليس كذلك ؟ وتقولين مع هذا إنك ابنة فرعون . فهل لك تفسير هذا القول ؟

- نعم.. يا مولاي؛ أنا - ببساطة - لست ابنة فرعون مصر - الذي يعتلي عرشها اليوم - المدعو أحمس . لكنني ابنة الفرعون الشرعي .. خفرع .

- ماذا ؟ وكيف ؟ تكلمي وأوضحي الأمر ، فقد كاد صبري أن يفرغ .

وكانت نتت تعلم من فورة أعصاب زوجها وحدة غضبه الشيء الكثير في مسائل تافهة صغيرة، فكيف به في قضية تمسه هو شخصياً ، وفي شرفه وكرامته ، في بيته وأهله . فبادرت ترتب كلماتها بلغة فارسية كسيرة حاولت جهدها أن تجعلها واضحة قدر الإمكان :

- مولاي ؛ دعني أبين لك أولا أنني لم أخبرك بالحقيقة منذ أول يوم وطأت فيه قدماي عاصمة

ملكك لسببين ، أولهمـا عجز لغتي عن التعبيـر لك عما في نفسي ، وثانيهما خـشية ألا تصدقني . فإذا استعنت بتـرجمان من قومك أو من قومي كان تحـريف قولي محتملاً، فصـبرت حتى تعلمت لغتك لأشرح لك المسألة بنفسي .

فقال قمبيز :

- حسن . ها أنت تتحدثين لغتي .. وأنا أستمع إليك ، فأوضحي .

- أنت تعرف بالطبع فرعون مصر الحالي ، أحمس ، الذي خطبتني منه .

- والدك ؟

- كلا .. كـلا .. يا مولاي . ليس والدي . لقد خدعك الفـرعون أحمس ، يا مولاي ، وسـخر منك . فـحين طلبت منه أن يصـاهرك بأن يزوجك ابنتـه .. حسن . لا أزال أذكـر حـيرته وتخـبطه وارتباكه . لا أزال أذكر كيف استبقى وفدك في عاصـمته صا مدة طويلة قبل أن يتخذ قراره . كان يخشاك ، ولكنه كان أيضاً يخشى أن يرسل لك بابنته هو ، فلا تتخذها زوجة كريمة ، بل تجعل منها مجرد محظية في عديد حريمك الكـبير . لقد فكر طويلاً ، ثم اهتدى إلى فكرة لم يلبث أن نفذها . جاء بي أنا ، نتت ابنة الفرعون السابق ، خفرع ، الفرع الوحيد الباقي من الأسرة الليبية الحاكمة في صا . أنا اليتيمة الفاقدة أهلها على يد ذلك الـسفاح الخائن . جاء بي وهيأني عروساً مجلوة وبعث بي إليك باعتباري ابنته هو ذاته . ما أقسى ما شدد علي النكير ، وتوعدني إن أفشيت السر أو بحت بالحقيـقة ، وما أكثر مـا بث عيونه تترصـد حركاتي وسكناتي وإيماءاتي والتفاتاتـي حتى يظل السر مطوياً فلا تعلم به . كـان يرى أن أكون أنا المحظية لا ابنته . فلمـا تمكنت من التعبيـر عن نفسي ها أنذا أبين لك الأمر ، ومنه ترى أنني لم أكـذب ، وأن الكاذب هو أحمس ، يا مولاي ، وأن لك أن تسلك ما تشاء .

وما أن انتهت الأميرة من قولها حتى دوى صوت قمبيز الهادر حنقاً :

- هكذا إذن؟ يخدعني ذلك الأفاق.. أنا ابن قورش العظيم؟ هل يظن أنه سينجو من العقاب؟ أقسم بكل عزيز مقدس ليكونن انتقامي فظيعاً فـظاعة خدعته الدنيئة ، أقسم بالنار الطاهرة المطهرة وباسم أهورا مزدا الجليل لأكتسحن مصر كلها ولأوقفن النيل عن الفيضان . أقسم ..

ثم نظر إلى القامة الفـارعة أمامه وهي واقفـة بجلال حزين ، وتملى الوجه البيضـاوي الأسمر ، فهدأت نفسه قليلاً. وسألها :

- هل حدثت أحداً بهذا ؟

- كلا ، يا مولاي !

- هل تستقبلين بعض المصريين هنا ؟

- كلا ، يا مولاي ؛ ولكنني سمعت عن أحدهم في بلاطك .

- تقصدين ذلك الكحال – طبيب العيون الكثير الضجر ؟

- نعم ، يا مولاي . إنه متبرم للغاية ، لا يفتأ يطعن في أحمس وينددبه . كما سمعت

- إنه يحن إلى أسرته وأولاده . المصريون لا يطيقون فراق أهلهم وذويهم كما تعلمين ، وقد بعث به أحمس إليّ بناء على طلب مني

- ألم تنظر ، يا مولاي ، في مدى صحة طعنه في أحمس وتتحقق مما يقول ؟

- لم يخطر هذا في بالي من قبل ، لكنني سأفعل الآن بعدما سمعت منك . لكن .. هلمي يا نتت وحدثيني بخبرك كله ، من البداية إلى النهاية . أريد أن أستوثق من كل شيء وأن أعرف قصتك وقصة أسرتك . أنت أميرة ولا ريب في أنك طالعت التاريخ كما تفعل أترابك . فحدثيني طويلاً عن تاريخك

قال هذا ، ثم صفق فدخلت الوصيفة تقبل الأرض بين يديه فأمر

- هاتي مزيداً من الشراب والفاكهة ولا تسمحي لأحد كائناً من كان أن يقترب من الباب أو من الدهليز

فخرجت الوصيفة لتنفذ الأمر الملكي ، وبدأت الأميرة نتت تحكي تاريخ أسرتها

2

قالت :

- أبي هو الفرعون خفرع بن نخاو الثاني بن بسامتيك – فراعين الأسرة الليبية ، وكانت عاصمة ملكها مدينة صا عند الفرع الغربي من النيل . وقد أسس هذه الأسرة المالكة جدي الأكبر بسامتيك بعد خروج ملوك النوبة وزعيمهم شباكا من مصر كان من جملة أحد عشر أميراً يحكمون مقاطعات مصر السفلى – ما يعرف عادة بالدلتا – اختير ، بعد صراع عنيف، ليوحد مصر من جديد ويحكمها فرعوناً لها مدة تزيد عن خمسين عاماً متوالية .

فقاطعَها قمبيز مستفهماً :

– لماذا قلت «أسرة لبيبة» يا ابنة خفرع ؟ هلا وضحت القول ؟

فأجبت :

– تعـرف ، يا مولاي ، أن بين الليـبـيين والمصريين نسب جـوار وعـلاقة دار ، وهم اخـتلطوا اختلاطاً كبيراً على مدى التاريخ حتى اتخذ بعض الليبيين أسماء مصرية فيما يبدو . لكن اللغة ذاتها كانت قـد تمازجت حتى كادت تصير واحـدة ، وبخاصة في منطقة الدلتـا والواحات. بيد أن هذا لم يمنع من أن يحتفظ الليـبيون بعادات ونقاليد قديمة ، وأن يمتنع بعضهم عـن أن يتمصر تماما. وأذكر أنني قرأت في أوراق البردي أن فريقاً من الليـبيين اعترضوا على تحريم كهنة (إمن رع) لحم البقر عليهم بحجة أنهم ليبيون وليسوا مصريين حتى يحرم عليهم ما حرم على سكان وادي النيل ، وبعثوا بهذا الاعتراض إلى معبد (إمن) في سيوة . لكن الجواب كان مخيباً لآمالهم إذ ساوى بينهم وبين المصريين في تحريم لحم البقر .

– ألم يكن (إمن) نفسه إلهاً ليبياً في الأصل ؟

– ذاك صحيح . ولعل هذا ما دفع كهنة هيكله في سيوة إلى المساواة بين الفريقين حتى يضمنوا وحدة عبادته دون تمييز – كما يبدو لي .

– حسن .. واصلي حديثك .

– لـن أطيـل عليـك ، يا مـولاي . وخـلاصـة القـول أن أهـلي كانوا من أرومة ليـبية ، كـما كـان الفـرعون شـيـشـنق ومـن تبـعـه منـذ أربعـة قـرون مـن الزمـان . وكـان لجـدي الأكـبر بسامتيك اهتـمام كبير بالعلم والمعرفـة ، وتروى عن هذا الاهتمام قصص كثيـرة جداً . أما جد أبي المباشـر ، نخاو ، فـهو أشـهر من أن يعرف . لقـد كان أول من فكر في حـفر قناة تصل نهـر النيل بالبحر الأحمر ، واسـتخدم لهذه الغاية مائة وعشرين ألف عـامل ، ثم توقف عن إتمام القناة خشية حلم رآه .

فانتبه قمبيز ورفع رأسه مستفسراً :

– حلم ؟ هل يخلط الحكّام العظام بين الواقع والحلم ؟

– لعله ليس حلماً . لعل الحلم كان ذريعة لإيقاف حفر القناة . لعله خشي –إن هو أكملها– أن يتسيـر الهجوم على بلاده من بحـر العرب ، ويصير الوصول إلـيها يسيراً عن طريـق السفن . كان

يريد أن يحيي التجارة ويصل بين البحرين ، لكنه خشي أن تستغل الجيوش الأجنبية القناة ضده في غزو مصر .

فقال قمبيز متفكراً :

– هذه حكمة بالغة .. ومن يدري ؟ لعل جيوش فارس يمكنها ذات يوم أن تستخدم هذه القناة في الوصول إلى قلب مصر .

فحاولت الأميرة تغيير مجرى الحديث وواصلت :

– جد أبي نخاو هذا هو الذي بعث بأول رحلة طافت حول أفريقيا . نعم .. أول رحلة حول أفريقيا . لقد كان يؤمن بأن هذه القارة الشاسعة لا بد أن تكون جميعها محاطة بالماء ، شأن كل يابس آخر ، وأن الرحلة من البحر الأحمر إلى بحر العرب فمحيط الهند لا ريب تسفر عن كشف جديد ، فهيأ سفناً أسلمها إلى ربابنة كنعانيين وأمرهم بمحاولة الدوران حول القارة .

– حسناً فعل . الكنعانيون خبراء بالبحر كما نعلم ، وفي أسطولي عدد كبير من سفنهم .

– هذا ما حدث . وقد قضى البحارة وربابنتهم ثلاث سنوات في رحلتهم الطويلة المضنية ، وعادوا عن طريق مضيق في البحر الغربي الكبير ، يعرف باسم مضيق أعمدة هرقل . فلما وصلوا وجدوا جد أبي قد مات . وحين حدثوا الناس بما رأوا من عجائب ، وأنهم زرعوا وحصدوا في غير وقت الزرع والحصاد ، لم يصدقهم أحد .

– وماذا آخر ؟

– الفرعون نخاو أيضاً هو صاحب الغزوة المشهورة في فلسطين ، أيام ملك اليهود المدعو يوشيا ، وكانت له أعمال ومآثر أخرى .

لف الصمت قمبيز هنيهة، قطعه بأن مد يده إلى القدح أمامه ورشف منه قليلاً . ثم قال معلقاً :

– أسمع منك الكثير ، يا ابنة خفرع ، مما لم أسمع به من قبل ، فزيديني حديثاً . خبّريني عن والدك ، ومما جرى له ، فأنا جد مشوق .

3

اعتدلت نتت في جلستها مرتاحة بعد أن استولت على انتباه قمبيز ومضت تقول :

- لقد حكم جد أبي ، نخاو ، ستة عشر عاماً ، ثم توفي فخلفه ابنه بسامتيك الذي لم يحكم أكثر من سنوات ست . فلما قضى خلفه أبي ، خفرع ، وسأحدثك ، يا مولاي ، عنه حديثاً مطولاً . لكن قبل هذا لا بد لي من أن أحدثك عن تاريخ أبناء العمومة في الغرب ، في بلاد الجبل الأخضر وقورينا وبرقة .

فاتكأ قمبيز على مرفقه واستعد لسماع الحديث باهتمام مركز . فقالت :

- تعرف الإغريق - يا مولاي ؟

ضحك بسخرية وقال ؟

- ومن لا يعرف أعداءه يا نتت ؟ هؤلاء الذين يسموننا «البرابرة» وهم البرابرة الحقيقيون . هل نسيت المعارك الطاحنة بيننا وبينهم في فلسطين وسوريا وبلاد الأناضول ؟

- لم أنس يا مولاي . وهم يسمون كل من عداهم «البرابرة» - حتى قومنا في ليبيا يدعونهم بهذا الاسم . لكن غايتي أن أحدثك عما فعلوا في شرق ليبيا وما جرى بينهم وبين الليبيين مما له صلة بحديثي .

- افعلي إذن ..

- حسن . منذ حوالي مائة عام مضت جاء مهاجرون إغريق من جزيرة ثيرا إلى ساحل ليبيا الشرقي . ويوم هبطوا في مكان يدعى إيراسا جاءهم الليبيون من قبيلة الجلغماي وأخذوهم إلى مكان آخر إبعاداً لهم عن الوادي الخصيب - أخذوهم غرباً إلى منطقة جبلية بها نبع ماء زلال سماه الإغريق «نبع أبوللو» . وهناك استقر بهم المقام ، وطابت لهم الحياة حيث أنشأوا مدينة أسموها قورينا - باسم حورية مشهورة لديهم في أساطيرهم المتوارثة . وكانوا جاءوا رجالاً دون نساء ، فتزوجوا من بعض الليبيات الجميلات وعاشوا حياة رغدة . كان ملكهم المدعو باتوس - وهي كلمة معناها في لغة قومي «الملك» - قد توفي بعد أربعين عاماً من الحكم ، وخلفه ابنه أركسيلاوس مدة ستة عشر عاماً ، ولم يكن عدد الإغريق يجاوز عددهم حين قدموا إلى قورينا أول مرة ، وكان الليبيون من قبيلة الأسبوستاي يحسنون معاملة الإغريق ، ولكنه الجشع والطمع ، يا مولاي !

فاهتم قمبيز وقال :

- ماذا حدث ؟ اكملي !

- الذي حدث أنه في عهد الملك الثالث المسمى «باتوس السعيد» استحثت كاهنة معبد دلفي

المشهور في بلاد الإغريق – الكاهنة البوتية كما تلقب – استحثت الإغريق للهجرة إلى ليبيا ، وكان إغريق قورينا يعدون القادمين بتوزيع الأرض الخصبة عليهم .. مراع ومزارع وأشجار لا تعد . فالحق ، يا مولاي ، أن القسم الشرقي من ليبيا ، المسمى الجبل الأخضر ، جنة الله في الأرض .. بعيونه المتدفقة وتربته الخصبة وأغنامه التي تغنّى بها الشاعر هوميروس منذ القِدَم – إلى جانب نبات السلفيوم المدهش الذي يشفي أربعين داءً .

– وجاء الإغريق بالطبع ؟

– بالطبع .. أفواجاً تتلو أفواجاً ، ينتشرون في كل مكان ويغتصبون أرض الليبيين ويأخذون مراعيهم عنوة .

– وماذا كان موقف الليبيين يا نتت ؟ خبريني .. فهذا يهمني كثيرا .

علت وجه الأميرة مسحة من الحزن، وهي تتذكر الأحداث المتتالية، وتناولت نارنجة تتلهى بها وهي تحاول استجماع أفكارها وما قرأت من التاريخ لتربط خيوط الأحداث، ثم واصلت الحديث:

4

– لا أطيل عليك فأنا أحفظ عن ظهر قلب نص نبوءة الكاهنة البوتية :

«من يتوان عن الذهاب إلى ليبيا النضرة حتى يتم توزيع الأرض فسوف يندم دون ريب !».

وبهذا جاءت حشود هائلة من الإغريق تجمعوا في قورينا واقتطعوا أصقاعاً عظيمة من الأرض كانت جزءاً من أرض الليبيين المجاورين . فأهم هذا الليبيين ونغّص حياة ملكهم أدكران . فما الذي يمكنه أن يفعل ، وقد هوجم في أرضه من قِبَل الذين أكرم وفادتهم وأحسن استقبالهم وهيأ لهم سبل الحياة الكريمة ؟ إنهم آلاف قد يفوقونه عدداً بتلك الهجرات المتدفقة ، وهم لاشك يفوقونه عدة ، بأسلحتهم الجديدة القوية وأدوات القتل والدمار التي جلبوها معهم عبر البحر . وهو قد ناوشهم هنا وهناك ، وحاول الدفاع عن بلاده .. ثم لم يجد إلا أبناء العمومة في مصر، وفي صا بالذات، ولم يدر من أين يطلب العون سوى من أبي .. خفرع . فاستصرخه واستنجد به، واضعاً نفسه وقومه تحت إمرته ليعينه على دفع البلاء النازل به وبأهله.

هنا اعتدل قمبيز في جلسته ، ، وأصغى باهتمام . فقد كان حديث الحرب والقتال يجذبه ، وكانت رواية المعارك تشده ، فهوَ رجل حرب وجند بطبيعته وبحكم تربيته واعتلائه عرش فارس ،

تلك الامبراطورية الحديثة التي حطمت في بضع سنوات امبراطورية بابل وأشور واكتسحت المستعمرات الإغريقية في الشام ودمرت ممالك الاغوستاي في مشرقها ، وكانت معاركه ومعارك أسلافه مع الإغريق متوالية لا يخمد لها أوار ، فلما رأت الأميرة تهيؤه ، استرسلت بتؤدة تقول :

– ولم يتوان أبي عن الاستجابة للنداء وتلبية دعوة أولاد العم ، فاعد جيشاً عظيماً أرسله إلى قورينا لمساعدة الملك أدكران والليبيين . غير أن إغريق قورينا لم يظلوا في مدينتهم ، بل زحفوا – بمجرد أن بلغهم خبر جيش أبي – هم أيضاً نحو الشرق ليلاقوه في الطريق حتى التقى الجمعان في موقع يعرف باسم نبع ثستيس ، ودارت رحى المعركة الطاحنة . كان أبي واثقاً كل الثقة بقوته وقدرة جيشه على سحق الأعداء ، وكان يستخدم أحياناً بعض المرتزقة الإغريق من أيونيا وكاريا ، وكانوا أسوأ جند مرتزق ، كان اعتماده عليهم سبب إخفاقه في حملات أخرى سابقة . لكنه لم يكن على خبرة بالإغريق الآخرين من أثينا وثيرا والمدن الأخرى . وتعلم – يامولاي – من خبرتك أن الإغريق يختلفون تدريباً وسلاحاً وقوة عزيمة ، فإسبرطة مثلاً تختلف عن أيونيا وهذه تختلف عن لاريسا .. وهكذا . وهذه كانت غلطة أبي . كان إغريق قورينا على استعداد كامل للمعركة ، وهم تهيأوا لها كل التهيؤ ، وحملوا أسلحة حديثة لم يكن لجيش أبي بها خبرة من قبل . وكانوا مستميتين في القتال . وكما هو المتوقع انتهت المعركة الرهيبة بهزيمة جيش أبي وعودته فلولاً وشراذم ممزقة . ولم يكادوا يصلون حدود العاصمة صا إلا بشق الأنفس . وكان هذا في السنة الخامسة والعشرين من حكمه .

وتوقفت عن الحديث هنيهة ، فعلق قمبيز قائلاً :

– آهاه ! ملك مهزوم ، وجيش حانق . أكاد أرى النتيجة .

فقالت في أسى :

– النتيجة كما فكرت ، يا مولاي . لقد ألقى الجميع اللوم على أبي واعتبروه مسؤولاً عما حدث . لم يلم الجنود أنفسهم على خيبتهم وفشلهم ، بل لاموا أبي بالذات ، وادعوا أنه الوحيد سبب الكارثة التي حلت بهم . فلما بلغوا مشارف العاصمة جاءت الأخبار بغضب الجنود وقادتهم وأنهم أعلنوا الثورة ضده . هنا أسرع أبي بإيفاد أحمس – أحد القادة المصريين – ليناقشهم ولإقناعهم بالعودة إلى الانضباط والنظام العسكري ، وبينما كان يتحدث إليهم كان جندي واقفاً خلفه أخذ خوذته ووضعها على رأس أحمس قائلاً إنه يتوجه ملكاً على مصر . ولم يكن أحمس غير راض بهذا الصنيع ، فأبدى استعداده للزحف بهم على العاصمة وخلع الفرعون

الشرعي . فلما سمع أبي بما حدث ورأى ما يتـهدده من خطر أرسل إليه أحد أفضل رجال بلاطه، ويدعى باتارسيميس ، بأمـر إحضار أحمس حياً ليمثل في حـضرته . لكن جواب أحمس - الذي كان من أحط طبقات مصر ، وكان لصاً معروفاً - جوابه ، يا مولاي..

وصمتت .

- ماذا كان جوابه يا نتت ؟

- اعفني ، يا مولاي !

- كلا .. لن أعفيك . ماذا كان جوابه ؟ قولي .

- كان جالساً على سرجه فوق جواد . فرفع إحدى قدميه وأطلق الريح قائلاً إن هذا هو جوابه لسيد صا .

- عمل سوقي .

- دون ريب . وهو كان سوقياً بالفعل ولعل الكحال تحدث ببعض أخباره .

فابتسم قمبيز وقال :

- نعم . لقـد سمـعت عن كيـف كان يسـرق الدجاج من حظائر الـفلاحين المصـريين ليبـيعـه ويشتـري بثمنه خمـراً . فهو - كمـا علمت من طبيب العيـون - ليس من العاصمـة ، بل من قرية مجـاورة تدعى سـيوف ، وضـيع الأصل والنشأة ، وأنه مـغرم بالشـراب واللهو والقـصف ، وأنه يقضي صباحه على العرش وعشاياه وأماسيه بين الطار والعقار .

- هذا ديدنه منذ تولى العـرش ، وكان كـذلك قبـله . وأذكر قـبل أن يبعث بي إليك أن حـدثه بعض فضـلاء المصريين في أن سلوكـه لا يليق بملك ، فكان جوابه : إن القـواس يشد قـوسه حين يستعملها ، فإن لم يكن في حاجة إليها ألقاها إلى جانبه . إنه رجل عابث ، يحب الفكاهة والنادرة وينشرح خاطره بصحبة طيبة . هل هذه سمة الملوك .. يا مولاي ؟

فأجاب قمبيز :

- وهل هذا ملك ؟ إنه شرلتان أفاق .. وسوف ترين نهايته القريبة . واصلي الحديث عما جرى بعد ذلك .

قالت :

- عـاد باتاربميس إلى أبي بما رأى وسـمع ، فـجن جنونه وغلبـه الغـضب ، فأمـر بجـدع أنف

باتاريميس وصمع أذنيه . وكانت هذه غلطة ثانية .. إذ ما أن رأى المصريون أنصار أبي ما حل برجل البلاط الفاضل حتى انحازوا إلى جانب المتمردين ووضعوا أنفسهم تحت إمرة أحمس . ثم ارتكب أبي الخطأ الثالث القاتل ، بأن سلح مرتزقة من الأيونيين والكاريانيين ، وعددهم ثلاثون ألفاً ، وخرج بهم من عاصمة ملكه لمقاتلة المصريين . كان عددهم يفوق الأربعمائة ألف محارب متمرس ... فالتقى بهم عند بلدة منف . وكانت معركة غير متكافئة - ملك يقود مرتزقة ضد جيشه . وكان أن أخذ أسيراً وجيء به إلى قصره الذي لم يعد قصره بعد ذلك . ظل أبي في القصر مدة إذ لم يجرؤ أحمس على قتله . لكن المصريين الحانقين أخذوا عليه حفاظه على من اعتبروه أعدى أعدائهم ، فما عتم أن أسلمه إلى أيديهم ليقتلوه خنقاً .

وتحدرت دمعة ساخنة على الخد الأسمر الأسيل كاد يرق لها قلب قمبيز الحجري . فصمت هذا احتراماً لحزنها وشجنها . لكنها لم تلبث إلا قليلاً حتى استعادت رباطة جاشها ، ومسحت دمعتها بطرف منديل وردي كان إلى جانبها . ثم واصلت الحديث :

- قتلوه ودفنوا جسده ، دون تحنيط ، في مقبرة الأسرة بمعبد نيث - الربة الليبية التي يعرفها الإغريق باسم أثينا - قرب الهيكل على يد الداخل اليسرى . وكان من عادة أهل صا أن يدفنوا جميع الملوك القادمين من المقاطعات ، مثل ملوك أسرتي الليبيين ، في هذا الحرم .

وصمتت مرة أخرى ، ثم أضافت في جمل مختصرة :

- قتلوه ، وقتلوا جميع أفراد بيتنا ، ولم يبق سواي . غفلوا عني ، إذ كنت يومها طفلة صغيرة لايقيمون لها وزنا ولا يأتيهم من قبلها خطر . حتى تذكرني أحمس يوم خطبته في ابنته ورآني مناسبة لمعرفتي بالسلوك الملكي وتقاليد البلاط وتربيتي في القصر وتعودي حياة القصور .. فبعث بي إليك باعتباري ابنته هو - كما أخبرتك من قبل ، يا مولاي !

5

ران السكون على المخدع الامبراطوري . وكان قمبيز يتفكر في ما روت نتت ويتدبر الأمر. أدرك الآن كم هو سهل غزو مصر ، وعلم أية حالة تعيسة تمر بها الأوضاع في تلك البلاد . فرعون ضعيف أصبح ملكاً بمحض الصدفة ، لا يدري من أحوال الدنيا شيئاً سوى الطاس والكأس . وشعب بدون قيادة قوية ، فما الذي يمنعه من أن يمد أطراف امبراطوريته نحو الغرب باحتلال مصر؟ إنه بهذا يحقق جملة أهداف بضربة واحدة ؛ يوسع من ملكه ، ويحتل أرض الفراعنة ،

ويضيّق الخناق على أعدائه الإغريق بإخراج مستعمراتهم في نكراتيس وغيرها من مستوطناتهم في مصر ، ويمكنه أن يهاجمهم في قورينا . والأهم أن ينتقم لشرفه الشخصي وللإهانة التي لحقت به حين خدعه أحمس الأفاق . ثم تذكر فجأة شيئاً كان نسيه . آه .. فانيس . ذلك الجندي الإغريقي من منطقة هاليكارناسا الذي كان في جيش أحمس ، ثم فر منه وقصد بلاد فارس وطلب مقابلة قمبيز . لقد سأله عدد من رجال بلاطه أن يأذن له بالمقابلة ، وكان يصدهم ، إذ حرص - في ما سبق - على عدم الإساءة لصهره - يا للسخرية ! - الفرعون أحمس . أما الآن ، وبعد رواية نتت ، فلم يعد ما يبرر هذا الحرص ، بل على العكس، إنه يحتاج إلى فانيس هذا في معرفة الكثير من أحوال البلاد التي صمم على غزوها واحتلالها .

كان ثملاً بعض الشيء ، وكان من عادة الفرس أن يتخذوا أي قرار مرتين ، إذا فعلوا في حالة الصحو راجعوه ثانية في حالة السكر ، وإن فعلوا سكارى استعادوه على صحو . والقرار الثاني - في الحالتين - هو القول الفصل ، فالتفت إلى نتت فجأة وقال :

- انصتي يا نتت ؛ لقد قررت غزو مصر وتأديب أحمس ، من أجلك ومن أجلي . غداً حين أصحو من نشوتي ، سأراجع هذا القرار مع رجالي .

فنظرت إليه نظرة الشاكر ولم تزد كلمة أخرى .

6

صباح اليوم التالي كان إيوان ملك فارس يغص بوجوه القوم ، رجال بلاط ووزراء وقادة جند، وكان بعضهم يحيي بعضاً إما بلثم الفم - إذا كان الرجلان من طبقة واحدة - أو يكتفون بتقبيل الوجنات إذا اختلفت الطبقات .

وبعد قليل عم السكون وخر الجميع ساجدين .. فقد أعلن الحاجب دخول قمبيز واستواءه على عرش الطاووس . فلما رفع صوته بالإذن لهم بالجلوس احتل كل مكانه المخصص له . وبدأ الحديث يجري في شؤون الدولة وأمورها ، والملك يصرفها حسبما يرى ويعن له ، ثم ما لبث - بعدما انتهى من النظر في قضايا البلاد اليومية العاجلة - حتى التفت إلى كبير وزرائه قائلاً :

- ألم تحدثني من قبل في شأن المرتزق الاغريقي الفار من جيش أحمس ، وطلبه مقابلتي ؟

فرد كبير الوزراء بإجلال :

- بلى يا مولاي ، وهو لا يزال يرجو أن يمثل في حضرتك ، فإن لديه أخباراً ومعلومات مهمة عن حالة مصر وملكها كما يدعي .

- حسن . لا بد إذن من إخباركم أولاً بقرار اتخذته البارحة وأنا ثمل ، وسأراجعه معكم الآن ، ثم ننظر في أمر فانيس هذا .

نظر الجميع صامتين كأن على رؤوسهم الطير إلى الشفتين المزمومتين يريدون أن يعرفوا قرار الملك السكران .

- لقد قررت غزو مصر !

قالها بهدوء وعزم . فارتفعت آهات الفرحة والدهش من الحاضرين .

- ورأيت أن آخذ رأيكم هذا الصباح ، ومدى استعداد الجيش لهذه المهمة .

اختلطت الأصوات المؤيدة تبدي استعدادها المطلق وتعلن تأييدها غير المحدود ، حتى اضطر قمبيز إلى رفع يده يطلب الصمت ، وسأل :

- ما رأيك يا كبير الوزراء وما تستطيع أن تفعل ؟

- رأيي ، يا مولاي ، تأييد قرارك الحكيم . فإن من النقص لكمال مُلكنا أن تظل مصر خارج سيطرتنا ، وأستطيع أن أحشد ثلاثمائة ألف مقاتل دفعة واحدة ، شاكي السلاح كاملي العدة .

فقال قمبيز ، وهو يسوي عباءته الميدية المطرزة :

- فإذا أضفنا إلى هذه القوة البرية مائتين من السفن الحربية الكنعانية - أنت على علم بالمعاهدة بيننا وبين الكنعانيين وتطوعهم لمساعدتنا في حروبنا - إذا فعلنا هذا ضمنا إحكام زحفنا وتم لنا ما نريد . فلتعدوا العدة إذن ولتأخذوا أهبتكم للزحف . أما الآن فليحضر فانيس لأعرف منه ما أريد ، وليقفل المجلس هذا الصباح - ابق أنت يا كبير الوزراء .

سجد الحاضرون مرة أخرى ، ثم خرجوا واحداً تلو الآخر ، ولم يبق في الإيوان سوى قمبيز وكبير وزرائه . وبعد قليل أدخل فانيس الهاليكارناسي إلى حضرة الملك .

7

كان فانيس أحد كبار الجند المرتزقة في جيش أحمس الذي اغرم بكل شيء إغريقي لعقدة

نقص كانت تتحكم فيه . فاتخذ من الإغريق مرتزقة كثيرين ، كما سمح لهم بالإقامة في مدينة نكراتيس التي خصصها لهم ، وكانت في القديم هي ميناء مصر الوحيد المطل على البحر الأبيض المتوسط ، إلى جانب مزايا كثيرة أخرى ، منها إقطاعهم الأراضي لاستغلالها بصفة مؤقتة لمن لا يرغب منهم في الإقامة الدائمة بمصر . فأنشأوا هناك المعابد الإغريقية التي كان من أشهرها وأكبرها معبد الهيلينيوم الذي بناه الإغريق الأيونيون والدوريون والقادمون من كيوس وتيوس وفوكايا ورودس وغيرها من الجزر . كما بني الإيجينيون معبدا لزيوس والساموسيون هيكلا للربة هيرا وأهل مليسا معبدا للرب أبوللو . وقد احتكروا التجارة ، توريداً وتصديراً ، عن طريق ميناء نكراتيس وفرضوا الإتاوات على التجار من المصريين وتحكموا في اقتصاد مصر كل التحكم .

من مظاهر شغف أحمس بالإغريق تبرعه السخي لإعادة إنشاء معبد دلفي بعد دماره المشهور إثر الحريق الذي شب فيه . فقد رأى الأثينيون أن نفقات إعادة بناء المعبد كانت ستبلغ ثلاثمائة مثقال يدفع ثلثه أهل دلفي أنفسهم . ولما كان المبلغ كبيراً فقد شرع هؤلاء يطوفون البلاد ليجمعوا المال من مدينة إلى مدينة حتى جاؤوا إلى مصر ، ولم يكونوا حصلوا على شيء من غيرها . فجمع إغريق مصر مبلغ عشرين «منا» ليس غير .. فلما بلغ الخبر أحمس تبرع بمبلغ ألف مثقال من حجر الشب النادر ليغطي تكاليف البناء .

ليس هذا فحسب ، بل كان تقربه إلى الإغريق ممعناً في تزلفه ، فهو أرسل الهدايا السنية إلى معابدهم في كل مكان . فإلى معبد أثينا في ليندوس في رودس بعث بتمثالين من حجر الصوان ومشداً نسوياً من النسيج الفاخر ، وللربة هيرا في ساموس تمثالين له من الخشب النادر، وضعا خلف باب المعبد الكبير ، تقرباً من الطاغية بوليكراتيس حاكم ساموس . أما إلى إغريق قورينا فقد أهدى تمثالاً مطلياً بالذهب للربة أثينا وصورة له هو . وكان قمة تزلفه إلى الإغريق أن عقد معاهدة صداقة وحلف مع أهل قورينا ، عزم بعدها على الزواج من امرأة قورينية ، عربوناً لصداقته أو رغبة منه في الاقتران بامرأة إغريقية من تلك المدينة . وكانت له معها قصة مشهورة ، بلغت - فيما يبدو - مسامع الفرس عن طريق طبيب العيون ، أو فانيس ، أو الأميرة نتت نفسها . فقد كانت شائعات مباذل أحمس وفضائحه تسير في كل مكان .

8

- انهض يا فانيس ، وتقدم واجلس ، واخبرني بما تريد .

هكذا تكلم قمبيز موجهاً حديثه للطريد الهاليكارناسي الذي كان سجد ، كالعادة ، بمجرد دخول الإيوان . فنهض ، ونهض معه الترجمان ، وجلس في مكانه بين يدي الملك ، ثم قال :

- كنت يا مولاي ، أحد قادة مرتزقة أحمس ، ورغم كوني إغريقياً أنا ذاتي ، فقد كرهت الحياة مع الإغريق في أرض مصر . أنا لست جباناً ولا غبياً . ويشهد لي الجميع بالشجاعة وحسن الإدراك . لكنني ، لأسباب لا يمكنني البوح بها ، قررت أن أبعد عن مدينة صا وحاكم مدينة صا وأهل مدينة صا .

ركبت البحر فراراً من مصر - وقد ساءت أحوالها وتدهورت أمورها - فأنا أعلم الناس بحال مصر الداخلية ومواطن الضعف فيها . لكن أحمس ، وهو يعلم مكانتي ، رغب في اللحاق بي والقبض علي ، فأرسل سفينة حربية من سفنه في أثري لم تلبث أن عثر بحارتها عليّ في لوسيا ، فأمسكوا بي ليعيدوني إلى مصر . لكنني ، يامولاي ، استطعت بالحيلة أن أفلت منهم ، إذ جعلتهم يحتسون من الخمر قدراً كبيراً أسكرهم وأفقدهم وعيهم ، ففررت على ظهر سفينة أخرى حتى بلغت عاصمة ملكك ورجوت أن أراك لأبين ما تطلب معرفته من أحوال مصر وأهلها .

وسكت فانيس ينصت إلى المترجم وهو ينقل كلامه إلى مسمع قمبيز ووزيره . فلما نقل الحديث علق قمبيز :

- هذه بداية جيدة لقصتك . لكن ما الذي يدفعك - أنت الإغريقي - إلى خيانة مليكك وقومك والمجيء إلينا نحن أعداء الإغريق ؟

فأجاب :

- تعلم ، يا مولاي ، أن ولاءنا نحن الإغريق ليس للأمة ولا للامبراطورية . ليس لدينا دولة موحدة كفارس مثلاً أو غيرها من الأمم . ولاؤنا للمدينة - الدولة مهما صغرت . ومن هنا كانت الحرب الدائرة الدائمة بين مدن الإغريق .. بالنسبة لي لا يهمني الإغريق الآخرون بقدر ما يهمني أهل هاليكارناسا فقط . ثم إن لي أسباباً شخصية بحتة في ما فعلت . شخصية جداً لا يمكنني البوح بها ، وأنت تعلم مقدار طغيان هذه المسائل التي تمس الشخص في ذاته على أي اعتبار آخر ، مهما كان .

زوى قمبيز ما بين حاجبيه وقال :

- وأنا أيضاً لدي أسباب شخصية تطغى على أي اعتبار ، للزحف على مصر واحتلالها وإذلال أحمس . إلى جانب أسباب عامة يعرف أهميتها كبير وزرائي .

فهز كبير الوزراء رأسه موافقاً ولم يتكلم ، فأضاف قمبيز :

- حدثني يا فانيس عن حالة مصر . وبين لي تركيب المجتمع والناس ونمط الحياة . وعن الجيش .. عن الجيش حدثني بالتفصيل .

9

انبرى فانيس يحلل أوضاع مصر وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ويبين - بكثير من الدقة - ما كان يجري في تلك الأيام . أنبأه أن المجتمع المصري يومها كان مقسماً إلى سبع طبقات بحسب حرفهم : الكهنة ، والمحاربون ، ورعاة الماشية ، ورعاة الخنازير ، والتجار ، والتراجمة ، والربابنة . وذكر له أن طبقة المحاربين تأتي في الغالب من القرى ودساكر المقاطعات (إذ كانت مصر مقسمة إلى مقاطعات) وهم فريقان ، محرم عليهم مزاولة أية مهنة أو حرفة مهما كانت سوى حمل السلاح الذي يتوارثه الأبناء عن الآباء ، متفرغين تماماً للتدريب عليه واستعماله. وبين له أن هذه الطبقة تتمتع بامتيازات خاصة لا يشاركها فيها أحد سوى طبقة الكهنة، فإن لكل محارب إقطاعاً من اثني عشر فداناً من الأرض معفاة من الضرائب ، إلى جانب جرايات أخرى من الدقيق واللحم والخمر ، كل يوم . وأن حرس الفرعون بالذات لهم مزايا عديدة ، ولذا فهو يغير حرسه بالتناوب بين الفريقين لينال كل نصيبه من العطايا .

تحدث فانيس باستفاضة وإطناب ، وشرح مداخل مصر وطبيعة أرضها وتحصينات مدنها ، حتى عرف قمبيز كل ما يريد . ثم كأنه رغب في معرفة أخبار البلاد المجاورة ، وليبيا بالذات، فسأل فانيس :

- ما أخبار قورينا وإغريقها وما أخبار الليبيين في الدلتا وليبيا الشرقية ؟

وكان فانيس على اطلاع كامل على مجريات الأمور .. فأجاب :

- أما قورينا فقد عقدت معاهدة صداقة وسلام مع أحمس .

- أعرف هذا .

- وهو تزوج من امرأة إغريقية من قورينا .

- لا ديكي ؟ لقد حدثتني زوجتي عن ذلك ، وهي تمدحها وتقول إنها سيدة فاضلة .

- هي كذلك ، يامولاي . لعل ما جرى لها من أحمس بلغ مسمعك أيضاً .

فاستثارت هذه الإشارة قمبيز ورغب في سماع مالم يسمع ، وسأل فانيس :

- ماذا جرى لها ؟ هل قتلها هي أيضاً ؟

كلا .. يا مولاي . فهو لا يجرؤ على قتل بعوضة إغريقية . إنها قصة يتناقلها الناس في صا وقورينا .. ويعرفها الجميع .

- ما القصة ؟

ارتاحت نفس فانيس حين شعر بأن الملك مستعد للسماع وأن مجرى الحديث يتحول إلى مسائل أخرى غير قضايا الحرب والنزال ..

- حين عقد أحمس معاهدة حلف مع إغريق قورينا رغب في أن يوثق صلاته بهم عن طريق عقده على امرأة منهم ، وتخير السيدة لاديكي ليقترن بها ، بعضهم يقول إنها ابنة باتوس ، ويقول الاخرون إنها ابنة أركسيلاوس ، وهما من ملوك قورينا ، والرأي السائد أنها ابنة كريتوبولس ، وهو أحد وجهاء المدينة وكبار أعيانها ، وأميل إلى الرأي الأخير ، إذ ما أظن ملوك قورينا يرضون بمصاهرة أحمس .

وكأنما شعر بخطأ انزلاق لسانه ، فتدارك :

- أعني، يا مولاي، أن الإغريق يعتبرون أنفسهم صفوة الخلق وملوكهم صفوة الصفوة ولهذا..

فطيب قمبيز خاطره ، إذ كان من عادة الفرس ألا يؤاخذوا المسيء بإساءته الأولى ، قائلاً :

- لا عليك . نحن أيضاً يسموننا البرابرة . إرو قصتك يا فانيس .

- نعم ، يا مولاي، لعل شهوته إلى الإغريقيات هي التي دفعت أحمس إلى الزواج من لاديكي، والمهم في الأمر أنها - رغم جمالها وروعة بهائها - كانت المرأة الوحيدة في حريم أحمس كله التي لم يستطع أن يعاشرها معاشرة الأزواج . وكان قلقاً أشد القلق من هذه الناحية. كان وضيع النشأة ، كما تعلم، ولعل ضعة أصله ولدت فيه عقدة نقص مرعبة أمام من يعلوه مقاماً ، لكنه بدلاً من أن يلقي اللوم على نفسه ارتأى أن يلقي بالتبعة كلها على كاهل لاديكي المسكينة، إذ قيل إنه جاءها يوماً وقال لها : «يا امرأة؛ لقد ألقيت علي سحراً؛ وثقي تماماً في أن مصيرك سيكون أسوأ مصير انتهت إليه امرأة» . ولم يخفف إنكارها عمل السحر له من ثورة غضبه، ولم يفلح في إثبات براءتها .. وكان الخوف من المصير الذي توعدها به يملأ جوانحها، فطفقت ليلة كاملة تدعو في سريرتها للربة أفروديت - إلهة الحب - وتتوسل إليها أن تنجدها في محنتها ،

ونذرت في طويتها أن ترسل تمثالاً لأفروديت في معـبدها بقورينا إن سارت الأمور على ما يرام .. وقد كان يا مولاي . ففي الليلة التـالية كان كل شيء طبيعياً للغاية بين أحمس ولاديكي ، فـعشقها عشقـاً ملك عليه كيانه وأحـبها حبـاً لا مزيد عليه . وقد وفّت لاديكي بنذرهـا لأفروديت وأمرت بصنع تمثال لها، بعثت به إلى قورينا حيث وضع في مكان بارز مولياً وجهه نحو خارج المدينة .

10

تنحنح كبيـر الوزراء ، بعد أن انتهى فانيس من رواية قصـته ، كأنه يطلب الإذن بالكلام . فنظر إليه قمبيز وأومأ برأسه موافقاً ثم تشاغل بتسوية تاجه المرصع باليواقيت .

فقال الوزير :

– وماذا عن الليبيين يا فانيس ؟ ماذا عن العلاقات بينهم وبين إغريق قورينا ؟

فقال فانيس :

– العلاقات سيـئة للغاية فيما أعلـم. فمنذ هزيمة الليبيين بقيادة ملكهم أدكـران وانكسار جيش خفرع في موقعة ثيتيس، كما تعلمون ، وما أدت إليه هذه الهزيمة من نتائج، والعلاقات بين الليبيين وحكام قـورينا من الإغريـق أسوأ مـا تكون. لكنهم لم ينسـوا ثأرهم القـديم، وقد ثأروا منذ مـدة لهزيمتهم .

– كيف ؟

– كان هذا منذ خمـسة وعشرين عاماً. فـبعد أن قضى «باتوس السعيـد» الذي هزم خفرع في أثناءحكمـه، اعتلى عرش قـورينا ابنه أركسـيلاوس، وقد نـشب الخلاف الشديد بينـه وبين إخوته الثلاثة نتج عنه خروج الإخوة الثلاثة من قورينا ولجوؤهم إلى الليبيين في مدينة «برقة» – إلى قبيلة الأوسخيساي بالذات. وهناك طفقوا يحرضون الليبيين على الثورة ضد إغريق قورينا . فلما بدأت القبائل الليبية في إعلان الثورة على أركسـيلاوس خرج هذا إليهم بجيش لجب ليقضي على الثورة في مهـدها. هنا لجأ الـليبيـون إلى إخوتهم في مـنطقة سيـوة وما حـولها، فـرأى أركسـيلاوس أن يطاردهم حتى بلغ موضعاً يسمى (ليوكون) . وهناك صمم اللـيبيون على مهاجمته فوراً . ودارت معركة حامية لم ير الإغريق أشد هولاً منها طيلة مدة إقـامتهم في ليبيا ، وكانت الغلبة لليبيين حتى قتلوا عدداً يبلغ سبعة آلاف مقاتل من المشـاة ثقيلي العدة . وقد مني إغريق قورينا بهزيمة منكرة خر

بعدها أركسيلاوس صريع المرض من شدة الكمد . وما عتم أخوه هاليارخوس أن خنقه بيديه الاثنتين على فراش مرضه حين كان تحت تأثير دواء تناوله . لكن زوجة أركسيلاوس - المدعوة أروكسو - احتالت على هاليارخوس وقتلته .

فعلق كبير الوزراء :

- دسائس الملك ومؤامرات أفراد الأسرة الحاكمة المعروفة .. ثم ماذا حدث ؟

- آخر ما علمته قبيل رحيلي عن صا أن باتوس الثالث بن أركسيلاوس ، المعروف بباتوس الأعرج ، تولى الحكم بعد أبيه ، وأن اضطرابات نشبت في قورينا نتيجة هزيمة الإغريق على أيدي الليبيين ، وأن أحوالهم ساءت هناك بدرجة كبيرة حتى اضطروا إلى الاستعانة بمشرع مشهور من أركاديا يدعى «ديموناكس» ليعيد تنظيم المدينة ويصلح من أحوالها الدستورية .

ظهر الاهتمام من جديد على وجه قمبيز وسأل :

- هذه معلومات مهمة ، من أين استقيتها ؟

- من الليبيين ، يا مولاي ، الذين يقطنون الدلتا أو القادمين إليها من ليبيا ذاتها ، ومن بعض الإغريق أيضاً .

- الذي يهمني هو الأوضاع العسكرية هناك ..

- إنها مرتبطة تماماً بالأوضاع السياسية فيما أرى .

- اكمل .

- جاء المصلح ديموناكس فقسّم المجتمع في قورينا إلى ثلاثة أقسام : الأول يتألف من منشئي قورينا ، أهل ثيرا ، والبروئكي . والثاني من البلوبونيزيين والكريتيين . والثالث من أهل بقية جزر الإغريق .

فاستفهم كبير الوزراء :

- وماذا عن الليبيين ؟

- من كان يعيش منهم داخل قورينا أو بجوارها كان في القسم الأول من أهل ثيرا - وهم البروئكي . أما الآخرون فقد احتفظوا باستقلالهم الذاتي .

- وماذا آخر ؟

- حرص ديموناكس على تخصيص بعض الامتيازات للملك .. أما بقية السلطات التي كان

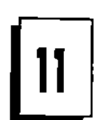
الملوك يمارسونها في الماضي فقد أسندها إلى الشعب .

- أهذا ما تسمونه في بلادكم «الديمقراطية» ؟

فخشي فانيس أن يتمادى في شرح القضية أمام أحد جبابرة العالم ، وأراد أن يختصر القول :

- شيء من هذا القبيل . المهم أن الوضع متهرئ في قورينا الآن ، والصراع على السلطة أقوى ما يكون .

رفع قمبيز يده منهياً الحديث ، فسجد فانيس وكبير الوزراء والترجمان حتي نهض هذا عن عرشه وخرج من الإيوان .



ورقة من التاريخ :

كتب هيرودوت ما نصه :

«كان قمبيز راغباً أشد الرغبة في بدء هجومه على مصر يوم جاء فانيس .. كان يتدبر أفضل طريقة يمكنه بها عبور الصحراء . ولم يكتف فانيس بأن كشف له عن أسرار أحمس كلها ، بل نصحه بأن خير طريق يعبر بها جيشه الصحراء أن يرسل إلى ملك العرب ويسأله العون .

كانت هذه الصحراء هي المدخل الوحيد إلى مصر . ومن أرض كنعان إلى حدود غزة تحت سيطرة السوريين المعروفين باسم (الفلسطينيين) . ومن غزة ، وهي مدينة لا تقل في رأيي عن ساردوس ، حتى إينوسوس في يد ملك العرب . ومن هناك حتى بحيرة بربونيس (التمساح) قريباً من حيث يمضي جبل كاسيوس (سيناء) نحو البحر (حيث يفترض ان تايفون دفن) تبدأ مصر . والمنطقة كلها ما بين إينوسوس من جهة وجبل كاسيوس والبحيرة من جهة أخرى - وهي ذات مساحة شاسعة لا تقل عن مسيرة ثلاثة أيام - عبارة عن صحراء لا ماء بها البتة».

وكتب :

«ما من أمة تحترم قدسية العهد جادة أكثر مما يفعل العرب .. وحين يرغب رجلان في عقد ميثاق غليظ يستعينان بثالث يقف بينهما ويقط بحجر حاد راحتي يديهما قرب أصل الإبهام، ثم يأخذ خصلة من صوف ثيابهما ويغمسها في الدم ويلطخ به سبعة أحجار بينهما.. ثم يقدم معطي العهد الغريب - أو القريب كيفما كان الحال - إلى أصدقائه موصياً إياهم به ، وهم بدورهم يعتبرون أنفسهم ملزمين بحفظ عهده» .

وكتب :

«فأخذ قمبيز بنصيحة صديقه الهاليكارناسي ، فانيس ، وارسل إلى ملك العرب برجاء جواز المرور الآمن . فاستجيب للرجاء وتبودلت المواثيق بين الطرفين .

فلما أقسم ملك العرب يمين الصداقة مع رسل قمبيز دبر وسيلة لمساعدة جيشه بأن ملأ قرب جلود الجمال بالماء وحملها على ظهور جماله الأخرى كلها ونقلها إلى الصحراء حيث انتظر وصول الجند. هذه ، على كل حال ، الرواية الأقرب إلى التصديق في هذا العمل . وهناك رواية أخرى ينبغي علي ذكرها رغم عدم يسر تصديقها» .

وكتب :

«وبحسب هذه الرواية عمد ملك العرب إلى أن يخيط قرباً من جلود البقر وغيرها بعضها ببعض ليصنع منها أنبوباً طويلاً يصل ما بين قوروس - وهو نهر عظيم في الجزيرة العربية يصب في البحر الأحمر - على طول الطريق حتى الصحراء ، حيث أنشأ صهاريج ضخمة ملأها بالماء عن طريق الأنبوب ، وخزّن الماء . وكان الماء قد جلب إلى ثلاثة مواقع منفصلة ، لمسافة بين النهر والصحراء - تزيد في مجموعها عن رحلة اثني عشر يوما» .

12

تسارعت الأحداث وتتابعت .

كان أحمس قد قضى قبل عام من وصول قمبيز وجيشه ، وتولى بعده ابنه بسامنت ، الذي أخذ موقعه على فرع النيل الشرقي في انتظار وصول جيش الفرس . وقد شهدت تلك السنة حادثة سجلت في التاريخ وكانت فأل شؤم ونحس على أهل مصر؛ فقد سقط المطر على طيبة ! وهذا ما لم يحدث أبداً من قبل . لكنه حدث تلك السنة .. كانت رخات مطر قليلة . لكن أن تسقط على طيبة في صعيد مصر ؟ هذا أمر منذر بالخطر !

وصل قمبيز بجيشه وواجه الجيش المصري ، وكان فانيس في ركابه . وكان المرتزقة الإغريق والكاريانيون في جيش مصر حاقدين على فانيس أشد الحقد لخيانته لهم ، فاعتزموا الانتقام منه شر انتقام . قبضوا على أولاده الذين تركهم في مصر وجاءوا بهم إلى المعسكر حيث يراهم والدهم ، ثم وضعوا طستاً في الأرض الفضاء الفاصلة بين الجيشين وقادوا الأولاد واحداً بعد آخر إليه وحزوا أعناقهم عليه ، ولم يبقوا منهم على أحد . فلما ذبحوهم جميعاً صبوا على دمهم الخمر والماء وشرب من الخليط كل جند المرتزقة . ثم بدأت المعركة الضارية . وكان أن أجبر الجيش المصري على التقهقر بغير نظام .. إلى منف .

بعد حصار غير طويل اكتُسحت منف ، وقُتل بسامنت ، ثم قصد قمبيز إلى صا مصمماً على ما ينوي أن يفعله . وما أن اقتحم أسوار المدينة ودخل قصر أحمس حتى أمر بإخراج جثته المحنطة من قبرها . ثم شرع يهينها بشتى ضروب الإهانة والإذلال .. أمر بجلدها بالسياط ، وخزها بالمهاميز ، ونتف شعرها ، حتى أدرك رجاله الإعياء . ولما كانت الجثة محنطة ولم تتمزق قطعاً تحت وقع السياط أمر بإحراقها !

كان قمبيز يثأر لنفسه من جثة محنطة . وكان غضبه العارم وطبيعته العصبية وإدمانه الشراب قد دفع به – فيما بعد – إلى الجنون المطبق . لكنه لم يكن يخلو ، أحياناً ، من لمسات إنسانية رقيقة . فلما أرضى انتقامه من أحمس وهدأت نفسه قليلاً تذكر لاديكي ، السيدة القورينية زوجة أحمس، فطلب مثولها بين يديه وسمع قصتها مرة أخرى من فمها ذاته . ثم أمر بأن تعاد إلى قورينا ، بلدها الأصلي ، معززة لم يمسسها أذى .

13

عشرات الألوف من جنود الفرس كانوا يعيثون في أرض مصـر فساداً بعد أن قضى قمبيز على كل مقاومـة واجهته، وقد انتـشرت أخبار الحملة الفـارسية في كل أقطار الأرض، وكان الليـبيون يخشون طموح الملك الفـارسي المجنون ورغبته الجامحة في الاستيـلاء على مزيد من الأرض، كما كان إغـريق قورينا يرتعدون رعـباً من مجرد التـفكير في مطامع قمـبيز ونواياه . أراد الفـريقان أن يتفاديا شره، فبعثا إليه بالهدايا والمال. فلمـا وصله ما أرسل به القوم قبل هدية الليبيين قبولاً حسناً، أما ما جاءه من القـورينيين فقد أخذه بكلتا يديه وألقاه على جنوده.. احـتقاراً لضآلة المبلغ الذي لم يتجـاوز خمـسمائة «من» من الـفضة . ثم قـرر أن يفتح ليـبيا كلهـا ويحتل قـورينا وقرطاجـة وما وراءها، وأن يمد نفوذه جنوباً إلى بلاد الحبش .

أما حملته على الحبشة فقد منيت بفشل ذريع نتيـجة سوء الإعداد والتجهيز . وأما نيته في غزو قرطاجة فلم تتـحقق ، إذ أبى الربابنة والبحارة الكنعانيـون أن يحاربوا أبناء عمومتـهم في قرطاجة واعتذروا عن نقل جنود فارس إليها بهذه الحجة التي لم يستطـع قمبيز رفضها .. فقد كان أسطول الكنعانيين في جيشه بناء على معاهدة صداقة لا تلزمهم بمحاربة القرطاجيين.

وأما حملته على ليبـيا وقورينا فيقول التاريخ إنه أعد تجريدة يبلغ عـددها خمسين ألفاً من أشد المحاربين قصـدت الواحات في طريقها إلى واحة سيوة لإخضاع الأمونيين ، لكنهـا لم تبلغ سيوة أبداً ، ولم يعد منها رجل واحد . اختفت تماماً ولـم يأت عنها خبر بعد ذلك مطلقاً . امحت بطريقة غامضة لا تزال سراً مـستغلقاً حتى يومنا هذا . والتفسير الوحـيد الذي لم يجد المؤرخون سواه هو أن ريحاً عاصفة داهمت الجيش الزاحف وطمرته كله تحت أكداس الرمال الهائلة .

كانت الصحراء تحارب مع الليبيين !

الفصل الثاني



1

كان الوقت ضحى وشمس الجبل الأخضر الشتوية ترتفع وترسل أشعتها الدافئة في الأجساد. وكان سوق مدينة «برقة» يعج بمجموعة خليط من الليبيين جاؤوا من قبائل الاسبستاي والأوسخيساي وبعض الهاسا والهسبريديين ، يتسوقون ويبيعون ويشترون . ويُرى بين الحين والآخر عدد من الأغارقة القورينيين اللاجئين إلى المدينة الليبية . كان في السوق عدد هائل من الأغنام السمينة ، وأكوام من الصوف الناعم ، وأكداس من الخضر والحبوب المتنوعة ، وبضعة رجال تبدو عليهم النعمة في ركن خاص بهم يعرضون أمامهم حزماً من نبات السلفيوم يزنونه بالفضة اللامعة ، وصبيان يركضون في السوق ، ونساء كن يضعن على سيقانهن مجموعة من خلاخل برونزية يدرك بها المرء أنهن من قبيلة الأدورماخيداي .. جئن من درنة . وبين حين وآخر كان يمر رجل يرتدي ثياباً فضفاضة ، تعلو رأسه ريشتان مثبتتان في شعره وقد تدلى سالفاه على جانبي وجهه – علامة رفعة مقامه وعلو منزلته . وقد انتحى ثلاثة رجال ناحية يتحدثون في صوت هامس :

– هل سمعتما الأخبار ؟

هكذا سأل أحدهم صاحبيه ، فجاءه الرد من رفيقه :

– سمعت أن أركسيلاوس هنا . هذه كارثة . لم يكف ملكنا الا زير أن صاهر هذا الإغريقي المتعجرف حتى استضافه في مدينتنا . إنه طاغية مستبد ، وأمه فريتيمى أشد منه طغياناً . فماذا يفعل هنا بيننا ؟

قال الثالث :

– لم يرض أركسيلاوس ملك قورينا بما أقره ديمو ناكس من تشريعات في عهد أبيه باتوس، تنظم مجتمع مدينته ، وأراد أن يستعيد المزايا الملكية السلطوية والكهنوتية التي سلبها إياه تشريع ديموناكس .. لكن أهل قورينا عارضوه واضطروه للفرار إلى جزيرة ساموس .

فقال الرجل الأول معلقاً :

– جزيرة ساموس . أليست تلك بلد الطاغية بوليكراتيس ، صديق الفرعون المغتصب أحمس؟

– بلى .. هي بعينها .. وهناك جمع حشداً كبيراً من الجند وزحف به على قورينا من البحر.

ويالها من مذبحة رهيبة تلك التي ارتكبها حين طارد معارضيه في قورينا حتى ألجأهم إلى حصن يملكه شخص يدعى أغلوماخوس ، وكوم أخشاباً حول الحصن أحرقهم فيه أجمعين .

فقاطعه الرجل الثاني بقوله :

- رغم تحذير كاهنة معبد دلفي له ؟

- نعم . رغم تحذير كاهنة معبد دلفي له . لقد قالت له - من جملة ما قالت في نبوءة طويلة - سمعتها من أحد الإغريق طريدي أركسيلاوس هنا في مدينتنا :

«...وأما أنت فعد إلى وطنك

وعش بسلام .

وإذا وجدت الفرن مليئاً

بقدور الفخار فلا تحرقها

بل دعها وشأنها دون أن تمسسها بأذى .

وإذا أحرقت القدور في الفرن

فلا تذهب إلى المكان المحاط بالبحر

لأنك إذا فعلت فستقتل أنت

وأفضل ثور في القطيع» .

فتدخل الرجل الثالث :

- وها قد أحرق القدور في الفرن ، ولا بد أن يقتل هو وأفضل ثور في القطيع .

ثم حانت منه التفاتة فصاح :

- انظروا .. ها هو أنابو قادم .

وكان أنابو رئيساً لقبيلة الأسبوستاي معروفاً بشجاعته وعلاقته الممتازة بحزب المعارضة في قورينا ، ويحسب له كل حساب . فلما أقبل على الرفاق الثلاثة حيّاهم بمودة وسألهم عن مجرى الحديث ، فقال أحدهم :

- كنا نتحدث عن أفضل ثور في القطيع .

فعلق :

- عن نبوءة دلفي ؟ لقد سمعتها بنفسي من بعض الأغارقة .

- أنت تحسن لغتهم يا أنابو ، فحدثنا عما هناك .

فقال أنابو :

- عن تلك الملعونة فريتيمي مثلاً ؟ يالهـا من حيزبون ! تريد أن تحتكر السلطة لها ولابنها دون حساب لبقية البشر . وكم بذلت من جهد لعودتها وعودة ابنها بعد طردهما من قورينا . لقد ذهبت إلى إفلثون حاكم سلاميس في جزيرة قبرص تلتمس منه العون العسكري ، لكن إفلثون كان رجلاً عاقلاً وحكيماً للغاية .

فتشوق الرفاق لمعرفة الحكاية ورجوا أنابو أن يحكي لهم ما جرى بالتفصيل . فقال :

- ذهبت كما قلت لكم إلى إفلثون تطلب مساعـدته ، لكنه كان على أتم الاستعداد لتقديم أي شيء سـوى الجند . وكانت تتـقبل عـطاياه وهداياه مادحـة ، ولكنهـا كانت تقـول إنها تفـضل أن يستجيب لرغبـتها ويعطيها جيشاً ، ولا تني تردد ذلك مهمـا بلغت العطية . فلما مل إفلثون تكرار طلبها أرسل إليهـا مغزلاً من الذهب وثقالة وبعض الصوف وقال لهـا إن هذه ، وليست الجيوش ، هي الهدايا الخليقة بالنساء !

فهتف أحد الرجال الثلاثة :

- ما أحكمه ! وما أعقله ! لكنها - للأسف - عادت وابنها الأهوج على كل حال بفضل جند ساموس .

قال أنابو :

- نعم . وها هو اليوم - كما علمت - هنا في مدينتنا برقة ، وهي هناك في قورينا تباشر سلطته وتدير دفة شؤون الدولة وترأس اجتماعات مجلس الشورى ذي الخمسمائة عضو - مجرد مجلس صوري لبقايا تشريعات ديموناكس الديمقراطية . لكنها هي الحاكمة بأمرها .

فاقترب أحد الرفاق الثلاثة من أذن أنابو وهمس :

- هذا كله بفضل أفضل ثور في القطيع !

- من تعني ؟

- الا زير .. طبعاً . ومن سواه ؟

- ملكنا وحمو أركسيلاوس ؟

- هو بذاته يا أنابو . هذا ما أعنيه .

ظهر التردد على وجه زعيم الأسبوستاي وصمت . وكأن رفاقه الثلاثة أدركوا ما يدور في خلده ، فنظر بعضهم إلى بعض كأنما هم على اتفاق . ثم تكلم أحدهم أخيراً في محاولة لإقناع الزعيم ، فوجه إليه الحديث موضحاً :

- اسمع يا أنابو . ألم يكفنا ما ذقناه على أيدي هؤلاء الإغريق ؟ لقد استقبلناهم ضيوفاً فإذا بهم يتحولون إلى مستعمرين يسلبون خيراتنا ويغتصبون أرضنا . لم تكفهم قورينا وما حولها ، فإذا بهم يزحفون غرباً حتى كادوا يبلغون مشارف خليج سرت الكبرى . يأتون أفواجاً بعد أفواج لاحد لها . هل نسيت مقاومة مليكنا أدكران وموقعة ثيستيس ومعارك إيراسا ؟ هل نسيت تعاون أحمس معهم ضد أبناء عمومتنا في صا ومنطقة الدلتا ؟ إن نيتهم في استعمار ليبيا كلها واضحة تماماً . هل سمعت بما جرى في نهر كينوب غرب خليج سرت الكبرى منذ عامين فقط ؟

فانتبه أنابو وتساءل :

- ماذا جرى في منطقة نهر كينوب - أخصب مزارع القمح في ليبيا ؟

- هذا الخصب عينه هو سبب البلاء .. يبدو أنك لم تسمع بما فعله الإغريق هناك .

- لم أسمع يا صاحبي .. فحدثني .

فقال الرجل :

- حسن . هذا على الأقل ما أنباني به بعض الصحاب من النسامونيين القاطنين حول خليج سرت والمجاورين لقبيلة المكاي من جهة الغرب ، جاءوا منذ أيام ليتسوقوا من برقة . فقد حدثوني أن أميراً من أهل اسبرطة يدعى دوريوس هبط بجيش قوي في نهر كينوب . كان مغاضباً أهله إذ حرم من تولي العرش في بلاده ، وكان ينوي إنشاء مستعمرة إغريقية كما فعل باتوس وأهل ثيرا هنا . وكان إغريق قورينا يشجعونه على هذا العمل ليكون شوكة في جنب قرطاجة ، ورأس حربة في زحفهم على ليبيا كلها . غير أن قبيلة المكاي لم تدعه يحقق أحلامه ، إذ شنت عليه - بمساعدة القرطاجيين - حرباً شعواء مستعرة جعلته يرفع أشرعته ويقلع بعد عامين تقريباً من هبوطه ويعود أدراجه من حيث أتى .

فعلق أنابو :

- حسناً فعل أبناء العمومة من المكاي .

فالتقط الرجل الخيط :

- هم فـعلوا حسـناً لأنه لم يكن لديهم ملك خـائن مـثل ملكنا الازير ، يزوج ابنتـه من رئيس أعدائنا ويأتي به ليحميه في مدينتنا .. هذا المجرم الطاغية .

صمت أنابو مرة أخرى ، وكان بطبيعته حذراً . ثم سأل في حزم :

- أتنوون تحقيق نبوءة كاهنة دلفي فعلاً ؟

فَـعَــلا البِشْر وجوه الرجال الثلاثة وأجابوا في صوت واحد :

- نعم يا أنابو .. نعم .. فوراً .

فقال زعيـم الأسبوستاي :

- هذه مسألة خطيرة ولابد من التفكير في العواقب . إن فريتيمي لن تغفر أبداً هذه الفعلة. فإذا كنتم مصـممين على العمل الجـاد فلابد إذن من إشراك بعض الأغـارقة اللاجئين هنا حـتى يتوزع الدم على الجميع فلا تدري الملكة العجوز من تطالب بثأرها .

وما عتم الرجال الأربعة أن اقتربوا بعضهم من بعض ، ثم ساروا نحو زاوية في السوق كان بها بضعة إغريق قورينيين تحدثوا معهم قليلاً ، ومضوا مبتعدين في زحام الباعة والمشترين .

2

كانت الشـمس قد توسطت السمـاء حين رأى الناس المحتشـدون في السوق فريـقاً خليطاً من الليبيين وإغريق قورينا المنفيين يتقدمون من رجلين في منتصف العمر . صاح أحد الأغارقة فجأة :

- إنه هو .. إنه هو . أنا أعرفه . إنه هو . أركسيلاوس الأعرج وصهره آلا زير !

ولـم تمض لحظات حتى كانت الـطعنات تنهال على الرجلين من كل جانب ، فسـقطا يتخبطان في دمهما دون أن يلفظا كلمة واحدة ..

3

في مصر وفي فارس كانت الأحداث تتوالى :

غادر قمبيز بلاد النيل مجنوناً إثر إخفاقه المتواصل في الحبشة وليبيا ، وكان أصبح موطن فكاهات المصريين وتندرهم لما أتى به من أعمال مفزعة . ولم يلبث أن توفي بعد ثلاث سنوات.

وعلى عرش الطاووس نشب الخلاف وحيكت الدسائس بشتى ألوانها وضروبها . وكان مرزبانات الفرس يتوالون على حكم مصر وإرهاق شعبها بالضرائب الثقيلة واحداً تلو الآخر ، حتى جاء دور مرزبان رهيب اسمه آرياندس في عهد دارا . وإليه لجأت فريتيمي ، أم أركسيلاوس الذي قتله البرقيون ، بعد أن بلغها مقتل ابنها ، فراراً من غضب الشعب في قورينا وطلباً للانتقام من ليبيي مدينة برقة وما حولها .

***

كان آرياندس جالساً في صدر القاعة الكبرى بقصر الفرعون خفرع الذي بناه في صا ، ومن حوله قادة الجند الفرس ، وبضعة كهنة من هيكل نيث ، وعدد من تجار نكراتيس الأغارقة الأثرياء، وكانت فريتيمي جالسة غير بعيد منه ، عجوزاً شمطاء شاب شعرها وتقوس ظهرها . لكن علامات الجبروت والسلطة المطلقة كانت تبدو على تجاعيد وجهها الأبيض المتغضن . فنظر إليها آرياندس نظرة مزيجاً من الرثاء لحالتها والعجب من عنادها وإصرارها على مواصلة القتال بعدما حل بها من كوارث . ثم وجه إليها الخطاب قائلاً :

– تعلمين أننا نرحب بك ضيفة مكرمة هنا ، تقيمين بيننا في مصر على الرحب والسعة إلى آخر الزمان ، فما لإصرارك هذا على العودة إلى ليبيا من جديد ؟ هل ينقصك شيء ما لا أدريه يا ترى ؟

فردت فريتيمي :

– أشكرك أيها المرزبان العظيم كل الشكر . غير أنك تعلم بالطبع أن الإقامة هنا ليست غايتي المنشودة ، وما أريده هو عونك العسكري لاستعادة قورينا وتأديب الليبيين في برقة على ما فعلوا بابني وصهره . إن نار حقدي لن تنطفئ بغير الانتقام .

فتساءل آرياندس :

– وما الذي يمكنني أن أفعله ؟ ولماذا ؟

– لماذا ؟ هل نسيت أيها المرزبان أن ولدي أركسيلاوس ، ولدي المغدور ، هو نفسه الذي أسلم زمام قورينا لقمبيز ؟ وأنه قدم له من الخدمات الطيبة الشيء الكثير ، وأنه وافق

على دفع الجزية للفرس عن طيب خاطر ؟ هل نسيت أننا لم نرفع في وجوهكم سيفاً ولا أثرنا لكم من المشكلات ما أثاره ليبيو سيوة ؟ هل نسيت الجيش الذي بعث به قمبيز إلى الواحات ليستولي على سيوة - عاصمة الأمونيين - فخرج في خمسين ألفاً ولم يعودوا قط ؟ لقد أشاعوا أن ريحاً عاصفة طمرت الجيش في رمال الصحراء . ولا يمكنني أن أصدق اختفاء خمسين ألفاً من الجنود بعددهم هكذا دفعة واحدة .. أية ريح هذه يا ترى ؟ إن تيفون نفسه - إله الأعاصير - لايمكنه أن يقوم بهذا الفعل. إنهم الليبيون ، دون ريب ، هم الذين قضوا على جيشكم الجرار ، ثم أشاعوا ما أشاعوا من خبر الريح والرمال خشية العواقب - فصدقتم الشائعة وانطلت عليكم الأكذوبة . هل يرضيك أن يضيع دم ابني المغدور حليفكم هدراً ؟ وهل يرضيك أن تظل القبائل الليبية تمرح في غرب امبراطورية فارس طليقة لا تقيم وزناً لدارا ولا تأبه مثقال ذرة لسلطانه ؟ أما سؤالك عما يمكن لك أن تفعله فأنت أدرى الناس ، أيها المزربان، بالجواب عنه .

كانت فريتيمي تهدف إلى إثارة حفيظة آرياندس ضد أعدائها، وكانت تعلم أنها تضرب على الوتر الحساس ، فكل ما ذكرته كان حقيقة لم يكن لأرياندس أن ينكرها. وكان أكثر ما يغيظه هو أن فارس لم تستطع أن تسيطر على القبائل الليبية بعد فشل حملة قمبيز الصحراوية ، وقد رأى من المناسب أن ينتهز الفرصة السانحة أمامه ليفتعل ذريعة تمكنه من إرسال الجيش الفارسي إلى ليبيا بحجة مساعدة فريتيمي على استعادة عرش ابنها، ويضرب الليبيين ضربة قاصمة دون أن يثير أبناء عمومتهم المنتشرين في دلتا النيل وبحيرة مريوط، ومنطقة الفيوم. أضف إلى هذا طموحه الشخصي في تحقيق انتصار عجز عنه قمبيز ذاته ، وبهذا تتأكد سلطته ويثبت وجوده. ومن يدري! لعله يمكنه بعدئذ أن يتدبر أمره فيستقل بمصر وليبيا ويعلن دولة منفصلة عن فارس خاصة به . أو لعله يزحف إلى عرش الطاووس ذاته ويعتليه. نعم. ألم يصك منذ مدة قصيرة نقوداً خاصة به تضاهي نقود دارا في النقاوة والصفاء، بل تفوقها حتى أصبحت مثلاً يضرب؟ صحيح أن دارا انزعج أشد الانزعاج من هذا الأمر، وقد يغدر به يوماً خوفاً من منافسته ونمو سلطانه، لكن هاهي الفرصة سانحة الآن ليوجه الجيش الفارسي إلى مكان بعيد يتقي به شره أولاً ثم يحقق بعضاً من طموحه .

دارت هذه الأفكار في ذهن أرياندس ، فأراد أن يطمئن فريتيمي وقال :

- اسمعي أيتها السيدة . لقد كنت عزمت من قبل على مساعدتك - لكنني ارتأيت أن أستوثق

من كل شيء بنفسي حتى لا أتخذ خطوة متعجلة ليس من حسن السياسة اتخاذها . أرسلت رسولاً إلى أهل مدينة برقة أستعلم عمن قتل أركسيلاوس لكي أؤاخذه بما فعل . أتدرين ماذا كان الجواب الذي عاد به إليَّ الرسول ؟

فتوزعت نفس فريتيمي بين الرجاء والقنوط، وكانت أشرقت لديها بارقة أمل في نوال العون ، وقالت :

- ما الذي يدريني أيها المرزبان ؟

- قال أهل برقة لرسولي : إن قتل أركسيلاوس وصهره الملك الازير كان من عمل المدينة كلها - بسبب إساءة ابنك إليهم ، كما ذكروا .

فبادرت فريتيمي :

- الا ترى صدق ما قلت لك ؟ الا ترى أنهم جميعاً يستحقون التأديب ؟ لم يعتذروا ولم يتنصلوا من فعلتهم النكراء ، ولم يجعلوا أحداً منهم كبش فداء ، ولم يلقوا التبعة على أحد . لقد تضامنوا جميعاً يداً واحدة - هؤلاء الليبيون ومعهم طريدو قورينا . ما الذي ستفعله الآن أيها المرزبان ؟

كانت أنظار الحاضرين شاخصة إلى الوالي الفارسي وضيفته الملكة العجوز ، يتتبعون الحديث الدائر باهتمام بالغ . فلما بلغ الأمر مرحلة اتخاذ القرار ران السكون على القاعة ترقباً لما سيكون - حتى جاءت كلمات أرياندس :

- ما الذي سأفعله يا سيدتي؟ سوف ترين! لقد قررت مساعدتك بكل ما أملك من قوات فارسية في مصر، البرية منها والبحرية ، جميعها - وأن أرسل هذه الحملة معك لتحققي بها ما تريدين. وقررت أيضاً تعيين أحمس المارافي قائداً للجيش البري، أما الأسطول البحري فيتولى قيادته بادريس الباسارغدائي- وهما من أفضل قادة الجند الفارسي وأكثرهم خبرة وأشدهم مراسا.

علا البشر وجه فريتيمي ، وطفقت تشكر الوالي الفارسي بكلمات متقطعة وصوت متهدج بانفعالات الفرح ، والحزن ، والغيظ ، والأمل في انتقام رهيب من أهل برقة تنزله بهم حين يمكنها منهم الزمان .

4

ورقة من التاريخ :

كتب هيرودوت :

«وعندما وصل الفرس الذين أرسلهم أرياندس من مصر لينتقموا لفريتيمي ضربوا حصاراً حول المدينة طالبين تسليم أولئك الذين قتلوا أركسيلاوس . لكن البرقيين - وكانوا جميعاً شركاء في هذه الفعلة - لم يستجيبوا لهذا الطلب ... وعندئذ حاصر الفرس برقة تسعة شهور ، وحفروا أنفاقاً تحت الأرض تقود إلى الأسوار وقاموا بهجمات عنيفة عليها .»

5

تسعة أشهر كاملة والحصار مضروب على برقة. وكان أحمس المارافي قد عبر المسافة الشاسعة ما بين صا وبرقة بجيش بري كامل العدة كثير العدد، وكان بادريس - قائد الأسطول - أرسى سفنه الحربية، التي جاءت من نكراتيس وعلى متنها بحارته وجنده من الفرس والمرتزقة الإغريق، في ميناء مدينة برقة الذي عرف فيما بعد باسم طلميثة، انتظاراً لاكتساح المدينة المتمردة الصامدة .

***

أهل المدينة من الليبيين يشاركهم بعض المنفيين من قورينا، يستعدون لمواصلة الصمود في وجه الحصار، هيأوا أنفسهم للدفاع عنها بكل الوسائل، فوقفت بعناد في وجه الهجمات الفارسية المتتالية. وكانت المؤن المخزنة متوفرة لديهم بما يكفيهم مدة طويلة. وهم نظموا دوريات لمراقبة أي هاجس يأتيهم ورتبوا عسساً في كل مكان، إلى جانب رماة السهام الذين اعتلوا أسوار المدينة العالية .

كان أحد الحدادين من أهل برقة مكلفاً بعملية استطلاع دورية ، وكان في يده درع نحاسي ثقيل ، وهو يسير بحذاء سور المدينة الكبير من داخلها ، يمشي متمهلاً ، وهو يرفع الدرع ، بعد كل خطوتين أو ثلاث ، ويدق به الأرض . كان يعلم ، بخبرته ، أن صوت ارتطام الدرع بالأرض يأتي

مكتوماً إذا كانت الأرض صلدة ، فإن كان تحت سطحها فراغ جاء الصوت جلياً واضحاً .. وهو مضى في عمله الرتيب ، يدق الأرض بدرعه ويرفعه ، ثم يمشي خطوتين أو ثلاثاً ثم يدق الأرض من جديد . وفجأة .. توقف . اختلف صوت ارتطام الدرع بالأرض عن ذي قبل . خيل إليه أن الصوت كان جلياً أجوف .. فتمهل قليلاً ، ثم أعاد الدق من جديد ، مرة ومرات .. ولم يبق لديه شك في أن في الأمر شيئاً غير مألوف .

في الأسبوع الماضي كان يقوم بتطوافه كالعادة وأتى الصوت عادياً . هذه المرة جاء مغايراً لما سبق .

أطلق صيحة النذير . وما هي إلا لحظات حتى كان عدد كبير من البرقيين من حوله . ولم تمر لحظات أخرى حتى عينوا جملة أماكن بحذاء داخل السور تشير إلى إمكانية وجود تجويف في الأرض . وبعد قليل كانت المعاول والفؤوس تعمل في حفر أنفاق من داخل المدينة إلى خارجها في الأماكن المعينة .. بهدوء ودون إثارة جلبة .

وكما توقعوا تماماً . كان الفرس ، بعد أن عجزوا عن اقتحام المدينة ، يحفرون أنفاقاً من تحت سورها ليتسللوا منها على حين غفلة من أهلها . فقابلهم البرقيون بحفر أنفاق أخرى تواجه أنفاق الفرس حتى التقى حافرو الأرض من الجانبين ، ودارت معركة رهيبة في ظلمة الأنفاق قتل فيها أهل برقة كل من دخلها من الفرس عن بكرة أبيهم ، ثم سدوها من جديد وشددوا الحراسة ، وظلوا في مدينتهم صامدين .



قال بادريس – قائد الأسطول – وهو يلملم أطراف عباءته الميدية ويحكمها حول جسمه :

– يا لها من ليلة عاصفة يا أحمس ! استمرت السماء تدلق مياهها منذ أمس الأول والريح تعول دون انقطاع. لقد تركت سفني الراسية في الميناء الليلة تتلاعب بها الأمواج وتقذفها ذات اليمين وذات الشمال . ولولا إصرارك على حضوري شخصياً لما جئت في هذا الجو العاصف.

فقال أحمس لرفيقه في قيادة الحملة وكأنه يعتذر :

– كدنا نقارب العام على وجودنا في هذه البقعة الملعونة ، ولم نستطع اقتحام المدينة العصية . وأرى الجنود بدأوا يملون بقاءهم هكذا أمام الأسوار . صحيح أننا استطعنا قتل عدد كبير من

البرقـيين داخل المدينة بقذائف منجنيقـاتنا ، كما قـتلنا عدداً آخر من الليـبيين الذين يهاجـموننا من مناطق مخـتلفة ، لكن الصحيح أيضـاً أن قتلانا لا يقلون عن قتلى أعـدائنا . فرأيت أن نأتمر ، أنت والملكة فريتيمي وأنا ، لنرى ما يمكن عمله .

وكانت فريتيمي قـد جاءت قبل قليل يحيط بها مجموعة من أتباعـها، وكانت جالسة في ركن سرادق القيادة الفارسي الكبير.. وحين نظر إليها بادريس نظرة المستطلع قالت بتؤدة:

- اعذراني أيها القائدان في إبداء بعض الآراء في موقفنا هذا . لقـد أخذ أهل برقة أهبتهم كما هو واضح . ويـبدو لي أننا سنظل هنا إلى الأبـد لو استـمـرت محـاولاتنا اقـتحـام المدينة بالقـوة. وأخشى ما أخـشاه أن تتنادى القبائل الليبـية الأخرى وتتكاثف ويعسر الأمر فـوق عسره الآن . أنا أدرى منكم بطبيـعة هذه البلاد وطبـيعة أهلهـا . تراهـم قبائل وفرقـاً فإذا حزب الأمـر تناسوا كل شيء وهبوا ينجد بعـضهم بعضاً . وقد تناهى إلى سمـعي أن قبيلة الهسبيرتاي تتـأهب لنجدة برقة بعد طول تردد .. فهل ننتظر حتى يصل الهسبريون ؟

فزاد أحمس من عنده :

- وأنا شخـصياً لا آمن الأمـونيين والأدورماخيـداي ولا حتى الجلغـاماي . ونحمـد الآلهة أننا مررنا من أرضهم إلى هنا بسلام . ولكن .. من يضمن عدم انقـضاضهم علينا وقطع قواعد إمدادنا من مصر ؟

نظر بادريس إلى الموقد المتأجج باللهب يتدفأ به القوم ورفع يده في توقير كامل وقال :

- وحق هذه النار الخالدة ، لا بد من عمل شيء ... أسرع ما يكون !

قالت فريتيمي :

- هذه المدينة لا يمكن أن تؤخذ بالقوة أو تفتح عنوة . لا بد من التـفكير الجاد في حيلة ما يمكننا بها اقتحامها . أنا أدرى منكم بهذه البلاد . الخدعة وحدها هي التي تمكننا منهم .

فتساءل بادريس :

- ألم نحاول التسلل إليهم عن طريق الأنفاق منذ شهرين ؟ ورأيتم ماذا كانت النتيجة .

قالت فريتيمي :

- هذه لم تكن خـدعة ، أو قـل خدعـة مكشـوفة ، رغم دفنهـا في باطن الأرض . وهي حـيلة استعملت عديد المرات منذ قديم الزمان . ما أعنيه خدعة حقيقية لم تستعمل من قبل .

وكان القائدان الفارسيان بدآ منذ مدة يشعران بالحرج وبأثر هذا الفشل البين على سمعتهما كأكبر قائدين للجيشين البري والبحري ، وعلى تدني سمعة جيش فارس ذاته . وكانت فريتيمي شرعت هي الأخرى تحس بالإحباط وتفقد ثقتها في قدرة الفرس على عمل شيء ما من أجل تحقيق انتقامها . فقال أحمس مستنجداً :

- هل من اقتراح ؟

قالت الملكة الداهية العجوز :

- هل تعلم مقدار توقير الليبيين للعهد ومدى رعايتهم للمواثيق وتقديسهم للقسم واليمين؟ لقد حدثني بعض رجال بلاطي ممن له اهتمام بتتبع أخبار الليبيين وقبائلهم وأحوالهم أن أبناء قبيلة النسامونيين ، مثلاً ، يتبادلون المواثيق بأن يشرب أحدهم من كف الآخر فإن لم يجدوا سائلاً وضعوا بدلاً منه تراباً يلعقه بعضهم من أيدي بعض ، ثم يذهبون إلى قبور المشهورين منهم بالفضل والعدل وحسن الخلق ويقسمون بهم اليمين ، ثم لا يمكن بعد هذا أن ينقضوا ميثاقاً أو يتحللوا من يمين ، وهذا - بلا ريب - ينطبق على بقية الليبيين .

لم يفهم أحمس شيئاً مما ترمي إليه فريتيمي ونظر إلى زميله بادريس متحيراً . فقال بادريس :

- وما علاقة هذا بالذي نحن فيه الآن ياترى ؟

فردت فريتيمي :

- أردت أن أؤكد أهمية اليمين والميثاق عند هؤلاء القوم ..

قال بادريس :

- هذا يذكرني بالعرب - جيراننا في فارس - فإن لهم نفس العادات والطباع .

فعلق أحمس الذي لا يزال في حيرته من كلام فريتيمي : -

- هل ستحكي لنا قصة ملك العرب مع قمبيز وكيف أخذ منه العهد حتى ساعده على اختراق الصحراء والوصول إلى أبواب مصر الشرقية ؟

قالت فريتيمي :

- الشيء بالشيء يذكر .. فكما أنكم لم تستطيعوا هنا إخضاع الليبيين لم تتمكنوا هناك أيضاً من إخضاع العرب ، رغم قوة فارس وجبروتها . أليس هذا غريباً ؟

وكانت قد اكتسبت جرأة في الكلام لم يكن لها بها عهد، فلم يجد أحمس ما يرد به الحقيقة

الثابتة إلا أن علق - وهو يغمز من قناة امبراطور فارس الذي يكرهه كل الكراهية :

- دعي أمر إخضاع العرب لدارا الجالس على عرش الطاووس . ما يهمني هنا هو تحطيم هذه المدينة العصية .. ليس غير .

أحسّت فريتيمي بقرب نفاد صبر الرجلين فأسرعت تقول :

- لدي خطة محكمة ، إذا نفذت بدقة كان فيها هلاك أعدائي وأعدائكم فإن فشلت كان لكما أن تنسبا تدبيرها إليّ ، أما إن نجحت فلك يا أحمس - باعتبارك قائد الجيش البري - أن تنسبها إلى نفسك وتكسب بها صيتاً عريضاً .

ثم بدأت تشرح خطتها للرجلين ، بعد أن أخرج الخدم والأتباع ، في صوت خفيض .. وما عتمت نار الموقد أن خبأت والثلاثة منهمكون في تبادل الحديث حتى ساعة متأخرة من الليل .

7

سرت الدهشة في صفوف أهل مدينة برقة في اليوم التالي واستغربوا من أن حجراً واحداً لم ينطلق من منجنيق فارسي طيلة ذلك اليوم ولم يقترب من أسوار المدينة جندي ، ولم تصل صيحات الحرب والتهديد التي تعوّد الفرس إطلاقها بين الفينة والفينة على ما يقرب من العام. بل إن حراس الأبراج أبلغوا قائدهم عن تحرك بعض الوحدات الفارسية المحيطة بالمدينة مبتعدة عنها ، كما لاحظوا أن بعضها الآخر شرع يدك خيامه كأنما هو يستعد للرحيل ، وانطلقت في المدينة شائعات تقول بأن الفرس ينوون فك الحصار . كما طفق وجوه القوم يفسرون أحداث اليوم تفسيرات مختلفة . والجميع يترقب ما سيأتي به الغد . والواقع أن البرقيين كانوا قد أدركهم الإرهاق ونال منهم نصب الحصار ، وباتوا تواقين إلى سبيل ينهون به هذا الموقف ، وقد بدأت المؤن المخزنة في التناقص وكانوا متعبين أشد التعب من دوام مراقبة الأسوار وتحصينها بالرجال والسلاح ، وكانت حادثة الأنفاق قد جعلتهم يتوجسون من كل حركة ويتوقعون أن يأتيهم العدو من حيث لا يدرون ولا يحتسبون .. وزاد الأمر تعقيداً تأخر وصول أية نجدة إليهم من القبائل المجاورة التي أجلاها الفرس إلى أماكن قصية .. وحتى الطريق إلى البحر كان مستحيلاً اجتيازه ، فإلى جانب الجيش البري كان الأسطول البحري متمركزاً على الساحل بشكل لا يسمح بأي إمداد بحري ولا بخروج أحد إلى عرض البحر .كانت الحالة داخل المدينة - باختصار - تسوء يوماً بعد يوم ، ولم يكن ثمة جديد في أيام الحصار الطويلة ومن هنا كانت التوقعات والشائعات

والتفسيرات طيلة ذلك اليوم .

مضى الوقت ثقيلاً بطيئاً لا يقطعه سوى بعض البلاغات العاجلة من عسس الأبراج عما يلاحظونه من حركة الجيش الفارسي ، وأهل المدينة جميعهم في انتظار شيء ما .. ولم يطل الانتظار حين بدأت الشمس تنزلق ناحية الغرب ، إذ ما عتم الحرس أن أبلغوا عن بروز كوكبة من فرسان جيش العدو ترفع علماً أبيض تتقدم نحو بوابة السور على مهل . فصدرت التعليمات بفتح الباب الجانبي الصغير في البوابة - بعد التأكد من وصول كوكبة الفرسان وحدها ووقوفها على مسافة بعيدة مأمونة - والسماح لفارس واحد بالدخول إذا طلب ذلك وأوضح مقصده . وبعد قليل كان الفارس يدخل الباب مترجلاً بعد أن ترك جواده أمام البوابة ، وهو يحمل رسالة إلى قيادة المدينة . وما أن دخل حتى أقفل الباب واقتيد إلى مقر القيادة ليبلغها رسالة أحمس قائد الجيش البري الفارسي يوضح فيها لأهل برقة عزمه على فك الحصار والرحيل عن بلادهم . كما يطلب خروج وفد رسمي إليه لعقد معاهدة سلام وقسم اليمين وإنهاء إجراءات الصلح المعتادة - ويحدد موعداً ضحى الغد لهذه الغاية ..

8

في تلك الليلة لم يبق في مدينة برقة بيت لم تدخله الفرحة . أشعلت النسوة قناديلهن الزيتية ، وتقافز الأطفال يتخطون بقايا غدران المطر الغزير ويتصايحون ، وانثنى الرجال إلى بعضهم مجموعات يتذاكرون أيام الحصار وليالي الصمود الطويلة ويهنئون أنفسهم على بسالتهم وقرب انتهاء الكرب الذي عانوه . وكان أنابو وبضعة زعماء ليبيين آخرين يناقشون بعض طريدي قورينا من الإغريق في ما يمكن قبوله أو رفضه من شروط قد يمليها أحمس لعقد المعاهدة . وقد خلع أنابو ورفاقه ثياب الحرب وأخرجوا ملابسهم الملونة من صناديقها الخشبية ليرتدوها صباح الغد استعداداً للمفاوضات مع الفرس . كانت المدينة كلها ، كبيرها وصغيرها، تنتظر قدوم الغد .

وفي تلك الليلة أيضاً كان الأثاث قد أزيل من سرادق القائد أحمس الضخم ، في حين شرعت المعاول والفؤوس تعمل في حفر خندق ضيق مستطيل ، ويحمل الطين إلى مكان بعيد حتى استوى الخندق وانتهى حفره . ثم جاءت ألواح رقيقة من الخشب وضعت فوق الخندق عرضاً ، واحدة بعد أخرى ، حتى تمت تغطيته كله . بعدها أهيل الطين من جديد على ألواح الخشب ،

واعيدت النمارق والبسط الأعجمية الفاخرة إلى موضعها وعادت الطنافس إلى مكانها ، وكأن لم يحدث شيء . وكان أحمس يشرف على العمل بنفسه ، وقد حرص على تكتمه كل الحرص . ثم بات الجميع في انتظار الغد .

9

كانت الشمس تجفف قطرات الندى على أوراق نبات الجبل الأخضر ، وتنعكس أشعتها على المياه المتبقية من أمطار الأسبوع الفائت ، وهي ترتفع رويداً رويداً ضحى ذلك اليوم المشمس الجميل ، والقائد الفارسي جالس في سرادقه وإلى جانبه الملكة فريتيمي منتظراً قدوم وفد المدينة المفاوض . ومالبث أن فتح الباب الصغير في بوابة المدينة وخرج منه مجموعة رجال يتقدمهم أنابو وساروا نحو السرادق الذي لم يبعد كثيراً عن البوابة، وقد بدت ريشات الزعامة من بعيد على رؤوسهم وهم يمشون في ثقة واعتداد . فلما اقتربوا من السرادق تقدمت إليهم جماعة من قواد الفرس يخبون في ثيابهم الميدية المطرزة، دون سلاح، مرحبين بالقادمين حتى أدخلوهم حيث كان أحمس وفريتيمي، وجلس الوفدان متقابلين، والطنفسة الكبيرة بينهما.

بدأ أحمس الحديث قائلاً :

- اعلموا يا أهل برقة أن أسباباً قوية دفعتنا إلى محاربتكم ، وأنه لولا هذه الأسباب لما أرسل أرياندس المرزبان بجيشين فارسيين إليكم ، ولا شك في أنكم تقدرون هذه الأسباب .

وسكت مقلباً ناظريه بين فريتيمي وأنابو . وكانت فريتيمي تنظر إلى جماعة الوفد شزراً وهي معتصمة بالصمت . فحدجها أنابو بنظرة من جانبه ، ثم قال :

- إننا نقدر هذه الأسباب فعلاً ، وكنا نتوقع من فارس أن تقدر هي أسباب الأسباب .

فقال أحمس :

- هذا ما حدث ، على كل حال . ولسنا الآن في موقف مناقشة من المتسبب في ماذا .

نحن - مهما يكن الأمر - قررنا الرحيل عن بلادكم ، لأسباب تخصنا هذه المرة ، ولكن لابد لنا ، قبل هذا ، من أن نتدبر معاً عقد صلح ينهي هذه المشكلة وينهي معها الحرب التي دارت طويلاً بيننا . وقد أبديت لكم رغبتي في الصلح ويبدو لي أنكم تميلون إليه كذلك .

قال أنابو :

– تعلم ، أيها القائد ، أننا لم نعتد عليكم ولم نغزكم في دياركم ، بل قدمتم أنتم إلينا بجيشين قويين وحاصرتمونا هذه المدة كلها دون أن نبدأكم بشر .. فإذا رغبتم في الرحيل فلكم ذلك ، كما يمكنكم البقاء خارج الأسوار إلى ما شئتم .

كاد الموقف يتعقد بهذه الكلمات الحاسمة ، وكان نفر من إغريق قورينا الفارين في الوفد ، خشي أن تتطور المسألة إلى خاتمة غير سعيدة ، فأبدى رغبته في الكلام ، وتدخل :

– كما سبق القول ، نحن الآن لسنا في سبيل مناقشة المبتدئ بالاعتداء ، ولا نود الدخول في جدل قد لا يؤدي إلى فائدة . أرى أن القائد أحمس يبدي رغبته في الصلح ونحن كذلك مستعدون لعقد هذا الصلح .

فالتفت إليه أحمس ولاحظ من ثيابه أصله الإغريقي ، فأراد استمالته واستمالة رفاقه :

– هذا قول صائب . ويمكنني إنهاء الحصار هذا اليوم إذا ما استجبتم لبعض الطلبات الهينة ، على وعد مني ، إذا رغبتم .

وكان أنابو يقلب الأمر في فكره ويذكر حال المدينة السيء وفرحة أهلها بالصلح وإنهاء الحصار ، فسأل أحمس :

– على ماذا نتفق ؟

قال أحمس :

– باختصار : نتعهد نحن بألا نلحق أي أذى بأي من أهل المدينة ، مهما كانوا ، وتتعهدون أنتم بدفع مبلغ من المال سنوياً يؤدى لملك فارس . وبهذا تستطيعون فتح أبواب مدينتكم وتعيشون في سلام ، ولا يعود لنا ما نفعله نحن هنا . لقد طال انتظار أهلنا كما طال انتظار أهلكم ولا نفع من هذه الحرب الدائرة .

لم يكن أنابو مطمئناً تمام الاطمئنان وهو ينظر إلى فريتيمي التي أظهرت استسلامها بأن نكست رأسها ، ولاحظ أحمس ريب أنابو فأسرع يقول :

– إذا اتفقنا على هذين الشرطين يمكننا قسم اليمين على احترام الاتفاق .

فنظر أنابو إلى رفاقه مستجلياً موقفهم ورأى علامات الرضا في عيونهم . ولم يكن ليفكر في المبلغ المطلوب ، إذ تكفي بضعة أحمال من نبات السلفيوم النادر – السلفيوم القوريني الذي يفوق سلفيوم فارس شهرة وفائدة – تكفي لجمع المال كل عام . ورأى إن هو رفض الفرصة السانحة

لفك الحصار أن تدور الدائرة على برقة وأهلها ، ويصبح هو الملام على ما حدث ، فانطلق يقول :

- ما دامت النية حسنة ، واليمين سيقسم ، فإني - باسم رفاقي - أقبل دفع ما طلبت كل عام لخزينة ملك فارس ، على ألا يلحق شر بأحد من أهل برقة مهما كانت صفته .

هنا نهض أحمس واقفاً ونهض زملاؤه كما نهض أنابو ورفاقه واقترب الفريقان من بعضهما البعض ووقفا على الطنفسة التي كانت تفصل بينهما . وشرع أحمس يقسم :

- أقسم بأهورا مزدا ، والنار المقدسة عند فارس ، أن نحترم هذا العهد ما دامت الأرض هي الأرض .

وتلاه أنابو :

- أقسم بإمن رب الأرباب ونيث ربة الربات ، أن نحترم هذا العهد ما دامت الأرض هي الأرض .

ثم تصافح الجميع وتعانقوا ، ودارت أقداح الشراب احتفالاً بالمناسبة السعيدة .. وكانت الرسل قد طارت إلى المدينة تبشر أهلها بعقد الصلح وإتمام الاتفاق وانتهاء الحرب . ولم يكد أنابو ورفاقه يصلون عائدين إلي مدينتهم حتى فتحت الأبواب وهبط حرس الأبراج ، وشرع الجميع يستقبلون جنود الفرس الذي سمح لهم بدخولها .

***

ورقة من التاريخ :

كتب هيرودوت :

«لم يخامر البرقيين أي ريب بعد عقد الاتفاق والقسم على احترامه، ففتحوا أبواب مدينتهم كلها وخرجوا منها، وسمحوا لمن شاء من أعدائهم، الذين طالما تحرقوا شوقاً لاختراق الأسوار، بدخولها. لكن الفرس كسروا الخندق الخفي وهرعوا إلى داخل المدينة. وهم كسروا الخندق الذي صنعوه ليكون في وسعهم عندئذ احترام اليمين التي أقسموها للبرقيين، وكان فحواها احترام هذه المعاهدة طالما بقيت الأرض كما هي عليه، فإذا ما كسروا الجسر فإن المعاهدة لم تعد قائمة !»

وكتب :

«وقد أخذت فريتيمي أكثر البرقيين اتصالاً بالجريمة (قتل اركسيلاوس والا زير) عندما سلمهم إليها الفردوس، وقامت بخوزقتهم ووضعهم فوق الأسوار على طول امتدادها، كما قضت بقطع أثداء نسائهم ونثرها كذلك على قمة الأسوار. وطلبت فريتيمي إلى الفرس أن يأخذوا كل من بقي بعد ذلك من البرقيين غنيمة لهم، فيما عدا من كان هنالك من آل باتوس ولم يشاركوا في جريمة القتل وعهد إلى هؤلاء بحكم المدينة .»

وكتب :

«وقد تقدمت هذه الحملة الفارسية إلي يوهسبريداي (بنغازي) في ليبيا وليس أبعد من ذلك. أما بالنسبة للبرقيين الذين أخذهم الفرس عبيداً فانهم، وقد نفوهم (عن بلادهم) ، أتوا بهم من مصر إلى الملك دارا الذي أعطاهم بلدة في باكتريا (بلخ) ليعيشوا فيها، فأطلقوا على هذه البلدة اسم (برقة)، وظلت مكاناً آهلاً حتى يومي هذا .»



على تل يقع شمالي مدينة قورينا يسميه الإغريق (لوكايوس) وهو أحد ألقاب الإله أبوللو ويعني : (الحامي من الذئاب) كان الجيش الفارسي معسكراً ينظر من بعيد إلى المدينة الرابضة على قمة الجبل الأخضر ، وكان قائد الجيش البري ، أحمس ، مغيظاً كل الغيظ وساخطاً على نفسه كل السخط . كان يستعيد في ذهنه أحداث السنة الماضية التي قضاها في هذه البقاع ويسترجع كل لحظة مرت به . وكان الندم يأكل قلبه لرفضه مشورة رفيقه ، بادريس قائد الأسطول ، أن يحتل قورينا بالقوة ويترك لجيشه حرية التصرف فيها وفي خيراتها الكثيرة . إنه الآن يتجه شرقاً في طريقه إلى مصر ، بمجرد رأيه الخاص ، إذ لم يستلم بعد أمراً من المرزبان أرياندس بالعودة إلى صا ، ولا يدري كيف يكون استقباله له ولا يعلم أي مصير ينتظره ، ولعل المرزبان الفارسي يأخذ عليه عدم أخذ قورينا عنوة ، ولعله يستمع إلى ما ينبئه به بادريس من تعصب لرأيه حين ناقشا الأمر معاً .

صحيح أنه استجاب لمشورة فريتيمي وعمد إلى الخديعة حين عاهد أهل برقة فوق الخندق المخفي بألواح الخشب ، ثم كسر الألواح بعد حلف اليمين على احترام العهد . ياللآلهة ! ما كان أسخفها من حيلة ! ما أشد غباءه حين أخذ بهذه المشورة الساذجة .. ولماذا ؟ ليحمي سمعة فارس، ويظهر للعالمين انه لم يحنث في يمينه ! ماذا يريدون ؟ لقد أقسم على احترام العهد «ما دامت الأرض هي الأرض» - ما لم تتغير ويتبدل حالها . كان البرقيون ، حين أقسموا معه ، يعنون الأرض ، يعنون ما دامت الدنيا هي الدنيا ... أي إلى أبد الآبدين . أما هو فقد عنى ، في نفسه ، ما دامت الأرض التي يقفون عليها كما هي . اما وقد تبدلت بكسر الألواح ، فقد سقطت المعاهدة وله أن ينقض الاتفاق ويفعل ما يريد ، بعد أن فتحوا له أبواب مدينتهم واطمأنوا إليه . لقد صدقت فريتيمي في حديثها عن حفظ الليبيين للعهد وتقديسهم لليمين . وهي فعلت ما حلا لها بأهل برقة وعملت فيهم - عن طريق الجيش الفارسي - تقتيلاً وذبحاً حتى لم تكد تبقي على احد . وها هي بضعة آلاف ممن بقي منهم سبقته مقيدة إلى مصر ليرسلوا بعد ذلك إلى فارس حيث لا أمل لهم في العودة إلى آخر الزمان .

وتذكر كيف مضى غرباً إلى حيث اقترب من جنان الهبسريد ونهر الليثي، ثم عودته شرقاً. وتذكر حواره مع بادريس حين ظهر أمام مدينة قورينا وسمح له أهلها بالمرور عبرها .. لقد كان زميله يرى أخذ المدينة وكان من رأيه هو انه أرسل ، بأمر أرياندس المرزبان ، ضد برقة وحدها، تلك المدينة الليبية ، وليس ضد أية مدينة إغريقية أخرى . وقد غادره زميله مغاضباً وأقلع بسفنه إلى نكراتيس على ساحل مصر ، وها هو الآن ذاهل عما يفعل لا يزال يعسكر بجيشه فوق تل لوكايوس ، تل الإله أبوللو الحامي من الذئاب . ألم تبلغ أسماع القبائل الليبية الشرقية ، الأدورماخيداي وغيرها ، أنباء الفظائع التي حلت بأهل برقة ؟ وماذا سيكون الموقف إذا هاجمه الليبيون الشرقيون على حين غرة ، وليس له من مدد ولا سند ؟

كانت الحيرة تغلفه والقلق يضيق عليه الخناق . ولم يكن يدري ما يفعل . ثم فجأة خطر له أن يجمع أركان حزبه ويستشيرهم في الأمر ، فلعل لدى أحدهم فكرة تعينه على حسن التصرف . إن المرزبان لن يغفر له مكوثه سنة كاملة عاجزاً أمام أسوار مدينة ليبية صغيرة لم يستطع فتحها إلا بالخديعة ، ولابد أن يشرك قادته في القرار الذي يتخذه حتى تتوزع المسؤولية على الأقل . فصاح بديدبانه يطلب منه دعوة قادة الفرق في الجيش للاجتماع به في سرادقه .

***

ما إن استوى المجلس واكتمل حتى شرح لهم أحمس ما يدور في نفسه، وبين لهم الموقف الدقيق الذي هم فيه . ولم يكونوا هم في حالة أفضل منه ، وشرعوا يقلبون الأمر على مختلف الوجوه .

قال أحدهم :

- يمكن لنا أن نواصل سيرنا شرقاً ونعود إلى مصر ، فقد طالت غيبتنا .

فرد عليه آخر :

- والمؤن؟ إن الصحراء القادمة أمامنا تحتاج إلى زاد كثير، ولن نستطيع اجتيازها دون استعداد .

فعلق ثالث :

- ليس لنا إلا العودة إلى قورينا - وهي غير بعيدة عنا - وأخذها ثم التزود بما نريد .

وكان هذا ما يعتمل في نفس أحمس ويتمنى الموافقة عليه ، غير أنه خشي إبداءه فيتهم بالتقلب وعدم الثبات في اتخاذ القرارات العسكرية . فالتقط الخيط قائلاً :

- أنا ميّال إلى هذا الرأي ، ولعل القائد بادريس كان على صواب في ما ذهب إليه . لنأخذ قورينا ، ثم ننطلق إلى مصر .

كان القرار مرتجلاً ، ولم يكن الجيش مهيأ نفسياً للقيام بأي عمل عسكري ، وبخاصة بعدما رأى في أثناء حصاره برقة ، ولم يكن ثمة ما يبرر هذا العمل بعد اختراق المدينة والمرور عبرها دون قتال .. لكنه قرار اتخذ ولا مناص من تنفيذه على كل حال .

وكان القورينيون على حذر وهم يراقبون الجيش الفارسي من بعيد ، فلما رأوه يسير في اتجاه الغرب مرة ثانية علموا أن مدينتهم هي المقصودة هذه المرة . ولم يضيعوا وقتاً . أسرعوا إلى إغلاق الأبواب واعتلاء الأبراج ، وأعدوا مانجنيقاتهم ، تأهباً للدفاع .



أبواب قورينا محكمة الإقفال ، والرجال في أماكنهم أعلى الأسوار ، والجيش الفارسي يقترب من المدينة المعلقة في السماء .

ما العمل ؟

هل يظل أحمس محاصراً قورينا أيضاً سنة أخرى ؟ لقد امتنعت المدينة عليه ؟ وهو الذي أعان ملكتها ، فريتيمي ابنة باتوس ، على الانتقام من أعدائها ، وها هو يجد نفسه في موقف صعب .

تحولت الحيرة إلى رعب ، وسرى الرعب في قلب أحمس ومنه إلى قلوب رجاله أجمعين . لم يهاجمهم أحد ، ولم يناوشهم مناوش . لكن هذا السكون الرهيب يبعث في النفس القشعريرة والخوف . هذا الجبل العالي بأشجاره الملتفة تثير في أفئدة الرجال الفرق . والذئاب الجائعة تتجول فرقاً تنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض ، وتترقب أن تنفرد بأي منهم لتمزيقه

وكما يحدث غالباً في الجماعات الخائفة لم يكن هناك شيء يمنع سريان الخوف كالنار في الهشيم – كما يقولون . ولم ينقض اليوم ذاته حتى كان الجيش الفارسي يرتد ، هكذا دون أوامر محددة ، متجهاً شرقاً حتى قطع مسافة ستين فرسخاً ، مبتعداً عن قورينا ، كأنما تقوده يد سحرية خفية . وهناك حط الفرس رحالهم وقد انعقدت ظلمة الليل ، ونزلوا يبغون الراحة من معركة وهمية لم يطلق فيها سهم ولم يجرد من غمده سيف .

12

لبضعة أيام لم يكن هناك شيء يمكن فعله . انفرط عقد الجيش الفارسي ، وسرت الفوضى في صفوفه ، وأحمس لا يزال في حيرته وتخبطه ، وقد زاده ارتداد جيشه عن أسوار قورينا نكداً فوق نكده الذي هو فيه ، بعد أن فقد السيطرة على مقاليد الأمور ، وثبت ضعف شخصيته الخارق للعادة . خاب ظن أرياندس فيه وصار أضحوكة الآن بعد أن كان القائد المهاب . وكان ينتظر معجزة من السماء تنقذه من هذا الموقف ، أية معجزة . كان في الواقع ينتظر من يصدر الأمر إليه بفعل ما ، بعد أن عجز عن إصدار الأوامر لقادة فرقه وجنده . لذا كانت فرحته طاغية وهو يستقبل رسولاً من أرياندس المرزبان في سرادقه المنصوب في سفح الجبل الشرقي :

– أيها القائد أحمس ! أحمل إليك تحيات المرزبان وأمره لكم بالرجوع فوراً إلى أرض مصر.

هكذا قال الرسول في عبارة مقتضبة . وكان هذا الأمر هو كل ما يرجوه أحمس . ولكن المؤن تنقص ، والمسافة طويلة جداً ، ولا يمكنه الرحيل دون زاد . وبعد أن تدبر الأمر استقر رأيه على طلب العون من أهل قورينا ، استجداء . وكان أهل قورينا على استعداد لتقديم العون إليه دفعاً له

على الرحيل ومغادرة البلاد – فبعثوا إليه بما طلب ، وانطلق بجيشه المتعب نحو الشرق في طريقه إلى صا .

13

وكما توقع أحمس ، انتشر خبر الفتك بأهل مدينة برقة بين قبائل الأدورماخيداي والجلغاماي والأمونيين ، أهل سيوة ، من الليبيين الشرقيين ، وبدأ الحقد يضطرم في قلوبهم لما أصاب إخوانهم من تنكيل ، وكان لابد لهم من الانتقام .

كان الجيش الفارسي ، مهما بلغت حالته من الفوضى ، جيشاً نظامياً كامل العدة . وكان الليبيون يعلمون أنهم لن يكسبوا معركة مواجهة على النسق التقليدي ، خاصة بعد أن زود إغريق قورينا الفرس بكل ما يحتاجونه من مؤن ولم يعد ينقصهم شيء .. ومن هنا كان لجوؤهم إلى حرب العصابات الفتاكة . وقال زعيم الجلغاماي :

– هذا الجيش الجرار هو كل جيش فارس البري في مصر تقريباً ، إذ لم تبق فيها سوى الحاميات فيما علمت من عيوننا ، . ولا يمكن لنا هزيمته في معركة نظامية . الرأي عندي أن نعتمد على خيولنا السريعة في ضرب مؤخرة الجيش . نكمن لهم في المواطن التي نعرفها وهم لا يدرون بها حتى تمر مقدمته . ثم نتخير الوقت المناسب للهجوم ، فلا يدرون هل سيعودون إلينا للدفاع أم يفضلون سرعة الفرار ناحية الشرق .

فقال زعيم الأدورماخيداي :

– رأيي من رأيك . وهذا هو السبيل الوحيد للانتقام مما فعلوا بأهلنا في برقة .

وعلى طول الطريق من الجبل الأخضر حتى قرب بحيرة مريوط كانت الرماح الليبية القصيرة القاسية تخترق أجساد المتمهلين والمتخلفين من مؤخرة جيش أحمس ، والخيول العداءة تنطلق تسابق السهام بين كل فترة وأخرى لتسقط أعداداً كبيرة من الجنود المتعبين المرهقين ، وكانت ثيابهم وأسلحتهم وكل ما يمتلكون تقع غنيمة في أيدي الليبيين .

كان الانتقام مروعاً ، وعلى فترات ، مؤلماً كالمرض العضال . ولم يصل من جنود الجيش البري إلا القليل يهدهم العناء وتقعدهم المشقة – بلغوا مصر يكادون يلفظون الأنفاس .

***

ورقة من التاريخ :

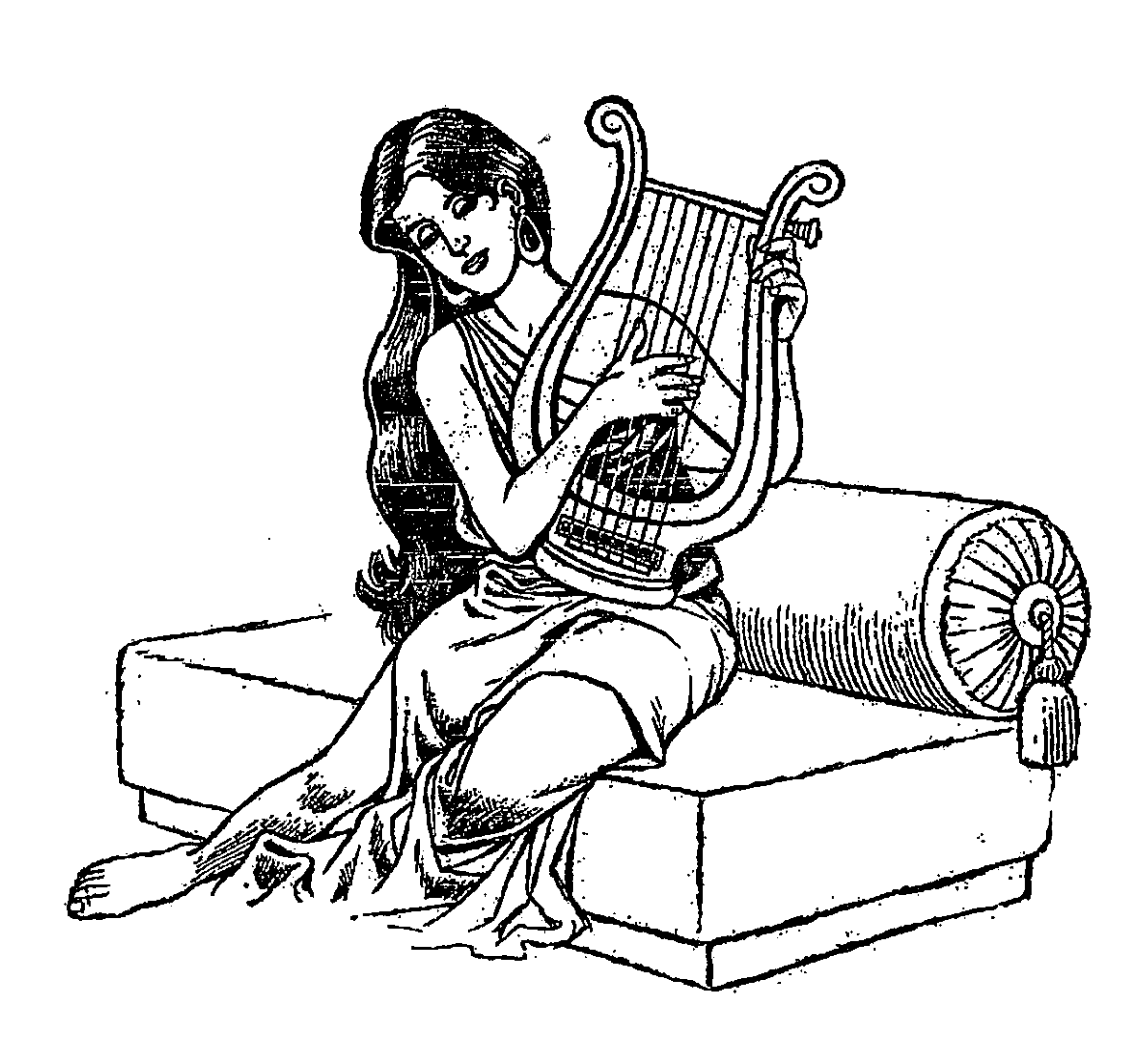
كتب هيرودوت :

«لكن الحال تعسرت بفريتيمي أيضاً ، ولم تكن نهاية حياتها طيبة ، إذ أنها ما لبثت - بعد أن انتقمت لنفسها من البرقيين وعادت إلى مصر - أن ماتت ميتة شنيعة بعد أن تقيح جسمها الحي وأخذ ينتج ديداناً .. ويبدو أن الآلهة تغضب غضباً شديداً من الانتقام البشري القاسي البالغ العنف. وعلى هذا النحو ، وإلى هذا المدى ، كان الانتقام الذي أنزلته بأهل برقة فريتيمي ابنة باتوس !» .

القسم الثاني



الفصل الأول





1

في مكان ما حول بحيرة مربوط بدلتا النيل كانت قرية مكونة من مجموعة أكواخ مخروطية الشكل وبيوت مبنية من خليط الطين اللزج ونبات الديس الذي يغطي مساحات كبيرة من شاطئ البحيرة . وكانت هذه الأكواخ تضم مزيجاً من القبائل الليبية التي هاجرت إلى مصر على فترات طويلة من الزمان ، كما تضم أيضاً بقايا الليبيين الذين نجوا من يد أحمس حين انقلب على مولاه خفرع ، وعدداً آخر وصل منذ عهد قريب في أثناء تعقب الليبيين الشرقيين لفلول جيش فارس الآيب من برقة ، توقفوا عند الحد ولم يدخلوا المراكز المدنية الكبيرة .. وكانت القرية غير بعيدة عن بلدة صغيرة اسمها راقودة في موقع المدينة الشهيرة التي أنشأها الاسكندر المقدوني ونسبت إليه ، فيما بعد ، على فرع النيل الغربي . وقد مكن هذا عدداً من التجار الإغريق الذين كثر عددهم حين فتح أحمس ، والحكام من بعده ، أبواب مصر للغرباء يدخلونها كيف يشاؤون ويمتلكون فيها الأرض ويسيطرون على التجارة ، مكنهم من التجوال في القرى والدساكر يبيعون ويشترون ويختلطون بأهل البلاد في المنطقة الواقعة ما بين شاطئ البحر الأبيض ومدينة منف حيث يتفرع النيل إلى فرعيه المعروفين مكوناً الدلتا الغارقة في المياه معظم العام .

في هذه القرية كان بيت مميز بساحة كبيرة أمامه يحيط بها سور منخفض من الطين مهدت أرضها وأزيلت منها النباتات والأعشاب ، فقد كانت بمثابة مضيفة عامة يؤمها القوم بين الحين والآخر في أمسيات الصيف وعشاياه الرطبة . أما في بقية مظاهره فلم يكن يختلف عن أي بيت آخر . وكان معروفاً بأن أسرة من فرع بعيد من آل خفرع تسكنه ، تنتسب إلى بسامتيك الأول منشئ الأسرة السادسة والعشرين في تاريخ مصر .

في هذا البيت ولد طفل أسماه أهله إنحرو ، لكن كتاب التاريخ من الإغريق وغيرهم كانوا ينطقونه إينارو ، وبه عرف ، ونسب إلى جده الأول فسمي : إينارو بن بسامتيك .

2

طفق الصبي الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره يضرب الحصى أمامه بقدميه الحافيتين وهو في طريقه إلى البيت راجعاً من بيت الكاهن . كان مغيظاً للغاية ولم يجد ما يفرغ فيه غيظه سوى هذا

الحصى الصغير المختلط بالطين الأسود في أرض الدلتا ، وهو ينظر بين الفترة والفترة إلى قطعان البقر المنتشرة في الأرض القريبة ترعى دافنة رؤوسها في الأعشاب ، ثم يتحسس جبينه الذي انتفخ جزء منه مثيراً فيه ألماً وحنقاً . ولم يقابله أحد في الطريق من بيت الكاهن إلى بيته ، فقد كان الوقت ظهراً والناس يلزمون بيوتهم ، حتى وصل إلى مدخل الساحة الكبيرة ، فاقترب من جرة ماء كانت مسندة إلى ظل السور ، وشرع يكرع منها يطفئ ظمأه ، ثم دلق على كفه الصغيرة من الماء البارد وأخذ يمسح به الانتفاخ البارز في جبينه .

كان أبواه داخل البيت ، ولم يكن لهما غيره فهو أصغر أبنائهما وآخر من بقي منهم . وكانت أمه منشغلة بإعداد طعام الغداء ، فلما سمعا حركة شربه ناداه والده :

- إينارو ! هل قدمت ؟

تظاهر بأنه لم يسمع النداء ، وكان مع غيظه يفكر في الاختباء حرصاً على ألا يراه أبواه . فعاد صوت والده أعلى من ذي قبل :

- إينارو ؛ هل تسمعني ؟ لِمَ لا تدخل ؟

- سمعت . ها أنا قادم .

ثم دلف داخل الكوخ محمر الوجنتين .

- ما بك ؟ ما هذا البروز في جبهتك ؟

هكذا سأله أبوه حين لاحظ ما حاول إينارو إخفاءه .

- لا شيء .. لا شيء .

- لا شيء ؟ ومالك غاضباً إذن ؟

كان الطفل يريد أن ينفجر ليحكي لوالده ما جرى ، لكنه لم يجد غير الدموع وسيلة للتعبير عن سخطه ، فأجهش بالبكاء فجأة دون أن يستطيع النطق بكلمة . وكانت أمه تسمع ما يدور فتخلت عما في يديها وأسرعت إلى طفلها تضمه في حنان ، بينما تزحزح الأب من مكانه واقترب منه مستفسراً :

- ما الحكاية ؟ ماذا حدث لك ؟ أخبرني .

وكان النشيج خف قليلاً وظلت العبرات تخنقه وهو يروي لأبويه ما جرى له في كلمات متقطعة .

- كليو هي السبب . .

- من كليو ؟

- كليو ابنة ثيوفرون التاجر الإغريقي هنا .

- ما لها ؟

- قابلتني وأنا خارج من بيت الكاهن هي وأخوها كيمون ، وقالت إنها تذهب كل أسبوع إلى راقودة وتعزف الموسيقا ، وعيرتني بأننا لا نتعلم الموسيقا في بيت الكاهن . .

فقال أبوه مغيظاً :

- وماذا يهمك أنت من هذا الأمر ؟

- لا يهمني أبداً . الموسيقا للنساء - كما علمنا الكاهن . الذي يهمني هو أخوها .

فتحير الأب وزعق :

- أخوها ؟ هل يتعلم الموسيقا هو أيضاً ؟

- ليس الموسيقا .

- ماذا إذن ؟

- قال إنه في المدرسة الإغريقية يتعلم شيئاً آخر لا يعلمنا إياه الكاهن.

- ما هو ؟

- شيء يسميه المصارعة .

فازدادت حيرة الأب وكاد يصفع الصبي وهو يصيح :

- وما الذي يهمك أنت أن يتعلم المصارعة أو السحر الأسود ؟

فوضع إينارو يده على جبينه وتمتم :

- عندما قلت لـه إننا نتعلم الحساب والهندسة وأسماء النجوم اقترب مني وقال : فلنجرب فائدة ما تعلمناه . ثم ثنى يديه من حولي وصرعني . وكلما نهضت صرعني مرة أخرى . ثم ضربني على جبهتي بقبضة يده . وكانت كليو تضحك وتضحك كلما سقطت على الأرض .

فعاد الأب إلى جلسته الأولى وظل يفكر في ما جرى لابنه ، بينما نهضت الأم لتكمل الطعام ، وتجمع أفراد العائلة يتناولون غداءهم في سكون .

***

كانت الشمس قد مالت نحو الغروب حين بدأ بعض الرجال يفدون إلى بيت أبي إينارو ، وشرعت نسمة شمالية تهب لتنعش القوم بعد ذلك اليوم القائظ ، وهم تحلقوا في الساحة الكبيرة يتجاذبون الأحاديث ، في حين قعد والد إينارو في صدر المجلس وأصحابه من حوله .

قال رجل في حوالي الستين من عمره :

– كان الحر شديداً اليوم والرطوبة خانقة ، وقد ذهبت هذا الصباح إلى راقودة لكي أتسوق، ووجدت خبر الحرب في بلاد الإغريق البعيدة وراء البحر .

فعلق أبو إينارو :

– الإغريق هنا بألف خير في أرض مصر .

قال الشيخ :

– بعض الإغريق فقط .. نعم . أما في بلادهم وراء البحر فهم في قتال عنيف كل يوم ، إما بين دولهم الصغيرة وإما بينهم وبين الشعوب الأخرى .. الحرب لا تتوقف أبداً بينهم . الاسبرطيون ضد الأثينين والكاريون ضد الإيليين . والهاليكارنسيون ضد البويتيّن ، والجميع ضد الجميع . هذه المرة الجميع ضد الفرس .

فانبرى أحد الجالسين :

– أنت رجل كبير المقام ، كبير السن ، وقد تعلمت على يد الكاهن ، وأنت عليم بالتاريخ والأخبار فحدثنا .

فأجاب الشيخ وهو يعدل من وضع عباءته على كتفه الأيسر :

– كثير مما أحدثكم عنه قد تكونون تعرفونه . أنا سمعت الأخبار من راقودة اليوم فقط .

فقال والد إينارو مستفسراً :

– ماذا سمعت .. بالتفصيل ؟

– سمعت أن أحشويرش ملك الفرس هيأ حملة حملة ضخمة لقهر الإغريق ، وبخاصة إغريق أثينا ، وأن معارك طاحنة جرت بين الفريقين .

وكان رجل آخر في أقصى الحلقة ينصت فتدخل :

– ليطحن كل منهما الآخر . ولكن ألم يكف ملك الفرس كل ما في حوزته من بلاد حتى يعبر البحر إلى أثينا ؟

فرد الشيخ :

– أنا لم أشاهد في حياتي ، ولم أسمع ، بأسوأ من أحشويرش هذا ملكاً .. انظروا ماذا فعل بمصر وأهل مصر ؟ إن ولاته وجباة ضرائبه يسومون الناس العذاب ويأخذون من الأموال ما لا حصر له ، ومع هذا فهو لم يبن معبداً واحداً ، ولم يقدم لهيكل ما شيئاً . وأرى الكهنة يشكون مر الشكوى من عسر الحال ، ويتحسرون على أيام دارا الكبير .

قال والد إينارو :

– آه .. دارا الكبير . أنا أذكره يوم جاء مصر ، وكنت صغيراً يومها . كان ذلك منذ متى؟ آه منذ خمسة وثلاثين عاماً . أذكر كيف اهتم بالبلاد وبنى المعابد في كل أنحائها .. حتى الصحراء بنى فيها معبداً فاخراً في الواحة الغربية . لقد ظل هنا سنة كاملة ثم رحل بأربع وعشرين سفينة محملة بالخيرات أرسلها عن طريق القناة بين النيل والبحر الأحمر .. فتساءل الشيخ :

– تعني القناة التي بدأ حفرها نخاو .. أليس كذلك ؟ لقد كانت عملاً ممتازاً لم يفكر فيه أحد من قبل . وقد أكملها دارا واستعملها لسفنه . كان دارا الكبير حكيماً للغاية . وقد صدق من قال : إن قمبيز مجنون ، ودارا حكيم ، أما أحشويرش فتاجر .

قال أحد الرجال :

– تاجر خسيس أيضاً .. لكن ماذا عن الحملة على أثينا ؟

– لقد استعان الفرس بفرق هائلة من الشعوب والأمم الأخرى ، من بابليين وأشوريين وكنعانيين وغيرهم ، وحتى من الليبيين .. تصور يا صاحبي !

– وليبيين ؟

– نعم . سبعة آلاف منهم – كما سمعت .

– من أين ؟ وكيف لم نسمع بتجنيدهم ؟

– لست أدري . لعله جمعهم من أماكن مختلفة . لكن الرأي عندي أنهم من الليبيين الذين أرسلوا إلى فارس بعد احتلال مدينة برقة . هل تذكرون ما حدث ؟

هنا علت وجوه الجماعة مسحة من الأسى حين تذكروا ما جرى لإخوانهم في مدينة برقة ، ثم قال أحدهم :

– لا أدري كيف أعان المرزبانِ أرياندس الأغارقة ضد أهل برقة والفرس أعداء الإغريق . فرد

والد إينارو :

– أعداء بعض الإغريق . لكن أرياندس لاقى جزاءه على يد دارا الكبير ، على كل حال . ألم يتهمه بالخيانة ومحاولة التمرد ويقتله ؟

قال الشيخ :

– هذا صحيح . ولعل هذا ما جعل إخواننا الليبيين يغفرون للفرس ما عملوا وينضمون إلى جيشهم الزاحف على الإغريق . أما الذي أعرفه أنا ، وأرجو أن توافقوني على رأيي ، فهو أن لا خير في الفريقين .

كانت الشمس تبدو ملتهبة الحمرة على حافة الأفق في رحلتها اليومية ، وكان أبو إينارو لا يزال متأثراً بما جرى لولده ظهر ذلك اليوم ، فأدار الحديث بحيث أخبر ضيوفه بما كان وأنه يعتزم أمراً ، فابتسم الشيخ بعد أن أنهى الرجل حديثه وعلق :

– أخشى أن يكون ابن الإغريقي على حق حين تحدى ابنك هذا التحدي كله وبرهن على حسن تعليمه .. الذي يعجبني في الإغريق هذا الحرص على تنشئة أولادهم تنشئة عسكرية صارمة حتى لا يبقى فرد منهم دون أن يتعلم استعمال السلاح ، ثم هذه التنمية الجميلة للجسم والاهتمام ببناء الجسد بناءً قويا . كذلك يفعل الفرس بتعليم أولادهم الرماية وركوب الخيل . وبذا يكون الجميع مستعداً للدفاع والهجوم ، إن لزم الأمر . المؤسف هنا في مصر أن الكهنة المعلمين لا يولون هذا الجانب شيئاً من الاهتمام ، ويعتبرون تنمية الروح أهم من بناء الجسد .

قال والد إينارو :

– إنهم يعتمدون على طبقة المحاربين ذات الامتيازات الكثيرة يتقاسمون معهم الخيرات والمنافع، أما بقية الشعب فلا قيمة له .

علق أحد الجالسين :

– يؤسفني أنكم يامن سبقتمونا إلى مصر اتبعتم عادات أهلها وطرق تعليم أبنائهم . نحن لا نزال نهتم بتدريب أولادنا على مختلف أنواع السلاح قبل تعليمهم القراءة والكتابة . فماذا أنت فاعل يا ترى ؟

كان إينارو طيلة هذه المدة جالساً داخل البيت ينصت للحديث الدائر ، دون أن يفهم منه الكثير، فلما بلغ ما يخصه ركز سمعه باهتمام بالغ منتظراً خاتمة الحديث . قال أبوه :

– عزمت على إرسال إينارو ليعيش أياماً مع بعض مدرسي المصارعة الإغريق ، ثم أياماً أخرى ليتعلم ركوب الخيل ومختلف فنون القتال . إنه صبي متين البنيان ، غير أنه يحتاج إلى التدريب . سوف أرى ملاسيكون من أمره .

وحين غرقت الشمس في الأفق نهض القوم يغادرون المضيفة ، ودخل والد إينارو فوجد طفله مستنداً إلى حشية داخل البيت ، وقد غلبه النعاس وعلى وجهه ابتسامة راضية .

3

عند الجزء الغربي من ميدان سوق بلدة راقودة تجمهر عدد من الفلاحين وقد علا الهرج والاضطراب حلقة كبيرة منهم ، وصراخ يسمع من رجل يستغيث ، وكان شاب طويل القامة في نحو العشرين من عمره يمر غير بعيد . كان عريض المنكبين يتدلى رداؤه المصنوع من الكتان الأبيض على كتفه الأيسر وبدا سالفاه ينحدران على صدغيه ، تعلو رأسه ريشة ، منتعلاً خفاً من الجلد ، شاداً وسطه بحزام من الجلد أيضاً مثبتاً فيه خنجراً قصيرا . وكان بادي الوسامة زادتها لحيته السوداء الصغيرة الظاهرة أسفل ذقنه . وما عتم أن أسرع نحو الجمع يجذبه صراخ الرجل وحب الاستطلاع .. ولم يدهش وهو يرى أحد الفلاحين يسيل الدم من رأسه الحليقة منطرحاً على ظهره بثوبه القصير ، يحاول أن يرد ضربات جندي فارسي بيديه وقدميه معاً ويتقي لذعات السوط الحادة على جسده ، فقد كان هذا المشهد مألوفاً للغاية . لكنه شعر بالدم ينبثق من دماغه وهو ينصت إلى الجندي الفارسي :

– خذ هذه يا ابن الكلبة . وخذ هذه . وخذ هذه . تقول إنك دفعت ما عليك من ضرائب ؟ وهذه البقرة معك .. ماذا تفعل ؟ أنت تملك البقر وخزانة الملك فارغة ! خذ هذه أيضاً .

وجاء صوت الرجل مستغيثاً :

– مظلوم ... يا سيدي .. مظلوم . البقرة كل ما بقي لي أبيعها لأشتري طعاماً لأولادي . الرحمة .. يا سيدي .. الرحمة !

وكان الفلاحون المحيطون بالمشهد يتدافعون ، يتقدمون ويتأخرون كموجة البحر ، تنحسر وتعود ، يريدون أن يفعلوا شيئاً ثم يردهم الخوف . ومن فرجة في الحلقة تقدم الشاب يستطلع المضروب ، فلما شاهد وجهه صاح بغتة :

- شيحو ؟!

وما أن سمع هذا النداء حتى صرخ :

- إينارو ! إنه يقتلنى .. يقتلني يا إينارو !

توقف الجندي عن الضرب والتفت ليعلم من هذا الذي تستنجده ضحيتـه ، فرأى إينارو واقفاً خلفه ، فصاح :

- ابتعد من هنا أيها الوغد . ابتعد وإلا جلدتك مثله .

لم يجد إينارو الكلمات المناسبة في فمه وشعر بأن لسانه انعقد فجأة ، فكز على أسنانه ومد يده إلى معصم الجندي الممسكة بالسوط ولواها بكل ما يملك من قوة ، فانثنى جسد الجندي واستدار حتى صار قفاه في وجه إينارو وسقط السوط من يده .. فك إينارو قبضته ، فانقذف الجندي يتعثر ، ومضى الشاب إلى صديقه شيحو يرفعه من فوق الأرض . فجأة صاح الجميع :

- احذر يا شاب ! سيقتلك !

كان الجندي شاهراً سيفه مندفعاً نحو إينارو، فقفز هذا متفادياً إياه، وبسرعة خاطفة استل خنجره ثم انثنى إليه وغمده في جانبه الأيسر، فترنح ثم وقع على الأرض والدم ينبجس من جانبه.

حدث كل شيء بسرعة خارقة ، كأنه حلم تجري فيه الأحداث على هواها ، ولم يشعر إينارو بشيء ولم يستعد وعيه إلا حين شرع يمسح خنجره في ثوب الجندي المضروب بدماه .

وتبين له ما فعل ، وأدرك على الفور مغبة فعلته إن هو ظل مكانه . وكان معظم الفلاحين قد فروا ، ولم يبق من الجمع سوى بضعة أشخاص يقف إينارو وصديقه شيحو بينهم ذاهلين ..



4

- هلم يا شيحو . لم يعد لنا مقام هنا . أسرع .. أسرع قبل فوات الأوان .

هكذا همس إينارو في أذن صديقه الذي كان ينفض التراب عن ثوبه القصير ويكمد أثر لذعات السوط على جسده النحيل متألماً .

- هيا . ليس ثمة وقت ... تحرك يا شيحو .

وأخذه من ذراعه مبتعداً به عن بقية الجمع القليلة ، واختفى الاثنان في زحام السوق ، ثم

انعطفا إلى زقاق آخر يتجنبان الالتقاء بأحد .. حتى انزويا في ركن قصي ووقفا صامتين . أخيراً نطق شيحو وهو يبتلع ريقه بصعوبة :

– والآن .. ما العمل يا إينارو ؟ لو عثر علينا جنود الفرس لقتلونا في التو . ما العمل ؟

فرد إينارو مداعباً صاحبه :

– ألا تشكرني أولاً على إنقاذي إياك ؟ كنت ستموت تحت سياط ذلك الجندي .

فابتسم شيحو بمرارة وأجاب :

– أشكرك طبعاً يا صديقي . ولكنني سأموت على كل حال لو عثروا علينا ، وستموت أنت معي . الحق أن الموت أصبح نعمة مطلوبة هذه الأيام ، فهل تسمي حالنا حياة ؟ لم يبقوا لنا شيئا . أخذوا كل شيء .. طمعوا حتى في البقرة العجفاء الوحيدة التي كنت سأبيعها لأطعم العيال . وها أنا أفقد حتى تلك البقرة البائسة .

صمت إينارو قليلاً يتفكر وقد زوى ما بين حاجبيه ، وانعقد جبينه وهو يقلب وضعه ووضع صاحبه على مختلف الوجوه . فاحترم شيحو صمته وقعد على الأرض ينبش التراب ويعبث ببعض الحصى بينما ظل إينارو واقفاً يهز ساقيه ويراوح ما بين قدميه . وفجأة قال :

– شيحو .

– نعم .

وقفز واقفاً ينصت .

– أتذكر التاجر الإغريقي ثيوفرون ؟

– نعم .. أذكره . ما الذي جاء به إلى خاطرك يا إينارو ؟

– وابنه كيمون ؟

– وابنته كليو أيضاً .. أذكر الثلاثة . ما لهم ؟

– أتذكر أنهم غادروا قريتنا منذ بضع سنوات وجاءوا هنا إلى راقودة ؟

– أذكر يا سيدي . لقد نمت تجارة ثيوفرون هنا كما علمت . قريتنا صغيرة ولا مجال فيها لنمو التجارة ، ففضل الانتقال إلى راقودة . تاجر إغريقي عريق .. ما الأمر ؟

فحدق إينارو في رفيقه بثبات وقلب شفتيه وقال :

– إنني قليل المجيء إلى راقودة هذه ، ولا يعرفني أهلها ، وقد زرت كيمون في بيته ذات مرة .

إنه يقع في الحي الشرقي من هذه البلدة . أليس كذلك ؟

- بلى .. هو كذلك . وغير بعيد يقع حانوت والده . ماذا تنوي أن تفعل ؟

- أقول لك . لا شك الآن في أن جنود الفرس يبحثون عني وعنك مجتمعين . فإذا افترقنا كان ذلك أصوب ، يمكنك أنت أن تتدبر أمرك للعودة إلى قريتنا . أما أنا فسألجأ إلى بيت ثيوفرون . إنه غير بعيد من هنا ، ولن يظن جند الفرس أنني مختبئ عند إغريقي . فإذا نجونا معاً كان لقاؤنا في القرية . وإذا نجا أحدنا أخبر الأهل بما حدث . أما إذا قبض علينا نحن الاثنين فلقاؤنا - بإذن إمن - في السجن ثم في ساحة الإعدام .

نظر شيحو إلى صديقه وقد أخذ منه التأثر مأخذه ، وانحدرت الدموع من عينيه ، وبغتة ألقى بنفسه عليه يحضنه ويقبله بحرارة وهو يجهش :

- باركك (إمن) يا صديقي ، وليحفظك (رع) ويحرسك . لست جباناً ، ولكن العيال .... يا إينارو .. العيال . اذهب أنت الآن واتركني ، ولا تلتفت . سأتدبر أمري كما قلت : وسنلتقي يا إينارو . سنلتقي . الوداع الآن . الوداع .

فبادله هذا العناق ، وربت بكفه على خده وهو يتمتم :

- لا بد من الخلاص . لا بد من الخلاص . قد تكون هذه هي البداية .

ثم سوى من طرف عباءته ، وعدل من حزامه الجلدي متفقداً خنجره وانطلق عبر الزقاق غير ملتفت وهو يسير في ثقة كاملة ثابت الخطى إلى طرف البلدة الشرقي .

5

لم تكن الشمس قد توسطت كبد السماء حين وقف إينارو أمام منزل ذي باب خشبي طُليت واجهته بالجير ، بينما ظلت بقيته تبين عن طوبه الأحمر ، وقريباً من الباب كانت كوة دائرية صغيرة، وقد برزت قطع من أخشاب السقف على سطح المنزل الذي كُومت فوقه أكداس من القش . وكان الصمت يلف مجموعة البيوت المتناثرة في هذا الجزء من بلدة راقودة ، بينما ظهرت بعض دجاجات ترتع بينها فراخها صفراء الزغب .

كان إينارو قد قطع المسافة بين جزئي البلدة من غربها إلى شرقها دون أن يصادف أحداً من جنود الفرس ، ودون أن يقابل أحداً يعرفه ، فقد كانت راقودة مركزاً تجارياً يقطنها عدد كبير من

الإغريق وعدد آخر من المصريين ، هادئة في أغلب الأوقات ، يزدحم سوقها ثلاثة زيام في الأسبوع حين يأتي الفلاحون جالبين نتاجهم ليبيعوه أو ليمتاروا ما يحتاجون إليه . وقد وقف أمام منزل ثيوفرون ووجد بابه موصداً . فتفكر قليلاً ثم استجمع ذاته وأخذ نفساً عميقاً وطرق الباب .

- من ؟

هكذا سمع صوتاً أنثوياً رقيقاً يسأل .

- أنا .. إينارو . افتحي يا كليو .

كان قد حزّر أن الصوت الأنثوي هو صوت كليو ، فهو يعلم أن أمها كانت توفيت منذ مدة ، قبل مغادرة أبيها القرية ، ولم يقترن ثيوفرون بأخرى .

في لحظة سمع المزلاج يصر والباب قد فتح .

- ادخل . تفضل يا إينارو . ادخل .

أمسكت كليو بمصراع الباب بيدها اليسرى ، ومدت يدها اليمني تشد يد إينارو ، تجذبه إلى الداخل وقد انحنى جذعها قليلاً وهي تبتسم مرحبة . فخطا داخلاً وأقفلت كليو الباب وهي لا تزال ممسكة بيده ، وظلت تحدق فيه بعينين فرحتين متلعثمة بعبارات الترحيب ، حتى انتبهت أخيراً إلى طول إمساكها بيده أكثر مما ينبغي ، فأفلتتها وقد علت وجنتيها حمرة الخجل والارتباك .

وقفت كليو في مواجهة ضيفها غير المرتقب تمثالاً إغريقياً بديع النقش . كانت ذراعاها البضتان عاريتين ، وقد شبكت ثوبها الأبيض بحليتين أعلى كتفيها المدورتين ، وشدت خصرها بزنار دقيق أبان عن دقة الخصر ذاته ، وانحدرت بقية الثوب حتى بلغت كعبيها وتدلت على قدميها الصغيرتين الحافيتين . أما شعرها الكستنائي الكث فقد جمعته في كومة واحدة وعقصته وراء رأسها وعقدته بشريط حريري أزرق اللون ، فبدا جيدها مديداً ناصع البياض يبرز من فوقه محياها ذو العينين الدعجاوين والأنف الأقنى والفم المزموم بشفتيه المليئتين دونما صباغ . فتأملها إينارو لحظة خفق قلبه خلالها بقوة حتى كاد ينسى وجوده معها وسبب هذا الوجود ، وشرد فكره قليلاً ، لكنه ما عتم أن هز رأسه كأنه ينفض ما طاف به من أفكار ، وسألها وهو لا يزال واقفاً :

- أين والدك إذن يا كليو ؟ وأين كيمون ؟

- لم يأتيا بعد . لكن غيابهما لن يطول . سيدخلان بعد قليل ، تفضل بالجلوس واعذرني لحظات أكمل فيها إعداد طعام الغداء .. هل آتيك بشيء تشربه ؟

- كلا . أشكرك . سأنتظر الغداء وشرابه مع ثيوفرون وكيمون .

انطلقت كليو إلى غرفة جانبية كانت هي المطبخ ، بينما جلس إينارو على حصير من الديس في بهو البيت انتثرت فوقه مجموعة من الحشايا تحيط به بجانب الجدار ، ومد يده إلى نعليه ينزع شسعيهما من بين أصابع قدميه ووضعهما على الأرض الطينية المدموكة ، ثم اتكأ على إحدى الحشايا واستند إلى الجدار عاقداً أصابع يديه حول ركبته ، وطفق يتأمل ما حدث ويفكر منصتاً إلى حركة كليو في المطبخ وهي تعد طعام غداء أبيها وأخيها وما تستقبل به ضيفها المباغت .

ماذا فعل شيحو يا ترى ؟ هل كان من الصواب تركه يواجه مصيره وحده ؟ ألا يعتبر هذا تخلياً عن الصديق وقت الضيق ؟ ماذا فعلت بنفسك يا إينارو ؟ ثم هل من الصواب اللجوء إلى هذا البيت ؟ ماذا يحل به وبأهله إن علم جنود الفرس أنه أخفاك ؟ ماذا سيحل بكليو البريئة المسكينة ؟ وبأبيها الشيخ وأخيها الذي لا يعلم عن فعلتك شيئاً ؟ أهكذا تفر كالجبان وتضر بأناس أبرياء كل جريمتهم أنك عرفتهم وعرفوك في تلك القرية الصغيرة ؟ لا ..لا .. ليس هذا سلوك ابن الملوك . من المؤكد أن جدك بسامتيك سيغضب منك ومن جبنك وستقلق روحه في أرض (طوءت) من أرض الأموات – وسيلعنك في رقدته الأبدية . انهض . انهض يا إينارو واخرج من هذا البيت الهادئ السعيد ودع أهله وشأنهم ولا تورطهم في نتائج عملك . قم واذهب إلى قريتك إن كنت تريد الحماية ، أو واجه مصيرك بما عرف عنك من شجاعة وعن أسرتك من قبل . ماذا تنتظر ؟ قم الآن وامض . قم .

فك أصابعه المتشابكة حول ركبته ونهض يدنو من نعليه يدس الشسع بين أصابعه ، ومضى محاذراً نحو الباب حتى لا تسمع كليو حركته . لم يكن الباب مغلقاً بالمزلاج ففتحه بهدوء شديد . وما أن انفرج مصراع الباب حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام ثيوفرون .

– من ؟ إينارو ؟ ياللمفاجأة ؟

هتف الشيخ الإغريقي مندهشاً .

– تعال انظر يا كيمون . إينارو بن بسامتيك هنا . يا لليوم المبارك السعيد !

فأسرع كيمون داخلاً وهو يصيح :

– لا أصدق نفسي . حبيبي إينارو بذاته ؟ يا زيوس .. ما أكرمك !

واندفع يلقي قفة مليئة بالخضر والفاكهة وسط البهو ويحضن زائره الصديق ويعصره بقوة مرة بعد أخرى ، ويقبله على خديه .

– اجلس يا رجل .أكنت داخلاً أم خارجاً ؟ نعلاك لا تزالان في قدميك . اخلعهما واجلس .

كليو .. يا كليـو .. تعالى . ألم تري هذا .. هذا النشيد الليبيّ ؟ ألم تستقبليه ؟ أين أنت يا كليو ؟ ماذا كنت تفعلين ؟ تقرئين هوميروس يا ترى أم تعزفين على قيثارتك النكدة ؟

كان كـيمـون منتشـياً وهو يهذر فـي غمرة سـروره بلقاء صـديقه العـزيز . وما لبثـت كليو أن جاءت، ولاحظ إينارو أنهـا بدّلت ثوبها الأبيض السـابق بثوب وردي ، وعـقدت شعـرها بشريط أحمر ملتهب .. قالت موجهة الكلام لأخيها الصخّـاب :

- مهلاً أيها الثرثار . لقد استقبلته . من فتح له الباب إذن أيها الغبي ؟ تركته لحظات أهيء فيها غدائك وغداء أبي وغداءه هو أيضاً . أما أنا فلي ما في القدر أو ما قد تتركونه على المائدة .

- لـماذا وجدناه عـنـد الباب إذن ؟ لماذا ظـل متـعـلاً خُـفَّـيْـه يا «لاميـا» التـي لا تـشبع مـن طعـام القـدور ؟

- يبدو أنه استبطأكما فرام أن يدعوكما للعودة إلى البيت . ما يدريني ؟ أنت تعرفه أكثر مني . متعجل دائماً وهو لا يصبر طويلاً .

فتدخل ثيوفرون متصنعاً الوقار :

- كفاكما هذراً .. اصمتا .. اجلس يا إينارو ، وأدخل أنـت القفة يا كيمون . هل الطعام جاهز يا كليو ؟

- جاهز يا أبتاه ؟

فأضاف كيمون وهو يأخذ قفة الخضر والفاكهة :

- والشراب أيضـاً . لا تنسي الشراب . اجعلي غداءنا مـأدبة تليق بالمناسبة السعـيدة ، فنحن لا نستقبل سليل الفرعون بسامتيك كل يوم !

أخذ إينارو مجلسه السابق وقعد ثيوفرون بجانبـه ، في حين جاءت كليو بخوان صغير وضعته في منتصف الحصيـر ، ثم ذهبت لتعود بقدر فخارية يتصـاعد منها البخار ، وتبعها كـيمون يحمل ثلاثة أطبـاق بعضـها فوق بعـض في إحدى يديه ، وفي الأخـرى طبق كبـير امـتلأ بأنواع الخـضر الطازجة التي جاء بها معه تعلوها حفنة من الزيتون المملح وقال :

- انظر يا صاحبي. ها أنذا أقوم بشؤون البيت مثل أختي تماماً. أترى كيف انقلبت الأحوال بعد مجيئنا إلى راقودة؟ عندما كنا في قريتكم (أبيس) كان الطعام يأتي إلي. الآن أنا الذي يأتي به .

فعلق إينارو ضاحكاً :

- أليست هذه هي .. ماذا تسمونها ؟ آه .. الديمقراطية .. المساواة ؟ أليس كذلك ؟

- المساواة في المطبخ والطعام فقط .. أرجوك !

قالت كليو وهي تجلب طبقاً آخر فوقه قطع من لحم الدجاج المحمر :

- شكراً لهيرا ، زوجة زيوس العظيم . فقد ألهمتني أن أطبخ دجاجة اليوم إلى جانب لحم البقر الذي في القدر ، كأنها تنبئني بمجيء إينارو الذي لا يأكل لحم البقر مثل كل الليبيين . هذا لك يا إينارو .. لك وحدك . تفضل ..

فغمز كيمون بعينه ضاحكاً :

- محاباة . وحق زيوس محاباة . وتقولين (هيرا) هي التي ألهمتك ؟!

وضحك ثيوفرون بسعادة ، بينما دفن إينارو وجهه في الخوان متظاهراً بتشمم الطعام ، واحمرت وجنتا كليو فوق احمرار ، وعادت إلى المطبخ لتؤوب بدورق نحاسي وبضعة أكواب فوق سفرة صغيرة :

- هذا هو الشراب الذي طلبته يا حفيد (باخوس) . اكرع ما شئت منه حتى تنفجر .

قالت هذه الكلمات موجهة الخطاب إلى أخيها ، وانسحبت من جديد ، تاركة الثلاثة يلتهمون ما قدمته إليهم من طعام ويرشفون ما جاءت به من خمر .

قال ثيوفرون وهو يغرف من القدر الفخارية قطعاً من اللحم وبعض المرق والخضر المطبوخة :

- إليك بهذا الزيتون المملح يا إينارو ، وعليك بتلك الخضر المضمخة بزيت (التحنو) الفاخر. إن أبناء قبيلة التحنو - أبناء عمك - يأتون لنا بالزيت والزيتون من ليبيا ، وهما أفخر زيت وأحلى زيتون كما تعلم . حتى أن كلمة (التحنو) صارت تطلق على الزيت الليبي الممتاز . كل .. كل يا فتى فهو نتاج أبناء عمومتك من أرض أجدادك الأولين .

فتناول إينارو شيئاً مما قدمه إليه الشيخ شاكراً ، واندفع كيمون قائلاً :

- نحن الإغريق المتمصرين نأخذ زيت ليبيا وزيتونها ونبيعه لأهل مصر ، ونأخذ من خمر مريوط المدهشة ونبيعها للإغريق الأصلاء ، ونأخذ من بلاد الإغريق .. ماذا ؟ ماذا نأخذ يا أبي ؟

فرد ثيوفرون مداعباً :

- نأخذ من أبناء عمومتنا الجلود .

فالتقط كيمون الخيط ومضى يقول :

– نعم.. نأخذ منهم الجلود، ونبيعها للفرس الذي يحولونها إلى سياط يلهبون بها الظهور.

توقفت يد إينارو في منتصف الطبق ، ولم يستطع أن يزدرد اللقمة التي في فمه . فتنحنح ثيوفرون وقال ناهراً ابنه الذي لعبت الخمر برأسه قليلاً :

– كفى شراباً يا كيمون . هذه خمر نفاذة فلا تكثر منها حتى لا يضيع صوابك . ألم ترتو بعد ؟

قال كيمون معتذراً وقد حسب أنه أخطأ :

– معك حق يا أبت . لقد ارتويت وشبعت . يا كليو . تعالي .. نحن اكتفينا . آن لك أنتِ أن تأكلي .

فجاءت كليو تحمل وعاءً به ماء لكي يغسل الثلاثة أيديهم ، وشرعت تحمل آنية الطعام وترفع الخوان .



التفت الشيخ ثيوفرون إلى إينارو وقال مستأذناً :

– سأدخل غرفة نومي لأقيل .. سأرتاح قليلاً . نومة الظهيرة ، كما تعرف ، ضرورة خاصة لمن هو في مثل سني . معك كيمون ، وأرجو ألا يزعجك بثرثرته . بعد إذنك .

فقال إينارو ملاطفاً :

– معذرة يا عمي إن كنت أزعجتكم أو أقلقت راحتك . سوف أمضي أنا بعد قليل .أنتظر حتى تخف حرارة الجو . استرح أنت ولا تقلق بشأني .

نهض ثيوفرون وقصد غرفة داخل البيت وظل إينارو وكيمون وحيدين .. ورانت لحظات من الصمت الثقيل قطعها كيمون معتذراً :

– آسف لما بدر مني من إشارة عن السياط يا عزيزي . الواقع أن شائعة بلغتنا في الحانوت منذ قليل تقول إن رجلاً ليبيا قتل اليوم جندياً فارسياً وجده يجلد فلاحاً مصرياً في السوق . ولكن لم يعثر لأحدهما على أثر .

فتفرس إينارو في صديقه ملياً قبل أن يسأله متوجساً :

– وهل عُرف الاثنان أو أي منهما ؟

- كلا . لم يُعرف أحد منهما . فهناك مئات من الفلاحين يشبه أحدهم الآخر ، وكثير من ليبيي مريوط يأتون إلى راقودة وهم أيضاً متشـابهون ، وبما أنه لا هؤلاء ولا هؤلاء يقيمون في البلدة فإن من العسير أن يعـرفهما أحد ، كمـا أنه من العسير اتهام أي من الفريقين هكذا بدون تمييز . إضافة إلى أنه لم يكن أحد من الفرس موجوداً في موقع الحادثة ، ومن غير المحتمل أن يشي فلاح مصري بما رأى ، فالجميع يكرهون الفرس وجند الفرس وهم فرحون بما حدث .

قال إينارو بحذر :

- والإغريق ؟ أترى إغريقياً مقيماً يشي ؟

- أوه .. إنك تمزح دون شك ، الإغـريق ؟ لا يمكن .. فـأنت تدري بالحـرب بين فـارس وبلاد الإغريق قطعاً ، كما أن المقيمين هنا محتقرون مضيق عليهم الخناق وهم متعاطفون تماماً مع الليبيين والمصريين كليهما .

- وأنت يا كيمون ؟

- أنا ؟ ماذا عني أنا يا أينارو ؟

- لو عرفت من قتل الجندي الفارسي .. هل كنت تشي به ؟

فأشاح كيمون بذراعه ملوحاً وقد شعر بالغضب ، وصاح :

- من تحسبني يا إينارو ؟ أنا ابن ثيوفرون أشي ؟ هل تظنني جـاحداً غير وفي ؟ لقـد عاشرت الليبـيين والمصريين طيلة حـياتي . هنا ولدت ونموت وتعلمت ، وأنا أتكلم مـعك لغتك.. هنا قـبر أمي .. هل نسـيت ؟ والفرس أعـدائي ، أعـداء أرض أجدادي البـعيـدة وأرض أبي وأرضي التي أعيش فيها ؟ كيف تسمح لنفسك بمثل هذا الكلام ؟ أنا أشي ؟!

حاول إينارو أن يطامن من غضب صديقه :

- لست أعني ما قلت يا صاحبي . إنني أداعبك ..

- تداعبني ؟ يا لها من دعابة !

وفجأة لمعت في ذهنه خاطرة .. فأسرع يتساءل :

- إينارو ! هل لك صلة بالقضية ؟ أعني أتعرف شيئاً عن الحادثة ؟ هل تعرف الفاعل ؟

في جملة واحدة حسم إينارو الأمر :

- أنـا الفـاعـل .

***

سقطت ذراع كيمون على فخذه وطفق ينظر في وجه ضيفه يتفحصه ، صامتاً ، وهو يدير لسانه في فمه ويلصقه بشفته السفلى ، ثم يعض عليها بقواطعه مفكراً ، ثم يطلقها ليعض على شفته العليا من بعد . كان نظره قد شرد ونفذ عبر عيني إينارو إلى مكان آخر . رأى قرية صغيرة وبيتاً طينياً ذا ساحة يحيطها سياج ، وقد تجمع عدد من الرجال ذوي الريشة على رؤوسهم انحدرت سوالفهم على أصداغهم متحلقين أمام رجل تعلو رأسه ريشتان علامة الزعامة يتحدثون . رأى امرأة ترتدي ثوباً تدلت منه حول وسطها سيور تشبه سيور ثوب الربة (أثينا) تقدم رغيفاً له وآخر لصبي في مثل سنه ، وقد غمس الرغيفان في زيت الزيتون الطيب ، وهي تداعبه في محبة وود . رأى قطعاناً من البقر ترعى على حافة البحيرة وأسراباً من طائر أبي قردان المقدس ترفرف بأجنحتها البيضاء وتتناقر في صخب ، كما رأى حانوتاً صغيرة رصت أمامها جرار الخمر الفخارية المصمتة ، وأخرى بها زيت ، وقفاف تحوي عنباً وبلحاً ، وبعض الرجال يشترون من أبيه الضاحك المرح . ورأى الكاهن يهز عصاه ويترنم بأناشيد مكرسة للمعبود (إمن - رع) وأولاداً صغاراً يرددون النشيد . كما رأى فتىً يافعاً يأتي أبوه إلى مدرسة تعليم المصارعة الإغريقية ويرجو من المدرب أن يعلمه فن المصارعة ويجهد في تعليمه . ورأى لحظة وداعه وأخته لذلك الفتى الذي كبر وقوي واشتد ساعده يوم عزم أبوه على مغادرة القرية الصغيرة إلى بلدة راقودة ، وتركز بصره على قبر صغير كادت تندثر معالمه . إنه قبر أمه هناك في تلك القرية ، وتذكر كم بكى صديقه الفتى معه وهو ينتحب وبجانبه العزيزة كليو ، يوم علا العويل معلناً وفاة أمه وكيف ضمه ذلك الصديق وأخذه وأخته إلى بيته ذي الساحة الكبيرة ، حيث ظل أياماً طويلة لكي ينسى مصابه وتتأسى أخته ويسلو والده .

طافت هذه الرؤى بذهن كيمون فترة قصيرة ، وهو لا يزال يحدق في عيني صديقه الضيف . وبعد هنيهة استرجع نفسه فرفع يده وخبط بها ركبة جليسه وهتف :

- هو أنت إذن ؟! أوهوه !

وغلبته طبيعته المرحة فأضاف :

- بطل ... وحق زيوس وفولكان وأبوللو وجميع آلهة الأولمب .. إنك لبطل . لم تضع دروس المصارعة الإغريقية سدى يا صاحبي ، والفضل يعود إلي أنا أيها الصنديد . أتذكر ؟ لولاي لما أرسلك أبوك إلى مدرسة المصارعة ، ولما تعلمت سبلها ، وطبعاً ما كان لك أن تصرع ذلك الجندي الفارسي بلي ذراعه .. الفضل في هذا كله لي .. لكيمون بن ثيوفرون الإغريقي.. هل نسيت ؟

ابتسم إينارو وأجاب :

- كلا . لم أنس ، فالفضل يعود إليك قطعاً . وها هو من تصفه بالبطولة يقعد مختبئاً .. بفضلك أيضاً !

- مختبئ ؟ من يقول هذا ؟ إنك فقط تستريح مما بذلت من عناء في مصارعة ذلك الوغد والقضاء عليه . ها أنت جالس بعد أن طعمت وشربت ويمكنك أن تغفو غفوة القيلولة إن شئت. هكذا يفعل أبطال المصارعة عندنا وأبطال القتال .

فعلق إينارو :

- أخشى أن تكون غفوة الأرنب حين سخر من السلحفاة في حكاية عيسوب المعروفة.

- أرنب وسلحفاة ؟ ما هذا الهراء ؟ أتنوي الفرار جرياً يا ترى ؟ خير من هذا أن تذكر حكاية الثعلب المتماوت حين رأى الأسد فانصرف هذا عنه لأنه لا يأكل إلا ما يصيد حياً . هذا أفضل لك.. ولي كذلك .

- تقصد .. ولكم الثلاثة يا صاحبي .

- لكم ... لنا .. لي .. لك . لا يهم . المهم أن نتدبر بروية ونفكر في سبيل للخروج من هذا المأزق يا عزيزي . أخبرني أولاً بما حدث بالتفصيل يا إينارو .

أخذ إينارو يروي ما جرى هامساً ، وكيمون صامت مصغ لا يقاطعه حتى أنهى روايته، فسأله هذا :

- ومن كان ذلك الفلاح الذي ورطتك نخوتك معه هذه الورطة ؟

- اسمه شيحو بن حتب .

- شيحو ؟ أبو العيال ؟

- هو ذاك . توقعت أنك تعرفه وتذكره .

- وكيف لا أعرفه وهو الذي كان يداينه أبي كثيراً حتى كاد يفلس حانوتنا بعجزه عن السداد ؟ كان لديه سبعة أطفال في ما أذكر وقد باع جزءاً من أرضه كي يعولهم .

- بل صاروا اثني عشر الآن ، وباع بقية الأرض ولم يعد يملك شيئاً ، فجاء يبيع بقرته الوحيدة المنحوسة .

ضحك كيمون بمرح :

- عليها اللعنة مائة مرة ، فلو لم يرها ذلك الجندي يجرها من حبلها لما طمع فيها ولما حدث ما حدث . هي السبب في كل ما جرى ، لكأنها البقرة (هاثور) قرينة المعبود (ست) إله الشرور ، فهي بقرة نحس فعلاً .

فعدّل إينارو من جلسته وقال :

- فلتكن بقرة (هاثور) أو العجل (ورمر) - أنتم الإغريق تسمونه (أبيس) . المهم أن شيحو سيعود إلي القرية خالي الوفاض ، إن نجا طبعاً ، ولن يجد ما يحشو به تلك الأفواه الفاغرة .

- إلى جانب ما ستقابله به زوجته السمينة «مريت إمن» سليطة اللسان . هذا دأبهم . الفلاحون يقاومون أعداءهم المحتلين بكثرة الإنجاب وزيادة العدد حتى أصبحت الدلتا وشريط النيل كله حتى الشلال الكبير في الجنوب لا تسعهم .

قال إينارو :

- الكم عندهم أهم من الكيف . هذه فلسفتهم . يعجبني الإغريق ياكيمون ، وحق (سخنت) ربة الولادة . فأثينا لا يتجاوز أهلها الخمسين ألفاً ومع هذا فهي تقف بصلابة في وجه جيوش أحشويرش الفارسية . أما اسبرطة فهي مثل رائع في النظام والتنظيم . سمعت أن الاسبرطيين إذا ولد لهم مولود تركوه بمجرد ولادته ليلة في العراء ، في ذلك البرد القارس . فإن ظل حياً في غده دل ذلك على قوته ومقاومته فينشأ قوياً ويعد مقاتلاً صلباً . فإذا مات تخلصوا من زائد ضعيف لا فائدة منه ولا نفع .

قال كيمون :

- هذا صحيح . آه لو تأسى فلاحو مصر باسبرطة .. أو حتي بأثينا .

شعر إينارو ان الحديث تحول عن مجراه الذي يريد، فتثاءب واضعاً كفه على فيه ومدّ ذراعه الأخرى يتمطي. فانتبه كيمون لدلالة الحركة ورام أن يعيد وصل الحديث من جديد وقال :

- أتظن أن شيحو سيجد طريقه إلى القرية ؟

- شيحو ليس غبياً وسيتصرف بشكل جيد .

- أتظنه إن أمسكوا به - لا سمحت السماء - سيخبرهم بأمرك ؟

أحس إينارو بمعنى السؤال فأسرع مؤكداً :

- كلا .. لن يفعلها . أنا أعرف الرجل جيداً ، إنه وفي جداً ، بل بالغ الوفاء ، وحتى لو أمسكوا

به فهو لن يشي بي ولن ينطق باسمي . هو يدرك أيضاً أن لجاني تعني حياة أولاده ورعايتهم ، فلا أنا ولا أبي يمكن أن نتخلى عن عياله إن قتل هو . من سيرعاهم غيرنا ؟ اطمئن يا كيمون فأنا على ثقة مما أقول . اطمئن تماماً .

هنا سمع الاثنان حركة آتية من الداخل ووقع قدمين تقتربان . كان ثيوفرون قد صحا من غفوته وجاء نحو ابنه وضيفه .

7

– ألا تزالان تتحدثان ؟

هكذا ووجه الشيخ الكلام إلى الشابين مبتسماً فرد كيمون :

– نوم العافية يا أبي . نعم لا نزال نتحدث .. فإننا لم نلتق منذ مدة كما تعلم ..

قال ثيوفرون :

– حسن . أنا ماض لأفتح الحانوت . هل تحبان مصاحبتي إليه ؟

قال كيمون :

– معذرة يا أبي . إينارو لا يريد الذهاب إلى السوق هذه العشية وأنا لم أشبع من الحديث معه بعد . أفضل أن نبقى في البيت . أهذا ممكن ؟

– ممكن جداً .. يسعدني أن يظل إينارو معنا . لعله يبيت الليلة عندنا . لم أتحدث معه كما يجب .. سأذهب وحدي إذن . اعتن أنت يا كيمون بضيفك وآنسه .

ثم مضى نحو الباب يعالج مزلاجه .

– أبي .. أبي .

ناداه كيمون وهو يلحق به مسرعاً قبل أن يفتح الباب . وقال هامساً :

– لا ضرورة لأن تخبر أحداً بأن إينارو عندنا .. هه ؟

فنظر ثيوفرون إلى ابنه نظرة ذات مغزى وتساءل :

– ولا أحداً من المصريين أو الليبيين ؟

– ولا الإغريق .

قال الشيخ متخابثاً :

- ولا الفرس .. طبعاً ؟

- ولا آلهة الأولمب أو أرباب منف ... يا أبت .

ففتح ثيوفرون مصراع الباب وأردف :

- ولا كليو أيها الماكر ؟

-يبدو أن (أفروديت) أخبرت كليو منذ مدة طويلة يا أبي .

هز ثيوفرون رأسه الأشيب قائلاً :

- بقي أن يحضر ابنها العزيز (إيروس) لينتزع سهميه الصغيرين اللذين أطلقهما منذ حين.

وأغلق الباب خلفه ومضى .. فسارع كيمون يوصده بالمزلاج ورجع إلى رفيقه وعلى شفتيه يرف طيف ابتسامة .

قال :

- ها نحن وحدنا . كليو لن تأتي إلا إذا دعوتها .. قل لي .. ماذا ستفعل ؟

فحك إينارو جبهته بأطراف أصابعه ولم يحر جوابا . كان يفكر في طريقة يخرج بها صديقه وأبا صديقه وأخته من الموقف الحرج الذي وضعهم فيه بلجوئه إليهم . فانطلق كيمون :

- أعني ماذا سنفعل ؟

رد إينارو :

- سأنتظر حتى هبوط الليل وأخرج ..

- إلى أين ؟

- سأجد طريقي . لا تخش علي شيئا .

- طريقك ؟ إن قريتك ليست بالقرب الذي تراه ، وطريقها تجوبه سرايا العسس الفارسية ، وعندما يعثر على سيد ليبي يمشي في الظلمة وحده تدري ما النتيجة . قل لي .. هل رآك أحد وأنت قادم إلى منزلنا ؟

شعر إينارو مرة أخرى بأن صاحبه متوجس .. وقد عذره في توجسه ذاك ، فالشاب مجرد ابن تاجر إغريقي بسيط طيب يعيش حياة هادئة يرعى ولده وابنته ، ومن الظلم إيقاعه في ما لا صلة له

به . وأراد طمأنته مرة ثانية فأجاب :

- كلا يا كيمون . لم يرني أحد ، فقد كان الوقت يقارب الظهيرة والبيوت موصدة على نسائها وأولادها ، وكان الرجال في السوق لم يعودوا بعد . لم يرني أحد سوى تلك الدجاجات الرائعة بين البيوت .

خبط كيمون كفيه وعلق :

- آها .. عرفت الآن سر تلك الدجاجة التي قدمتها لك كليو على مائدة الغداء . يبدو أنها خشيت أن تكون تعرفت عليك وربما أوشت بك ، فغافلتك وخرجت لتمسك بها وتذبحها وتقدمها لك مشوية محمرة . تغذيت أنت بتلك الدجاجة قبل أن تتعشى هي بك !

- أيخون دجاجكم ولا يخون الفلاحون هنا ؟

- إنها دجاجة حبشية ، أو لعلها يهودية ، هذا ظني . أو .. دعني أفكر . لعلها الغيرة .

- الغيرة ؟

- نعم . إن كليو غيورة جداً ، تغار حتى من الدجاجات سيما إذا كانت دجاجة حبشية أو يهودية . أحذرك . أنا أحذرك يا إينارو !

قال إينارو :

- كفى عبثاً يا كيمون . دجاج ماذا وبط ماذا ؟ ألم تجد ما تتلهى به ؟

ارتسمت علامات الجد على وجه كيمون ونهض ومضى إلى داخل البيت ، ثم عاد وعلى كفه طبق امتلأ عنباً وفي يده رمانتان كبيرتان :

- لنأكل أولاً ، فأنا جعت . هذا عنب مريوطي ممتاز ورمان جاءنا من المدينة الكبيرة نكراتيس . كل يا صاحبي وذق طيب الفاكهة .

ثم شرع يفلق رمانة وقدمها لضيفه مع عنقود من العنب الأسود الممتلئ ، واكتفى هو بتناول حبات من العنب الموضوع في الطبق . وقال :

- نعود إلى حديثنا . لن أدعك تخرج وحدك ، ولن أتركك تمضي ليلاً في الطرقات المظلمة. يمكنك أن تبقى هنا حتى تهدأ الأحوال ، فلن تثقل علينا أبداً ، ثم نجد سبيلا .

- كلا يا صديقي . هذا غير ممكن . لا بد لي من الخروج الليلة .. يجب أن أذهب وليكن ما يكون .. لا أريد توريطكم في ما لا شأن لكم به ولا أريد إيذاءكم بأي حال .

- توريطنا ؟ لقد تورطنا وانتهى الأمر . أنا تورطت معك إذ شاركتك الطعام والشراب . وكذلك فعل العجوز ثيوفرون . أما كليو فقد كانت متورطة منذ مدة ! لا تنس أننا أصبحنا في قارب واحد كما يقولون في الكتب .

قال هذا وتوقف عن الكلام فجأة كأنه يتفكر وأسند ظهره إلى الجدار وسرح ناظراه في الفراغ ، فتحير إينارو من أمر هذا الشاب الذي يمزج الجد بالهزل ويتقلب بين المرح والعبوس المصطنع ، وصمت ينتظر ماذا سيقول أو سيفعل .. وران الصمت بين الاثنين قطعه انحناء كيمون بغتة إلى الأمام حتى قارب وجهه وجه إينارو وهتف بصوت خفيض :

- نعم . ها ما نفعله . هذا هو السبيل . ليس ثمة سبيل أكثر أمناً وأضمن .

فازدادت حيرة إينارو وسأله :

- عم تتحدث ؟ ما الذي نفعله ؟ وما هو السبيل الذي تتكلم عنه ؟

- اسمع .. اسمعني جيدا . نعم .. نحن في قارب واحد .. أليس كذلك ؟ القارب إذن هو السبيل . فهمت ؟

- كلا .. لم أفهم .

- قلت لك إن الطريق خطرة ، فالعسس فيها كثيرون . فلندع الطريق وعسسها ولنمض إلى البحيرة . أعرف صديقين من صيادي السمك يملكان قارباً ، وأعرف أين أجدهما .. سوف أتفق معهما على نقلك بقاربهما إلى قريتك . سيشقان البحيرة بدلاً من محاذاة شاطئها ويدوران حتى يصلا القرية فتهبط عند أطرافها بسلام .. بهذا لن تقابل عسساً ولا جنداً وتنجو بإرادة (زيوس) أو بمشيئة (إمن) .. أيهما تحب .

- وكيف تضمن صمت الصديقين العزيزين يا صاح ؟

- أمعك قدر كاف من المال ؟

- معي .

- بالمال تخرس الأفواه وتقطع الألسنة . سندفع لهما من الذهب ما يغلق الفم ، تماماً كما يدفع الأموات قطعة الذهب في فم (خارون) لينقل أرواحهم بقاربه إلى عالم (الهايدس) ، فإن لم يدفعوا ظلت أرواحهم هائمة على ضفة نهر (ستوكس) الجهنمي إلى الأبد . هكذا تقول أسطورتنا الإغريقية . فلتكن بحيرة مريوط هي نهر ستوكس ولتكن قريتك الغالية عالم الهايدس الرحيب . جيد ؟

لم يجد إينـارو ما يقوله وبدت له فكـرة صاحبـه معقـولة إذا مضت في طريقـها للتنفـيذ دون عراقيل ، ولم يكن لديه أي منفذ آخر كما لم يكن له من يعرفه ويركن إليه في راقودة غير كيمون، فأراد أن يستوثق وسأله :

- وكيف الوصول إلى القارب وصاحبي القارب ؟

فرد هذا :

- دع الأمـر لي . لا تشغل بالك .. سـوف أقـرضك رداءً من أرديتنا ونمضي مـعاً كـإغريقـيين صميمين . أنت تعرف بضع مفردات وجمل إغريقية التقطتها من مدرسة المصارعة ومني ترطن بها معي ولن يلاحظنا أحد في هذا الليل . هه .. ما رأيك ؟ موافق ؟ أليست خطة بديعة ؟

- بديعة جداً إن مضت على ما يرام . فليهدنا رع .

ضحك كيمون فرحاً بقبول خطته وقال ممازحاً :

- رع ، إله الشمس ، سيكـون آنذاك يغط في نوم عميق ملتفاً بعـباءته في أرض إمنت . ادع إله القمر ... خنسو ، إن شئت .. كلا .. الأفضل أن تدعو ربات الأنجم الخالدات ، فخير لك أن يكون خنسو المعظم مختفياً كذلك .

كانت الشمس قد مالت إلى المغيب وبدت الظلال طويلة ممتدة .. قال كيمون :

- سأتركك سويعة وحدك . لا .. لا . لن تكون وحدك ، فإن كليو معك . سأذهب للاتفاق مع الصيادين وأعود قبل عودة أبي . عن إذنك . يا كليو .. أين أنت ؟ تعالي . سأغيب قليلاً ولا يجوز أن يترك هذا الليبي وحيداً . أخشى أن يحاول الفرار - منك طبعاً - كما فعل من قبل .

أطلت كليو مبتسمة وهي تسمع عبارات أخيها الأخيرة وقد استجابت لندائه ، فأضاف :

- احـرسـيـه جـيـداً يا أُخـيّـة .. جـيـداً جـداً . اتـريـن أن أوثقـه أم تتـكفلــين أنـت بوثـاقـه بطـريقتـك الخاصة؟!

وأسرع نحو الباب خارجاً .

8

جلست كليـو غير بعـيد من إينارو صـامتة وقـد شملهـا الارتباك ، وظلت تشبك أنـامل يديها الرخصة ونظرها مصوب إلى الأرض . فتأملها إينارو على مهل .. يا للآلهة ! كم ازدادت حسناً !

إنها تتفجر شباباً وعافية . طافت بذهنه صورتها طفلة في نحو الخامسة لا يتجاوز طولها أربعة أشبار وسمع صدى كركرتها وكيمون يصرعه المرة تلو الأخرى ويلكمه على جبهته بقبضته القاسية وهي تضحك في مرح طفولي .. وابتسم . وتخيل شعرها الأشعث والدموع تسح من عينيها يوم ماتت أمها وكيف جاءت مع أخيها إلى بيت أبيه ، ولم تذق طعاماً عدة أيام حتى هزلت وبرزت عظامها وهي لا تكف عن النحيب ليل نهار .. فعلا وجهه الحزن حين تذكر أمها الطيبة اللطيفة الباسمة . ها هي كليو أمامه ، قطعة من الفتنة الطبيعية دون تزاويق . لقد رآها منذ أعوام في زيارته الوحيدة لأخيها بعد انتقال أبيها من القرية إلى راقودة، ولكنها لم تكن نضجت كما هي الآن . أينعت وتحددت معالم جسدها الأنثوية ، وصارت امرأة شهية رائعة . صحيح أنه أعجب بها في زيارته تلك ، لكنه الآن يحس بشيء آخر غير الإعجاب ، ماذا يسمونه ؟ الحب ؟ هل صار يحبها فعلاً ، أم هو كان يحبها ولا يدري ، أم ترى ازداد حبه لها الآن فصار ولهاً أو عشقاً أو ما وضعوا من أسماء ؟ هي طيبة بلا ريب ، من أسرة طيبة . وهي جميلة .. جميلة جداً ، ومتعلمة أيضاً . وأخوها صديقه منذ الطفولة ، وأبوها يعرف أباه وأهله وكان نعم الرجل المهذب المحبوب من الجميع . وهي مرحة في اتزان . طاهية حاذقة كما رأى . ربة بيت ممتازة . ماذا آخر ؟ إنها عازفة ماهرة على القيثارة وراوية لأشعار الإغريق . ماذا يطلب أكثر من هذا ؟

لم يجد إينارو ما يفتح به الحديث . سدت أمامه السبل ، وطالت فترة الصمت بين الاثنين .. هل تراها تميل إلي ؟ أعني هل هي تحبني ؟ إن نظراتها تقول أشياءً كثيرة ، وتلميحات أخيها توحي بأنه يعرف شعورها نحوي . بل إن أباها لمح كذلك إلى شيء ما . هل تراني غبياً إلى هذا الحد ؟ آه.. ما أصعب سبر أغوار المرأة ! كيف لي أن أعرف ما يدور في خلدها ، وما في قلبها ، أنا القليل الخبرة العديم التجربة ؟ ليتها تتكلم !

رفع إينارو عينيه عن كليو متظاهراً بتأمل السقف ومتشاغلاً بتسوية عباءته المطرزة ، وحطت حمامات على حاشية سطح البيت ترسل هديلها المنغم والسكون يشمل المكان . فانتهزت كليو الفرصة وقالت :

- أخيراً تذكرتنا يا إينارو .

فوجئ بكلماتها ترسلها بصوتها الدافئ العذب ، وتنحنح :

- كنت أزمع زيارتكم منذ مدة يا كليو . لكن المشاغل منعتني . أبي كبرت سنه ، تعرفين هذا ، وأمي كذلك ، وعليّ واجبات لا بد من القيام بها . متابعة الرعاة وجمع المستحقات ، وحراثة

الأرض وزراعتها ثم يأتي الحصاد ، ومشكلات الفلاحين . وهناك الزوار يـأتوننا من الفيوم ، ومن ليبيا ذاتها . من سيوة ، وواحة إمن ، ومن أوجلة . بل كان لدينا زوار في الأسبـوع الماضي جاءوا من شاطئ سرت الكبرى .

قالت :

- يأتيكم الزوار من سرت الكبرى على بعدها ولا تأتي أنت لزيارتنا على القرب ؟

- عفوك يا كليو . قلت لك إنني مثقل بالمشاغل . كل يوم أمني نفسي بزيارتكم في راقودة ، ثم كل أسبوع ، وكل شهر ، حتى صارت الأمنية كل سنة .. وها قد جئت على كل حال .

- هذا حسن . وسترحل بعد قليل ولا أدري متى تعود . هل ستعود حقاً ؟

- بالتأكيد . مرات ومرات .

- تذهب وتجيء ، وتجيء وتذهب . هذا إن جئت فعلاً .

انتبه إينارو إلى التلميح الذكي ، وفكر في ما يدور في رأسها الـصغير . معها حق . هل سيظل غادياً رائحاً بين قريته وبلدة راقودة ؟ وإلى متى : ومن يضمن أنه سيلقاها ذات زيارة؟ أليست الآن فاكهة ناضجة حـان قطافها وقد يأتي من يقطفها في غيابه ؟ قد يجيء من يختـطفها كما اختطفت الجميلة (هيلين) فهل تراه يشن حرباً يقودها بفلاحي قريته ضد راقودة أو نكراتيس كما شنتها أثينا ضد اسـبرطة ؟ أم لعلهـا ستنتظـر عودته إن غاب طويـلاً على الشاطئ الآخـر من بحيـرة مريوط ، قاعدة بمغـزلها كما انتظرت (بينيلوب) حـبيبهـا (أوديسيوس) عشرين سنة كـاملة تسوّف الخطاب بنكث غزلهـا يوماً بعد يوم ؟ لقد حـدثه كيمون بهذه الحـكاية نقلاً عن شاعر الإغـريق هوميروس الذي قرأتـه كليو قطعـاً ولعلها تفكر في مـا يفكر هو فيـه الآن . فليتـقدم خطوة يحـاول بها سـبر أغوارها . هيا !

- ليس بالضرورة يا عزيزتي .. قد أذهب ولا أجيء ... أعني قد نذهب ولا نجيء .

أصاب السهم مـرماه ، ففتحت عينيـها اللتين كانتا نصف مغـمضتين وتألق في حدقتـيها بريق الفرحة الغـامرة ، وانفرجت شفتـاها القرمزيتان قليلاً كـأنها تتهيأ لتقـول شيئاً ، غيـر أنها أمسكت وأطبقت شفتيها معتصـمة بالصمت ، وران السكون من جديد ، أراد إينارو أن يخرجها من الحرج بعد أن أدرك رد الفعل الصامت فقال :

- من يدري ؟ لعل عمي ثيوفرون يقرر العودة إلى قريتنا مـرة أخرى ، فنحن نفتقده كثيراً ، وله أصدقاء هناك وذكريات لا تنسى .

ابتهجت كليو حين سمعته يصف أباها بأنه عمه وانتهزت فرصة تغيير مجرى الحديث . قالت :

– الذكريات .. نعم .. ما كان أحلاها من ذكريات في تلك القرية الوادعة . كانت الحياة طيبة جداً ولست أدري ما الذي جعل والدي يغادرها .

– لعله هرب من الذكريات المدفونة هناك .

– قد يكون . لكن هل يهرب المرء من مكان الذكرى ؟ إنني أحترق شوقاً إلى زيارة قبر أمي، فأنا منذ جئنا إلى راقودة لم أعد إلى القرية .. الواقع أنني لم أكد أذهب إلى أي مكان. يمكنك أن تقول إنني لم أغادر هذا البيت إلا نادراً . سجينة تقريباً . أحس بالملل وحدي ، أدور ما بين هذا البهو والمطبخ ، وأرتب الغرف ، وأطهو ، وأعيش مع بضع دجاجات هي أسعد مني إذ يمكنها الخروج والطواف في أزقة حيِّنا على كل حال . هناك كنت حرة طليقة ، ألعب مع أترابي وألهو على شاطئ البحيرة وأتحدث مع الناس . أتدري أنني كدت أنسى الكلام لطول وحدتي ؟

فداعبها إينارو :

– تنسين الكلام وأخوك كيمون ؟!

– أخي شقيق طيب ، مرح ، ولكنه مع أبي في الحانوت أغلب الوقت .. حين يعود كل مساء يبعث البهجة في البيت الصامت وفي نفسي .. لقد اصطحبني بضع مرات إلي المعبد الإغريقي وأخذني مرتين إلى المدينة الكبيرة نكراتيس لأشتري ما لا يوجد في هذه البلدة . ما الذي يمكنه أن يفعل أكثر من هذا ؟ هو معذور ، فأبي يصر على مرافقته إياه في الحانوت .. ليتعلم التجارة كما يقول .

– ويواصل الإرث التجاري الإغريقي طبعاً .

– ليس هذا فقط . إن أبي صار يحس بأثر السنين وهو ..

وأمسكت . فسألها إينارو :

– وهو ماذا ؟

قالت مترددة :

– هو ، في ما يبدو لي ، قلق .

– قلق ؟ من ماذا وعلى ماذا ؟

- من مرور السنين ، وعلي ..

فهم إينارو إشارتها . إن الأنثى قادرة على بلوغ غايتها بكل السبل أو بأي سبيل . اتضحت الصورة الآن ولم يعد يخامره شك في أنه لو تقدم خطوة قصيرة لقابلته كليو بخطوات أسرع من خطوات أخيل . لكنه لا يزال حذراً فتشاغل بالتقاط حبات من العنب في الطبق الموضوع أمامه وحك أنفه بسبابة يده اليسرى يجيل عرضه في ذهنه ليجد الكلمات المناسبة . قال :

- كليو .

فنظرت إليه مترقبة متوجسة وخفق قلبها بعنف :

- نعم ؟

- هل يسرك مغادرة هذا البيت .. أعني هذا السجن ... حقاً ؟

- قلتها أنت . من ذا الذي لا يحب الخروج من سجنه ؟

- وهل يسعدك العيش في قرية صغيرة مع الفلاحين ورعاة الأبقار ؟

كادت تختنق وهي تبتلع ريقها بصعوبة :

- في موطن الذكريات ؟

- نعم .. في موطن الذكريات .

- أنا ... فعلاً .. الـ .. من الممكن .. أنا .. فعلاً أود ذلك .

قالت جملتها المقطعة ودفنت وجهها بين كفيها تغطي عينيها في خفر ، فأسرع إينارو يوالي استكمال عرضه أكثر وضوحاً :

- إذن سأكلم عمي ثيوفرون وكيمون في الوقت المناسب .. سأخطبك يا كليو إذا رضيتني زوجاً لك .

فتنهدت كليو عميقاً وأنزلت كفيها من وجهها وكانت تنظر إلى الحصير مطأطئة رأسها ، فبانت لإينارو صفحة جيدها الأملود الطويل وقد ارتفع عنه شعرها الكث الذي عقصته على الطريقة الإغريقية في كومة مرتفعة يتدلى من عقدته الشريط الأحمر الملتهب فيلامس زغب العنق الأبيض الجميل . وفي لحظة نازعته نفسه أن يهم بالاقتراب منها وتقبيلها ، وقد أخذته النشوة ، لكنه تمالك وثبت في جلسته تلك متوقعاً أن تبدي كليو رد فعل لكلماته التي أطلقها في عرضه الجلي . غير أن هذه ما لبثت أن نهضت فجأة وهي تقول :

- أوه .. يا إلهي ! لقد سرقنا الحديث يا إينارو والشمس توشك على المغيب . سيحضر أبي بعد قليل ولم أهيئ طعام العشاء بعد .. يجب أن أسرع . قد يأتي كيمون أيضاً وسيشعل النار في كوم القش على سطح البيت إن لم يجد عشاءه معدا .

قالت هذا وانطلقت في خطوات متعثرة إلى داخل البيت .

9

ظل إينارو وحده وقد بدأت العتمة تسود البهو الذي كان جالساً فيه ، فوضع ذقنه بين سبابته وإبهامه وغمرت ذهنه موجة من الأفكار المضطربة .. ماذا فعلت بنفسك وبهؤلاء الناس الطيبين أيها الشقي ؟ ها أنت ذا مختف عن الأنظار كالأرنب المذعور في جحر مظلم ، مطارد تخشى أن يراك أحد أو يعرفك أحد . قتلت ذلك الجندي الفارسي في لحظة اندفاع طائشة دون تفكير في العاقبة ، وورطت شيحو المسكين في جريمة عقابها الموت وتخليت عنه وتركته يواجه مصيره وحده. ثم جئت تلوذ بهذه الأسرة الصغيرة الوادعة المسالمة وأشركت وحيدها في جريمة التستر عليك ، أيها القاتل ، ثم تركته يسعى لتدبير وسيلة لفرارك دون أن تثنيه عن عزمه أو تحاول منعه ، وجلست مستمتعاً بقعدتك تأكل فاكهته ، وتستريح على حشايا بيته . ليس هذا فحسب بل إنك تمعن في ضلالك فتنتهز فرصة غياب الأب والابن ولعلك تشرع في إغواء الفتاة التي ائتمناك عليها . فإن لم يكن غرضك الإغواء وكان عرضك عليها الزواج منك صادقاً فذلك أشنع . أي زواج هذا أيها القاتل الطريد ؟ هل أخبرتها بما فعلت أكانت ستظهر موافقتها إن علمت بفعلتك الشنعاء ، أم تراك تستغل وحدتها . وما حسبته ميلها إليك ، أيها المغرور ، أو حنينها إلى ذكريات الطفولة الجميلة فتغريها بما لا تضمن تنفيذه ، قلت لها إنك ستخطبها «في الوقت المناسب» - فما هو هذا «الوقت المناسب» ؟ الآن .. وأخوها يعلم من أمرك ما يعلم ، أم بعد رحيلك ولا تضمن وصولك سالماً ؟ فإن نجوت فهل تضمن موافقة أبيك على اختيارك لها ؟ أم لعلك ترغب في أن تعيش على ذكراك عانساً إن قبض عليك وقتلت ، أيها البطل الأناني المخفق المخادع ؟

مضت الأفكار تطوح به والخيالات تلعب بذهنه المكدود ، وبدا له في لحظة أن ينتعل خفيه مرة أخرى ويندفع خارجاً هارباً من موقفه العسير الذي أوقع فيه نفسه وليحدث ما يحدث . استسخف الفكرة واستصغر ذاته وطفق يلعن اليوم الذي ولد فيه . وكان الظلام قد دنا ولم تأت كليو إليه . لبث في الداخل يسمع بين الحين والآخر وقع خطواتها ولا يجرؤ على عمل شيء . لم

يجرؤ على مناداتهـا بزعم طلب حاجة ، مثـلاً ، أو الدخول إليها ، أو الخـروج من مكمنه ، فمكث في مكانه ينضح العرق منه دون حراك .

كسرت حدة الصمت المطبق طرقات على الباب ، فأسرعت كليو مندفعة نحوه تفك المزلاج .

– افتـحي يا هذه ، أبوك وأخوك والدجـاجات ببابك الموصـد . نسيت أن تدخلي الدجـاجات المسكينة . أتتركينها للثعالب بعد أن ذبحت إحداها ؟

كان صوت كيمون . ففتحت كلـيو الباب على عجل مرتبكة ، ودخل ثيوفرون أولاً يحمل بين ذراعيه صرة وتبعته الدجاجات وأفراخها يهشها كيمون بعصا قصيرة في يده . ألقيا تحية المساء على إينارو ودلفا إلى داخل البيت في إثر كليو .. وما لبث الاثنان أن عادا إليـه وقد تخليا عن عباءتيهما واكتـفيا بثوبين طويـلين يخبان فيـهما خـباً بكميهـما الواسعين وتقـويرة العنق التي تبين عن الحلق وجزء من أعلى الصدر .

قال ثيوفرون :

– آسف إذ بقـيت وحـدك في البـيت يا إينارو . مـا كنـت أحسب أن يـغادرك هـذا الولد قليل الأدب والذوق ... ويأتي إلى الحانوت . هذه جلافة .

فانبرى كيمون مدافعاً عن نفسه ، محاولاً أن تسمعه كليو :

– قلت لك يـا أبي إن إينارو هو الذي أرسلـني إلى رجل يطلب مـنه ديناً ولا يعـرف مكانه ، فتبرعت بالقيام بالمهمة ، وقد مررت بك في طريق عودتي أستعجلك الرجوع إليه . كنت أظن أنني أؤدي خدمـة له ورمت أن أكون لطيفـاً معك ومعه . ثـم إنه ليس وحده في البيت كـما تعلم. هل تبغي أن أستأجر له مغنيات يؤنسنه يا ترى ؟!

– ولِمَ لا ؟ كان يجب أن تعتني بضيفك شخصياً أيها الجلف الأحمق .

– في المرة القادمة إن شاء أبوللو ، رب الموسيقى والطرب ، ولكن لماذا استئجار المغنيات ولدينا كليو ؟ إنها رغم سوء طهوها – عازفة ماهرة على القيثارة . أعترف .

أقبلت كليو في هذه اللحظة تحمل طبقين في يديها وقد سمـعت كلمات أخيها الأخيرة فقالت باسمة :

– تعترف أو لا تعترف يا عزيزي ، فأنا ماهرة في العزف والطهو معاً . لكن لا شيء يرضيك .. إن كان طهوي لا يعجبك فلا تأكل ما أعددت إذن .

قال وهو يتناول الطبقين من يدي شقيقته :

– أسوأ الطعام طهواً لذيذ إذا كان المرء جائعا . هذه مقولة تعمل بها النسوة دائماً : لا تقدمي طعاماً لزوجك إلا حين يشتد به السغب فيلتهمه ألذ ما يكون حتى إن كان أسوأ ما يكون ، هاتي .. هاتي . أنا مشفق على من سيقترن بك .. فقط يا أختي العزيزة .

اندفعت كليو لتأتي بطبقين آخرين دون أن تعلق ثم جاءت بكوز الشراب وثلاثة كؤوس .. وجلست . قال كيمون :

– هذه الليلة مسموح لكِ أن تجلسي معنا وتأكلي أيضاً ، إكراماً لضيفنا العزيز ولأننا محتاجون إليك . أما الشراب فلا وألف لا .

فسألته :

– وما حاجتك إلي ؟

– العزف . سنسمع عزفك . نحن نشرب وأنت تعزفين . ليلة أنس .

ضحك الجميع وقال إينارو وقد نسي ما كان فيه :

– مهرج دائماً كما كنت يا كيمون .

ومضى الحديث على هذا النحو حتى أنهى الجماعة طعامهم ، فحملت كليو الأطباق إلى المطبخ وجاءت بإناء وإبريق ليغسلوا أيديهم ، ثم أرجعتهما ، وكان الظلام قد حل ، فأتت بقنديل تشتعل فتيلته بلهب أنار البهو ، وضعته في كوة مصمتة بالجدار يعلو رؤوسهم .

– والآن القيثارة .. القيثارة يا أختاه !

صاح كيمون منتشياً . فأمن ثيوفرون على قوله :

– نعم القيثارة يا عزيزتي ، آن الأوان .

فدخلت وعادت تحمل قيثارتها واتخذت مكاناً مناسباً وشرعت تداعب أوتارها استعداداً لإرسال الألحان . وكان السكون قد خيم تماماً فانطلقت أنغام شجية من القيثارة الساحرة وكليو منحنية نحوها تروح أنامل يدها اليمنى وتجيء على الأوتار المشدودة علواً وسفلاً ، وقد قبضت أصابع يدها اليسرى على أصول الأوتار ترتفع وتنخفض مساوقة ما يصدر عنها من أنغام . لاحظ إينارو أن كليو فكت عقدة شعرها وتركته منسدلاً يتهدل على كتفيها ويهبط حتى ركبتيها ويغطي حجرها ، وكانت في أثناء العزف تزيحه بتحريك رأسها يمنة ويسرة حتى لا يشتبك بأوتار قيثارتها،

فبدت له عروساً من عرائس الفن أو ربة الموسيقا ذاتها توجه إليه ألحانها هو وحده . كانت تختلس النظر إليه بين الفينة والفينة ترف أهدابها الطويلة في غنج مثير وقد اندمجت تماماً حتى تكاد أن تغيب عن الوجود ولف الصمت الرجال الثلاثة يستمعون.

نسي إينارو ما كان فيه من كرب . أخذته النشوة بعيداً بعيداً في لجة الطرب تتقاذفه أمواج الألحان تعلو به وتهبط ورفت روحه في ملكوت الغبطة ، في عالم آخر نأى به عن دنياه . كان يغمض عينيه حيناً فيرى نفسه يحلق بجناحين من المتعة والبهجة والفرح منساباً مثل سنونو طليق يصلي لنور الصباح البازغ ، ثم يفتحهما فيعب بهما فيض فتنة كليو - حبيبته - وروعة جمالها في جلستها الهادئة وقد ضمت إحدى ساقيها ورفعت الأخرى تسند إليها القيثارة فبدت عبلة ناعمة سوية يغطي نصفها الأعلى ثوبها الوردي فيختلط الورد بالورد ، وهي تميل على القيثارة تناغيها وتحرك شفتيها قليلاً كأنها تهمس لها وتوشوشها سرا . نسي كل شيء .. نسي حتى صديقه كيمون وأباه الشيخ وتركز وجوده في هذا السحر الدافق الغامر، وامتزجت روحه بروح كليو وحدها ، والدفء الأليف يسري في كيانه فتلفه سحابة من السكينة والراحة الكاملة .

مرت الأنامل الرقيقة على الأوتار متسارعة تؤذن باقتراب اللحن من نهايته ، وقد علت طبقة الصوت. رأى إينارو آلاف الفراشات الملونة تطير في سماء البهو الذي ينظر إليه ، تحوم حول قنديل الزيت ، تقترب من ذبالته وتبعد ، ونفذ بصره من السقف فرأى نجوماً لا حصر لها تبرق بنورها الساطع ، واقترب من ناظره الزهرة ، نجمة السماء الباهرة ، فرأى فيها صورة عشتار البابلية، لتختفي وتحل محلها صورة إيزيس المصرية . وتتلاشى هذه ليرى صورة سوثيس الإغريقية ، لتذوب وتحتل مكانها صورة كليو وحدها تبتسم له في حب وحنان . نغمتان أو ثلاث ترددت ، وضربة أخيرة على وتر أسفل القيثارة رن وظل صدى رنينه يتماوج بعد أن توقفت الأنامل عن العزف ، ورفعت كليو رأسها وهي تتنهد . وضعت القيثارة جانباً وسوت شعرها بيديها واعتدلت في جلستها . علا التصفيق من الأكف الستة تحييها . قال ثيوفرون :

- أحسنت يا بنيتي . أحسنت فعلاً .

قال كيمون :

- فعلاً أحسنت يا أختاه .

ثم التفت إلى إينارو :

- الا تقول شيئاً ؟ أم لعلك ترجع الفضل في ما سمعت إلى تلك الأيام في قريتك ؟

رد إينارو :

– تقصـد «قريتنـا» يا عـزيـزي. أما عن عزف كليو فإن الكلمات لا تعبر عن مدى إعجابي به.

قال كيمون دون حرج :

– عبر بالأفعال إذن .. يا أخي !

فتدخل ثيوفرون :

– الأفضل أن تعدي لإيـنارو فراشه يا كليو . أحـسـب أنه سيتفضل بـالمبيت عندنا الليلة . نحن سعداء بوجوده .

أسرع كيمون قائلاً :

– لا ضرورة لذلك يا أبي . أعني لا ضرورة للفراش وليس للمبيت .. سنبيت معاً هنا في البهو وتكفي هذه الحشايا . لدينا أحاديث لم نكملها بعد .

– كما تشاءان . أستأذن أنا فقد حان موعد نومي .

قال إينارو :

– تصبح على خير يا عمي .

فنظر إليه كيمون نظرة خاطفة وابتسم :

– تصبح على خير يا أبي . تصبحين على خير يا كليو .

قالت كليو مودعة :

– تصبحان على خير .

وتبعت أباها قاصدة غرفة نومها وقبل أن تختفي التفتت ناظرة إلى إينارو وهي تبتسم .



– والآن .. حان وقت الجد يا صديقي .

نطق كيمون بهذه الكلمات وهو يدنو من إينارو .

– لقد اتفقت مع الصيادين وهما ينتظران عند حافة البحيرة ، في مرسى القوارب .. سينتظراننا حتى نأتي ، وبعد نحو ساعة ننطلق ، حتى نضمن استغراق كليو في النوم فلا تحس بخروجنا .

- والوالد أيضا .

- كلا ، والدي يعلم بكل شيء . كان لا بد أن أخبره وقد فعلت ، وهو بارك خطواتنا ولا أظن أنه سينام قبل خروجنا ، بل قبل عودتي إليه .

- أشكرك يا كيمون . لا أدري كيف أعبر لك عن شكري . أرجو الا أسبب لك أذى يا أخي .

- دعك من هذا . المهم أن تصل قريتك سالماً .. وستصل برعاية (بوسيدون) إله البحر . لاتنس أنه معبود ليبي الأصل وما أحسبه يتخلى عن أحد رعاياه .. أعني أحد أهم رعاياه ، وأود أن يعرفك وأنت تمخر مياه البحيرة . سيعرفك حتماً فقد جمعت أصلك الليبي ونشأتك المصرية وثيابك الإغريقية . ثالوث مميز ممتاز .

فدهش إينارو وتساءل :

- وما دخل ثيابي في الأمر ؟

أجابه :

- ستغير ثيابك وتنزع هذه الريشة عن هامتك المبجلة ، وسترتدي قميصاً وعباءة إغريقيتين ، ماذا ظننت في الصرة التي دخل بها أبي إذن ؟

- ما يدريني ؟

- ثياب إغريقية فيها ، اشتريتها لك من السوق ، فأنت - يا للسماوات ! - طويل القامة وستبدو مضحكاً لو استعرت بعض ثيابي القصيرة . ثلاثة دبنات دفعتها .. تذكر هذا .

قال هذا ونهض ليأتي بالصرة وفتحها فاخرج منها ثوباً وعباءة إغريقيتين وقال :

- أليسا رائعين ؟ نسيج فاخر من تانيس وحق الآلهة . هيا استبدل ما عليك ، واعطني ثيابك ، وهذه الريشة التي قد تطير برأسك الليلة إن قابلنا أحد من العسس . هيا .. تحرك .

فشرع إينارو يستجيب لطلب كيمون الذي تشاغل برفع ذبالة المصباح في الكوة . ولما أحس أن صديقه فرغ من استبدال ثوبه التفت إليه وهتف :

- هذا بديع ! تبدو وكأنك البطل أوديسيوس يا عزيزي ، وستمخر البحر مثله بعد قليل ، فسد أذنيك عن غناء السيرينات .. من فضلك .

وجد إينارو الفرصة سانحة ليختبر تلميحات مضيفه فقال :

- يبدو أن غناء السيرينات الآسر استبدل بأنغام قيثارة ساحرة .

فلمحه كيمون بطرف عينه :

- فاحذر إذن عين كاليبسو العجوز حتى تنجو ، ما دمت لم تسد أذنيك بالشمع .

انزعج إينارو قليلاً وقال :

- كان يجب على صحبي وثاقي فلا أستجيب للأنغام الساحرة وأقع في براثن كاليبسو .. لكنهم خذلوني ... فكيف الخلاص ؟

- لا خلاص .. ولكن هناك حل .

- ما هو ؟ .. أرجوك .

- أن تمخر العباب إلى أعمدة هرقل ولا تأكل من نبات اللوتس الليبي الذي ينسيك كل شيء . حتى أحبابك ، ثم تعود إلى أثينا سالماً فتجد بنيلوب في انتظارك بمغزلها الذهبي .

- بعد عشرين سنة من الانتظار ؟ ..

- كان هذا في الزمان القديم ، الوقت صار أسرع هذه الأيام . لنجعلها عشرة شهور ، أو حتى عشرة أيام .. إن شئت .

انفرجت أسارير إينارو واقترب من كيمون يعانقه :

- يا صديقي ... يا صديقي العزيز .. أوه ! أنت رائع .

- رائع جداً أيها الأبله ، حين أورطك في ما لا خلاص لك منه أبدا . لكن الحق أنك أنت الذي ورط نفسه . كفى عناقاً . إنك تخنقني .. انزع ريشتك من فضلك . وهذان السالفان ؟ ما العمل فيهما ؟

ففك إينارو يديه من حول كيمون وتساءل جذلاً :

- هل أنزعهما هما أيضاً ؟

- سيكون هذا أنسب ، لكن أهلك لن يعترفوا بك إذا حلقتهما أو قصصتهما ... أقول لك.. هات ثيابك . سنضعها في الصرة وتضع الصرة على رأسك فتختفي سالفيك حين تتدلى على صدغيك . ستبدو رائعاً .. لا . لا . ستبدو حاملاً لتاج مصر الموحد ، تاجي الدلتا والصعيد ، فرعوناً حقيقياً مثل (نارمر) الذي نعرفه نحن الإغريق باسم (مينا) . لا ينقصك سوى أفعى الكوبرا على جبهتك . بالمناسبة ... هنا أفاع كثيرة تسرب في الليل ، يمكنك أن تلتقط واحدة تزين بها صرتك ، أعني تاجك العظيم !

ثم أردف :

- من حسن حظك أننا في أواخر الشـهر ولن يطل رب القمر ، خنسو ، بطلعته البـهية إلا آخر الليل ، عندما تكون توسطت البـحيرة ، وسيكون نعسان يـتثاءب ولا أحسب أنه سيسـاعد الفرس الملاعين بكشفك لهم على كل حال . هل نمضي الآن ؟

وكان كيمون في أثناء كلامه يضع ثياب إينارو وريشته في الصُّـرَّة ويعقدها . فلما أكمل عمله أخذ الصرة ووضعها على رأس إينارو ودلاها من الجانبين :

- أمسك بها .. هكذا .. ممتاز !

***

اقتـربا من الباب في هدوء وفـتح كيمـون مزلاجه بخـفة وشرع المصراع ، ثم خرجـا يحاذران إحداث صـوت . أغلق كيـمون البـاب وأخذ ذراع رفيـقه في يده يقـوده في الطريق التي اخـتارها مختـرقاً به أزقة البلدة الضـيقة ، وقد شغلـت صرة الثياب ذراع إينارو الأخـرى ، فسار مستـسلماً كالطفل الوديع . اتخذا سبـيلاً منحنياً حول جزء من البلدة الساكنة ، فلم يقتـربا من مركزها حيث السوق والحوانيت المقفلة ولا ابتعدا عن أطرافها حيـث تحيط بها الحقول . لم يقابلا أحداً حتى بلغا حافة البـحيرة فبدت ميـاهها الهادئة إلا من موجات صغـيرة تلطم شاطئها في رفق ، وقد طـوقتها نباتات الديس المتـصبة مثل شـوك القنفذ .. خاضا قـليلاً في ضحضـاح من الماء ابتلت منه حواف ثوبيهمـا . وكان كيمون قد أطلق ذراع رفـيقه ، فشمـر بها إينارو ثوبه ، كما فعل كيـمون ، وسارا حتى بلغا مرسى القوارب .

- طابت ليلتكما .. أيها الصديقان .

ألقى كيمون تحيته حين رأى رجلين كانا جالسين إلى جانب قارب راسٍ .

فجاءه الرد :

- طابت ليلتك يا كيمون وليلة رفيقك أيضاً .

- سيكون رفيقكما أنتما منذ الآن . إيه .. على ماذا اتفقنا ؟

قال أحد الرجلين :

- تنقل صاحبك إلي قريته مقابل مائة دبن .

فوضح كيمون الشرط :

– تأخذان خمسين دبناً الآن وخمسين بعد عودتكما والتأكد من وصوله . أليس كذلك ؟

– رضينا مع أن المبلغ قليل يا كيمون . قطع بحيرة مربوط في الظلام ليس أمراً هيناً ، ثم العودة فارغي القارب ..

قال كيمون :

– ومن قال إن القارب سيعود فارغا ؟ يمكنكما تحميله بما سيرسله لي صديقي هذا من بضاعة .

– وتزيد الأجرة ؟

– يا لكما من جشعين ! رضيت بزيادة الأجرة .. عشرين دبناً أخرى .. لا تنسيا أنكما ستعودان برسالة منه يخبرني فيها بثمن البضاعة .. هيه ؟ ولا تنسيا أنه صديق عزيز جداً .. هيه ؟ لحظة . لدي ما أقوله لصديقي على انفراد ..

وجذب إينارو من كمه ، وانتحى به جانباً ، وقال له :

– قلت إن عندك مبلغاً كافيا يا إينارو . هات ما معك كله من نقود .

فقال إينارو :

– إنها في حزامي الجلدي الذي وضعته في الصرة . لقد ذكرتني . أعطني الحزام ففيه خنجري ما دمت حذرا .

ففتح هذا الصرة من جديد وأخرج الحزام وأبرز منه كومة من قطع النقود الذهبية ووضعها في كيس نقوده المتدلي من عنقه وسلم الحزام لإينارو الذي ربطه تحت ثوبه ، ثم رجع كيمون إلى الصيادين مبرزاً الكيس المتلئ وقال في نغمة تحذير واضحة :

– صاحبي لا يحمل مالاً .. لا يحمل شيئاً غير هذه الصرة فيها ثيابه . سأدفع لكما خمسين دبناً الآن والباقي عند عودتكما .. كما اتفقنا . اصعد يا عزيزي . هلما أنتما خذا نصف حقكما .
فقال الصياد الآخر :

– نصف حقنا وعشرين دبناً أخرى .. هذا هو الاتفاق .

– إذا عدتما بالبضاعة والرسالة طبعاً .

ثم أخذ يعد لهما خمس قطع قيمة كل منها عشر دبنات ووضعها في كف أحدهما الممدودة . وأعلن :

– هيا .. في رعاية الآلهة جميعها .

***

كان إينارو قد سبق الصيادين في صعود القارب ، فلحقه هذان بعد أن فكا حبل الرسو وشرعا يجدفان مبتعدين شيئاً فشيئاً عن البحيرة وكيمون يراقب القارب المتزلق على صفحة الماء حتى غاب عن ناظريه في الظلمة المنعقدة .

11

كانت المجاديف الأربعة تخبط ماء البحيرة الساكن في حركة منتظمة فتحدث تموجات تتداح حول القارب ولا يسمع إلا صوتها . لم ينطق إينارو بكلمة واحدة ولا الرجلان ، وكان سطح البحيرة يبدو شديد الدكنة انعكست عليه خيالات النجوم ، وإينارو جالساً على كومة من الشباك والحبال في طرف القارب بعيداً عن الصيادين ، وهو يتحسس خنجره المثبت في حزامه الجلدي .. فرفع رأسه إلى السماء يقارن ما بين نجومها وانعكاساتها المتراقصة على سطح الماء. شعر برعشة خفيفة تسري في جسده من أثر برد الليل ، ففرك يديه ، وظل يقظاً مفتوح العينين ، وهو يراقب نجمة الزهرة الساطعة فلم ير فيها عشتار ولا إيزيس ولا سوثيس وإنما وجه كليو المشرق وحده ، فاستغرق فيه يتأمله بحب وشوق وأحس بالحرارة تغمره والدفء يشمل كيانه .

ثقل الصمت . رفع أحد الصيادين صوته قليلاً يدندن بأغنية مصرية قديمة :

«حبيبتي كاملة الصفات ...
بهية الذات .
مسح (رع) العلي بنوره جبينها
ووضعت (إزت) زهرة لوتس في ثناياها
قذف (ست) ظلمة الليل في شعرها
وصاغ (خنومو) قوامها البديع بيديه
حبيبتي .. تعاونت الأرباب كلها
في تكوينها
فجسدت كمال الأرباب .
هي معبودتي .. أصلي لها .
أصلي لها
فأرضي جميع الأرباب»

- اخفض صوتك للماء آذان .

قال أحد الصيادين ، فأجابه زميله :

- وماذا في هذا ؟ صيادون في عرض البحيرة . أمر طبيعي أن يغنوا .

- صيادون بثياب إغريقية وسوالف ليبية ؟!

أحس إينارو بالخطر فمد يده إلى خنجره تلقائياً وتحفز .

فسأله الصياد الآخر :

- من أين الرجل ؟

أجاب إينارو بحسم :

- لا يهمك . ما يهمك هو إلى أين ، وستنال أجرك . ألستما صديقين لكيمون ؟

- نعم . لو لم نكن صديقيه فعلاً لما غامرنا بنقلك يا سيد .

- أجرتكما مناسبة ، بل أكثر من مناسبة .

- الأجر على قدر الخطر . أليس كذلك ؟

- أي خطر في نقلكما راكباً من مكان إلى مكان وأنتما تجوبان البحيرة كل يوم ؟

فاندفع الآخر :

- نحن نصيد السمك وننقله إلى السوق ولا ننقل الركاب إلى غاياتهم في منتصف الليل أيها الصديق .

لم يرد إينارو أن يطيل الحديث فسكت ولم يعلق بشيء .. خشي أن يتطور النقاش إلى ما لا يحب والاحتياط واجب .. لكن فضول الصيادين كان عارماً وما لبث الأول أن قال وهو يبطئ من ضربات مجدافيه :

- معذرة أيها السيد، فقد بدوت لنا رجلاً إغريقياً في البداية والصرة فوق رأسك فلما أنزلتها أدركنا من سالفيك أنك رجل من ليبيي مربوط، وهذا مثير للعجب جداً. أمتنكر أنت؟

لم يجب إينارو للمرة الثانية وفضل الصمت ، فعاد هذا إلى مسارعة ضربات مجدافه من جديد .. فكر إينارو في موقفه . لماذا يكون معهما فظا ؟ أليس من الأصوب أن يسايرهما ؟ كيف له أن يتنبأ بوجهتهما ؟ قد يأخذانه إلى مكان آخر غير الشاطئ الذي به قريته ، بل ربما يسلمانه للسلطة الفارسية لشكهما فيه ، فهما الوحيدان الآن القادران على سلامته أو تسليمه. فليكن رقيقاً

معهما على كل حال ولن يخسر شيئا . قال بعد فترة صمت قصيرة :

- أمصريان أنتما ؟

انتبه الرجلان لسؤاله وسرا باستجابته لطلبهما الكلام.

قال أحدهما :

- نعم . مصريان . لكن لنا صلة بليبيي مريوط ، بل في بقية الدلتا .. هم إخوتنا كما تعرف قطعاً . ونحن نجوب بقاربنا هذه البحيرة وكثيراً ما ندخل مجرى النيل ، بل مضينا ذات مرة إلى فرعه الشرقي الكبير . هناك عدد من الليبيين حول منف وبوباست ودمنحر وغيرها .

كان الصياد يحاول تشجيع إينارو على الحديث بالتوسع في الكلام، فتجاهل هذا غايته وسأله :

- ما اسمك أيها .. الصديق ؟

- أيها الأخ .. لو سمحت . اسمي سنحر ، واسم زميلي باسخم . وأنت ؟

- اسمي .. نمرت .

لم يدرِ لِمَ خطر هذا الاسم على باله فنطقه . كان يعرف من حكايات أهله أنه اسم جد الفرعون الشهير شيشنق الذي اعتلى عرش مصر منذ نحو أربعمائة عام والذي يرجع نسبه إلى قبيلة المشوش الليبية وهو اسم مستعمل كثيرا .

- حسن ، أيها الأخ نمرت ، نحن نقترب الآن من غايتك ، قريتك غير بعيدة خصوصاً حين نقطع الطريق إليها بالقارب فلا ندور حول البحيرة كما نفعل على اليابسة .

اطمأن إينارو للنغمة الودود فرام اختبارهما :

- هل تصيدان كثيراً من السمك ؟

قال أحدهما :

- كثيراً جدا . نحن نعمل بجد لكن الفرس الملاعين يعصروننا بالضرائب وكثيراً ما يستولون على ما نصيد .

- وما صلة الفرس بالسمك ؟

- أوهو ! إنهم يأخذونه منا ويملحونه ثم ينقلونه إلى بلادهم أو إلي أماكن أخرى لا نعرف أين هي .

- أتكره الفرس ؟

- ومن لا يكرههم ؟ هل ثمة من يحب محتل أرضه ومستعبد أهله ؟ هم حوّلوا مصر إلى ضيعة من ضياعهم ينهبون خيراتها ويستغلونها أبشع استغلال .

دهش إينارو من لهجة الصياد غير المعتادة في الصيادين فسأله :

- أمتعلم أنت ؟

ضحك الرجل وأجاب :

- نعم . كان أبي يعدني لأكون كاتبا . أنت تعلم أن مهنة الكاتب مهنة محترمة في مصر. تدر على صاحبها دخلاً ممتازاً وتحله مكانة راقية . لكن أبي مات منذ مدة وهؤلاء الفرس لا يهتمون بكتابتنا فقد جاءونا بلغة أخرى وكتابة غير كتابتنا . حاولت أن ألتحق بالمعبد ، غير أن المعابد باتت فقيرة ، بل معدمة ، ففضلت البحث عن لقمة عيشي في صيد السمك .. بفضل الربة المكرمة (محيت) .

كان الفجر ينبلج ناحية الشرق والقارب يدنو شيئاً فشيئاً من الشاطئ حتى بلغ منطقة ضحلة لم تعد المجاديف قادرة على دفعه فيها ، فقفز الرجلان يخوضان في الماء ويدفعان القارب بأيديهما حتى رسا ، وتناول أحدهما حبلاً كان موثقاً في مقدمته رماه لزميله الذي ربطه في حجر كان هناك وقال موجهاً الخطاب إلى إينارو الذي ظل جالساً على الشباك :

- تفضل بالنزول . لكن رأيي أن ترتدي ثيابك الأصلية قبل أن تنزل . قد يمر أحد ويلحظ تنكرك .. معذرة عن التعبير .. فيساوره شك .

لاحظ إينارو لهجة الود مرة أخرى كما لاحظ ذكاء الفكرة والحرص عليه قال :

- صدقت .. هذه فكرة صائبة .

وشرع يبدل ثيابه والرجلان ينظران نحو نور الشمس المنبثق في الأفق . فلما فرغ هبط من القارب وفي إحدى يديه نعلاه وفي الأخرى الصرة التي وضع فيها الثياب الإغريقية . خاض في الماء الضحل قليلاً حتى بلغ اليابسة ، ووقف يمسح قدميه وينتعل خفيه وهو يدس شسعيهما بين أصابعه . قال الصياد الآخر وهو ينظر إليه بإعجاب :

- آها ! تبدو فاتناً بريشتك المميزة .. لا شك في أنك من أسرة عالية المقام .

علق زميله :

- صاحبي لا يقرأ ولا يكتب لكنه ليس غبياً كما ترى . أوافقك يا باسخم .

ابتسم إينارو وقال ، دون تفكير ، وكأنه رام أن يظهر كرمه :

- اسمع يا سنحر .. لم لا تأتيان معي إلى بيتي ، بدلاً من انتظار البضاعة والرسالة هنا ؟

رد هذا وقد أحس بروابط الصلة تتوثق :

- لا بأس. عرض مقبول حتى نأتي نحن بالرسالة التي طلبها كيمون. سوف يقلق إن لم نعد إليه بالرسالة. لست أدري مبعث شكه فينا على كل حال، ولا أكتمك أننا استأنا من هذا الشك. لكنه الحذر الإغريقي، ويبدو أنه شديد الحرص عليك أنت بالذات يا.. نمرت . لا ضرورة لإرسال بضاعة قد لا تكون في حاجة إلى إرسالها . سنملأ قاربنا سمكاً ، وسيدفع كيمون العشرين دبناً التي وافق على دفعها رغم أنفه ، فنحن نحمل له شحنة من السمك أرسلها إليه صديقه نمرت .

خيوط الشمس البازغة تملأ الأفق وأسراب من الطيور تحلق في الفضاء الرحيب وعلى البعد ظهرت بيوت القرية وأكواخها والرجال الثلاثة يشقون طريقهم إليها حثيثاً، وعندما اقتربوا منها لمحوا راعياً يسوق بضع أبقار أمامه. حاول إينارو أن يتفاداه لكن هذا ميزه رغم بعد المسافة فصاح به :

- أنعم صباحاً يا إينارو . قصدت البحر مبكراً في ما يبدو . هل جئتنا بحصيلة من السمك ؟

التفت الصيادان كل منهما إلى الآخر متسائلين ، ولم يرد إينارو التحية وبدا على وجهه الضيق. لكن الصيادين لم ينبسا بكلمة وتبعاه في خطواته العجلى نحو بيته الذي بلغه بعد قليل ، فوقف ورفيقاه عند ساحته هنيهة ، ثم اقترب من مدخل البيت بهما وقال :

- لحظة واحدة . سأعود إليكما فورا .

ودلف إلى الداخل .

صاحت أمه فرحة :

- إينارو ؟ أين كنت ؟ أبوك قلق جداً عليك . لم ينم البارحة .

وقامت بعناء تعانقه .. وكان والده جالساً في ركن البيت ولم يقم من مكانه . نظر إلى ابنه نظرة اللائم المعاتب ، فأسرع هذا إليه بعد أن أطلقته أمه من أسر عناقها الحار وجثا أمامه يقبل

ركبتيه المتصبتين وقد عقد أصابع يديه من حولهما لا يبدي حراكاً ولا يقول شيئا . لم يرد إثارة الشيخ أو فتح باب الحديث معه ، فنهض من جثوته بهدوء ووجه الكلام إلى أمه :

- أمي . لدي ضيفان في حاجة إلى طعام الإفطار .

فرمقته العجوز بنظرة حانية وقصدت ركناً في البيت معزولاً بحاجز من قنا الغاب يتخذ مطبخاً.. قالت له :

- اخرج إلى ضيفيك .. سأعد طعاماً سريعاً وأناديك حين يجهز ..

نظر إلى أبيه مرة أخرى فرآه لا يزال يحدق في الفراغ، فخرج إلى الصيادين ووجدهما لا يزالان واقفين ينتظرانه. وكان هناك بعض الحصر مبسوطة بجانب سياج الساحة فدعاهما إلى الجلوس :

- تفضلا بالجلوس .. رجاء ..

قال سنحر:

- كنت أظنك ستأتي برسالتك إلى كيمون .. يا عزيزي نمرت .

- ليس قبل أن تأكلا طعامي طبعاً سأكتبها بعد قليل .

حملق الصياد في وجهه متفرساً :

- هل أنت نمرت أم إينارو ؟ أخبرني من فضلك .

- لا تهم الأسماء، ونحن نتخذ أسماء كثيرة، ويمكن للواحد منا أن يغير اسمه كما يشاء .

قال الصياد :

- إذا دعت الحاجة قطعاً .

- أو بدون حاجة يا صاحبي .

- حذر .. مثل كيمون ؟

فاحتد إينارو قليلاً وقال :

- هل أنت فضولي إلى هذا الحد ؟ إن رفيقك قليل الكلام والسؤال .

- صاحبي يتكلم عند الضرورة .. إذا سئل .

أدرك أن سنحر يشيره فلاذ بالصمت ، وأحس هذا بأنه أمعن في استفزازه أكثر مما ينبغي ورام

الاعتذار :

- عذراً يا .. نمرت . أردت فقط أن أعرف مع من كنت ومن حملت في قاربي . من لا يفكر في العواقب ماله في الدهر صاحب . هكذا يقولون .

- ها أنت عرفت سحنتي كما عرفت بيتي. إذا اضطررت إلى أن تعرف بي يمكن ذلك بسهولة.

نادت العجوز ابنها :

- إينارو ... الطعام جاهز .

فابتسم هذا في وجه الصيادين وقال :

- إينارو .. إينارو . فليكن . أهذا كاف ؟

ثم دخل ليأتي بالطعام .

***

تحلق الثلاثة يأكلون مما أعدته السيدة العجوز . كان على الخوان الصغير الذي حمله إينارو عدة أرغفة وطبق به قطعة كبيرة من الجبن وقدح امتلأ بزيت الزيتون حتى منتصفه ، وفي طبق صغير حبات من الزيتون . وكانت جرة الماء موضوعة بجانب الزير غير بعيد ، فمد إينارو يده إليها وخضّها ووجدها مليئة ، فوضعها بحذاء الخوان . تلهى الرجال الثلاثة باقتطاع الخبز وغمسه في الزيت أو تناول حبات من الزيتون معه . وكانوا يجتزئون من الجبن قطعاً صغيرة يمضغونها على مهل . وأخرج سنحر نواة حبة زيتونة من فمه وألقاها بعيداً ، ثم تناول الجرة من عنقها وشرع يكرع منها مستمتعا . ومسح شفتيه بظاهر كفه وبدا كأنه ينوي الكلام ، فتوجس إينارو من مفاجأة لا تسره . قال سنحر وهو يزن كلماته وينطقها ببطء متعمد :

- الآن وقد أكلت خبزتك لا بد أن أوضح لك أمرا .

نظر إليه مستفسراً . فأردف :

- دعك من عزيزي باسخم . إنه صموت جداً ولا يتكلم إلا إذا سئل فعلا . لم أكن أشير إلى شيء حين قلت هذا عنه منذ قليل ، فأضطر إلى تسلية نفسي بالحديث .

قال إينارو :

- ليس على الكلام ضريبة يفرضها الفرس، لحسن الحظ ، يا سنحر، وإلا كنت مديناً بالكثير ..

- آها ! الفرس وسنحر . هذا ما رغبت الحديث فيه . لنقل سنحر والفرس .. إذا شئت .

ولم يفهم مرمى ضيفه الصياد . فقال هذا وهو يتفحصه بتؤدة :

- أنت اسمك الحقيقي إينارو واستعرت اسم نمرت لسبب لا أعلمه ومن حقك الا تنبئني به . وقلت لك إن اسمي سنحر ... أليس كذلك ؟

- بلى . هذا ما قلته ..

- هذا ليس اسمي الحقيقي يا .. إينارو . فاسمي هو إمنروت . أما باسخم فهذا هو اسمه الذي أطلقه عليه والده يوم جاء إلى هذه الدنيا السعيدة .

أخذته الحيرة . هل يصدقه أم يكذبه ؟ ما غايته من هذا الكشف يا ترى ؟ ماذا يريد هذا الصياد المتعلم بالضبط ؟ قال متخابثاً :

- ألم أقل لك إن المرء يمكنه أن يتخذ ما يشاء ويعجبه من الأسماء ؟

- لا . ليست هذه غايتي أيها الصديق .

- ما غايتك إذن ؟

- أن تعرفني وأن أعرفك بصورة أوضح .

- فسر ، من فضلك ، فأنا لا أفهم ما تعنيه .

12

نحى الرجل الخوان جانباً وكان رفيقاه قد أنهيا طعامهما ، واعتدل في جلسته ، وأشار بسبابته إلى مضيفه :

- عندما جاء بك كيمون إلينا لننقلك لاحظت من قوامك وتعبيرات وجهك وحركتك أنك لست من عامة الناس . لا يمكن أن يكون مثلك في سمتك وفي لهجتك عندما تكلمت من العامة . ثم ما الذي يدفعك إلى التنكر واستئجار قارب ينقلك في عتمة الليل إن لم يكن وراء الأكمة ما وراءها ؟ عفوك .. لا تنزعج من قولي . وعندما رأيت بيتك أدركت أنك زعيم قومك أو ابن الزعيم على الأقل . هذه الريشة تميزك . هل أنا مخطئ في ظني ؟

قال إينارو :

- الأمر واضح ليس في حاجة إلى ذكاء كثير كما ترى .

- مرحى ! فأنا مصيب إذن .

- وبعد ؟

- قلت لك إن اسـمي سنحـر .. لكن اسمي الحـقـيقي هو إمنـروت ، وأصدقك القـول . هل يدهشك إن قلت لك إنني أيضاً ابن زعيم قومي ؟

- قومك من الصيادين يا .. إمنروت ؟!

فتقبل هذا الدعابة مبتسماً وأجاب :

- بـل من الفلاحـين المصـريين أيهـا السـيد المحـتـرم . ألا يمكنـك أن تخبـره بجليـة الأمـر يـا باسخم ؟ اخرج عن صمتك المطبق وتكلم علك تقنع هذا السيد .

قال باسخم :

- معذرة يا سيدي ، فالكلام لك . أنت الذي افتتحه ولك أن تكمله .

لاحظ إينارو نغمة الاحترام في صوت باسخم فأمـعن النظر إليه مندهشاً ، بينما هز رفيقه رأسه وانصرف عنه إلى إينارو .. وتابع :

- أنا من مدينة صا التي يعرفها كيمون الإغريقي باسم سائيس .

فأراد مضيفه أن يشجعه على الكلام فقال :

- اتفاق عجيب .. فأنا أصلي من صا كذلك .

- أصحيح ؟ هذا يجعلنا أقرب بعـضاً إلى بعض . لعلك من عقب أولئك الذين جلوا عن صا بعد اجتياح جيوش قمبيز الفارسي لمصر منذ نحو ستين عاما ؟

- بل قبل ذلك بمدة . غـادر جدي صـا بعد انقلاب أحـمس على الفرعـون خفرع . أتذكـر ما حدث ؟

- الجمـيع يذكر ما حـدث . كان الأمر مؤسـفاً أن يؤدي الصراع علـى السلطة بين الإخوة إلى تدخل الغريب وها هي مصر ترزح تحت ثقل الأجنبي .

شعر إينارو بأن صاحبه لم يكمل الحديث عن نفسه ورغب في معرفة قصته .

- ما الذي حولك إلى صياد سمك يا ابن الزعيم الصاوي إذن ؟

- الفرس يا سيد .. الفرس . كان أبي عمدة الفـلاحين في أحواز صا الشرقية ، ومضت الأمور بصورة طيبة في البداية بعـد احتلال الفـرس وادي النيل والدلتا ، لكن الفرس اشـتطوا في فرض

الإتاوات والضرائب حتى صرنا مجرد عبيد يعملون في الحقول سخرة لهم . كانوا يأخذون كل ما نتتج ولا يبقى لنا إلا الكفاف . وقد حاول أبي مرة بعد أخرى أن يقنع المحتلين بتخفيف الضريبة دون طائل .. ومنذ خمس سنوات تقريباً - أليس كذلك يا باسخم ؟ - كانت المحاصيل قليلة فلم تبلغ الضريبة مبلغها في السنة السابقة . وقد اتّهم الفرس أبي بأنه وراء ما وصفوه بامتناع الفلاحين عن الدفع فأخذوه ثم خوزقوه علناً أمام الجميع . ألم أقل لك إن أبي مات قبل أن أحقق حلمه في أن أصبح كاتباً ؟

توقف قليلاً ثم مضى يسرد قصته ومسحة من الألم تعلو جبينه :

- كان ذلك فظيعاً . فظيعاً جداً. لقد جاءوا بأسرته كلها ، أبنائه وبناته وحتى زوجته .. أمي ، وعدد كبير من الفلاحين ، في بعضهم أقاربه وأصدقاؤه ، إلى ساحة السوق . نفذوا العمل على رؤوس الأشهاد ونحن ننظر وحراب الجنود في ظهورنا . أغمضت عيني في البداية ولكن بكاء أخواتي وإخوتي وعويل أمي ونحيب الحاضرين لا يزال يخترق أذني . فتحت عيني لأرى أبي وقد نفذ فيه الخازوق ينظر إلي .. ينظر في عيني مباشرة دون أن تذرف منه دمعة ، ثم أطلق صرخة طويلة وسقط رأسه مستنداً إلى طرف الخازوق الذي اخترقه عند كتفه الأيمن .. وسكن .

انحدرت دمعتان من عيني إمنروت وتهدج صوته .

- كفى .. يا إمنروت .. كفى أرجوك .

توسل إليه باسخم وهو يلامس كتفه . ولم يجد إينارو ما يقوله لمواساة الرجل . فمسح هذا الدمع عن وجنتيه بأطراف أصابعه واستعاد رباطة جأشه :

- آسف يا باسخم . لا يمكنني أن أنسى ذاك المشهد طيلة حياتي . كيف لي أن أنسى ؟ عفوك يا إينارو . غلبتني الذكرى الأليمة .

فأجابه :

- منذا الذي يلومك يا ... أخي ؟

- أعدها . أعدها من فضلك . قل «يا أخي» مرة ثانية .. رجاء .

أمسك بيده الممدودة :

- يا أخي . نعم .. يا أخي !

فنظر إليه نظرة الشاكر المطمئن وعادت إليه إشراقته من جديد ، واستمر في حديثه ، وهو يعتصر كف إينارو التي استقرت في كفه :

- لا أطيل عليك . أخذت أهلي وانتقلنا لنعيش في مدينة منف - العاصمة الكبيرة - نذوب في سكانها الكثيرين ، وتركنا أرضنا .. أنا أكبر إخوتي وعلي إعالتهم ، فجئت وباسخم .. هو قريبي .. نصيد السمك من بحيرة مريوط وأرسل لأهلي ما يعيشون به مما أكسب وحتى لا يتتبعني الفرس . فأنا طريد شريد كما ترى، لكنني على صلة دائمة بقومي عن طريق العزيز الصامت باسخم هذا .

كان الضحى قد ارتفع وسحابات متقطعة تمر في السماء الزرقاء تحجب حيناً عين الشمس فينسرح ظلها على الجالسين الثلاثة ، ولم يدر إينارو ما يضيفه أو يعلق به على ما رواه إمنروت ، فنهض هذا قائلاً :

- هه ! آن الأوان لكي نرحل . هل تعد الرسالة حتى يطمئن كيمون ؟

دخل إينارو البيت ثم خرج يحمل دواة وقلماً من اليراع وقطعة صغيرة من ورق البردي وجلس إلى الخوان بعد أن أزاح ما عليه من أطباق وشرع يكتب :

«العزيز كيمون بن ثيوفرون . كل شيء على ما يرام . استمتعت بصحبة طيبة . أرجو ألا يطول انتظار بينيلوب طويلاً إلى جانب مغزلها .. أو قيثارتها .. قبلاتي ..

إينـــــــــارو

وقبل أن يلف ورقة البردي دفعها إلى إمنروت :

- خذ اقرأها . لا يجوز أن تحمل شيئاً تجهله .

فتناول إمنروت الورقة وقال :

- حملت البارحة شيئاً أجهله ولم أعرفه تمام المعرفة بعد .

- ستعرف .. في الوقت المناسب .

هكذا هو دائماً يصر على «الوقت المناسب» ويلقى نفسه دائماً في «الوقت غير المناسب» .

قرأ إمنروت الرسالة وابتسم :

- لا تزال في مرحلة الخطبة . لم تقترن بعد ؟

- شيء من هذا القبيل .

- أتدري أنني متزوج ولي ابن يعيش مع أهلي في منف . اسمه با إزر . يا للآلهة ! كم أنا مشتاق إليه !

- أرجو أن تراه قريباً .

ثم أخذ الورقة منه وطواها وسلمها إليه ، في حين قام باسخم يستعد للمغادرة . قال إمنروت مودعاً :

- أشكرك على وصف صحبتنا بـ«الطيبة» . أرجو أن تكون بداية صحبة طويلة .. يمكنك الاتصال بي عن طريق صديقنا المشترك كيمون. أو لعلني أنا الذي سيتصل بك. أستأذن الآن .

قال إينارو :

- في رعاية (إمن) الرب الخفي .. يا إمنروت المتخفي .. أو في رعاية (محيت) ربة صيد السمك .. أيها الصياد !

فرد وهو يلوح بيده وباسخم يتبعه :

- أتركك في رعاية (نت) الربة الليبية - المصرية التي يعرفها صديقنا الإغريقي باسم (أثينا) ربة الحكمة والحرب والقتال ...

ثم غاب الاثنان وراء سياج الساحة في طريقهما إلى قاربهما عند شاطئ البحيرة .

13

قفل إينارو داخلاً البيت فوجد أباه متكئاً على حشية صغيرة وأمه جالسة إلى جانبه . بادره أبوه هذه المرة قائلاً في لهجة تأنيب واضحة :

- أين كنت طيلة يوم أمس والبارحة ؟

كانت نغمة صوته تدل على غضبه وأله معاً .

- في راقودة .

- أعرف . هل تفتح الأسواق والحوانيت ليلاً في راقودة ؟

- اضطررت أن أبيت البارحة هناك .

- وما الذي اضطرك للمبيت هناك ؟

سكت . لم يكن تعود الكذب ولم يبغ أن يخبر أباه بما جرى له ، فلزم الصمت . واصل الأب استجوابه .

- أين بت ؟

- في بيت ثيوفرون الإغريقي . أنت تعرفه . كان بقالاً هنا في قريتنا وانتقل إلى راقودة ليتخذ حانوتاً أكبر ويوسع تجارته .

كان يريد صرف الحديث إلى الإغريقي والتجارة على أمل أن يكتفي أبوه بما سمع، لكن هذا ألح :

- وما الذي حملك إلى بيت ثيوفرون ؟ ما الذي ذكّرك به ؟ هل اشتقت إلى خمرته المعتقة؟ أسكرت جيداً وعاد بك رفيقاك الغريبان يسندانك ثملاً ؟

هو يعرف قسوة والده وسخريته حين يغضب منذ زمن ، ولا يزال هذا الرجل الصلب بطبعه لم يتغير رغم تجاوزه الستين بجملة سنوات .. لكنه يعرف أيضاً أنه يحبه كثيراً فهو آخر أولاده وأن قلبه الطيب دافئ الحنان حين يرضى ، فلم يجب واكتفى بابتسامة على شفتيه . فجأة قال الشيخ :

- هل رأيت شيحو ؟

انتفض قلبه في صدره وخفق بشدة .. ترى ما الذي ذكره بشيحو ؟ هل بلغه نبأ ما حدث ؟ أين شيحو الآن ؟ هل نجا أم قبض عليه ؟ هل سرى خبر ما فعل بالجندي الفارسي بهذه السرعة؟ وهل علم قومه الأمر ؟ طافت هذه الأسئلة بذهنه متسارعة . ردد الشيخ سؤاله :

- هل رأيت شيحو ؟ أنا أسألك .

لم يكن مفر من الاعتراف ، فليعجل إذن ويترك المراوغة :

- نعم .

- في سوق راقودة ؟

- نعم .

- والجندي الفارسي يجلده ؟

الحادثة بلغته تفاصيلها إذن فليواصل الاعتراف مستسلماً :

- نعم . يا أبي أنت تعرف .

- طبعاً أعرف . هل يخفى شيء خاصة إذا كان في السوق المحتشدة ؟

هبط قلبه . ومضى الشيخ في تقريعه :

- أتدري عاقبة فعلتك ؟ أتعلم ما ستجره على أهله وقومك ؟ انظري يا كاروما ما فعل ابنك .

تأملي حكمته ونظره في العواقب .

نظرت إليه أمه بعينين حزينتين وهي تحس كأن زوجها يريد أن يشركها معه في أسى المحنة التي سببها وحيدهما . فقالت معتذرة عن ولدها تحاول تخليصه من موقفه العسير :

- مهلاً يا تكلت . لعل ما بلغك غير صحيح .. إينارو لم يسرد ما جرى .

فقال هذا غاضباً :

- بل اعترف . إنه يعرف أنني أعرف، وما بلغني صحيح تماماً يؤيد صحته غيابه البارحة.. ما مصلحة شيحو في أن يختلق الرواية ؟

شيحو ؟ إذن هو نجا ، وجاء إلى أبيه ينبئه ؟ فواتته الشجاعة لأن يتساءل :

- أجاءك شيحو بذاته يا أبت ؟

- البارحة ، بعد الغروب .. بذاته . لم تكن روحه ، فالأرواح تذهب إلى أرض (إمنت) السفلى ولا تعود ، كما أنها لا تزور الناس تصطفق رعدة من الخوف .

سعد إينارو باللين في لهجة والده ، فجلس إلى جانب والدته بعد أن ظل واقفاً طيلة هذه المدة ، فضمته هذه إليها بذراعها تقبل رأسه بعطف سابغ . علق الشيخ :

- قبليه . نعم .. قبليه . قد لا تقبلينه مرة أخرى .

قالت كاروما :

- لن يحدث له سوء .. شيحو لن يتكلم . هكذا وعدك .. أليس كذلك ؟

قال تكلت :

- لن يتكلم إذا أغلق فمه بالدبنات الفضية .

قال إينارو :

يا أبي ! أنا أنقذته من جلد السياط ، بل أنقذت حياته ، فكيف يشي بي ؟ سيكون أول المعاقبين إذا فعل ، وهو يعلم هذا جيداً .

فنهره قائلاً :

- يعلم أو لا يعلم . قد يكون إبلاغه السلطات الفارسية بما فعلت عذراً له وشافعا . ثم إنه لم يقتل أحداً .. لم يقتل جندياً فارسيا . أتعي هذا ؟

ورفع يده النحيلة وخبط بها الخشبية التي كان يتكئ عليها وأضاف :

- فإذا لم يتكلم شيحو هذا فما ضمانك ألا يبلغ الفرس سواه من شاهدي جريمتك ؟

- إن أحداً منهم لا يعرفني .

- وريشتك المميزة ؟ ألا تنبئ عنك ؟

وجد إينارو نفسه محاصراً . كيف لم يفكر في ما فكر فيه والده ؟ ولئن طمأنه كيمون بأن أحداً من الحاضرين لن يشي به فهو فعل ذلك لكي يهدئ من قلقه ليس أكثر ولا أقل . أيها النكد التعيس ! كل خطوة تخطوها تجلب بها الأذى لغيرك قبل نفسك . فصمت متحيراً غير قادر على إبداء قول . فجأة وجد نفسه يهاجم مدافعاً عن نفسه :

- ماذا كان يمكنني عمله يا أبي ؟ كنت أحاول تخليص شيحو فاندفع إلي الجندي يروم أن يضربني بسيفه فاضطررت للدفاع عن نفسي . هل أدعه يقتلني أو يجلدني أنا أيضا ؟

بدا الارتياح على وجه أبيه الشيخ . تردد قليلاً في الجواب عن تساؤل ابنه ثم قال :

- لا فائدة من مناقشة الأسباب الآن ، ولنفكر في النتائج والاستعداد لها .

قالت كاروما وقد رأت زوجها يتخذ مساراً آخر في حديثه :

- إن بلغ الفاعل آذان هؤلاء الفرس وعرفوا من هو ما الذي سيحدث يا تكلت ؟

رد ساخرا :

- يا له من سؤال لا يأتي إلا من امرأة عجوز حمقاء ! سيأتون ويطلبون تسليم الفاعل .. أعني القاتل .. والبقية معروفة .

ضمت العجوز ابنها من جديد إلى صدرها وسألت زوجها متحدية :

- وماذا يفعل قومه ؟ أيسلمونه مثل الخروف ؟

- الخروف أو النعجة . وجب على من ليس له مخالب وأظافر ألا يفتح براثنه في وجه أحد . أظلاف الخراف لم تخلق للقتال والعراك . أفهمت ؟

ثم التفت إلى ابنه :

- اسمع يا إينارو .

- نعم .. يا أبت ؟

- من اللذان جئت بهما وكانا ضيفيك كما قلت لأمك ؟

- صيادا سمك نقلاني بقاربهما .

- هل عرفا بما حدث ؟

- لا يبدو ذلك وإلا ما كانا نقلاني .

حك الشيخ كفيه بعضهما ببعض ثم قال :

- يجب الحذر . اذهب الآن إلى بيت شيحو ، وستجده هناك ، فقد طلبت منه البقاء فيه . احضر عند انعقاد الظلمة . سوف يجتمع رؤساء العشائر عندي عشية هذا اليوم وسنرى ما يكون . أعندك مال ؟

تذكر إينارو أنه أعطى كيمون كل ما كان عنده من نقود ، فلم يجب .. مد أبوه يده إلى صندوق صغير بجانبه وفتحه ثم أخرج منه قطعاً فضية وناولها ابنه :

- خذ هذه واعطها شيحو .. ثمن بقرته الضائعة يسد به فم زوجته الفظة .. وفمه هو أيضاً .. وأفواه عياله الذين لا يحصون .

اطمأن قليلاً لما بدا له لهجة مداعبة ، فانحنى يقبل ركبة أبيه ثم انثنى يقبل مفرق شعر أمه الأشيب وخرج .

14

الوقت ظهيرة والشمس في سمتها، وإينارو في طريقه يشق مجموعة أكواخ القرية وبيوتها الطينية الواطئة حتى وصل بيت شيحو. هناك وجد مجموعة من الصبية يلعبون. نادى أحدهم:

- مس مريت .. هل أبوك في البيت ؟

- نعم .. يا إينارو .. لم يخرج منذ البارحة .

- ادعه من فضلك . قل له إني هنا .

ركض الصبي ليدعو أباه ، وما عتم شيحو أن خرج مسرعاً ينظر إلى إينارو فرحاً وصاح بمجموعة الصبية :

- اذهبوا والعبوا بعيداً عن هنا .. هيا ! اغربوا عن وجهي !

وأخذ بذراع إينارو :

- هلم إلى داخل البيت . لا حديث لنا هنا .

دخل الاثنان ، وأقفل شيحو الباب ، وضغط على يد إينارو :

- الحمد لـ(إمن رع) أن زوجتي العزيزة غائبة . مضت إلى حيث لا أدري بعد ليلة عصيبة . طلبت ثمن البقرة التي حملتها لأبيعها أمس فقلت لها إن ثمنها عندك .

- في هذه صدقت . إنه عندي . ولكن .. ألم يكن الأوفق أن تبيع أم العيال السمينة بدلاً من بيع البقرة ؟ ستأتي لك بثمن أكبر من ثمن بقرتك العجفاء .

رد ممازحاً :

- وأجلد ؟ ألا يكفيني جلدها هي ؟!

قال إينارو :

- قد تجد منقذاً لك منها .

قال شيحو :

- هذه لا منقذ منها إلى أبد الآبدين .

فأخرج القطع الفضية من حزامه ودفنها في كف صديقه :

- يمكنك أن تنقذ روحك على الأقل بصلوات الكهنة ببعض هذه النقود .

- الأولاد أولى بها من الكهنة . ولو أن كليهما لا يشبع . أما روحي فقد أنقذتها أنت بالأمس . لا أدري كيف أشكرك يا إينارو .. لا أدري . لقد عرضت نفسك للخطر في سبيلي. لا أعرف كيف أرد لك الجميل .

قال :

- سترده يوماً ما يا عزيزي .

طافت بذهنه صورة كليو . كانت تبتسم وأهدابها الطويلة ترفُّ على عينيها الدعجاوين وشعرها الأثيث ينحدر فيشتبك بأوتار القيثارة . شرد ذهنه قليلاً ثم انتبه لوجود شيحو . لم يدر ، أيلعنه إذ تورط بسببه في جريمة قتل منكرة ، أم يشكره حين ألجأه إلى بيت ثيوفرون الإغريقي حيث التقى بالحبيبة الجميلة . أراد أن يصل حبل الحديث :

- لم تحدثني كيف وصلت القرية ؟

- وكيف وصلت أنت ؟

- أسألك فتسألني ؟

- كنت قلقاً عليك .

- حسن . ها أنذا معك .. جئت عن طريق البحيرة .. ليس سباحة بالطبع .

- وأنا جئت عن طريق اختراق الحقول .. ليس راكباً بالطبع .

تفرس في وجهه متسائلاً :

- هل كان أحد من الواقفين حولك يعرفك ؟

لا أدري . كيف لي أن أعرف وأنا في حالتي تلك ؟

فكر قليلاً ومسح جبهته بأطراف أصابعه :

- لقد انفض الجمع بمجرد .. بمجرد وقوع الحادثة . فروا .. وهذا أفضل . دع الأمور تمضي حسب مشيئة رع ..

قال شيحو :

- رع كان ينظر إلينا ويرانا بعينه الباصرة . يعرف كل ما حدث . يعرف الظلم الذي وقع علي ، وجبروت الجندي الفارسي . إنه يعرف كل شيء .

طفق الاثنان يتجاذبان أطراف الحديث ويستعيدان تفاصيل ما جرى ، ويحدث أحدهما الآخر عن سبيل نجاته ، ويقلبان الأمر على مختلف وجوهه .. وكانت العشية قد أقبلت ونسماتها ترطب الجو ، وهما لا يتوقفان عن الكلام .

15

كانوا نحو عشرة من الرجال مختلفي الأعمار جلسوا على الحصر في ساحة بيت تكلت الذي قعد في الصدارة متكئاً على حشية وقد بان عليه الضعف وظهرت آثار الشيخوخة . كان لأربعة منهم ريشات على رؤوسهم أما الباقون فبدونها وإن بدت للجميع سوالف طويلة تتدلى على أصداغهم ولحى قصيرة مدببة الأطراف وخط بعضها الشيب وظل الآخر أسود حالك السواد .

قال أحد الرجال ملفتاً الانتباه إليه :

- هل سمعتم الأخبار القادمة من منف ؟

التفت إليه تكلت مستشاراً ، فقد ظن أن الرجل أخطأ وذكر منف بدلاً من راقودة .. أراد أن

يستوثق :

– من منف ... العاصمة الكبيرة ؟

– نعم ... أيها الزعيم .. من منف .

– وما هي هذه الأخبار يا ترى ؟

لاحظ الرجل أن الأنظار تتجه إليه وأدرك أنه الوحيد الذي يعلم ما حدث ، فاتخذ هيئة المبلغ لنبأ خطير وقال :

– أخبرني بذلك مس خنم . أنتم تعرفونه . تاجر الغلال الذي يأتي إلينا ليحمل نتاج الفلاحين إلى العاصمة الكبيرة . رأيته اليوم في السوق وهو الذي أخبرني .

انبرى أحد الجالسين متبرماً :

– أخبرك بماذا ؟ انطق .

– مهلاً . أنت دائماً على عجل يادد . قلت إن مس خنم هو الذي أخبرني ، وهو رجل صادق لا يكذب أبداً ، نعم هو تاجر – والتجار كثيرو الكذب – لكنه استثناء من القاعدة ، والفلاحون يحبون التعامل معه . أنا شخصياً اشترى مني ذات مرة بعض البقرات وجاء لي من منف بكتان تنسي ممتاز ، تنس مشهورة بكتانها الجيد . تعرفون هذا .. هيه ؟ وهو لم يزد في ثمن الكتان كما لم ينقص من ثمن البقرات ، ومنذ شهر .. كلا .. أقل من شهر .. لعلها ثلاثة أسابيع .. ذهب إلى طيبة ، فهو رجل كثير السفر .. تصوروا .. ذهب إلى طيبة البعيدة على النهر الكبير ..

انفجر الضحك .. وخبط أحدهم ذراعه يستعيده الحديث الذي بدأه :

– قل لنا ما الخبر يا رجل قبل أن تأخذنا وتاجرك الملعون إلى (إمنت) .. أرض الأموات !

– آه .. معذرة . كنت أود أن أعرفكم به لتعلموا صدقه .. فقط .

– نعرف ذلك . نصدق أنه صادق ، وأنت كذلك . ما الخبر ؟

– أحشويرش .

وصمت . نظر القوم إليه ونظر بعضهم إلى بعض متسائلين . قال أحدهم :

– أحشويرش .. ملك الفرس ؟

– نعم .

– نعرف أنه تاجر حسب المثل المشهور . هل قابلته أيضا ؟

ضحك أحد ذوي الريشات وعلق :

- أحشويرش تاجر شعوب وبلدان وليس تاجر غلال وأبقار .

فارضه أحد الجالسين :

- هو يأخذ الغلال والأبقار ولا يدفع أثمانها .. ليس مثل مسرخنم ... التاجر الأمين !

ظل تكلت صامتاً صابراً على هذر مجالسيه . ثم رفع يده النحيلة مشيراً إلى ذي الخبر :

- أكمل يا نكن . ما به أحشويرش هذا ؟

- مات !

فجأة حل الجد محل الهزل على وجوه الجماعة . وجموا كأنهم لا يصدقون ما سمعوا .

سأل دد أخيراً :

- مات ؟

قال نكن واثقاً من نفسه :

- نعم مات .. يا دد . أليس بشرا ؟

- كان يجب أن يموت منذ مدة طويلة .. لعنته الآلهة .

- هو الآن بين أيديها ، فلتفعل به ما تشاء . أنا لم أكمل الأخبار . أتحبون أن تسمعوها ؟

قال آخر :

- إذا كانت بقية أخبارك ، يا نكن ، طيبة مثل هذا الخبر السعيد فهاتها .

- الصبر طيب ، والأخبار طيبة أيضاً . أتعرفون من تولى عرش الفرس بعده ؟ .. سأقول بسرعة : ابنه المدعو أرتحششتا .

ابتسم رفيقه :

- أسماء مرعبة فظيعة .. مثل أصحابها .

جاء تعليق من طرف الحلقة :

-الفرس كلهم حراحشة. يموت حرحش فيأتي حرحوش. ماذا قلت اسم الملك الجديد يا نكن:

- ارتحششتا . هل أنت أصم ؟

- هيه ... وماذا آخر ؟

- قال لي مس خنم ، وهو عندي صادق في ما يقول وله علاقات واسعة في طول البلاد وعرضها ، ويعرف الكثير من ذوي النفوذ كما يعرف عدداً من الفرس أهل السلطة هنا .. بل إنه يتكلم لغتهم كذلك . هو يشتري لهم الغلال وهم يأخذونها ويحملونها .

- كفى يا رجل ! ماذا قال لك مس خنمك هذا بحق إمن ؟

- نعم .. نعم . قال لي إن الحالة في سوسة ، عاصمة فارس ، بلغت حداً كبيراً من الفوضى ، وثمة صراع على السلطة عنيف فأرتحشِشتا - هكذا يقول - شاب ضعيف الشخصية سيء الرأي متهافت القوى .. هناك - في سوسة - مؤامرات وقتل واغتيال ضمن العائلة الحاكمة ، وقد أعلن بعض حكام الولايات عصيانهم وأرسلت الجيوش لإخماد حركات التمرد في مقاطعة السند والشام ولا أدري ماذا آخر من أقاليم .

انتفض رجل أشيب اللحية متعجباً :

- كل هذا علمته من تاجرك ؟ كان ينبغي أن يكون صاحبك سفيراً وليس مجرد تاجر غلال وأبقار !

فرد نكن :

- التاجر أهم من السفير وأعلم وأغني أيضاً .

تكلم الزعيم تكلت مرة أخرى :

- يبدو أن الأمر مهم .. مهم جداً . امض يا نكن في حديثك . إنك تحمل أخباراً طيبة فعلاً :

- أشكرك أيها الزعيم . لكن إخوتي لا يدعونني أكمل كلامي .

- لا عليك منهم .. أكمل . ماذا لديك تضيفه ؟

- قال لي كذلك إن مرزبان مصر المدعو أخمين أمر جميع الحاميات الفارسية في العاصمة منف ، وفي طيبة ونكراتيس وبوباست وراقودة وغيرها ، بلزوم أماكنها وألا تخرج . ربما خوفاً من الفوضى وانفلات الأمر من يده بعد الذي جرى ويجري في بلاد فارس ذاتها .

عندما جاء ذكر راقودة قفز إلى خاطر الشيخ الزعيم تكلت ما فعله ابنه فيها ضحى يوم أمس ، ورأى أن ماحمله نكن من أخبار هو ما منع الحامية الفارسية من البحث عنه ومطاردته، كما ارتأى أن هذا هو الوقت المناسب لعمل كان يفكر فيه منذ زمن .. لمعت في ذهنه صورة مدينة صا والعرش الفرعوني . القصر الملكي ، والحشم والأتباع . الكاهن الأعظم والجنود المدججون

بالسلاح . الشموع الموقدة ، وكواكب المهرجانات والاحتفالات ومراكب النيل المزينة وأبواق وطبول . ومر بذاكرته شريط سريع من الأحداث المتوالية . الحرب ضد إغريق قورينا ، الانقلاب ، أحمس ، قمبيز ، دارا الكبير ، أحشويرش ، القتل ، الهرب . اللجوء إلى أبناء العم. بيوت الطين ، الفلاحون . الرعاة . الأبقار . البحيرة . الصبي الباكي ، الشاب القوي ، راقودة، شيحو . وتذكر أنه أرسل ابنه إلى بيت صديقه ليغيب عن الأنظار حتى تمر الزوبعة ويرى ما يكون .اطمأن الآن شيئاً ما إذ لم يذكر أحد راقودة ولا مقتل الجندي الفارسي فيها كأن أمراً لم يحدث . كان يقلب القرار الذي اتخذه على وجوهه ، وقد حدث زوجته ، كاروما ، به منذ قليل. بهذا يمكنه أن يضمن سلامة ابنه حين تؤول إليه الزعامة ، فسوف يتردد الفرس في متابعته إن أثير موضوع قتله الجندي وتعرفوا عليه .. من المجازفة أن يلاحقوا زعيماً في مكانته . ثم .. من يدري ؟ قد يتيسر لإينارو ما لم يتيسر له فيستطيع استعادة عرش جده الأكبر ، والظروف غير الظروف ، بل إنها مواتية الآن .. إذا توفرت الإمكانيات . هل تحلم يا تكلت ؟ هل يمكن لوحيدك تخليص مصر من نيرها ؟ هل يمكن إعادة توحيد القطرين فيضم الدلتا والصعيد ؟ بل هل يتحقق له توحيد قومك الليبيين وإخوتك المصريين تحت تاج واحد كما فعل شيشنق ، ونخاو وبسامتيك ؟ جائز .. كل شيء . أما أنت فقد كبرت سنك وهرمت ، وقد قضيت عمرك زعيماً لمجموعة صغيرة من أهلك ، لم تقدر على فعل شيء . لقد آن الأوان لأن تتنحى وتترك الفتى ينال فرصته ، ويجرب حظه .. فلعل وعسى .

رأى القوم أن شيخهم ركن إلى الصمت وظنوه قد أغفى لإغماضة عينيه وطول فترة صمته، فسكتوا هم أيضاً احتراماً لذلك ، بل إن نكن الثرثار صمت أيضاً وطفق يقلب ناظريه في رفاقه متسائلاً عما ينبغي فعله . ولم يطل بالجمع الانتظار ، فقد فتح تكلت عينيه الكليلتين ومر بهما على الرجال الجالسين من حوله ، واعتدل في جلسته مسوّياً متكأه وتهيأ للكلام ، فتعلقت بشفتيه الأبصار . قال متمهلاً في كلامه :

– لقد أسعدتنا بما أخبرتنا به يا نكن . لم نكن نتوقع أن تتغير الأحوال بهذه الصورة . إذن مات أحشويرش البغيض وجاء غيره ، وسيكون بغيضاً مثله ، لكن ما يدب في جسد ملك فارس يؤذن بموتها كذلك . لا يمكن أن يستمر هذا الجسد المنبعج في الوجود طويلاً . هذه سنة الحياة .

تدخل رجل أسود اللحية والسالف :

– لكنها دولة قوية وأقاليمها كثيرة ، أيها الزعيم . إنها تمتد من بلاد الهند إلى أرض الإغريق شاملة بلاد النهرين الكبيرين وبلاد الشام كلها ووادي النيل . يا لها من مملكة واسعة الأرجاء شاسعة الأطراف !

رد تكلت :

- وهذا هو مقتلها بالضبط . إنها واسعة أكثر مما تمكنها إدارته والسيطرة عليه .. ألم أقل إنها «جسد منبعج» ؟ أما قوتها التي تبدو لك فظاهرية . داخلها مريض ينخره الداء ومختلف الأمراض من الداخل . فانتظر الأحداث .

كانت الرغبة في الكلام تحرق نكن فرفع يده لينظر إليه القوم .

- الحق في ما يقول الزعيم . فقد أخبرني التاجر مس خنم ..

قاطعه الأحد الجالسين :

- التاجر أم السفير ؟ لا شيء لديه يفعله إلا أن يخبرك في ما يبدو .

فالتفت إليه نكن متظاهراً بالغضب :

- رجل صادق ومعلوماته وثيقة، فهو يسافر كثيراً ولا يلتصق بيقرانه عند بحيرة مربوط .

ثم واصل حديثه :

- أقول إن مس خنم أخبرني بأن الإغريق استرجعوا مدناً كثيرة كان أحشويرش قد أخذها وهم ماضون في استعادة بقية المدن الإغريقية يوماً بعد يوم .. لقد ذكر لي أسماءها ولكنني نسيت نطقها ..

قال تكلت :

- أنت لا تنسى شيئاً يا نكن . هذا ممتاز . فهو يعني أن الفرس يتقهقرون .

فوجد نكن أنه يحظى بالاهتمام وأن الأنظار ترمقه فأضاف :

- وشيء آخر . هناك ثورة ضد الملك الجديد في مقاطعة قريبة من بلاد فارس ، اسمها «بلك» أو «برخ» أو شيء من هذا القبيل .

قال أحد الجالسين مصححاً :

- اسمها «بلخ» ويعرفها الإغريق باسم «باكتريا» . إن كان ما تقوله صحيحاً فإن مُلك فارس فعلاً في خطر . إنها قريبة جداً من سوسة ، عاصمتهم ، ذاتها .

رأى تكلت أن الوقت مناسب للكشف عن قراره، فقد سرت في الجماعة روح جديدة متفائلة رغم أنهم لا يدرون على وجه الدقة ما هو تأثير هذه الأحداث. فأشار إليهم بيده المعروقة طالباً الانتباه :

- عفواً أيها السادة ... هناك الكثير مما حدث ، والكثير جداً يحدث الآن ، ويبدو أن الأكثر سيحدث قريباً .

ارتفعت الهمهمات :

- صحيح .. صحيح .

مضى تكلت قائلاً :

- وانتم جميعاً تعرفون قصتنا ، قصة آل بسامتيك . بعضكم من نفس العائلة ، وآخرون من أحد فروعها ، وغيرهم أبناء عمومة كانوا هنا . وقد لجأ أبي إلى هذه المنطقة هرباً من المذبحة التي تلت غدر أحمس بجدنا خفرع .. أتذكرون ؟ ثم جاء الفرس وحطوا بثقلهم على أرض مصر ونقلوا العاصمة من صا إلى منف .. لقد مرت عقود على هذا ، وتوفي أبي وارتضيتموني مكانه . واليوم ها أنتم ترون أن سني قد كبرت ولم أعد قادراً على القيام بالمهمة التي أوكلت إلي .

وسكت يراقب رد الفعل على الوجوه . فرأى أن الجميع لزم الصمت . هم يعرفون حقيقة ما يقول ، وحاول بعضهم تخمين ما يرمي إليه ولعل البعض الآخر مضي في تخمينه إلى مدي أبعد . جاءت كلمات الزعيم الشيخ موزونة قاطعة :

- لقد قررت التنحي عن قيادتكم . هذا قرار نهائي لا رجعة فيه . فإذا رأيتم أن تستشيروني في من يخلفني فاسمحوا لي باقتراح أن يكون ابني إينارو هو خليفتي من بعدي.

إنه لم يرد أن يترك فراغاً ربما يؤدي إلى خلاف ورام أن يحسم الموضوع ما دام ذلك في قدرته ، وهو وضع اقتراحه في عبارة رقيقة ملائمة . صحيح أنه فاجأ رؤساء عشيرته لكنها ، في ما يرى ، كانت المفاجأة التي لا ترفض .

قال أحدهم ، بعد أن توقف تكلت عن الكلام :

- الواقع ، أيها الزعيم ، أن صحتك لا تزال بخير ، ونحن نأتي إليك كل يوم ونجدك معافىً بدناً وعقلاً ... أترى من الضروري أن تتخلى ؟

كانت عبارة مجاملة أكثر منها رفضاً . قال تكلت :

- أن يتولى إينارو الأمر وأنا حي خير من أن يتولاه وأنا ميت . قد تفيده ما يمكن تسميتها «حكمتي» أو «خبرتي» ، فهو لا يزال شاباً - كما تعلم - قوياً ولكنه في حاجة إلى هذه الحكمة وهذه الخبرة .. سمة الشيوخ أمثالنا يا ثمر .

كان ثمر في نحو الستين من عمره ، فابتسم لإشارة زعيمه تكلت الذي عاش معه طويلاً وتجمع بينهما ذكريات الصبا الحلوة .. رغم قسوة الحياة . حك لحيته الشيباء ولم يقل شيئاً ، وانصرف الزعيم عنه إلى بقية الجماعة سائلاً :

- هل من رأي أو تعليق أيها السادة ؟

لم يتكلم أحد .

- أرى أنكم جميعاً موافقون على الاقتراح . أنتم رؤساء العشائر في هذه المنطقة ، ومن الصواب - في ما أرى - أن نبلغ بقية الرؤساء في المناطق الأخرى . من اللائق أيضاً إبلاغ القبائل الليبية في غرب البلاد وعمد القرى المجاورة .. يجب أن يعرف الجميع بهذا الأمر حتى الفرس في راقودة ونكراتيس وطيبة وغيرها . يجب أن يعرفوا ..

كان يهمه أن ينتشر الخبر ، ففي هذا حماية لابنه دون ريب .. وهو ما كان يهدف إليه بالدرجة الأولى . ثم مضى يقول :

- ضحى الغد إذن نقوم بمراسم التنحي والتنصيب في المعبد . ستكون الطقوس بسيطة ولكن لا بد منها .

تكلم ثمر مرة أخرى :

- ألا تمهلنا قليلاً حتى نستعد ؟

رد عليه بحسم :

- ليس ثمة وقت يا ثمر بالنسبة لي ولك على الأقل ! ثم إنه احتفال رمزي نجمع فيه بين طقوس بيتنا الفرعوني وعاداتنا الليبية ، ولن يستغرق وقتاً طويلاً .

من يدري ؟ - هكذا فكر تكلت - قد تجري لإينارو احتفالات أكبر يوماً من الأيام باعتباره فرعون مصر كلها .. فعلاً .. من يدري ؟

غابت الشمس وراء الأفق فشرع الرجال ينسلون واحداً تلو الآخر ، وبقي تكلت جالساً على حشيته يحلم بالغد .

16

نهض إينارو من فراشه مبكراً قبل أن ينبلج الفجر . كان قد عاد من بيت شيحو عند انعقاد

الظلمة كـما طلب منه والده الذي استقبله منبئاً إياه بقـراره التنحي وتسليم القيادة له وأن احـتفال التسليم سيكون ضـحى ذلك اليوم . ولم ينم البتة ولكنه ظل ساهراً يتقلـب في فراشه يعذبه الأرق والتفكيـر . يا للمقـادير ! انظر كم جرى في خـلال يومين اثنين ! وهذه المسؤوليـة التي تلقى على كاهله .. القيادة مسؤولية وأمانة ثقيلتـان جداً ... فهل هو أهل لهما ؟ سوف يحرم أولاً من حريته الشخصية ولن يعود في مكنته الانطلاق حيث يشاء ومتى يشاء كما كان يفعل من ذي قبل . سوف يسلب ثانياً متعة رفقة صحابه في سوق قريته الصغيرة وصخب الشباب الفاتن . وسيجد نفسه ثالثاً حبيس هذه الساحة كل مساء يستمع إلى هذر الشيوخ وأقاويل رؤساء العشيرة . ستمنعه الريشتان من عمل ما يحب وقول ما يعن له . كان خيراً له لو ظـل بريشة واحدة ، فالريشتان ثقيلتان رغم أن الريش مـضـرب المثل في الخـفـة . وسيـضطر إلى أن يكـون حكمـاً في المنازعـات وقاضـيـاً بين المتخاصـمين حول بقرة أو ثور أو قطعة أرض أو ملـكية محراث ، وما إلى ذلك بسـبيل .. بل ربما دفع إلى التدخل بين الأزواج لفض الاشتباكات العائلية المختلفة . ابتسم وهو يتخيل صديقه شيحو يأتيه بزوجته السمينة مريت إمن يـختصمان .. لأيهـما يحكم ؟ ألصديقه الطيب المسكـين فينصره عليهـا للمرة الأولى ، ولعلها الأخيـرة في حياته ، أم لتلك الزوجـة الثخينة فيـعرض نفسه ومـركز الزعامة ذاته للسـانها السليط؟ مشكلة وعليـه حلها . عليه وحده الآن، حل جمـيع المشكلات فمن يحل مشكلته هو؟ يظهر أن أبي أراد أن يوثقني بما فعل . أنا أعرفـه جيداً . إنه شيخ ماكر ، استطاع بدهائه أن يجمع من حوله الليبيين والمصريين معاً ، رعاة وفلاحين ، كما استطاع أن يحظى باحترام العـشائر البـعيدة وتـقدير القـبائل النائيـة . هذه نقطة في صالحك يا .. زعـيم . وماذا في صـالحي غيرها؟ أهذه السباخ المحيطة بأطراف بحيرة مريوط؟ أم مجموعة الفلاحين العراة التعساء ؟ وذلك الإرث الملكي القديم .. مـاذا تفعل به؟ الإرث الملكي .. هه ؟ لقد نسي أهلك تاج مـصر المـزدوج منـذ زمن ، فـمـا الـذي ذكرك به وأنت قـابع في قريتك ذات البـيوت والأكواخ الطيـنية ؟ طين .. طين .. أينمـا تحركت .. حتى المعـبد الصـغيـر مبني من الطين وليس من الآجـر حتى ، فـما بالك بالحجارة والصـوان ؟ لقد حدثك والدك عن قصـر الفرعون في صا . قـال إنه قصر كـبير به أبهاء واسعة وأعمدة كثيرة جداً وقاعـات وغرف لا تحصى ، كلها مليئة بالزخارف والنقوش والكتابات التى تخلد مآثر الأجـداد . حدثك أيضاً عن منف التي تعني «المبنى الجمـيل» . ساحرة هذه المنف ، وقد اتخـذها الفرس مقـر حكمهم في مصـر ، وفيها مـعبد الإله فـتاح العظيم. لماذا لم يحمـها من طغيان فـارس .. هذا الرب الذي يقال إنه مفتتح الخلق الأول ؟ أنت لم تر صـا ولا منف ، كما لم تر طيبة ولا نكراتيس أيضاً . كل ما تعرفه عن هذه المدن سمعته من أبيك أو قرأته على يد الكاهن .

لكنك رأيت راقودة . إنها قريبة منك .. قريبة جداً وفيها الحبيبة الغالية .. كليو . لم تكد تمر أربع وعشرون ساعة على فراقك إياها وها أنت يشدك الحنين إليها .. كنت البارحة فقط تشنف أذنيك ألحان قيثارتها ، وتقضي ليلتك هذه مصغياً لصرير الجنادب ونقيق الضفادع تفكر في ما سيكون غد وبعد غداً وبعد بعد غد .. إلى آخر العمر . ماذا فعلت ؟ ماذا ستفعل ؟ ماذا يفعل القدر ؟

لم يطق صبراً .. فنهض ، وخرج يستنشق هواء آخر الليل يسري به عن نفسه المكدودة . كان طل الخريف يغطي كل شيء .. الجدر ، والسياج ، والحصر التي لم ترفع من مكانها في الساحة ، والزير . حتى الحشية التي كان يجلس عليها والده كانت ندية ، فقلبها ليجلس على جانبها الجاف مستنداً إلى السياج . ضحك في سره سخرية من نفسه .. ألم تجد غير هذا المكان وهذه الحشية بالذات لجلوسك ؟ لعلك تتهيأ لقعدة الزعامة كما كان يفعل أبوك ؟ لا تقل إن الأمر صدفة . لا يوجد شيء اسمه الصدفة . هذه كلمة اخترعناها نحن البشر لتبرير ما نجهل باعثه ، فإن ما يحدث مرسوم ، إما بإرادة الإنسان أو بتدبير القدر . فأعنّي يا (شيئة) يا رب القدر ، على نفسي وفي أداء واجبي . أعني .. أرجوك .

أغفى متعباً . حلم بكليو تمشي حافية القدمين وشعرها الأثيث تلعب به النسمة السارية ، كما تلعب بثوبها الوردي . تمشي مبتسمة له فوق سحابة من سحب الخريف الرمادية ، وتطرف أهدابها السوداء .. ظل ينظر إليها مستهاماً ، ورام أن يحلق في الجو ويلحق بها ..

صحا من نومه فوجد نفسه ماداً ذراعيه في الفراغ واختفت صورة كليو .. تلاشت فلم ير سوى سحابة عابرة في ضوء الغبش .. جثا على ركبتيه فوق الحشية ذاهلاً .

***

سمع سعال أبيه الخفيف داخل البيت ثم جاءه صوته منادياً :

- إينارو ! أين أنت ؟

أسرع داخلاً إليه :

- ها أنذا يا أبت . أنعم صباحاً .

- وأنعم . هل أنت جاهز ؟ يجب أن نكون في المعبد قبل طلوع الشمس . أرسلت البارحة إلى الكاهن أخبره وسيكون في انتظارنا . خذ هذه .

كان الشيخ قد فتح صندوقاً خشبياً مطعماً بالصدف وأخرج منه بزة جديدة مذهبة التطريز . أعطاها ابنه ، ثم أخرج من الصندوق عصاً متوسطة الطول معقوفة الطرف تشبه أن تكون صولجاناً،

ومنشة مشذبة الهدب وأعطاها إياه كذلك ، وخفين مطبقي الشسع لطول ما ظلا في مخزنهما ، ناولهما إياه أيضاً بعد أن خبطهما أحدهما على الآخر ، ثم قال :

– هيا بنا . أمك لا تزال نائمة . دعها تنعم بأحلامها . أمامنا يوم حافل وعمل كثير .

ارتدى كل منهما عباءته ونعليه وخرجا قاصدين المعبد .

17

كان الكاهن في انتظارهما وترك باب المعبد مشرعاً وكان ثمة أربعة من خدم المعبد يتحركون ويبسطون مجموعة من الحصر على جانبي باحته التي تفصلها ستارة من الكتان عن الهيكل الصغير ، صفت على عرض حائطه جملة من تماثيل الآلهة المتنوعة في أشكالها المتعددة ، يتوسطها تمثال أكبر منها في صورة جسد إنساني ما عدا رأسه الذي بدا في شكل رأس كبش يبرز منه قرنان طويلان امتدا على جانبيه وتعلوه دائرة تمثل قرص الشمس .كان تمثالاً من البرونز المطلي بالذهب يمثل المعبود المزدوج (إمن – رع) في حين كانت البقية من الحجر أو من الطين المطلي ترمز إلى سائر المعبودات الأخرى . وقد أضيء الهيكل بعدد من الشموع وفاحت رائحة البخور المتصاعد من مجمرة أمامه .

اقتاد الكاهن تكت وابنه دون أن يتكلم . كان يمشي أمامهما تلمع رأسه الحليقة على ضوء الشموع ، حافي القدمين ، يرتدي ثياب الكهان ، ودخل بهما ممراً جانبياً أدى إلى غرفة وراء الهيكل تتوسطها بركة صغيرة ملئت ماءً ، تضيئها الشموع أيضاً . كان باب الغرفة مفتوحاً ، فلما دخل الكاهن وتبعه تكلت وإينارو أقفل الباب على الثلاثة . أخيراً نطق الكاهن وهو ينظر إلى العصا والمنشة والثوب التي كان إينارو يحملها في يديه :

– أنت تعرف معنى هذا يا تكلت .. أليس كذلك ؟

فرد تكلت :

– ليس له من معنى يا حرمس . أنت تعرف ما سيجري اليوم . سأتنازل لابني عن زعامة المنطقة فقد كبرت سني ولم يعد في قدرتي القيام بالواجب .

– أنا لا أشير إلى ما ذكرت . إنني أعني ما يحمله إينارو : هذه العصا والمنشة والثوب الفرعوني .

- ما لها ؟

قال الكاهن وقد ضاق ذرعاً بتغابي تكلت :

- لا تكن ماكراً أكثر مما يجب أيها الزعيم . إنك لا تزال زعيماً حتى الآن . تذكر هذا . أليس ما أتيت به رموزاً لسلطة الفرعون ؟

رد الشيخ :

- ورثتها عن أبي وأسلمها لابني .

قال حرمس :

- وأبوك ورثها عمن :

- عن أبيه .. عن جده .. عن جد جده .. عن جده الأعلى . ماذا في هذا ؟ هل ستخلق لنا مشكلة في غرفة التطهير يا سيدي ؟

كان إينارو واقفاً لا يزال يسمع ما يدور بين أبيه والكاهن ولا يدري ما يفعل أو ما يقول . أنى له أن يفعل شيئاً وهو يقف بين هذين الشيخين المتجادلين في قدس الأقداس ؟ همس الكاهن حرمس محذراً :

- إنني أخشى عليك وعلى إينارو وعلى نفسي . أخشى على الجميع إذا علم الفرس بأن ابنك اتخذ رموز الفرعون، ملك القطرين . تعلم ، قطعاً، أن ملك الفرس هو وحده الذي يحق له حمل لقب «فرعون» بعد أن ضمه إلى سلسلة ألقابه ، وسيغضب جداً إن علم بأن أحداً غيره نازعه فيه .

قال تكلت مطمئناً إياه :

- يا عزيزي حرمس .. يا كاهننا المبجل ! من أين لملك الفرس في أقصى الأرض الشرقية أن يعلم بشيء ؟ الأمر لن يستغرق لحظات . ثم إن الفرس وملكهم مشغولون جداً هذه الأيام فلا يهمهم أن يزعم أحد أنه ملك القطرين أو ملك الدنيا كلها . هذه قرية صغيرة منسية ونحن لسنا في منف أو طيبة .. فاطمئن . هيا يا سيدي وقم بالواجب قبل أن تشرق الشمس ثم نكمل بقية المراسم والطقوس .

قال هذا وقصد باب الغرفة خارجاً ، تاركاً إينارو والكاهن وحدهما .. فهز الأخير رأسه غير مقتنع ووجه الخطاب إلى إينارو :

- اسمع يا ولدي . إن أباك يلعب بالنار ، فأرجو أن يطفئها هذا الماء المقدس قبل أن تحرقنا

جميعاً . إنه يحملك أمانة عظيمة فآمل أن تساعدك الالهة على حملها . سأقوم بما طلب . سأرسِّمك كما يُرسَّم الفرعون .. اما أن تكون فرعوناً فعلاً فهذا يعتمد عليك أنت وليس على أحد غيرك .. صحيح أن احتفالنا سيكون قصيراً صغيراً يوائم صغر المعبد والقرية لكنه حفل فرعوني بكل المقاييس . وصحيح أنني لم أنصب فرعوناً من قبل - من أين لي أن أفعل ؟ - لكنني أعرف الواجبات الأساسية في مثل هذا الشأن على كل حال .. هيا تقدم .. اخلع نعليك وانزع ثيابك واهبط إلى هذه البركة .. وتطهر .

امتثل إينارو للأمر بينما اتجه الكاهن حرمس إلى كوة صغيرة جداً في الجدار يهمهم بصلواته لنور الشمس الذي بدأ يشع منها .. وكانت البزة ومكملاتها موضوعة على حافة البركة في متناول اليد . فلما أنهى تطهره جفف جسمه بقطعة كتان بيضاء كانت هناك وارتدى ثيابه الجديدة وانتعل خفيه ووقف منتظراً .. كل هذا وحرمس لا يزال يتلو صلواته بصوت خافت لا يكاد يسمع . فجأة توقف عن الصلاة والتفت إلى إينارو وتأمله من أعلى رأسه إلى قدميه ، ثم التقط العصا والمنشة ومدهما إليه فأخذهما هذا مستسلماً ، واتجه الكاهن إلى باب المطهر وفتحه فوجد تكلت العجوز في انتظارهما وراءه .. قال الكاهن موجهاً الخطاب إلى تكلت :

- لا ينقصه شيء إلا أن يحلق شعر رأسه وسالفيه ويعتمر بتاج مصر المزدوج الموحد بين قطريها .. الشمالي والجنوبي ..

فسارع تكلت يقول وهو ينظر إلى قامة ابنه الطويلة بإعجاب :

- لا ضرورة لحلق شعر رأسه أو إزالة سالفيه . سيصيبه البرد إن فعلنا والخريف قد أقبل ولا يصح أن يخرج الفرعون إلى رعيته مزكوماً .. سوف تفسد عطساته ترانيمك يا عزيزي . أما التاج المزدوج فتكفي الريشتان بديلاً عنه . إنه موحد القطرين .. الشرقي والغربي .. هذه المرة !

ابتسم حرمس مدركاً إشارة تكلت الواضحة . يبدو أن هذا الشيخ العنيد يهيئ في نفسه أمراً ويعد ابنه لتنفيذه بعد أن عجز هو عن القيام به. هل فعلاً ينوي توحيد قومه الليبيين وأهله المصريين في جبهة واحدة ضد الفرس المحتلين ؟ ولِمَ لا ؟ إنه ينتمي إلى أسرة ليبية أسست ملكها في مدينة صا وحكمت وادي النيل من «الشلال الكبير» في أقصى الجنوب حتى البحر المالح الذي يسمى «الأخضر العظيم» في الشمال .. وقد جاء أبوه هذه المنطقة من بحيرة مريوط بأسرته الصغيرة وعاش زعيماً للجماعة كلها ، ليبيين ومصريين معاً . إنه يعرفه منذ صغره ، ويعرف رؤساء العشائر من ذوي الريشات ورعاتهم ، كما يعرف امتزاجهم بالفلاحين . إنهم - في الواقع - يكوِّنون شعباً

واحداً ويتكلمون لغة واحدة . فما الذي يمنع من جمعهم في كتلة مقاومة واحدة تخلص مصر من عبوديتها ؟ هل ترى يمتد بك العمر ، يا حرمس ، فتشهد أحداثاً أسهمت في بدايتها ، شئت أم أبيت ؟ ولم يبغ أن يكشف عما في نفسه فنادى أحد أتباعه الأربعة :

– هل أعددت كل شيء ؟

– نعم .. يا سيدي . كل شيء جاهز .

قال الكاهن :

– حسن . سننتظر هنا حتى يحين الحين . اجلس يا تكلت . اجلس يا إينارو . اسمحا لي بإلقاء نظرة أستوثق فيها من إتمام الإعداد بنفسي ، ثم أعود .

تركهما مكانهما ودلف إلى الممر ثم دخل الهيكل فتفحص ما فيه من تماثيل ومباخر، ونظر إلى الكرسي الموضوع أمام الهيكل .. وتأمل ثلاثة أقداح فوق منضدة صغيرة في طرفه .. كانت الشموع لا تزال موقدة تنير ظلمة المكان ، والستارة مسدلة . فلما اطمأن نفذ من شق في الستارة إلى الباحة ، فوجد بعض الرجال قد وصل واتخذ مجلسه على الحُصُر المبسوطة . بدت له رؤوس ذات ريشات وأخرى حليقة ، وظهرت له ثياب طويلة الذيل فضفاضة وأخرى قصيرة .. مجرد قطعة كتان شدت علي الحقوين حتى منتصف الجسد، وكان القوم يتقاطرون واحداً بعد الآخر .. ونظر إلى مدخل المعبد فرأى زحاماً من الناس . كان جمهور خليط يطاول لكي يرى ما يحدث في الداخل . كانت الشمس قد ارتفعت وموعد الحفل اقترب . فقفل الكاهن حرمس راجعاً إلى إينارو ووالده :

– آن الآوان . سأقوم بالواجب قدر الإمكان .

وأومأ برأسه لأحد أتباعه ، فرفع هذا صوته بالإنشاد يشاركه الثلاثة الباقون ، ونهض تكلت وإينارو يتبعان الكاهن وأتباعه الذين تقدموا إلى الممر ثم إلى الهيكل وهم ينشدون . كانت أصواتهم تعلو كلما اقتربوا من الهيكل فلما بلغوه غطت على الهرج في الباحة وأمام مدخل المعبد، والستارة تفصلهم على الجمهور .

أشار الكاهن إلي تكلت ليجلس على الكرسي المنصوب وإلى إينارو أن يقف خلف أبيه واستمر الإنشاد . ثم أطل من شق الستارة فرأى أن عدد الجالسين قد اكتمل وأن الوقت قد حان لإتمام المراسيم . رفع يديه الاثنتين ، في إحداهما العصا المعقوفة وفي الأخرى المنشة ، فصمت المنشدون وأخذ أحدهم مجلجلة كانت بالقرب منه وهزها فأصدرت صوتاً أصغى له الجميع ،

وكان ذلك إيذاناً ببدء طقوس التنصيب . ومضى آخر ففتح الستارة . خرّ جميع الحاضرين سجداً ولم يرفعوا رؤوسهم إلا بعد أن عاد خادم المعبد إلى مكانه في صف واحد مع رفاقه الثلاثة على يسار الكرسي ، وإلى يمينه كان الكاهن حرمس واقفاً وقد أخذ هو المجلجلة فهزها مرة أخرى. رفع القوم رؤوسهم من سجودهم وطفقوا ينظرون إلى الهيكل وفيه تكلت جالس على الكرسي ، من خلف ابنه ، وعلى يمينه الكاهن وعلى يساره خدم المعبد ، وتمثال (إمن - رع) منتصب وسط مجموعة تماثيل الأرباب الأخرى تحيط به الشموع . سار الكاهن في خطوات بطيئة نحو المبخرة ووضع فيها حفنة من البخور فتصاعد الدخان يملأ جو المكان ويعبق بالرائحة العطرة النفاذة . رفع صوته منغماً ممدوداً :

- أي (رع) المعظم ! يا من ترى كل شيء بعينك الباصرة الوقادة . أي (إمن) المكرم ! يا من لا يخفى عليه شيء وهو الذي لا يُرى . باسمكما الموحد العزيز ، وباسم الآلهة المبجلة الأخرى : (نث) المحاربة القوية الحكيمة ، و(إزر) المبعوث من الموات ، و(حر) رب الضياء، و(ضحوت) إليه المعرفة والنور ، و(ست) رب الظلمة والليل . باسم الربة (إزت) المحبة المحبوبة ، و(حت حر) الوفية ، و(حابي) جالب الفيضان وخير النيل ، و(تاورت) ربة الطمي الغني بالنماء . باسم (رنت) ربة الحصاد ، و(مسخنت) الولادة ، و(من) الخصب ، و(ورقت) الخضراء للعشب . باسم (نوت) السماء و(شو) الهواء ، و(تانن) الأرض والتراب ، و(مأت) العدل والحقيقة ، و(شأي) القدر والقضاء . باسم (سف) رب المدافن ، و(سكر) رب الآخرة ، و(فتاح) الخالق ، و(خنم) مكوّن الأجساد ، و(خبر) رب البعث والنشور . باسم (حقت) الخيرة، و(سرقت) النيرة و(حرشف) رب الماء والصحراء . باسم من ذكرت ومن لم أذكر من الأرباب العظيمة والآلهة الفخيمة ذات الصفات الكريمة .. أنا الكاهن حرمس أدعوك يا (إمن) المبجل في اندماجك بـ(رع) المفضل أن تشهد على ما أقول وأفعل .

كان الكاهن ينحني أمام التماثيل المنصوبة كلما ذكر اسماً لأحدها ، وهو يعددها في نغمته الممدودة ويتوقف بعد كل اسم فيردد الحاضرون من ورائه بصوت ممطوط :

- إمين ! إمين !

ثم اقترب من تمثال (إمن رع) المذهب وجثا أمامه رافعاً كفيه ضارعاً في صلاة خافتة ، وأخيراً نهض ووقف إلي جانب تكلت الجالس فوق الكرسي وقال في صوت هادئ عميق :

اشهد أيها الإله . اشهدي أيتها الأرباب . اشهدوا أيها الحاضرون جميعاً أن الزعيم تكلت

تنازل بإرادته الحرة ورغبته الخاصة عن زعامة قومه لابنه إينارو بن تكلت الصاوي .

شعر بأنه ما كان يجب أن يذكر نسبته إلى صا .. فأسرع يكمل حتى لا يفسح المجال للتفكير في ما ذكر :

- وها أنذا أنصب إينارو زعيماً بدلاً من أبيه . فلتمتع الآلهة تكلت بالعمر الطويل والصحة والعافية .. حتى يشيخ ويهرم .

ابتسم تكلت في سره . ألم يشخ ويهرم بعد ؟! .

استمر الكاهن :

- ولتسبغ الآلهة على الزعيم إينارو طول الحياة والصحة والهناء .

كان القوم يرددون :

- إمين ! إمين !

ثم اقترب الكاهن من تكلت فأخذ بيده وأنهضه من على الكرسي ، وأشار لإينارو أن يقعد مكانه . فلما جلس هذا أخذ الطوق ذا الريشة الواحدة فوق رأسه واستبدله بالطوق ذي الريشتين فوق رأس أبيه الذي وقف خلف الكرسي كما كان ابنه يقف . بعدها مد الكاهن العصا المعقوفة فوضعها في يمين إينارو كما وضع المنشة في يساره .. فبدا فرعوناً جالساً على عرشه لا ينقصه إلا التاج .. وصفق الكاهن بيديه فجاء أحد الأتباع بأحد الأقداح الثلاثة كان به زيت زيتون صاف فأخذ هذا منه قطرات دهن بها جبهة إينارو ، وأرجعه مكانه .. ثم أخذ قدحاً أخرى مُلئ ماءً وغمس يده فيه ورش بما أخرجه من ماء وجه إينارو وثيابه . أما القدح الثالث فقد ناوله تكلت الذي أخذه في يمناه ومضى إلى الجالسين على الحصر وطفق يغمس سبابته في القدح ويلعقها فيفعل كل واحد منهم ما فعل حتى انتهوا.. كل هذا وإينارو جالس مكانه لا يتحرك كأنه تمثال (إمن رع) بالضبط .. وقد شرع الأتباع الأربعة ، يقودهم الكاهن ، في الترنم بأناشيد أخرى .. فلما انتهى تكلت من عمله رجع إلى حيث كان وتوقف المنشدون عن الغناء ...

فجأة مضى أحد الأتباع فأقفل الستارة ، وارتفعت أصوات الحاضرين في بهو المعبد بينما علا الضجيج ممن كان أمام مدخل المعبد . أما الكاهن فقد أخذ إينارو وأباه إلى غرفة الهيكل الداخلية وطلب من الزعيم الجديد أن يستعيد ثيابه الأولى ويضم العصا والمنشة ويخرج كما كان ... لم يزد شيئاً سوى ريشة ثانية تعلو هامته .

- مضى كل شيء على ما يرام .. فيما أحسب ؟

هكذا تساءل الكاهن . فقال تكلت :

– على خير ما يرام . لقد أحسنت يا حورمس . أحسنت خاصة بذكرك الرب (حرشف) رب الماء والصحراء ...

– لقد وحّدهما ، كما تعرف ، أو هو متوحّد فيهما معاً .

قال تكلت وهو يسبح في الخيال :

– الماء والصحراء .. عندما يلتقيان يحيطان بكل شيء ولا يحيط بهما شيء . نعم .. الماء والصحراء !

18

عندما خرج إينارو ووالده من المعبد قابلهما جمع من المستقبلين بالعناق . أخذ الشيخ ثمر رفيق عمره تكلت من ذراعه وسحبه بعيداً عن ابنه ، وانضم إليهما نكن وآخرون ، بينما عانق شيحو صديقه إينارو مع مجموعة أخرى من الشباب .

قال ثمر موجهاً كلامه إلى تكلت :

– يمكننا الآن نجلس معاً كما كنا ونستعيد ذكريات أيام الشباب يا عزيزي .

فأجابه تكلت :

– وندع الشباب يصنعون ذكريات لأيامهم القادمة .. طبعاً . انظر هناك كيف تجمعوا حول .. حول الزعيم الجديد .

– لكن الزعيم القديم يظل زعيماً ، حتى إن طارت إحدى ريشتيه .

قال تكلت ضاحكاً :

– ليست الريشة وحدها هي التي طارت . الشعر أيضاً طار ولم يبق منه شيء .

– هذا حسن جداً . كان ينبغي أن تحلقه منذ مدة ، فرأس الفرعون حليقة دائماً ...

لم تخف عن تكلت إشارة ثمر الذكية الموجعة فعلق :

– قد يحلق إينارو رأسه . أما أنا فقد فات الأوان .

قال ثمر :

- أنت أو هو .. لا فرق . المهم ألا نفقد الأمل .

ومضى الشيخان يدبان في طريقهما إلى السوق ، ينظران بين الحين والآخر إلى إينارو وهو يحاذي شيحو وزمرة أخرى من الشباب وقد تأبط حزمة ثوبه والمنشة والعصا المعقوفة .

قال شيحو مستثاراً :

- مرحى أيها الزعيم ! يمكنني الآن أن أجلس في ساحة بيتك مع الباقين . ألست صديقك ؟ وصديق الزعيم .. زعيم !

نظر إليه إينارو مندهشاً :

- أبهذه السرعة ؟ تدري أن جلسة الساحة مخصصة لرؤساء العشائر الليبية ، وأنت ... لم يدعه يكمل :

- مصري .. فلاح مصري . أليس كذلك ؟ فما الذي يمنعني من المشاركة ؟ ما الذي يمنع اجتماع الليبيين والمصريين في ساحة واحدة .. هيه ؟

رنت كلمات شيحو في أذنيه :

- دع عنك هذا الآن . عندما تصبح عمدة يمكن أن نفكر في الأمر .

- يمكنك أنت أن تجعلني عمدة الحي . عندما يرونني الازمك سيقولون : هووه ! شيحو رجل مهم .. شيحو صديق الزعيم . شيحو يصلح أن يكون عمدة .. هكذا يحدث دائماً ، وأصير عمدة الحي وأجلس في الساحة مع الزعيم وبقية الرؤساء .. الأمر سهل جداً كما ترى .

ضحك بقية الشبان وخبطه أحدهم على كتفه فصاح شيحو متألماً، فقد كانت آثار لذعات سوط الجندي الفارسي لا تزال توجعه .. قال له الشاب ممازحاً :

- يجب أن يكون لك كتفان قويتان حتى تتحمل مسؤولية العمادة .. أيها العمدة الخطير !

ثم تفرق الجميع ومضى إينارو إلى بيته وحيدا .

19

مر نحو شهر كان فيه إينارو يتعود شيئاً فشيئاً على القيام بالمهمة التي أوكلت إليه . كان يجتمع برؤساء العشائر في الأماسي يبادلهم أطراف الحديث ويستمع إلى آرائهم في القضايا التي تواجهه، ويتودد إليهم - يتودد خاصة إلى الشيوخ منهم حسب نصيحة والده . ألف أن ينصت إليهم

باحترام وانتباه وأن يعرض عليهم رأيه في بعض المسائل ويغيره إن جاءته نصيحة أفضل . وكان يزور القوم في بيوتهم أو يلتقي بهم في السوق فيهتم بكل منهم ... وكان والده، في البداية ، يجلس معه في حلقة المساء ويتدخل عند الضرورة ، ثم ما عتم أن صار يطيل غيابه ويعتذر عن الخروج إلى الساحة بحجة الإعياء والتعب حتى صارت غيبته مألوفة لا تثير الانتباه ، لكن إرشاداته وتوجيهاته كانت تبدوآثارها على سلوك ابنه واضحة . وقد نال الزعيم الجديد حظوة عند الجميع ، واحتل مكانة عالية في نفوسهم بسرعة عجيبة .. صار هو «الزعيم» بمعنى الكلمة ؛ شباب ، وصحة، ووسامة ، ورأي صائب ، وبسمة لا تفارق شفتيه . وقد لاحظوا ، في جملة ما لاحظوا وهم يزنونه في أحاديثهم ، أن «الزعيم» لم ينس صحابه من الفلاحين ، بل زاد في تردده عليهم وتفقد أحوالهم والإكثار من زيارتهم ، وكثيراً ما شوهد يرافقه شيحو وأحياناً يصحبه هذا وبعض من الفلاحين وهم يتبادلون الأحاديث الودية .

كانت الشائعات تنتقل من مكان إلى آخر عن أحوال المدن القريبة والبعيدة ، والكلام يكثر عن المتاعب التي تمر بها فارس وحكامها في بلادهم وانعكاس مجريات الأحداث على الأقاليم والولايات . لكن أحداً لم يكن يدري ما ينبغي عمله . وكان إينارو ينصت لما يقال ، وقد نسي حادثة قتله الجندي الفارسي تقريباً . وكان يعجب في نفسه من أن أحداً لم يتابع الأمر كما لم يصل خبر «الجريمة» قريته .لقد أقفل شيحو فمه تماماً ولم يشر إلى الموضوع من قريب أو بعيد.. حتى معه . وهو عجب أيضاً من أن أحداً من جامعي الضرائب لم يأت طيلة شهر كامل. وفسر هذا بانشغال الفرس بهمومهم ومشكلاتهم ، ودعا في سره الأرباب كلها أن تزيدهم هماً على هم ومشكلة فوق مشكلة .

لكن أمرين كانا يشغلان ذهنه؛ كليو وإشارات أبيه الغامضة عن ضرورة عمل «شيء ما».

كان في ساعات فراغه يختلي بنفسه ويظل يفكر في كليو وفي أخيها كيمون وأبيها ثيوفرون .. كيف هم الآن ؟ ماذا جرى لهم ؟ لماذا لم يتصلوا به بطريقة ما وهم يعلمون أنه لا يمكنه القدوم إلى راقودة حذراً ؟ هل ترى ذاك الصياد ، ما اسمه ؟ سنحر .. لا لا . اسمه إمنروت عرف بخبر الحادثة فوشى به ؟ لكن الفرس لم يلاحقوه فكيف يأتون إلى بيت ثيوفرون ولا يتابعونه هو ؟ كلا ... من المؤكد أن شراً لم يحدث .. فلماذا لم يحاول كيمون الاتصال به إذن ؟ وماذا عن وعده كليو بالزواج ؟ هل كانت زلة لسان منه في غمرة لحظة عاطفية ؟

كان القلق يأكله ولا يدري ماذا يفعل . وكان الخريف قد أوغل ورياحه تهب في الأماسي فيحس المرء ببردها يتخلل الأوصال . قال له أبوه ذات يوم :

- ليس من الضروري أن يأتي رؤساء العشائر إليك كل مساء .. البرد صار شديداً أشعر به يخترق عظامي . يكفي أن تحدد لهم موعداً كل أسبوع يأتونك ظهراً ، وتستطيع أن تدعوهم عند الحاجة . ثم لماذا لا تبني منظرة إلى جانب البيت؟ فهذا أفضل من الساحة .. قد يفاجئكم المطر إلى جانب أنني أرى بعض الفلاحين يزورونك كثيراً وهم يحبون الجلوس في المنظرة ..

تساءل إينارو في ذات نفسه ، لماذا لم يفعل أبوه ذلك من قبل ؟ من الواضح أنه يشجعه على حشد أكبر عدد من الفلاحين ، وهو يحب أن يفعل ، وقرر الأخذ برأي أبيه . وفي يوم آخر قال له وهو يشير إلى صندوقين في ركن الدار :

- هذا الصندوق به ما ورثته عن جدك من مال ، وفي هذا ما يجتمع من تقدمات الرؤساء وعمد الفلاحين . أنت المسؤول عنهما الآن . آه .. بالمناسبة .. خذ هذه الصرة واعطها الكاهن حرمس . للمعبد نفقات كثيرة ولا بد أن نعين حرمس على القيام بواجباته الدينية . الكاهن في حاجة إلى المال ونحن في حاجة إلى الكاهن .. لا تنس هذا !

وعندما ذهب إلى المعبد وسلم الكاهن صرته شكره هذا على عطيته وقال :

- هذه بداية طيبة لزعيم كريم . هكذا يفعل .. الملوك !

بعد بضعة أيام كان يتناول طعام الغداء مع والديه فسأله والده فجأة :

- ألم يحن الحين بعد كي تتزوج ؟

باغته السؤال :

- لم أفكر في هذا بعد .

- وماذا تنتظر ؟ إن كاروما لم تعد قادرة على القيام بشؤون البيت وقد كثر ضيوفك . عندما كانت أختاك ، أسبوتي ونفرت، هنا كانتا تساعدانها، وقد غادرتانا منذ مدة ، إحداهما في الفيوم والأخرى في الواحات .. ثم إن كاروما لم تعد صغيرة . لا أقول إنها كبرت !

فتدخلت كاروما محتجة :

- كبرت أم صغرت . أنا فعلاً أحتاج إلى من يعينني .... إلى كنَّة .

قال تكلت :

- وانا أحتاج إلى أحفاد يسلونني في وقت فراغي الآن .

وأردف :

- لو عاش إخوتك الذكور الذين ولدوا قبلك لكان ضجيج العيال يملأ البيت . ماذا أفعل وقد جئت آخر العنقود وأنت الوحيد الذي عاش منهم ؟ ينبغي أن تتزوج فلا يليق بالزعيم أن يظل عزباً هكذا .

قالت كاروما :

- لأسبوتي ثلاث بنات وولدان ، ولنفرت ولدان وبنتان .. أليسو أحفادك يا تكلت ؟

رد قائلاً :

- بلى . ولكنهم بعيدون عني . وهم ينسبون لآبائهم ، ويعيشون في الفيوم والواحات . أما إينارو ... فشأن آخر ..

حاول التملص :

- هناك أمور أهم من الزواج ياأبي . سأتزوج في الوقت المناسب .

وفكر : هل الوقت مناسب الآن لذكر كليو ؟ هل يوافق أبوه ، وهل ترضى أمه ؟ أنقذه صوت والده :

- بل الوقت مناسب جداً الآن .

أنهى الثلاثة طعامهم وغسلوا أيديهم وإينارو متردد في عرض رغبته .. ثم حزم أمره أخيراً وأراد أن يعيد الحديث إلى مجراه :

- إذا كان هذا رأيك يا أبي أفلا يكون لي رأي في من سأتزوج منها ؟

- هذا شأنك . تختار من تشاء .

صاحت أمه فرحة :

- هل وجدت عروساً ترضيك يا عزيزي ؟ هل أعرفها ؟ ابنة من هي ؟ جميلة .. هيه ؟ ينبغي أن تكون جميلة ونشيطة وطيبة ... لا أريد كنة مشاكسة ... هيه ؟

قال تكلت :

- مثل أمك .. أيام زمان ؟

قال إينارو :

- نعم يا أماه . جميلة ونشيطة وطيبة مثلك .. أيام زمان والآن . وتعرفينها تمام المعرفة ..

قالت بلهفة :

- من هي ؟ من ؟

أجاب :

- كليو . إنها كليو .

- كليو ؟ من هي كليو ؟ إغريقية طبعاً .

- كليو ابنة ثيوفرون .. التاجر الذي كان هنا في قـريتنا وغادرها إلى راقودة . تعرفينها وتعرفين أمها الراحلة التي دفنت هنا .

- آه .. تذكرت . لم أرها منذ مدة . منذ أكثر من عشر سنوات .

تدخل تكلت :

- لكن إينارو رآها .. رآها جيداً منذ شهر فقط .

قالت كاروما :

- هكذا إذن ؟

قال تكلت :

- وهي طاهية ممتازة في ما يبدو ، وتقدم خمراً جيدة كذلك . وقد أسكرته تماماً ... لست أدري أبخمرها أم بجمالها الإغريقي .

قالت كاروما :

- هكذا الإغريقيات دائماً . أتتزوج من إغريقية يا ولدي ؟

رد إينارو :

- لكنها ولدت هنا كما ولد أخوها ، وأبوها رجل طيب . إنها منا يا أماه .

علق تكلت :

- لعله يريد أن يثأر . لا تنسي أن الإغـريق تزوجوا من نسوة ليبيـات يوم جاءوا وأنشأوا المدينة الكبيرة .. قورينا .

ابتهج إينارو بالموافقة الضمنية وأراد أن يدعم الموقف . قال :

- لا تنس يا أبي أن لها علي فضلاً ، كما لأخيها والدها . إنك تدرك هذا بالطبع .

فقال تكلت :

- هذا ما يجب ألا تنساه أنت بالذات .

- أموافق أنت يا أبت ... إذن ؟

- ينبغي أن توافق أمك أولاً . فهي التي ستعاشرها أكثر مني .

هتفت كاروما :

-وهل لي رأي معكما؟ ما دمتما تريانها مناسبة فلا مانع لدي.المهم أن يكون إينارو سعيداً بها.

قال تكلت :

- المهم أن تكون لك أنت يا كاروما ربة بيت نشطة ، ولبيتنا امرأة ولوداً . أريد أحفاداً كثيرين يعوضون النقص عندنا .. أما جمالها فيهم إينارو وحده .

والتفت إلى ابنه :

- سأذهب بنفسي لأخطبها لك من ثيوفرون . هكذا الأصول .

كاد أن يحلق بجناحين من الفرحة .. لم يحسب أن الموافقة على تحقيق حلمه ستأتي بهذه السهولة . قال لأبيه والسعادة تبرق في عينيه :

- تقصر الكلمات عن التعبير عن شكري يا أبتاه . لقد طوقت عنقي بفضلك .

أجابه تكلت غامزاً :

- هذا الطوق الذي قبلته راضياً لا فكاك لك منه. تذكر هذا يا ولدي! لا تلمني في أيامك القادمة .

ضحكت كاروما :

- سيكون طوقاً رائعاً مثل الطوق الذي ارتضيته أنت ، أم تراك تضيق به الآن ؟

نظر إليها بحنان :

- إذا كان طوقه مثل طوقي فلن يخلعه أبداً .

وابتسم .. وتابع حديثه :

- غداً سأقصد راقودة وأنهي المسألة .. إن استجاب ثيوفرون طبعاً .



كانت مفاجأة غير متوقعة حين وقف إينارو أمام داره بعد أن ودع أباه في طريقه إلى راقودة صبيحة اليوم التالي .. شاهد إمنروت يدلف إلى ساحة البيت دون سابق ميعاد . أسرع نحوه

مرحباً :

– ماذا ؟ ماذا أرى ؟ أنت هنا ؟

– نعم .. أنا وليس أحد غيري .. بالطبع .

تعانقا . أخذه من يده وأجلسه ، فنظر إمنروت إليه متملياً :

– وماذا أرى أنا ؟ ريشتا الزعامة ؟ ماذا حدث ؟ هل توفي الوالد .. لا سمحت الأرباب ؟

– لا .. لا . الوالد بألف خير .

– إذن كيف أصبحت زعيما يا إينارو ؟

– هذه قصة أرويها لك فيما بعد . آه .. حدثني . كيف هي أخبارك ؟ ما الذي جاء بك ؟ أين باسخم ؟ كيف حال صديقنا كيمون ؟ هل تراه كثيراً ؟ هل رأيته أخيراً :

ظل يمطره بالأسئلة وإمنروت ينظر إليه . قال له :

– أأنت الذي يسأل ؟ كان ينبغي أن تجيب عن أسئلتي أو على الأصح أسئلة كيمون : لماذا غبت طيلة هذه المدة ؟ لِمَ لم ترسل أحداً بأخبارك ؟ وأيضاً .. نسيت أن تسألني هل أبلغته الرسالة مثلاً ؟ أما سبب مجيئي فهو أنني .. اشتقت إليك . كنت أطمع في أن أصطحبك معي إلى راقودة، لكن الأمر تغير الآن إذ ليس من السهل اصطحاب الزعماء .. لا سيما زعماء الليبيين .

كان إينارو يحاول أن يداري بأسئلته الموقف ، ولم يدر سر زيارة إمنروت له . تذكر نقله إياه في قاريه وما قاله عن قصة حياته وتنكره هرباً من مطاردة الفرس له إلي آخر ما حدثه . هل عرف شيئاً عن حادثة راقودة يا ترى ؟ حاول أن يستدرجه إلى الكلام :

– أنت تعرف كيمون منذ مدة .

– ألم يذكر لك أننا صديقان ؟

– وتعرف والده أيضاً ؟

– طبعاً .. وأعرف أخته كذلك . فعندما عدت وباسخم إلى راقودة ذهبت إلي الحانوت لأسلم كيمون رسالتك فلم أجده فيه . وجدت أباه فقط، فذكر لي أنه في البيت ودلني عليه .. وحين مضيت إليه فتحت لي الباب أخته .. كما علمت من كيمون فيما بعد. إنها جميلة جداً.

ونظر إليه نظرة ذات معنى . نهض إينارو ليأتي بطبق من الرطب ورغيف وأدنى من ضيفه جرة الماء ، وأعاد عليه السؤال :

- لم تخبرني ما الذي جاء بك يا إمنروت ؟

قال وهو يتناول بعض الرطب :

- قلت لك إنه الشوق إليك .

- أبهذه السرعة ؟ كفى هذراً .

- إن لم يكن شوقي أنا فشوق من يهمه أمرك ولعل أمره يهمك .

- من الذي يهمه أمري ؟

- هما اثنان .

شبك إينارو أصابع يديه بعضهما ببعض وأحاط بها ركبته ونظر إلى إمنروت متأملاً :

- اثنان ؟

- نعم .

- من هما ؟

- كليو .. هذا هو اسمها . أليس كذلك ؟ لقد عرفته من أخيها . هذا أولاً .

- أباحت لك بشوقها إلي ؟ شيء جميل . يبدو أن علاقتكما وطيدة .

- لا تكن غيوراً سخيفاً . لا تنس أن لي زوجاً وولداً . كيمون هو الذي لمح لي .

- حسن . والمشتاق الآخر ؟

- جنود الفرس .. إذا كان يهمك أن تعلم .

***

فك أصابعه المتشابكة واعتدل في جلسته منتبهاً إلى ما قاله إمنروت. الرجل يعرف أشياء كثيرة.. صلته بآل ثيوفرون وعلاقته الخاصة بكليو ، ولعله يعرف ما فعله في راقودة . بل إنه يقول إن الفرس يطلبونه . انكشف إذن . ماذا ينوي أن يفعل يا ترى ؟ هل جاء يبتزه ؟ لكنه لاحظ الود في كلماته ليس الآن فحسب بل منذ التقى به في قاربه تلك الليلة المشهودة . من الواضح أنه رجل صادق .. لكن ما هي غايته ؟

توقف إمنروت عن الطعام وتناول الجرة ليشرب . مسح شفتيه وقال :

- هيه .. يا إينارو ! ألا تستجيب لشوق المشتاقين ؟

قرر أن يخبره عن أمر كليو حتى يعلم سر إشارته للفرس :

- ما دمت فضولياً إلى هذا الحد ، وملحاً أن تعرف فاعلم أن شوق كليو لن يطول . لعلها الصدفة وحدها هي التي جاءت بك اليوم . كان يمكن أن تقابل أبي في الطريق إلى راقودة ليخطبها لي . هل أرضيت فضولك ؟

- أهكذا ؟ يا للصدف السعيدة ! هذا خبر طيب . يمكنني أن أحضر عرسك قريباً إذن ؟

- سادعوك حتماً إليه .. في الوقت المناسب .

- الوقت مناسب لأشياء كثيرة أخرى غير العرس .

أراد أن يجره للحديث عن الفرس :

- ولماذا يشتاق إليّ جنود فارس أيها العليم ؟

- آه .. هذه قضية أخرى .

- قل .

اتخذت ملامح إمنروت سمة الجد :

- أتذكر ليلة نقلتك أنا وباسخم منذ أكثر من شهر من راقودة إلى هنا ؟

- طبعاً . وهل مرت عقود السنين حتى أنسى ؟

- لقد شككت في أمرك . كانت المسألة واضحة . وعندما عدت إلى راقودة تيقنت . علمت أن ليبياً قتل جندياً فارسياً في طرف السوق . كان الفاعل أنت دون ريب .. وحين أبديت ذلك لكيمون أنكر الحادثة تماماً . لكن إنكاره لم يعن شيئاً ، فالمسألة واضحة .. كما قلت لك . وقد حدثني كيمون عنك طويلاً ... عن نسبك الفرعوني وتقلب الأيام بأهلك ، والتحاق جدك بليبيي مريوط بعد أن كان يعيش في العاصمة القديمة صا .

- ثم ماذا ؟

- ثم .. ثم لا شيء . من حسن حظك أن الفرس منشغلون بمشكلاتهم . سمعت عما يحدث في سوسة ومختلف أقاليم مملكتهم في ما أظن . تنوسيت حادثة مقتل الجندي .. ربما إلى حين .. فقررت زيارتك . وها أنذا أفاجأ بأنك صرت الزعيم بدلاً من أبيك . هذا حسن جداً .

- والغاية ؟

- الغاية ، أيها الزعيم ، أنني عثرت عما أبحث عنه .. أخيراً .

- عمّ كنت تبحث بحق الأرباب ؟

- المشاركة !

- المشاركة ؟ المشاركة في ماذا ؟

- في المستقبل . تذكر أننا شريكان في الماضي ، أنت قتلت وأنا نقلت . ألست شريكك في .. الجريمة ؟ ويجب أن أكون شريكك في عواقبها .

مسح إينارو لحيته الصغيرة بيده ولم يقل شيئاً.. فأحس إمنروت بأن عليه مزيداً من البيان:

- اسمع يا إينارو ! يبدو أنك لا تصدقني . لقد أخبرتك بما فعله الفرس بي .. بأبي وأهلي وعشيرتي ، وأن روحي لتضطرم بالرغبة في الانتقام وأنت تدري ثقل حكم الفرس على مصر وما يعانيه أهلها وفلاحوها من قسوة المكاسين وعنف جامعي الإتاوة .. أصبحت مصر مجرد ضيعة منتجة لفارس . وأنت .. أنت بالذات عليك واجب ثقيل . ألست سليل بسامتيك ؟ ألست وريث عرش الفراعين في صا ؟ من أولى منك باسترداد العرش وطرد الفرس وإعادة مجد الفراعين وحرية مصر واستقلالها ؟ من ؟

رفع إينارو يده كالمعترض :

- ولكن ..

فسارع إمنروت :

- ليس ثمة «ولكن» .. فارس تتضعضع ، والسخط يعم سكان مصر وفلاحيها بالذات. الجو مهيأ للعمل .

- عفوك . كنت أريد القول .. ولكن هل نسيت كيف جاء جدي إلى هذا المكان في أقصى بحيرة مريوط ؟ أنسيت ما فعله أحمس بجدي الأول ، خفرع ، يوم انقلب عليه وغدر به وهو الذي نصبه قائداً لجيشه يقاتل به إغريق قورينا ، فخانه ؟ أنسيت أن أحمس هو الذي كان سبباً لمجيء الفرس إلى وادي النيل يوم غزاه قمبيز ؟ لقد كان أحمس سبب البلاء كله .

قال إمنروت :

- ذاك تاريخ مضى أيها الزعيم . نحن في الحاضر . المصريون جميعاً - وأنا منهم - يبكون تلك الأيام الزاهرة . إنهم يذكرون بسامتيك ونخاو وخفرع .. فراعين كبار .. ويرجون عودة تلك الأيام . صحيح أنهم كانوا ليبيي الأصل والنشأة ، ولكن متى ينفصل الأخ عن أخيه .. يا أخي ؟

استعاد إينارو ذكرى رجاء إمنروت في لقائهما الأول أن يدعوه «أخي» وسعادته بأن دعاه كذلك ، فأحس بالقرب منه كثيراً . شعر بأنهما واحد . قال :

– مثل هذا الأمر يا إمنروت لا يأتي هكذا دون إعداد . لا بد من التفكير جيداً قبل الشروع في عمل ما ، فما بالك بمثل ما تشير إليه ؟

رد إمنروت :

– ومن قال إننا سننطلق اليوم ؟ نعم .. لا بد من الاستعداد .

– لأبي كلمة قالها لي مرة : الأظلاف لم تخلق للقتال ، ومن لا مخالب له يجب ألا يفتح براثنه في وجه أحد .

– حكمة ... وحق (إمن رع) إنها لحكمة . غير أن المخالب موجودة .. كل ما في الأمر أنها في حاجة إلى اكتشاف . يقولون في المثل : من عضك ذكرك بأسنانك . الا ترى هذا ؟ ولقد عضنا الفرس كثيراً حتى أدموا أجسادنا . إن لدينا أسناناً يمكننا استعمالها .

قال إينارو :

– لا يكفي أن تكون لك أسنان . يجب أن تكون أسناناً حادة قوية حتى لا تتساقط من أول عضة .

فعلق إمنروت :

– إنها حادة وقوية جداً . أؤكد لك . لكن الفم مطبق عليها . هذا كل ما في الأمر .

***

تذكر تلميحات أبيه وإشارات الكاهن يوم تنصيبه زعيماً . استعاد حكايات الأهل عن القصر الفرعوني في صا ، وما يرويه الشيوخ عن تاريخ أسرته ، والمكانة الرفيعة التي احتلتها قبل أن يغدر بها أحمس ويأتي الفرس . أدرك سر نفوذ كلمة والده في منطقة مريوط كلها ، بل تجاوزها إلى مناطق أخرى بعيدة في الصحراء وعلى امتداد الضفة الغربية للنيل ، والهدايا والتقدمات التي تأتي إلى دارهم المتواضعة من كل مكان . بل تذكر كيف استجاب الكاهن حرمس لما طلبه منه أبوه من تنصيبه زعيماً كما ينصب الفرعون .. مع الفارق في المظهر طبعاً، أما الجوهر فهو هو .. ودون شعور منه لمس الريشتين اللتين تعلوان رأسه ، فتخيلهما تاج مصر المزدوج ... نفس التاج الذي كان يلبسه جده الأعلى .. تذكر أيضاً شيحو وهو منطرح على ظهره في طرف سوق راقودة يرفس بقدميه ويديه في الهواء يدفع بها ضربات السوط ، وتوالت في ذهنه صور الفلاحين المطحونين

بالفقر والتعاسة وهم يحرثون ويزرعون ويحصدون ليأتي جامعو الضرائب فيأخذون أكثر ما أنتجوا ولا يبقي لهم سوى القليل . وتلاحقت صور رعاة البقر يتابعون قطعانها ترعى في ذلك الجزء من دلتا النيل ، شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة ، ثم يأتي جنود الفرس على خيولهم فيسوقونها أمامهم دون أن يستطيع الرعاة اعتراضهم أو الدفاع عنها . وتتابعت مناظر من البيوت والأكواخ الطينية الحقيرة ، والأزقة الموحلة ، والبرك والمستنقعات الملأى بأسراب البعوض ومختلف أنواع الحشرات . وغرق يستعرض مظاهر الفقر المدقع والمرض عند من عرفهم وعاشرهم منذ طفولته الأولى . وأحس بالغصة في حلقه . نعم .. إن عليه واجباً ثقيلاً كما قال إمنروت . وقد رضي بأمانة الزعامة ، هل يقضي حياته يتلقى العطايا والتقدمات دون أن يفعل شيئاً ، قابعاً في داره حتى النهاية ؟ إن تكلت لم يستطع أن يقوم بشيء ، كما لم يستطع جده ، لكن أباه يعقد عليه هو كبير الآمال . الظروف اختلفت والزمن غير الزمن ، وها هو يجد معيناً قد يحققان معاً ما عجز عنه السابقون . أترى إمنروت أهلاً لما يزعم ؟ أتراه يملك أسناناً حادة وقوية كما يقول ؟ إن كان الأمر كذلك فإن لديك ، لدى أهلك يا إينارو ، مخالب وأظفاراً . فلتتعاون الأسنان والمخالب على تمزيق المعتدي إذن .

رفع رأسه التي كان قد طأطأها وهو مستغرق في دوامة أفكاره :

– أنصت إلي يا إمنروت . ما تعرضه صحيح كله . لكن ما تقترحه أمر بالغ الخطورة ، ليس من الممكن البتّ فيه في جلسة ساعة ولا في شهر أو حتى في سنة . والدي في راقودة ، كما أنبأتك ، ولا بد من الحديث معه .. هناك الكثير مما ينبغي بحثه .

قال إمنروت مبتهجاً :

– المهم المبدأ . إذا اتفقنا على المبدأ أمكن أن نناقش التفاصيل فيما بعد . فليعتمد أحدنا على الآخر ولنترك بقية المسائل إلى حين . إذا وثق أحدنا بالآخر استطعنا تحقيق المستحيل .

– الطريق طويلة .

– ليست أطول من الطريق بين سوسة وصا .

– حسن فلنتفق أولاً كما قلت .

– هات يدك إذن .

مد إينارو كفه فتلقفها إمنروت وضغطها بشدة في كفه .

كان يبتسم وفي عينيه لمعت دمعتان من التأثر . أطلق كف مضيفه وتنهد ، ثم رفع صوته مغيراً

مجرى الحديث :

- سيعود والدك هذا المساء فيما أحسب ، وسيأتي بخبر القبول . أبارك لك منذ الآن وأتمنى لك السعادة كلها . كنت أود لقاء الوالد ...

- لِمَ لا تنتظر عودته ؟

- أحب أن يراني في غير هيئة الصياد . ألا تدعوني لعرسك كما وعدت ؟

- بكل تأكيد .

- يمكنك أن تتصل بي عن طريق كيمون . إنه يعرف أين يجدني . سأمضي الآن . وليكن لقاؤنا قريباً .

وقام مودعاً ، ثم غادر الساحة دون أن يلتفت .

21

لم يطل انتظار إينارو أن يرى كليو في بيته .

رجع والده مساء نفس اليوم الذي قصد فيه راقودة ، ليخبره بما تم . استقبله ثيوفرون فرحاً بقدومه إلى حانوته في سوق البلدة وكذلك فعل كيمون . كانا يسألانه عن القرية وأهلها وكل من عرفاه فيها وعنه بالذات .. ثم أخذاه إلى البيت واستضافاه على مائدة الغداء . رأى كليو واطمأن لاختيار ابنه . بعدها طلب يدها من أبيها وأخيها فوافقا دون إبداء أي تردد . وقد علق كيمون على «الانقلاب» الذي حدث في ما يتعلق بزعامة ليبي مريوط ويادله تكلت التعليقات المرحة . عرضا الأمر على كليو فسكتت راضية بل سعيدة أن تقترن بزعيم شاب . لم يأت أحد على ذكر ما حدث في سوق راقودة . وقد تحدد منتصف الشهر القادم ، عندما يكون القمر بدراً ، موعداً للزفاف ... حتى يمكن للطرفين الاستعداد للعرس .

***

وهكذا لم يكد الشهر ينتصف حتى كان كل شيء جاهزاً . فقد ابتنى إينارو غرفة جديدة ألحقها بالبيت ، وهيأ المنظرة لاستقبال الضيوف ، واشترى كل ما يلزم العرس من مؤن ومواد مختلفة وعطور . وهو أرسل لأختيه ، أسبوتي في الفيوم ونفرت في الواحات ، لكي تحضرا زفافه مع زوجيهما ، فجاء الجميع يصحبهم الأولاد وعدد من الأقارب ، وامتلأ البيت بالحركة والضجيج .

وكانت كاروما تسعى هنا وهناك سعيدة باليوم المرتقب ، تساعدها ابنتاها ونسوة الجيران . أما تكلت فقد ترك كل شيء تقريباً يقوم به ابنه ، إلا من بعض النصائح بين الحين والآخر ، وصار يجلس مستمتعاً بحديث رفاقه من الرؤساء ورفاق الصبا في المنظرة أو في سوق القرية . وكان الاتصال مستمراً بين إينارو وآل ثيوفرون عن طريق الرسائل أو المبعوثين ، ولم ينس أن يذكّر كيمون بدعوة إمنروت وإخطاره بالموعد .

وجاء الموعد ، ومنذ الصباح غصت المنظرة والساحة بالحاضرين ، وارتفعت أصوات المغنيات اللائي استُقْدِمْنَ خصيصاً من نكراتيس تصحبهن الدفوف والمزامير ، وبين فترة وأخرى كانت زغاريد النسوة الليبيات تعلو : أللويا .. أللويا .. أللويا .. أللويا !

وكان الصبيان والبنات الصغيرات يتجارون لاهين يلعبون في خضم الزحام ، وهم يختبئون خلف الجدران أو يتشبثون بأردية أمهاتهم المنشغلات بتقديم الطعام ، والتصفيق ، والغناء ، والزغاريد ، في الوقت نفسه .

كان من المنتظر أن تصل العروس عشية ذلك اليوم . وعند الظهيرة جاء شيحو ، الذي كان يلازم إينارو دائماً ، إليه راكضاً وهو يلهث :

- إينارو ! لديك ضيف . ضيف مهم . كما يظهر . ضيف مصري مهم .

خرج من المنظرة حيث كان يؤانس ضيوفه ينظر من القادم . ومن بعيد لمح ستة رجال يتقدمهم شاب حكم عليه من ثيابه بأنه سيدهم وإن لم يتبين ملامحه جيداً . كان يرتدي مئزراً من الكتان ناصع البياض وينتعل خفين من الجلد ، ويحيط بعنقه قلادة ذهبية عريضة مرصعة بالجواهر ذات أطوار تكاد تغطي كتفيه وصدره العاري ، يتدلى منها نقش من اللازورد على هيئة جُعل ، وقد وضع على كتفه اليسرى منديلاً من الكتان الموشى بخيوط ذهبية وفضية أمسك طرفه بيده اليمنى بينما شغلت يده اليسرى بعصا قصيرة يهزها في مشيته المتأنية .. أما رأسه فبدت له حين اقترب ، محففة ، من ناصيتها وجانبيها وقد عقد فوقها منديلاً أبيض كذلك غير أنه مخطط بخطوط أفقية سوداء .. ولاحظ أن صحبه الستة مؤتزرون أيضاً وإن خلوا من الزينة وانتعلوا خفافاً من الخوص . كانوا يتقدمون نحوه على مهل .

لم يصدق عينيه حين بلغه الضيف ورفاقه . عرفه .. كان إمنروت .. الصياد بذاته . هتف وهو يستقبله بذراعيه المفتوحتين :

- يا لأرباب طيبة جميعها ! أهذا أنت ؟

ابتسم إمنروت وهمس له وهو يعانقه :

- نفس السؤال منذ أسبوعين فقط ! نعم .. أنا وحق إمن وجوقته من الأرباب . ألا زلت لا تصدقني ؟

أخذه من يده مرحباً ، ودعا رفاقه الستة لدخول المنظرة . وكان شيحو ينظر مستغرباً . وحين دخل إمنروت ، قدمه مضيفه باعتباره أحد أمراء الضفة الشرقية من الدلتا ، فقام له الجمع يحتفون به ويحلونه مكاناً في صدر المجلس ، وجلس رفاقه مع بقية الضيوف .

ولم يلبث أن حضر الطعام والشراب وانهمك القوم في أحاديث مختلفة عن شتى الموضوعات.. انتظاراً لمقدم العروس. وفي هذه الأثناء جاء تكلت الذي كان غائباً لبعض شأنه، فنهض إينارو يقدم لأبيه ضيفه بصفته تلك، وقام إمنروت مُحيِّياً الشيخ الذي رحب به وشكره على مجاملته الرقيقة بحضوره زفاف ابنه . لكنه في قرارة نفسه كان يتساءل عن صلة ابنه بهذا «الأمير» من ضفة الدلتا الشرقية وهو الذي لم يزرها قط ولا صلة له بأحد من أهلها . كان ينظر إلى ولده تارة وإلى إمنروت تارة أخرى وهو يطلق عبارات الترحيب . خمن إينارو ما يدور في خلد أبيه فقام إليه واستنهضه من مجلسه آخذاً بيده إلى خارج المنظرة ، وهمس له :

- هذا ، يا أبي ، الصياد الذي نقلني بقاربه من راقودة ، وكان ضيفي ذلك الصباح .. إنه من عائلة كبيرة في بوباست ، قتل الفرس والده الذي كان زعيم الفلاحين من حولها لامتناعه عن دفع الضريبة لهم . وكان متنكراً على شاطئ بحيرة مريوط قرب راقودة . وقد زارني منذ مدة وتحدث معي في شأن «عمل ما» ضد الفرس . أنا شخصياً فوجئت بقدومه في هذه الهيئة. أهله لا يزالون في منف .. في ما أظن . هذه هي الحكاية .

تفرس تكلت في وجه ابنه ملياً :

- هو إذن يسعى إلى غاية .

- نعم .. قال لي هذا بالحرف . قال إنه يريد الانتقام .

- بالتحالف معنا ؟

- هكذا يبدو .

- ونحن لنا ثأر ... ولنا عرش يجب أن يستعاد .

- تماماً .

- تحدثت معه .. تقول ؟

- نعم . واتفقنا مبدئياً . قلت له لا بد من مشورتك أولاً قبل عمل أي شيء .

- حسن .. ادعه الليلة للمبيت هنا . لا تتركه يذهب ، فلي معه كلام .

وغطى على حديث الاثنين صوت المزامير والدفوف .... فقد اقترب موكب العروس .

22

كانت كليو قادمة في عربة صغيرة يقودها أخوها جالساً بجانبها ويجرها جواد مطهم ، في موكب يتكون من عربتين أخريين تجرهما الثيران اعتلتهما جملة نسوة إغريقيات يرافقن العروس ، ورجال من الإغريق أيضاً بعضهم امتطى حصاناً وآخرون يركبون حميراً ، هم أصدقاء كيمون ووالده . وقد بدت كليو في كامل زينتها ، وارتدى أخوها أجمل ثيابه بينما ظل ثيوفرون في راقودة ولم يأت لزفاف ابنته كما جرت العادة . وخرج تكلت وأصحابه لاستقبال القادمين آخذين الرجال منهم إلى المضيفة ، في حين استقبلت كاروما وزميلاتها العروس ورفيقاتها في الساحة وأدخلتهن البيت . أما إينارو فقد ذهب مع شيحو ليرتدي ثياب عرسه ويهيء من نفسه . وكان الجو دافئاً ، والطعام كثيراً والشراب وفيراً ، وقد سرت في الجميع حرارة المناسبة واللقاء . حيا كيمون صديقه إمنروت :

- تبدو رائعاً يا إمنروت ، لو لم أعرف أنك متزوج لحسبتك عريساً .

قال إمنروت مداعباً :

- لا يمتنع أن أكون عريساً مرة أخرى .. ليس لك أخت ثانية لسوء الحظ .

رد كيمون :

- لسوء حظك وحسن حظها يا عزيزي !

والتفت إلى الرئيس الليبي الشيخ ثمر :

- أتذكرني يا عمي ثمر؟ كنت صغيراً عندما غادرنا القرية . أوه .. كم أنا مشتاق إليكم!

قال ثمر :

- بالطبع .. وكيف حال عزيزنا ثيوفرون ؟ نحن أيضاً مشتاقون إليه .

قال نكن الذي كان مستغرقاً في كلام كثير مع رئيس آخر من رؤساء العشائر الليبية :

- ثيوفرون نسينا . أذكر حانوته الصغير الذي كان هنا ، وكان يبيع مواد كثيرة بأسعار معقولة فيكون ربحه كثيراً .. إن لم تصدقوني فلأحك لكم قصة رجل عرفته ذات يوم ، جاء في حاجة له. كان قصيراً جداً ، قصيراً إلى درجة لافتة للنظر ، وأذناه كبيرتان ، وكان يرمش بعينيه حين يتكلم ، ومن عادته أن يضع إصبعه في منخره . هذا عمل شائن لا يأتيه إلا الأطفال . وقد عانيت كثيراً لكي أمنع ابني الصغير من هذه العادة السيئة . تربية الأولاد صعبة بل هي في الواقع عسيرة .. اسألوني.. خذوا مثلاً أولاد شيحو.. أين هو حتى تتأكدوا من قولي . أين ذهب ؟ .. كنت أقول ..

تدخل صديقه دد :

- يا عزيزي نكن ! كنا نتحدث عن ثيوفرون فإذا بك تنقلنا إلى الأولاد الذين يضعون أصابعهم في مناخرهم . الحق أننا سعداء بعودة ثيوفرون إلينا ممثلاً في ابنيه . ليته يعود هو وكيمون ليستقرا معنا من جديد .

قال كيمون ممازحاً :

- أو تأتون أنتم إلى راقودة ؟

- راقودة كبيرة ملأى بالضجيج . وأنا لا أحب حياة المدينة .

قال ثمر :

- وملأى بجنود الفرس .. وأنا لا أحبهم .

قال نكن متدخلاً :

- يجب أن نشكر إينارو إذ اختار أخت كيمون عروساً له .

قال دد :

- قلت كلاماً جيداً مختصراً . عجيب !

تكلم تكلت الذي ظل صامتاً يستمع :

- الحق أنني سعيد جداً حين يجتمع شملنا هكذا ... ليبيين ومصريين وأغارقة ... انظروا . ما أروع هذا اللقاء !

قال إمنروت :

- الفضل كله يرجع إليك يا سيدي ، وإلى ابنك، خليفتك .. فلولاكما ما كان هذا اللقاء .

قال تكلت :

- الفضل يرجع لإينارو وكليو وحدهما . لا تنس مساعدة كيمون طبعاً . يبدو أنكما صديقان قديمان .

- ليس قديمين جداً ، مثل صداقته لإينارو . يمكنك القول إننا صديقان جديدان حميمان ..

قال ثمر :

- الصداقة مفتاح القلوب .

قال دد :

- ومفتاح الشعوب .

قال تكلت :

- صدقت يا دد . والمرء لا يختار أخاه الشقيق لكنه يختار صديقه قل لي من هو صديقك أقل لك من أنت . من الواضح أن لابني أصدقاء جيدين .

عاجله ثمر ضاحكاً :

- وأصدقاؤك أيها العجوز ؟ أليسو جيدين ؟

- بل هم ممتازون .. أكثر من ممتازين .

- هكذا يكون الكلام .

وتعالت ضحكات الجميع .

***

أقبل المساء وبدأ الضيوف يغادرون المكان . أوقدت المصابيح ، وشيئاً فشيئاً خفت ضجيج العرس . قال كيمون ، بعد أن لم يبق غيره وإمنروت ورفاقهما :

- آن الأوان كي نرحل .

هتف تكلت :

- في الليل ؟ هذا غير ممكن . لقد هيأنا لك ولصحابك محلاً للمبيت ، وستكون النسوة في رعاية كاروما الخاصة . لا تشغل بالك بشيء ، ويمكنك الرحيل غداً . أما رفاقك يا إمنروت، فقد اهتم بهم شيحو ، وتبيت أنت معي الليلة . ألم يدعك إينارو لذلك ؟

قال إمنروت :

- بلىّ . فعل ، وأنا شاكر حسن الضيافة .

وجاء من يأخذ كيمون وصحبه وكذلك رفاق إمنروت الستة ، وبقي تكلت معه في المضيفة وحدهما . كان الجميع قد تناسى غياب إينارو الذي تحلق حوله أصدقاؤه من شباب القرية يزفونه إلى عروسه .

23

قال تكلت وهو يتخذ مجلسه إلى جانب إمنروت :

- رب صدفة خير من ألف ميعاد . لقد حكي إينارو بإيجاز عن لقائكما وقصتك .

رد إمنروت :

- إينارو لا يعترف بالصدفة ، فهو يرى أن كل شيء مرسوم بيد القدر أو بيد الإنسان .

- هذا إلى حد ما صحيح . قد يرسم القدر خطوطاً عريضة ، لكن للإنسان أن يرسم في إطارها خطوطه الخاصة حتى إن كانت خطوطاً صغيرة .

- هذا ما يسميه الحكماء الإرادة البشرية ..

- صدقت . فبدون هذه الإرادة يتساوى الإنسان والحيوان . الأول تميزه إرادته ، والثاني لا إرادة له ، لذا لا تحاسب آلهة أرض (طوأت) الحيوانات في عالم الأموات . أما الإنسان فيحاسب على كل فعل في حياته الدنيا لأنه منح الإرادة .

- والإرادة مسؤولية .

- نعم .. والمسؤولية تلازم الحرية ، والعكس صحيح .

اعتدل إمنروت في جلسته :

- أيكون الحساب إذن عن هذه المسؤولية في (طوأت) أرض الأموات فقط ؟

- كلا . بل في دنيا الأحياء كذلك . لماذا خلقت القوانين إذن ؟

- أية قوانين ؟ أتلك التي نضعها نحن بإرادتنا واتفاقنا أم تلك التي تفرض علينا فرضاً ؟

- القوانين ، يا بني ، لا تتبع إلا إذا نبعت منا . القانون عقد اتفاق على حدود السلوك حتى لا يضر أحد أحدا .

- أي أنها من الجماعة الواحدة ، وبينها ، تكون .

- الجماعات قد تختلف وقد تتفق. ما اختلف منها اختلفت قوانينه ، وما اتفق اتفقت نظمه.

- هذا واضح . ومعناه أن قانون جماعة ما لا يجوز أن يفرض على غيرها .

- القانون يفرض بالقوة . وقانون القوة يتغلب أحياناً كثيرة على قوة القانون . عندما تقهر جماعة ما جماعة أخرى تفرض الغالبة قانونها .

فكر إمنروت قليلاً :

- هنا تنعدم إرادة الجماعة المغلوبة .

قال تكلت :

- وتنعدم حريتها .

- ومسؤوليتها كذلك .

- لا . بل تزداد مسؤوليتها .

- كيف ؟

- لأنها فرطت في حريتها فضيّعت إرادتها . فهي مسؤولة عن هذا التفريط والتضييع . نظر إمنروت إلى تكلت بإعجاب :

- إنني ، وحق الآلهة ، لأغبط إينارو على أن له أباً في حكمتك ..

قال تكلت :

- أشكرك . لكن أباك أنت لا ريب كان حكيماً .

- كان عنيداً .

- لنقل إنه كان صاحب مبدأ .. أصحاب المبادئ عنيدون .. هكذا يسمونهم .. آسف جداً لما حدث له . لقد روى لي إينارو باختصار ما حدث .. زدني تفصيلاً .

وبالتفصيل قص عليه إمنروت قصة حياته كلها . نشأته ، وأسرته ، وكل ما جرى لأهله في صا ثم في ضواحي بوباست ، وقتل الفرس أباه ، وسعيه للانتقام ... الخ . وبعد أن انتهى من روايته قال تكلت :

- أتدري ماذا كان خطأ أبيك ؟

- أنه قاوم ؟

- كلا . بل لأنه قاوم دون استعداد ..

قال إمنروت :

- لقد حدثني إينارو عن الأظلاف والبراثن والمخالب والأظفار ..

قال تكلت :

- هكذا الأمر . يقولون إن الكف لا تعاند الإشفى . ولكني أقول إن الكف يمكنها أن تعاند الإشفى وتثلمها إذا كانت كفاً من حديد صلب لا يلين . هل لك ، يا بني ، كف من حديد ؟ -

لم يفاجأ بالسؤال فقد كان يتوقعه . أدرك أن الشيخ يريد أن يعرف مدى قدراته وما يستطيع تقديمه حين يجد الجد ، فأجاب :

- أحسب هذا . لكنها كف مضمومة . إن لي أتباعاً كثيرين ، وهم على أهبة للعمل ، وجميع أهل الدلتا ساخطون ينتظرون إشارة واحدة .

- هذا لا يكفي . السخط وحده لا يكفي . لا بد من الاستعداد الفعلي ..

- ماذا تعني ؟

- أعني أن الفؤوس والسكاكين وخشب المحاريث لا تفيد في مواجهة السيوف والرماح والمزاريق والحراب . هذا كان خطأ أبيك فلا تكرره إن أردت النجاح ..

تساءل إمنروت يستثيره :

- وأنتم ؟ ما مدى أهبتكم ؟ وهل أنتم مستعدون للعمل ؟

- أهبتنا مثل أهبتكم . نفس الوضع . لذا ينبغي أن نفكر معاً بروية .

وبدل من قعدته مرتفقاً وسادة وهو يحد النظر إلى إمنروت : -

- اسمعني جيداً يا إمنروت . من شاطئ (الأخضر الكبير) وحتى مدينة أسوان في أقصى الجنوب تنتشر القبائل الليبية بعدد كبير جداً . وهي تعم منطقة الفيوم وبحيرة مريوط وتمتد إلى الواحات الغربية . ولنا ما بعد الواحات علاقات نسب وصلات قربى بقبائل أخرى حول قورينا وحتى خليج سرت الكبرى ، بل حتى قرطاجة وجنوبها من صحراء القرمنت . وأنت تعلم أن كثيراً من الليبيين تمصّر واستوطن الريف وعاش في الحقول والمزارع . تحولوا إلى فلاحين هم أيضاً ، وفي الدلتا الشرقية عدد وفير منهم .

قال إمنروت :

- أعلم هذا كله بالتأكيد .

- حسن . إن لنا سلطة معنوية عليهم ، باعتبارنا ننتمي إلى فرعون صا .

- وهذا أيضاً معروف .

- يمكننا القول إن الرصيد البشري موجود .

- وهو موجود لدي كذلك .

- بقي السلاح والتدريب والاستعداد .

- ثم العمل .

- لا تتعجل يا ولدي . العمل في الوقت المناسب .

دائماً «في الوقت المناسب».. هكذا إينارو وها هو أبوه مثله . لكنه لا يستطيع الانتظار طويلاً .. ما يشغل باله كان الانتقام ، أما ما يهم تكلت فقد كان طرد الفرس وتخليص مصر منهم .

مضى تكلت في حديثه :

- لقد هرمت كما ترى .. لم أعد قادراً على الحركة والنشاط كالعهد بي . لذا أسلمت أمر الزعامة لإينارو . أنتما شابان قويان متحمسان ، يمكنكما القيام بما لا أستطيع . قد تلجآن إليّ في المشورة أو النصيحة .. أما العمل فعليكما أنتما بالذات .

سر إمنروت بأن يجمع بينه وبين ابنه في الكلام ويقرن بين الاثنين . وتساءل :

- ماذا عليّ أن أفعل ؟ ماذا علينا أن نفعل ؟

أجابه :

- البدء أولاً بجمع الأعوان . تتصل أنت بأمراء الدلتا الشرقية وعمد قراها ، وتنال تأييدهم.. كن على حذر فلا تحدث إلا من تثق به . اجمع أكبر قدر من السلاح . دعهم يعينونك في تدريب من تختار ليصبح من المقاتلين .. مُر وسط الفلاحين وأثر سخطهم أكثر مما هم ساخطون .. يجب أن تتفادى أي صدام مع الفرس الآن ، وأن تكون يقظاً لعيونهم وجواسيسهم .

قال إمنروت :

- لقد طلبت من أهلي الانتقال إلى منف .

- هذا آمن لهم ، فمنف بعيدة عن منشئك ، لكن صلتك ببوباست أقوى .

- لي فيها أعوان وأقارب . أتصل بهم باستمرار .

- الأمر متروك لتقديرك .. أما نحن هنا فسوف نقوم بما تقوم أنت به.. ويوم تحين الساعة .. نبدأ العمل ... أعني تبدآن العمل .

- أنا وإينارو ؟

قال تكلت ضاحكاً :

- دع إينارو الآن يهنأ بليلته . صباح الغد سوف نجتمع معاً . آه .. بالمناسبة أنا لم أعرفك بصهريّ، زوجي ابنتي. أولهما مرسن ، وهو زعيم من زعماء الفيوم، زوج ابنتي الكبرى أسبوتي . والثاني قايا ، زعيم الواحة الغربية ، زوج الصغرى نفرت . سيجلسان معنا غداً بعد رحيل كيمون . قد نحتاج إلى كيمون في يوم من الأيام ، هو شاب جيد . صديقك ، وصهرنا .

علق إمنروت باسماً :

- أترى هذا صدفة أم إرادة ؟

- الاثنان معاً . القدر رسم الخطوط الكبرى ونحن نرسم خطوطنا الخاصة ضمنها .

- لعل إينارو هو الذي بدأ برسم أول خط .

قال تكلت وهو ينهض استعداداً للنوم :

- سوف يرسم كثيراً هذا الفتى إن هو أراد .

ومضى كل منهما إلى مرقده يستريح .

24

سحب داكنة ثقيلة كانت تحجب الشمس في ذلك الصباح الخريفي الباكر حين اجتمع في المنظرة تكلت وابنه وإمنروت ، وانضم إليهم كيمون، ثم لحق بهم الرئيسان دد وثمر وجاء صهرا تكلت مرسن وقايا.. وكانت أطباق الفاكهة موضوعة أمام الجمع وإلى جانبها صحاف الحلوى المختلفة، وهبّات من الريح الباردة تهز جريد النخيل أمام المنظرة وعلى جانبيها، فيسمع لها حفيف. وقد التف القوم بعباءاتهم وقرفصوا ، وهم يتبادلون الحديث في ما بينهم .

قال كيمون موجهاً خطابه إلى تكلت :

- هذه أيام الخريف الأخيرة وبوادر الشتاء . كان الأفضل لو عدنا إلي راقودة البارحة وأخشى أن يباغتنا المطر اليوم في الطريق ، وأنت تدري حال النسوة الإغريقيات معي . ستبتل ثيابهن وتفسد زينتهن ، وتتحول كل واحدة منهن إلى الغولة (ميدوسا) ذاتها ... لا ينقصها إلا حلقة الثعابين حول رأسها .

قال تكلت :

- لا تخش شيئاً فلن ينزل المطر . هذه مجرد سحابات عابرة . الشتاء الحقيقي بزوابعه وأعاصيره لم يحن بعد .

ونظر إلى إمنروت فتدارك هذا الأمر وغيّر موضوع الإشارة :

- حمداً للآلهة أن كليو في دارها ولن تتعرض للمطر فتبتل و ...

وضحك كيمون عالياً وأشار بإصبعه إلى إينارو :

- الذنب ليس ذنبي ، فقد حذرت (بيغاسوس) من قبل ولم يلق بالاً لتحذيري .

قال إينارو مدافعاً عن نفسه وعن عروسه :

- حاذر في كلامك يا كيمون . إن كليو عندي عروس البحر ، وليست من غولاتك الغرغونات أهناك أجمل من عروس البحر تخرج منه مبتلة يقطر من شعرها الماء ؟

رد كيمون مسرعاً :

- المهم ألا تغرق ، فبحر العرائس عميق الغور .

نظر دد إلى الأصدقاء الثلاثة متعجباً :

- إنهم يتكلمون بالألغاز .

جاء صوت إمنروت :

- بمناسبة الحديث عن البحر .. أدعو الالهة ألا يهيج موج البحيرة اليوم ، فأنا جئتكم في قارب صغير لا يقاوم الموج المرتفع .

قال تكلت :

- موج مرتفع أو منخفض . ما أظن خبيراً مثلك يخيفه الموج مهما علا .

وللمرة الثانية فهم إمنروت الإشارة ولم يرد مسايرتها ، إذ لم يكن يرغب في فتح باب الحديث عن الأمر الذي يشغله أمام كيمون والشيخين ثمر ودد وصهري تكلت الذين لم تتوطد صلته بهم بعد .

نهض كيمون :

– آن الأوان للرحيل . أرجو أن يكون رفاقي على استعداد .. أشكركم على حسن الوفادة والاستقبال وأستأذنكم في الذهاب فوالدي ينتظر وحده .. المسكين . أتمنى لك يا إينارو حياة سعيدة ، ولك يا عمي تكلت أحفاداً كثيرين . أراك بخير يا إمنروت وبقية الأحباب .

وقد ودعه إينارو وجماعته من رجال الإغريق ونسائهم حتى يختلي بجماعته ويبادلهم الرأي في ما يمكن عمله في مستقبل الأيام .

***

قام أولاً بالتعريف بإمنروت وروى ما سمعه منه لرفيقيه وصهريه دون أن يشير إلى قصة لقائه بولده ثم قدم رفيقيه :

– هذا هو الرئيس ثمر رفيق عمري يا إمنروت . صحيح أنه كبر قليلاً لكنه رجل صلب شجاع يعتمد عليه في الشدائد . وهذا هو الرئيس دد ، يصغرني سناً بعدد قليل من السنوات ، موضع ثقة واحترام الجميع . للاثنين تأثير كبير في منطقة مريوط وكلمتهما مسموعة وقد خبرا الحياة جيداً .

وانثنى يشير إلى صهريه :

– هذا صهري مرسن لا يزال به بقية من شباب .. صاهرته بأن زوجته من ابنتي أسبوتي لأني وجدته الرجل المناسب لها ، ولزعامة الفيوم كلها . أمّا هذا فهو قايا زوج ابنتي نفرت كما ذكرت لك ابن زعيم الواحة الغربية . شاب ممتاز وله صلاته الوثيقة بمجموعة القبائل الليبية حتى سرت الكبرى .

والتفت إلى ابنه :

– هل أقدم لك ابني إينارو ؟ إنه ، رسمياً ، زعيم المنطقة . نحن نسميه «رئيس الرؤساء» – لعلك تلاحظ أنني لا زلت أمارس عليه سلطة الأبوة رغم كونه الزعيم ..

قال إينارو :

– لك سلطة الأبوة والزعامة معاً يا أبت . ليس لي سلطة في حضرتك .

قال تكلت :

- أردت فقط ألا أنغص عليك عرسك . سيأتي الوقت الذي تشغلك فيه الهموم .. فانتظر وسترى .

رفع ثمر يده كأنه يطلب الكلام :

- أنحن مدعوون إلى اجتماع يا تكلت ؟

- يا عزيزي ثمر . اجتماع مهم . الحكاية وما فيها ..

وشرع يتحدث عن احتلال الفرس بلاد النيل والآثام التي يقترفونها وذلة أهل البلاد ، ويذكر بالأيام الخوالي ، وضرورة التخلص من نير فارس واستعادة مصر حريتها واستقلالها وإعادة مجد صا ... إلخ .

فعلق الرئيس دد بعد أن أنهى تكلت حديثه :

- من الواضح أنك تنوي عمل شيء ما .. أن تقوم بحركة ما .

- الصواب أننا ننوي .

- والسيد إمنروت ؟

- معنا .. يداً في يد .

قال ثمر :

- أتذكر حركة .. لنقل ثورة .. ابن العم (خبش) منذ نحو عشرين عاماً ؟ لقد اكتسح منف وكاد أن يحرر الدلتا ..

علق دد :

- ثم قضوا عليه وعلى ثورته .

قال تكلت :

- كان هذا في أول سنة من حكم الملعون أحشويرش .. وها هو أحشويرش قد هلك - عليه لعنات الآلهة كلها - ونحن في بداية حكم جديد في فارس ، وأنتما تعلمان أوضاعها تماماً . ليس ثمة فرصة خير من هذه للحركة .

قال ثمر :

- تقصد للثورة .

قال تكلت :

- كلا .. أعني الحركة بالضبط . الثورة مرحلة لاحقة ... ما أعنيه أن نتحرك الآن استعداداً لإعلان الثورة . غلطة ابن العم خبش أنه ثار دون أن يتم أهبته ، ويجب أن نستفيد من الأخطاء .

كان الحديث يدور بين الشيوخ الثلاثة والشبان الأربعة ينصتون بانتباه. ونظر ثمر إلى إمنروت :

- كان من أخطاء خبش خطأ آخر لعل إمنروت يدركه ..

قال هذا :

- أحب أن أستفيد من حكمتك أيها الرئيس .

- لقد اعتمد خبش على جانب واحد ، على جناح واحد . فلما أراد أن يحلق خذله جناحه الآخر فلم يستطع التحليق . أليس هذا صحيحاً يا تكلت ؟

قال تكلت :

- صحيح إلى أقصى حد .. هل يحلق طائر بجناح واحد ؟

قال دد :

- ولكي يضبط حركته لا بد له من ذيل يكون كالدفة للقارب، يستند إليه في صعوده وهبوطه.

- عين الحكمة . وعلى ذكر العين ينبغي أن تكون لهذا الطائر عينان حادتان يعرف بهما ما يدور حوله .

قال ثمر :

- بل عيون كثيرة .. كالذبابة ، إن سمح التعبير .

أضاف دد باسماً :

- ولِمَ لا يسمح ؟ لا تهزأ بالذبابة من فضلك . هل نسيت قريبتها البعوضة التي قتلت جبار الأرض النمرود ؟

تدخل تكلت :

- والنتيجة أن أخذ جبارون آخرون عاصمة النمرود ، بابل ، وجعلوها إحدى عواصم مملكتهم المنتفخة . ماذا يريد هؤلاء الفرس ؟ أن يحكموا الدنيا كلها ؟ انظروا كيف بدأوا بخيانة أسيادهم الميديين ، ثم اكتسحوا عيلام واتخذوا من عاصمتها سوسة مقر حكم شتوي ، واندلحوا إلى بابل واغتصبوها وثنوا بأشور . لم يكفهم ما ابتلعوا فامتدوا شرقاً حتى بلاد الهنود ، وغرباً حتى البحر

الأخضر الكبير مستذلين كنعان كلها ، وانداحوا إلى بلاد الإغريق واغتصبوا أكثرها ، ولولا مقاومة اسبرطة وأثينا لمضوا إلى مغرب الشمس . أما في مصر فالحال لا يخفى عليكم ، بل حاولوا احتلال ليبيا أيضاً ..

قاطعه ثمر حتى لا يمضي طويلاً في محاضرته عن تاريخ فارس :

– لولا أن ابتلعتهم الرمال .

قال دد :

– والتهمتهم ذئاب الجبل الأخضر .

قال تكلت وقد أخذته الحماسة :

– إذا كانت الرمال تدافع عن نفسها ، والذئاب تمزق من يجرؤ على دخول أرضها ، فكيف بنا نحن ؟

كان مرسن يتحفز للكلام وهو ينصت لحوار الشيوخ الثلاثة فشجعه تكلت بنظرة منه قال :

– معذرة أيها السادة . لقد أثارني ما سمعته الآن ، وأحسب نفسي معنياً بما قيل . إنني أعيش ، نسبياً ، في منطقة على حدود الصحراء ، لكن ظلم المحتلين يطالها على كل حال . الفيوم أيضاً تغلي بالكراهية لهم ، بدوها وحضرها . وإذا لم أكن شخصياً أرجع بنسبي إلى صاحب عرش صا فإن أولادي ينتسبون إليه عن طريق أمهم الكريمة ، وهذا شرف عظيم لي طبعاً ، لعله يمكنني من فعل شيء مفيد في ما أفهم أنكم تلمحون إليه .

تكلم إينارو للمرة الأولى مجاملاً زوج أخته :

– سيكون عملك مفيداً جداً ، يا مرسن ، فأنت تعلم أنه لا غنى عنك ، وزعامتك في الفيوم تمكنك من القيام بالكثير . إنك ابن عم فضلاً عن كونك صهراً .

فأحس تكلت بالراحة .. وكأنما العدوى سرت إلى زوج ابنته الأخرى ، فنطق قايا :

– إذا كان مرسن يعيش على حدود الصحراء ، كما قال ، فأنا أعيش في قلبها تماماً ، ولكننا لسنا منقطعين أو مقطوعين عما يجري في الوادي ودلتاه .. بل إن الواحة الغربية الكبيرة وما حولها من واحات صغيرة عبارة عن حلقة وصل تربط ما بين الوادي والصحراء الممتدة حتى أرض القرمنت وما بعدها . نحن نعلم ، بالتفصيل ، كل ما يحدث عن طريق القوافل التي لا تنقطع وتجارها ، وما من أحد في طول الصحراء وعرضها يتخلف عن تقديم العون ، وأنا أولهم ،

فوضعي هو نفس وضع مرسن .

التفت إليه تكلت قائلاً :

- كلاكما لا غنى عنه . وأنت بالذات يا قايا مهمتك لا تتوقف عند الواحة الكبيرة وما حولها . إنك واسطتنا للاتصال بقبائل الساحل الغربي والجبل الأخضر أيضاً . هناك قبائل المرمريداي والجلغماي والأسبت والهسبرتاي وغيرهم .

قال ثمر مضيفاً :

- وسيوة وما يجاورها من الأمونيين وبقايا التحنو والمشوش .

علق دد بدوره وهو يخبط فخذه بكفه :

- لعلكم تنوون تكليف قايا المسكين بحشد قبائل الناسمون والمكاي والأوسانيين والغايتولي حول خليج سرت الكبرى وغيرها .

اعترضه إينارو :

- ولِمَ لا ؟ إنها معركتنا جميعاً . لو استطاع الفرس الزحف إلى قرطاجة لكانت هذه القبائل كلها تحت سيطرتهم .

أيده إمنروت :

- صدقت . إن الهجوم أفضل وسيلة للدفاع ، وعدد هذه القبائل كبير ، وهي بطبيعتها مقاتلة شديدة المراس .

قال تكلت :

- فلنتذكر أن الفرس أنفسهم كانوا مجموعة قبائل في الصحراء شرق النهرين الكبيرين زحفت على الممالك المجاورة وغلبتها . وأنت ترى ما هم الآن عليه في أقل من قرن . الصحراء تنتج أفضل المحاربين وأشجعهم .

علق ثمر :

- إذا سلحوا بقدر كاف ودربوا تدريباً جيداً ونظموا ..

رد تكلت :

- كلام سليم .. وهذه مهمة إينارو في مستقبل الأيام .

شعر إينارو بأن أباه بدأ خطته في إشراكه مباشرة بل في إلقاء المسؤولية على عاتقه هو دون

سواه . فإذا كان من شأن مرسن أن يعني بمنطقة الفيوم ومهمة قايا بقبائل الصحراء فإن واجبه هو توفير السلاح وتدريب المقاتلين وهو واجب ثقيل . وماذا عن إمنروت ؟

تابع تكلت كلامه :

- إينارو عليه مسؤولية الإعداد في ما غرب الدلتا والوادي كله . أما شرق الدلتا والوادي فأحسب إن إمنروت كفيل به ..

قال إمنروت :

- أحسب هذا يا سيدي ، وادع لي بالتوفيق .

- كل الدعوات لك ، لكن الدعاء وحده لا يكفي . إن الكهنة لا يكفون عن الدعاء لكن يبدو أن (إمن) أصيب بالصمم ، أو لعله يفضل سماع قعقعة السلاح على صوت التراتيل ..

ضحك دد وغمز زميله :

- يظهر لي أننا شخنا يا ثمر ، فها هو تكلت يقسم المهمات على الشباب وينسى رفيقي عمره .

قال تكلت :

- رفيقا العمر يظلان هنا في مربوط ، رفيقيْ كفاح .. أم تود أن أكلفهما بقبائل القرمنت؟ إنني أدخركما لليالي السود يا عزيزي . هنا تظلام معي . لا مفر من رفقتكما حتى في أرض (إمنت) مع بقية الأموات .. ماذا أفعل في حظي النحس ؟

فرد دد مداعباً :

- أترى حظنا هو السعيد يا صحابي ؟

- ليس بالضرورة . فلنقل إن حظينا متساويان . المهم أن يتحسنا معاً في المستقبل .

قال إمنروت :

- ستكون أفضل الحظوظ . أنا واثق بهذا تماماً .

قال ثمر مجاملاً :

- وجودك يغير كل حظ إلى الأفضل .

- باركتك الآلهة أيها الرئيس. نعم.. إن حظي حسن جداً إذ أكون مع هذه الوجوه الطيبة.

علق تكلت مشاكساً زميله :

- هذه رقّة المصريين . قارنوا ما قاله الآن إمنروت بما كان يقوله دد :

تدخل إينارو في الحديث :

- عفوك يا أبي . الرئيس دد يقول أشياء كثيرة لكنها ودودة دائماً . أليس هذا معنى اسمه .. الودود ؟

قال تكلت :

- ها هو ولدي ينتفع من رفقته لإمنروت . ما أسعدني بهذا !

ضحك الرجال السبعة بسعادة وكأنهم ينظرون إلى المستقبل وقد تحققت أحلامهم .. وتساءل إينارو :

- ألم تجوعوا بعد ؟ أحسب أن وقت الغداء قد حان ، وأرى الأفضل أن نتناول طعامنا ونكمل الحديث بعد ذاك .

ثم قام من مجلسه ومضى ليأمر بإحضار الطعام ، وعرج على غرفته فوجد كليو جالسة تحيط بها بعض النسوة ما أن رأينه حتى همهمن بالخروج .. هنأنه بعرسه وأثنين على حسن اختياره ، ورد هو تحياتهن بأرق منها .. فلما ظل وحده مع عروسه قالت هذه له :

- لِمَ جئت ؟ أحرجتني .

- اشتقت إليك .

- ياه !

- نعم .

- ستمل مني .

- هل يمل المرء من السعادة ؟

- سعيد ؟

- جداً .. في قمة السعادة . وأنت ؟

- أتسألني ؟

- هذا يومك الأول هنا ، وسنعيش أياماً طويلة سعيدة .

- نسيت العشرة أعوام التي قضيتها طفلة هنا . أنا لست غريبة عن هذا البيت .

- لم أنسها . عنيت يومك الأول زوجة لي .. يا حبيبتي .

فنظرت إليه بوله :

- يا حبيبي .

أخذها بين ذراعيه . كان يتنفس عطرها ويشعر كأنه امتلك الدنيا بأسرها . لم يكن يريد مغادرة الغرفة لولا أن انفلتت كليو منه وقالت له وهي تدق صدره بكفها :

- الرجال في انتظارك . يجب أن تسرع إليهم .

- دعيهم ينتظرون .

حدقت في عينيه :

- لا يليق بالزعيم أن يترك ضيوفه . أنسيت هذا ؟

أحس أنها تنبهه إلي واجباته وادرك أنها حريصة عليه لا باعتباره حبيبها وزوجها بل أيضاً باعتباره زعيماً مسؤولاً ، وفرح بهذا الحرص . أجال بصره في الغرفة فرأى القيثارة مسندة إلى جانب السرير . ابتسم . قبلها على جبينها ، وخرج .. كانت أمه ورفيقات لها يتحركن أمام البيت وفي الساحة وهن يلغطن بالأحاديث المختلطة ، وما أن رأته حتى أقبلت نحوه تعانقه فبادرها بالتحية :

- نعمت صباحاً يا أماه .

- ونعمت أنت يا ولدي .

- هيه .. ما رأيك في كنتك ؟

- نفس رأيك في عروسك .

- أي أنها .. ممتازة ؟

- جداً .

- سعدت بها يا أماه ، واشكرك .

- أنا التي ينبغي أن تشكرك . متعت بها يا بني .

- ومتعت بأحفادك ببركة (مسخنت) .

وانطلق إلى المنظرة فوجد الطعام قد حضر وبدأ الرجال في تناوله . اقترب من إمتروت وسأله

هامساً :

- أين باسخم ؟ لِمَ لم تحضره معك ؟

فتردد هذا قليلاً ثم أجابه إمنروت :

- القرابة ليست كل شيء .. إنك تدرك هذا بالطبع .

فلم يزد إينارو شيئاً ، وانصرف إلى الطعام مع بقية الرجال ، فلما انتهوا منه رفعت الأطباق وقدمت الفاكهة والحلوى ، وجلسوا يأتمرون مرة أخرى . تحدثوا في التفاصيل وناقشوا قدرات المناطق المختلفة وقيموا مدى ما يمكن لكل منطقة أن تقدمه من عون .

تكلم إمنروت باستفاضة عن صلاته بأمراء الدلتا الشرقية وعمد قراها ، وشرح مرسن وضع الفيوم وعناصرها البشرية وما يستطيع هو إنجازه ، وبيّن قايا حال الواحات .. قال تكلت :

- سأقوم والرئيسان ثمر ودد بمهمتنا هنا في منطقة مريوط . نحن الثلاثة على دراية كاملة بها وعلاقتنا بأهلها ورؤسائها تتيح لنا فرصة العمل ، إضافة إلى أنه لا تمكننا الحركة والتجوال في المناطق البعيدة مثلكم أيها الشباب .

قال إمنروت :

- حركتكم هنا أهم من غيرها . فمريوط هي مركز الحركة كلها يا سيدي .

وحين جاء دور إينارو في الكلام قال :

- لقد كلفت بتوفير السلاح والتدريب . هذا يعني أمرين ، أولهما أن أبحث عن مصدر السلاح وثانيهما أن أتنقّل في مختلف المناطق ..

قال ثمر موضحاً :

- المناطق الغربية .

- نعم .. نعم .. هذا ما قصدت . قل لي يا إمنروت ماذا عن الأسنان القوية الحادة ؟ ألم يأن الأوان لفتح الفم المطبق عليها ؟

رد إمنروت :

- آن الأوان فعلاً . لكن هذا لا يمنع من توفير المخالب .

قال تكلت :

- هناك ، إلى جانب ما هو موجود لدينا وفي أيدي القبائل والقرى من سلاح ، مصدر يمكن

الركون إليه ، وما أظنه إلا مستعداً لمساعدتنا .

فسأله دد :

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أعداء الفرس الألداء .

- الإغريق ؟

- بالضبط ... الإغريق . ومن غيرهم ؟

- أهؤلاء الذين يعيشون معنا في نكراتيس وغيرها ؟

- هؤلاء مجرد تجار .. مجرد واسطة إلى مصدر العون الحقيقي في أثينا بالذات .

فداعبه دد :

- ولهذا صاهرتهم ؟

- جائز. وعلى كل حال فإن إينارو هو الذي صاهرهم، وهو المسؤول عن توفير السلاح منهم .

قفزت صورة كيمون إلى مخيلة إينارو . هل يمكن حقاً أن يكون كيمون واسطة بينه وبين أثينا؟ أليس هذا استغلالاً لعلاقة النسب التي ربطت بينهما ؟ أيمكن أن يتحول تاجر الزيت والخمر والجبن إلى تاجر سلاح ؟ لا يهم .. فلعله يعرفه بغيره ممن يقوم بالمهمة . وماذا في أن يستعين به ؟ ألم يقل له إن الفرس أعداؤه في أرض أجداده التي احتلوا جزءاً كبيراً منها ، وفي الأرض التي ولد فيها ، وتضم رفات أمه ؟ لا شك في أن صهره الشاب سيكون ذا فائدة في .. الوقت المناسب . وانتبه إلى أن حديث والده كان يعنيه فسارع بالكلام :

- قولك صحيح يا أبي . أنا المسؤول عن هذا وسيوفر السلاح المطلوب بطريقة أو بأخرى .. لاتقلق .

- لست قلقاً ، ولكن العمل الجيد لا بد له من تنظيم جيد.

قال إمنروت :

- والوقت يمر بسرعة .

قال تكلت :

- لا تتعجل . مثل هذا العمل في حاجة إلى وقت طويل . شهور . أو سنوات . وفي المثل أن القطة تعجلت في وضع أبنائها فولدوا عمياناً .

قال دد :

- ألهذا لا يحسون بجريمتها حين تجوع فتأكلهم وهم لعماهم لا يعرفون الفاعل ؟

- المأكول مأكول ، عرف الآكل أو لم يعرفه . حين تجوع القطعة تأكل حتى ذيلها .

علق ثمر :

- ليس الحق على القطة بل على أولادها . كان عليهم الانتظار حتى تتفتح عيونهم فيخرجوا مبصرين .

قال مرسن :

- أرى أن ينتظروا حتى تنبت لهم أنياب يدافعون بها عن أنفسهم .

فساندة عديله قايا :

- ولِمَ العجلة ؟ فلينتظروا حتى تنمو لهم مخالب وأظفار .

كان إمنروت في هذه الأثناء يرنو إلي بعيد فيرى رأس أبيه مدلاة على كتفه التي اخترقها الخازوق وهو ينظر إليه بعينين جاحظتين . فدفن وجهه بين كفيه محاولاً إبعاد الصورة الرهيبة عن مخيلته . ثم رفع رأسه وقال :

- حسن أيها السادة . آن لي أن أنطلق يبدو أن الجو صحو الآن فقد خف هبوب الريح وانقشعت السحب . في ظني أننا ناقشنا أهم القضايا ووضعنا قدمنا على الطريق .

قال تكلت :

- هذه هي الخطوة الأولى ، ولا تزال أمامنا خطوات كثيرة ، فالطريق ليست قصيرة ولا هي مفروشة بالزهور .

قال إمنروت :

- أدري هذا يا سيدي .. متي كانت طريق الخلاص ممهدة سهلة العبور ؟ ائذنوا لي الآن بالرحيل .

قال إينارو :

- سنكون على اتصال دائم :

- سأتصل أنا بكم أولاً لتعلموا أين أكون .

- لبرعك (إمن رع) .

- فلترعكم الأرباب كلها .

- نهض إمنروت من جلسته وعانق الجميع ، وخرج وتبعه إينارو يودعه . كان رفاقه الستة في انتظاره مع شيحو ، فلما رأوه مقبلاً هرعوا إليه بعد أن ودعوا شيحو ، ومضوا في طريقهم إلى شاطئ البحيرة . فلما كادوا يغيبون عن النظر لوحوا بأيديهم من بعيد واختفوا مبتعدين .

***

وقف إينارو عاقداً ذراعيه علي صدره ينظر إلى الأفق يحد الأرض المنبسطة ، وقد مالت الشمس للأصيل وشيحو بجانبه . كانت الأفكار تعصف به ونفسه تجيش بمختلف الانفعالات ، وهو صامت يتأمل في كل ما مرّ من أحداث في هذه الفترة القصيرة ، ويراجع في ذهنه ما كان منذ يومه ذاك في راقودة وحتى وقفته تلك .

وبرقت في خياله صور المستقبل ، فرأى جنوداً زاحفة من الواحات والفيوم ، ومن قرى الدلتا والوادي ، وتزاحمت في أذنيه أصوات المحاربين وصيحاتهم مختلطة بصهيل الخيول ووقع سنابكها على الأرض السمراء ، وقد امتزج رجال مؤتزرون عارو الصدور بآخرين تتدلى سوالفهم على أصداغهم يهاجمون معاً قلاع الحاميات الفارسية ، ولمعت سيوف وحراب تحت وهج الشمس الحارقة ، وانطلقت آلاف النبال واندفعت الرماح الصلبة مشرعة تدك أبواب القلاع فتنفتح أمام ضرباتها المصاريع العنيدة .

احترم شيحو ، صمته ولم ينطق بكلمة ولم يبد حركة . وفجأة التفت إينارو إليه :

- شيحو ! أتذكر ماذا قلت لك وأنا أودعك في ذلك الزقاق في راقودة ؟

فأجابه :

- نعم .. أذكر ..

- ماذا قلت ؟

- قلت لي يومها : لا بد من الخلاص . لا بد من الخلاص . قد تكون هذه هي البداية .

فوضع يده على كتف صديقه وحدق في وجهه بعينين براقتين وقال :

- اليوم هو البداية ؟





الفصل الثاني



1

قاعة واسعة في القصر الملكي السامق في مدينة بابل ، فرشت بأزهى البسط وزينت جدرانها بصور الثيران المجنحة ومختلف الزركشات ، وقد انتشرت فيها الأعمدة الرخامية تحمل سقفها الساطع بالألوان . وعلى الجانبين صفت الوسائد والحشايا ، بينما اتكأ ملك الملوك، الشاهنشاه ، أرتحشستا، على مجموعة فاخرة من الوسائد المطرزة بخيوط الذهب والفضة تلمع على حريرها الناعم الوثير ، وأمامه في وسط القاعة نافورة يندفع ماؤها صافياً كالبلور ثم ينحدر على أطرافها فيرسل رذاذاً يرطب الم

كان وينعش النفس في جو بلاد الرافدين القائظ. كان ملك الملوك يجالس عدداً من الجواري البابليات البالغات الحد في الفتنة والجمال ، يداعبنه ويداعبهن ، وهو يرتشف بين لحظة وأخرى رشفات من خمرة معتقة ، سكبت في كؤوس من الزجاج الملون بألوان الطيف ينعكس عليها الضوء المشع من كوىً ضيقة في أعلى جدار القاعة ، فتتراقص الكأس وما فيها إذ يتابع ألحاناً شجية تنطلق من أوتار مشدودة تصاحبها دفوف وجلاجل صغيرة في أيدي الجواري المغنيات غير بعيد من المجلس الملكي . كانت النشوة تلعب به وبدا بديناً أجلح انحسر الشعر عن مقدمة رأسه الخالي من التاج أو حتى الغطاء ، يلاعب جارية أو يمد قدماً لأخرى في ثوبه الفضفاض . كان يطوح ذراعه الخالية من الكأس ذات اليمين وذات الشمال مقهقهاً في ضحكات عالية كلما بدت من إحدى جواريه حركة أو كلمة تضحكه وتسره ، ويخبط بكفه أقربهن إليه .

صرّ باب القاعة الكبير ببطء وانفتح مصراعه قليلاً بقدر سمح بدخول كبيرالحجاب زاحفاً على ركبته . ثم أغلق الباب فسجد هذا خاراً على وجهه باسطاً ذراعيه في حضرة الملك . وبحركة من يد هذا الأخير توقف العزف وانقطعت الأصوات تماماً وساد الصمت المطبق . فنظر إلى كبير حجابه الساجد وقال بصوت متلعثم :

- ما الأمر يا أردشير ؟ ارفع رأسك وتكلم .

أطاع كبير الحجاب الأمر ، فرفع رأسه ولكنه ظل جاثياً مكانه :

- مولاي .. عفوك . الملكة أسترا تطلب الإذن بالدخول يا مولاي :

لوح أرتحشستا بيده مشمئزاً :

- الآنَ ؟ في هذه الساعة ؟ يا لها من أمّ لا تدع ابنها يهنأ بحياته ! ما الذي تريده مني ؟

- إنها تقول إن الأمر عاجل يا مولاي .

- عاجل .. عاجل . كل شيء عندها عاجل ، إلا الموت لا يعاجلها .

وسكت . ظل يلفت وجهه ويديره في كل الجهات ، دون أن يتكلم .. قال كبير الحجاب أخيراً يستنبئ عما يفعل :

- الأمر أمرك يا مولاي .

- أدخلها .. بعد قليل .

انسحب هذا زاحفاً إلى الوراء على ركبتيه ودق الباب بقدمه دقة خفيفة انفتح بعدها فخرج منه وأغلق الباب من جديد . وبإشارة من يده صرف أرتحشستا من كان لديه من الجواري والمغنيات ، خرجن متتابعات من مدخل جانبي في القاعة ، وسوى هو من قعدته وتهيأ لاستقبال الملكة الأم .

كانت امرأة كهلة تنبئ تقاطيعها عن بقية من جمال غابر ، ارتدت ثوباً طويلاً تجر أذياله وراءها ووضعت فوق شعرها المصبوغ بالحناء عقداً من الجواهر يحيط به ويماشي العقد الذهبي المرصع على عنقها ، قصيرة القامة نسبياً مكتنزة قليلاً ، وقد أحاطت ذراعيها بأساور ذهبية أيضاً ، وهي تمضي في خطوات متمهلة ثابتة نحو ابنها الجالس ، بعد أن ولجت القاعة الفسيحة . نهض أرتحشستا من مكانه ليرحب بمقدمها وهو لا يكاد يتماسك ، فاستند بيده إلى الجدار وظل واقفاً حتى وصلته . قال مغتصباً ابتسامة باهتة :

- مرحباً أيتها الأم العزيزة . تفضلي بالجلوس . ما الذي جاء بك في هذه الساعة يا ترى ؟

قالت وهي تتخذ مكانها بالقرب منه :

- أغريب أن تزور أم ولدها ؟

- لا . ليس غريباً . ولكن للزيارة مواعيد ومناسبات .

- إذا نسي الابن أمه فهي لن تنساه . وليس بالضرورة أن تضرب له موعداً أو تنتهز مناسبة لكي تراه .

- ولكنك كنت في سوسة ، عاصمتنا الإدارية ، في ما أعلم .

- كان ذلك منذ شهور ، وقد عدت منذ فترة طويلة . إنك لا تتفقدني ولا تفتقدني .

- أنا مطمئن عليك . زوجة أحشويرش العظيم لا يخشى عليها من شيء .

قالت مشيرة إلى ما بين يديه من كؤوس الشراب وأوانيه :

- يظهر أن بابل سحرتك بفتنتها وجمال بناتها .

- أوه ! إنها ساحرة فعلاً . انظري .. ما روع أن يحتل المرء عرش نبوخذ نصر في بابل الساحرة هذه ! أليس السحر في بابل ؟ هذا معروف منذ القدم .

- وتركت عاصمة آبائك ، سوسة .

- تركتها لأن قصري احترق . تعلمين هذا . وهو نذير شؤم ... ثم هناك سبب آخر .

صمتت الملكة ولم تعلق ، فمضى يقول :

- تعلمينه أيضاً . سوسة قريبة من بلخ ، وتدرين ماذا يحدث هناك .

سألته :

- هستاسب ؟

نظر إليها بتمعن :

- نعم . هستاسب.. أخي. إنه ينوي اقتطاع بلخ والاستقلال بها، وقد أبلغتني عيوني وآذاني عما يقوم به. كان يريد احتلال العرش بدلاً مني، فلما يئس بات يحلم بمملكة خاصة به.

قالت :

- كان يمكن أن تتشاركا في الملك .

رد غاضباً :

- نتشارك ؟ هناك «ملك ملوك» واحد .. إما أنا أو هو .. ولاحق له في العرش .. الوراثة في ، فكيف ينازعني عرشي ؟

قالت تستثيره :

- وماذا فعلت ؟ قعدت في بابل تلهو والنار تلتهم أطراف مملكتك كما التهمت قصرك في سوسة يا .. ولدي .

أشاح بوجهه وهو يزوم :

- هذا البيت ، بيتنا نحن الأخمينيين ، تعود أهله أن يلتهم بعضهم بعضاً .

كان يشير إلى سلسلة مؤامرات الاغتيال المتواصلة التي تدور بين أفراد الأسرة الحاكمة ويلمح

إلى مقتل أبيه أحشويرش ، زوج الملكة أسترا ووالده . أضاف :

- لا عجب أن يسعى أخي هستاسب إلى قتلي .

قالت أسترا :

- لو لم يقتل من سبقك لما كنت أنت محتلاً عرش الطاووس ..

فنظر إليها بعينين محمرتين من أثر الشراب :

- دعيني إذن أمتع قبل أن يحتله قاتلي من بعدي .

تناول كأسه وتجرعه دفعة واحدة . فتأملته أمه مشفقة :

- إنك تعرف أن هستاسب ليس ابني . إنه ابن ضرتي ، ولا يهمني أمره . من يهمني هو أنت .. ولدي .

- وجئت تنغصين عليّ حياتي ؟

- حياتك في خطر ، وملكك أيضاً .

- من أهلي . من أخي .

- بل من نفسك .

- إنك لا تتركينني وشأني .

- حتى تستقيم ، ويستقيم لك الملك .

سألها متحدياً :

- ماذا تريدين بالضبط ؟

ردت :

- أن تنتبه . أن تصحو من سكرك وغفلتك . ستضيع كل شيء إن مضيت غير مبال، وستضيعنا معك جميعاً .

- أتخافين على نفسك .. يا أماه ؟

- أخاف على الملك أن يذهب.ما شيده قورش ودارا وقمبيز يمكن أن ينهد إذا لم ترعه أنت.

- أيتهاوى بناء العشرين أمة هكذا ؟

- يتهاوى .. لأنه بناء عشرين أمة . لو كان ملك فارس مكوناً من أمة واحدة لتماسك .. لكنه

مكون من مجموعة أمم وشعوب مختلفة متباينة كالفسيفساء .. تتناثر قطعها إذا لم تحكم اللحمة بينها .

عقد أصابع يديه وراء رأسه واستند إلى حشية خلفه وتثاءب . كان لا يدري ما يقول ، فهو لا يجرؤ على إبداء رأيه الصريح في أمه . يعرف سطوتها وقوة شخصيتها الطاغية أمام شخصيته المتهالكة . جرب جبروتها في حياة والده الجبار ، أحشويرش ، فكيف بها معه ؟

ورأى في قرارة نفسه أن ما تقوله صحيح لكنه لا يريد الاعتراف به . الدولة الفارسية تتعرض للمتاعب ، وقد برزت ثورات إقليمية هنا وهناك ، كان الفرس يقمعونها بقسوة بالغة ولكن الثورات تتجدد ، خاصة بعد هزيمة جيش فارس على أيدي التحالف الأثيني - الاسبرطي في معركة ماراثون ، وبعد استرداد الإغريق مدينة سلاميس . ويبدو أن المدن الإغريقية التي احتلها الفرس تنفلت من أيديهم واحدة بعد أخرى في أيونيا وتراقيا وبقية شبه جزيرة الأناضول. ما يخفف الوطأة أن بقية الأقاليم هادئة ! أرمينيا ساكنة ، وكذلك ما وراءها حتى ضفاف بحر قزوين الشمالية إلى بلاد الروس ، وإقليم الشام كله حتى أرض كنعان على بالبحر الكبير أيضاً . أما وادي النيل من أقصاه إلى أقصاه فلا حراك به بعد القضاء على تمرد (خبش) منذ زمن بعيد . وتذكر عمه المرزبان أخمين ، واليه على مصر ونائب الملك فيها ، فوجدها فرصة كي يغير مجرى الحديث . سأل أمه بعد فترة صمت :

- آه ... ما أخبار عمنا العزيز أخمين في بلاد النيل ؟

قالت أمسترا :

- لهذا أتيت .

- حقاً ؟ ترين أنني مهتم . ما به ؟

- ظل رسوله شهراً ينتظر المثول بين يديك .

- رسوله ؟ رسول عمي ينتظر ؟ لا .. لا . لا يجوز .

قال هذا ليؤكد لأمه اهتمامه بالأمر وأنه جدير بالعرش الذي يعتليه . وأضاف :

- لا يجوز مطلقاً . هل اتصل الرسول بك ؟

- بعد أن يئس من لقائك .. إنك لا تذهب إلى الإيوان إلا نادراً ، وحاجبك لا يبلغك بشيء من أمور الدولة ، ولم يدخل للاستئذان لي أنا - أمك - إلا خوفاً من العاقبة .

- له أن يخاف فـأمي هي أمي . اسمـعي .. غداً سـأرى رسول عمنا العـزيز في الإيوان . أهذا يرضيك ؟

فقامت الملكة الأم متثاقلة :

- ما يرضي (أهورا مزدا) هو الذي يرضيني .

قال ونشوة الشراب لا تزال تتملكه :

- أهورا مزدا راض تمام الرضا . لو لـم يكن راضياً ما كنت منتشياً هكذا .

وضحك محاولاً إشراك أمه في جذله وسروره . فنظرت إليه تجاريه بابتسامة مغتصبة :

- أرجو أن تجلس في الإيوان غداً دون أن تحتسي كثيراً من شراب (الهوما) كما يفعل كهنتنا .. يا ولدي .

ودعها مجاملاً :

- اطمئني .. لشراب الهوما طقوسه وأوقاته . سأرى رسول عمي غداً وربما أرى سواه .

تركته أمسترا وغادرت القاعة،فارتمى على حشية ناعمة وسرعان ما ارتفع غطيطه الغليظ.

2

في حي يقع على أحد أطراف مدينة بابل العـتيقة يمتد زقاق ضـيق طويل معتم أغلق باب منزل في أقصاه على آخر الداخلين.. وفي هذا المنزل اجتمع سبعة من أحبار اليهود، بقية من أهل السبي.

- شالوم عليخم .. غاروب طوف .

ألقى الداخل تحية المساء علي الجالسين قبله في غرفة ينيرها قنديل من الشمع ، فرد الحبر الكبير الجالس في الصدارة يعبث بلحيته الكثة :

- شالوم . تأخرت يا دانيال .

- كان لا بد أن أتأخر . عيون أردشير لا تغمض .

قال أحد الجالسين وهو يلملم عباءته :

- أردشيـر ، هذا الحاجب الملعون ، سبّب لـنا متاعب كثـيرة . إنه يسيطر على الملك ويوجـهه. يكاد يكون هو ملك الملوك .

علق آخر :

- لولاه لما وصلت تلك الرسائل التي تتهاطل من أعدائنا في أورشليم ويهوذا .

قال دانيال :

- ولما أمر أرتحشستا بإيقاف بناء أورشليم .. أليس كذلك يا عزرا ؟

كان عزرا بن سرايا ، الكاتب وزعيم يهود بابل ، لا يزال يعابث لحيته وهو يتأمل رفاقه الستة ، فسأل دانيال :

- هل أحضرت نسخاً من الرسائل التي طلبتها منك ؟

- نعم ، ها هي .

وأخرج من عباءته جملة لفائف :

- دفعت مبالغ طائلة للحصول عليها .

قال عزرا :

- أعرف أنك لم تدفعها أنت ، فقد دفعها عقيبة ومشرو ، فهما أكبر تجار بابل . هاتها .

وأخذ اللفائف من يده ، ثم دفعها إلى أقرب الجالسين إليه :

- إنك تحسن اللغة الأرامية يانحميا . اقرأ لنا ما فيها ، فهي مكتوبة بهذه اللغة التي عمت مملكة فارس كلها .

تناول نحميا ما أعطاه عزرا ، وفك اللفائف وصار يقلبها ويفحصها :

- هذه رسالة موقعة من بشلام ، وهذه موجهة من مثردات . أما هذه فباسم تبئيل . كلها مرسلة إلى الملك ضد يهود أورشليم الذي يقومون ببناء المدينة وسورها .

قال أحد الأحبار :

- إنهم يبنون المدينة بأمر من قورش ودارا وأحشويرش .

فنظر إليه نحميا :

- هؤلاء جميعهم ماتوا .. المهم ما يفعله أرتحشستا اليوم .

قال عزرا :

- لقد عرفنا ما فعله . اقرأ .

قال نحميا :

- هذه رسالة من رحوم صاحب القضاء وشمشاي الكاتب وسائر رفقائهما الساكنين في السامرة وباقي الذين في عبر النهر .

- اقرأ بعض ما فيها .

فمضى نحميا في قراءته :

- اسمعوا . إنهم يقولون : «عبيدك القوم الذين في عمق النهر .. إلى آخره . ليعلم الملك أن اليهود الذين صعدوا من عندك إلينا قد أتوا إلى أورشليم ويبنون المدينة العاصية الردية وقد أكملوا أسوارها ورمموا أسسها . ليكن معلوما لدى الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يؤدون جزية ولا خراجاً ولا خفارة فأخيراً تضر الملوك» .

وتوقف ، فاستحثه عزرا :

- أكمل .

فاستمر نحميا :

- إلي أن يقولوا : «والآن بما أننا نأكل ملح دار الملك ولا يليق بنا أن نرى ضرر الملك ، لذلك أرسلنا فأعلمنا الملك لكي يفتش في سفر أخبار آبائك فتجد في سفر الأخبار وتعلم أن هذه المدينة مدينة عاصية ومضرة للملوك والبلاد وقد عملوا عصياناً في وسطها منذ الأيام القديمة . لذلك أخربت هذه المدينة . ونحن نعلم الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يكون لك عند ذلك نصيب في عبر النهر» ..

فلما انتهى نحميا من قراءة الرسالة ، ساد الوجوم .. ثم تكلم عزرا :

- أرأيتم ماذا يفعل أعداؤنا ؟ إنهم يحرضون ملك الملوك ضدنا .

قال دانيال :

- وقد استجاب لتحريضهم . اقرأ جوابه يا نحميا .

فتح هذا لفيفةً أخرى وبسطها يتأمل سطورها ، وما عتم أن هتف :

- أوه .. فعلاً ... انصتوا إلي جواب الملك : «إلى رحوم صاحب القضاء وشمشاي الكاتب وسائر رفقائهما الساكنين في السامرة وباقي الذين في عبر النهر . سلام إلى آخره . الرسالة التي أرسلتموها إلينا قد قرئت بوضوح أمامي ، وقد خرج من عندي أمر ففتشوا ووجد أن هذه المدينة

منذ الأيام القديمة تقوم على الملوك ، وقد جرى فيها تمرد وعصيان . وقد كان ملوك مقتدرون على أورشليم وتسلطوا على جميع عبر النهر . وقد أعطوا جزية وخراجاً وخفارة. فالآن أخرجوا أمراً بتوقيف أولئك الرجال ، فلا تبنى هذه المدينة حتى يصدر مني أمر . فاحذروا من أن تقصروا عن عمل ذلك . لماذا يكثر الضرر لخسارة الملوك ؟» .

ساد الوجوم مرة أخرى ، وتململ بعضهم حتى قطع حبل الصمت حبر يدعى زرحيا :

– ها هي آمالنا تنهار من جديد . لو كانت (إستير) معنا ...

قال دانيال :

– إستير أنقذت اليهود من المذبحة التي أمر بها أحشويرش بجمالها وبراعة حيلتها ، وردت كيد حاجبه (هامان) إلى نحره ، فصلب هو بدلاً من أن يقضي على اليهود .

قال زرحيا :

– كان الحاجب هامان في بلاط أحشويرش يقوم بما يؤديه أردشير اليوم في إيوان أرتحشتا . من لنا بإستير أخرى تؤدي دور إستير السابقة ؟

قال عزرا :

– لا تعلقوا الآمال على الأمر المحال . لا تنسوا أنه وراء إستير الأنثى كان رجل يوجهها .

سأله دانيال :

– مردخاي ؟

– نعم . مردخاي الذي تبناها وقدمها إلى حريم الملك أحشويرش فنالت في عينه الرضا وفتنته حتى تحكمت في كل شيء يأتيه . مردخاي هو الذي دبر كل أمر .

قال نحميا :

– فمن أين لنا بمردخاي جديد ؟

– أنت .. يا نحميا بن حكليا .

فانتفض نحميا فزعاً :

– أنا ؟ ولماذا أنا بالذات يا عزرا بن سرايا ؟

– لأنك المؤهل للقيام بالواجب . أنت قريب من قلب الملكة الأم ، أمسترا ، أولاً ، وقريب من

حاشية الملك ثانياً . بشيء من التدبير يمكن أن تصبح ساقيه ، أو حتى وزيراً له . إنك تتقن الأرامية، كاتب ممتاز ، وبمعونة عقيبة ومشرو الثريين تستطيع اختراق الحجب . الواقع أنك اخترقتها بصلتك الوطيدة بالملكة الأم . أتحسب أننا لا نتابع علاقتك بها يوم كانت في سوسة قبل مجيئها إلى بابل ؟

كان نحميا في نحو الأربعين من العمر ، وسيماً أبيض البشرة مشرباً بحمرة خفيفة ، متين البنية، يهتم كثيراً بتشذيب لحيته المسوّاة ويكحل عينيه السوداوين دائماً حتى يبرز جمالهما. وكان طلق اللسان ذرب الحديث يبتسم فيفتر ثغره عن أسنان عاجية بيضاء . قال :

– ينبغي أن أبدل اسمي إلى إستير وأن تعتلي الملكة أمسترا العرش باسم أحشويرش ، حتى نعيد المسرحية .

قال عزرا :

– ليس هذا ضرورياً. إننا نبدل الأدوار فقط وتذكر أن أمسترا كانت زوجة الملك إحشويرش. فلو سمحت تقاليد الحكم في فارس لاحتلت العرش من بعده، فقد كانت تحتله معه.

– لكن ابنها في الواقع هو الذي يعتلي عرش فارس .

– أهذا الأرتحششتا ؟ إنه لا وزن له . همه الخمر والنساء ، وهو لا يستطيع رفع إصبعه في وجه أمه . ملك ضعيف الشخصية جداً ، يلعب به الهوى ولا يثبت على رأي .

تدخل دانيال في المناقشة :

– ألم تلاحظوا شيئاً ؟

قال حزريا :

– ماذا ؟

– لقد ورد في رسالة أرتحششتا بعد أمره بإيقاف بناء المدينة قوله : «فلا تبنى هذه المدينة حتى يصدر مني أمر» .

– هذا يعني استصدار أمر باستعادة بناء أورشليم .

قال عزرا :

– إذا نجح نحميا في إقناع الملكة لكي تقنع الملك فيصدر أمره بالبناء .

قال نحميا في لهجة الواثق بنفسه :

– سأنجح إذا نجح عزرا بن سرايا في إقناع الثريين عقيبة ومشرو بأن يدفعا بسخاء .

- سيدفعان . المال والنساء وسيلتنا إلى الغاية .

قال دانيال مصوباً وهو ينظر إلى نحميا :

- المال والجمال . هذا أفضل . ليست المرأة وحدها هي التي تقوم بالواجب .

قال عزرا :

- فليكن ..المهم أن نبلغ غايتنا .

ثم التفت إلى أحد الأحبار السبعة ، وكان شيخاً كبير السن ابيضت لحيته وتدلت بقية من شعر رأسه الأشيب على جانبي قلنسوته وغرقت رأسه بين كتفيه :

- لم نسمع كلامك يا شفطيا .

فتنحنح الشيخ قبل أن يرد بصوت واهن :

- كنت أفكر .

- تفكر ؟ وفي ماذا تفكر غير الذي نحن فيه ؟

- في أورشليم .

- هذا جيد .. أليست موضع تفكيرنا وهمنا ؟

- فلأقل كنت أحلم .

- بماذا ؟

- بالعودة .

- كلنا نحلم .

- طالت غيبتنا .

- أعرف .

- وسبقنا غيرنا .

- أعرف .

- لو كنا هناك لشاركنا في بناء المدينة .

- لو كنا هناك لما تم بناء المدينة .

- لكنه لم يتم .

- سيتم .

- كيف ؟

- بنا . لأننا هنا .

- أنت كبيرنا يا عزرا ، وأمرك نافذ . لكن .. أتدري ؟ لقد كبرت سني .

- أعرفه ..

- وأحلم بالعودة .

- ستعود

- متى ؟

- عندما ينجح نحميا .

- في إقناع الملكة ؟

- لكي تقنع الملك بالسماح بإتمام بناء المدينة .

- وماذا بعد ؟

- بعدها نعود جميعاً .. بقية المسبيين .. أنت وأنا وهؤلاء الأحبار ، وكل يهود بابل ..

- أنت الآن الذي يحلم . يبدو أنك كبرت مثلي .

قال عزرا موجهاً حديثه للحاضرين :

- الأعمال العظيمة كانت كلها أحلاماً عظيمة . سنحقق ما نريد ، لأننا نريد . هكذا الأمر. اسمعوا ما سأشير به عليكم ، ولندرس خطواتنا خطوة خطوة .. سوف ..

وخفت صوته وقد اشرأبت إليه أعناق رفاقه ينصتون . كانت ذبالات الشموع تتراقص في قنديلها تضيء الغرفة الضيقة وترسم ظلال الأحبار السبعة على الجدار تمتد طويلة كالأشباح .

3

ممر طويل يفصل باب القصر الخارجي عن باب إيوان ملك الملوك ، اصطف على جانبيه جنود شاكو السلاح من (فرقة الخالدين) وهي الحرس الملكي الخاص الذي أنشأه دارا مكوناً من عشرة آلاف جندي لا ينقصون مطلقاً ولذا سموا باسم (الخالدين) . وما أن يلج الداخل باب الإيوان

حتى يجد نفسه أمام منظر يمثل قمة الفخامة والضخامة معاً ، ويذهل ما بين البسط الرائعة والتماثيل المذهبة البديعة والتزاويق التي تخطف البصر ، وينظر أمامه فيشاهد العرش الفارسي المطعم باليواقيت تبرز على مسنده وذراعيه مختلف التصاوير العجيبة مشعاً بلمعان الجواهر المتباينة. هنا قعد على يمين العرش فوق كراس مغلفة بالإبريسم كاهن المجوس الأعظم يحف به على جانبيه ستة من كهنة زرادشت .. ويتلوه عدد من نبلاء الفرس العظام جلسوا واحداً بعد آخر حسب رتبهم ومقامهم في الدولة . أما على يسار العرش فقد كان كبير الحجاب يليه قائد (فرقة الخالدين) ثم قائدا الجيشين البري والبحري ، ورؤساء العشائر . كان الجميع صامتين ، ينظرون إلى مواطئ أقدامهم في خشوع، بينما وقف الآذنُ عند مدخل الإيوان .. انطلقت عشرة أبواق مرة واحدة تعلن عن مقدم الملك، فخرّ كل من في الإيوان على وجهه ساجداً . ومن مدخل جانبيّ ظهر أرتحششتا يرفل في ثوب فضفاض متأنياً إلى عرشه ، يتبعه أربعة من الحرس الخاص ما لبثوا أن وقفوا خلف العرش بمجرد أن جلس . استوى في قعدته وأمسك في يمينه بصوبلجان حكمه البرّاق وأجال بصره في الساجدين ، ثم ضرب بمقدمة صولجانه طاساً من الذهب كان أمامه ، فرفع القوم رؤوسهم قليلاً قليلاً . ثم ضرب الطاس ثانية فقاموا إلى كراسيهم وجلسوا مطأطئي الهامات.

ضرب أرتحششتا الطاس مرة ثالثة فتعلقت به أبصار الحاضرين . كان هذا علامة على الإذن بالكلام . قال أردشير :

– عين الملك ساهرة وأذنه مرهفة . إنه يرى ويسمع كل شيء . فليعرض كل منكم أيها السادة ما لديه .

لم يتكلم أحد . فحدق أرتحششتا في قائد الجيش البري ، وسأله :

– ماذا وراءك يا غوماتا ؟

– الواقع ، يا مولاي ، أن ..

– أن ماذا ؟

– أن جبهتنا الغربية لا تبعث على الاطمئنان .

– ليست خيراً من الجبهة الشرقية .. طبعاً .

كان الملك يشير إلى تمرد أخيه هستاسب في إقليم بلخ الذي يقض مضجعه . قال غوماتا :

– كنا مستفيدين من الصراع بين اسبرطة وأثينا في بلاد الإغريق ، لكنهم أعلنوا الهدنة في ما بينهم . بل كونوا حلفاً . وهذا ، لا شك ، كان ذا أثر في وضعنا هناك .

سأله الملك :

- ألسنا متحالفين مع كنعان ؟ ماذا قدموا لنا ؟

- حلفنا يقتصر على المساعدة البحرية بسفن الكنعانيين، يا مولاي، ولا يشمل العون البري..

- وماذا ينقصك لتحافظ على بقية ما ظل لنا في أيدينا ؟

- إنني في حاجة إلى مال أكثر وتجنيد أكبر .. إذا رمنا تثبيت أقدامنا في ولاياتنا ببلاد الإغريق .

فالتفت الملك إلى أردشير :

- أجيبوا طلبه . لا وقت لدي لمناقشة التفاصيل .. هل من جديد في بلخ ؟

قال أردشير :

- كلا ، يا مولاي . لا جديد .

- اي أن هستاسب لا يزال مكانه . ماذا ؟ كنت أظن أن أمره قد انتهى . هذا شيء حسن جداً . جبهتنا الغربية مضعضعة ، وأبوابنا الشرقية مفتوحة لمن يريد الاقتحام ..

والتفت إلي قائد (الخالدين) :

- وأنت يا ميكابوز . أنت قائد حرسي وزوج أختي ، قاعد هنا في بابل تضرب كفاً على كف.. ألا يمكنك عمل شيء ؟

رد ميكابوز :

- الأمر أمرك يا مولاي . مرني بما تشاء أنفذ مشيئتك .

- اليوم . منذ اليوم أنت قائد الجبهة الشرقية . دعك من غوماتا هذا . اليوم تستعد للرحيل إلى بلخ . ائتني برأس هستاسب وإلا ..

كانت طبيعته الانفعالية قد غلبته، وهو يتخذ قراراته فجأة.. وتذكر ما جاءته أمه بسببه.. فسأل كبير حجابه :

- يقال إن ثمة رسولاً من عمي اخمين . أين هو ؟

- إنه بالباب ينتظر الإذن ، يا مولاي .

وكان أردشير قد علم بما دار بين الملك وأمه عن طريق آذانه المنصتة في القصر وأشار بيده إلى الآذن ففتح هذا الباب ، وصاح :

- رسول المزربان أخمين ، والي بلاد النيل .

جعل الرسول يقبل الأرض وهو يتقدم زاحفاً حتى بلغ مجلس الملك :

- السلام على ملك الملوك .

- سلام . ماذا تحمل لنا من عمنا العزيز في منف ؟

- رسالة ، يا مولاي .

وأخرج من كمه لـُـفيفه من ورق البردي مربوطة بخيط حريري ، فمد الملك يده ليأخذها ، وناولها لكبير الحجاب :

- اقرأها يا أردشير .

ففك أردشير الخيط وفتح الرسالة وقرأ :

«من المزربان أخمين ، والي مصر ، إلى ملك الملوك أرتحششتا . سلام . ليكن في علم الملك أن عيونه وآذانه أبلغتني بأشياء تبعث على القلق تجري في مناطق مختلفة من دلتا النيل . فقد علمت بأن أعداداً كبيرة من الفلاحين يتجمعون أياماً في السر ، كما علمت بأن بعض الأمراء والعمد يتحركون في القرى وكأنهم يجمعون الأنصار . وكذلك الأمر في ما حول بحيرة مريوط والفيوم والواحات الغربية . كما أبلغتني عيون الملك وآذانه أن الليبيين المقيمين في هذه المنطقة أكثروا من تنقلاتهم واتصالهم بفلاحي مصر. وهذا كله يدل على أن الأهالي يبيتون شيئاً . إنني في حاجة ماسة إلى مزيد من المال والرجال لمواجهة أي احتمال . هذا لعلم الملك . والسلام» .

فلما انتهى أردشير من قراءة الرسالة زام أرتحششتا :

- أخمين ، ابن دارا نفسه ، يستنجد .

قال غوماتا :

- ها هم الإغريق ينتهزون الفرصة فيبعثون بالسلاح إلى أهل مصر .

قال أردشير :

- ليس كل الإغريق .. إنها أثينا بالذات هي التي تصيد في الماء العكر . اسبرطة ، رغم الحلف، ميولها معنا ضد أثينا .

رد غوماتا :

- عند الشدة كلهم إغريق .

تدخل ميكابوز :

- ألا يكفي المرزبان أخمين المائة والعشرون ألف جندي المرابطون في منف وجدها ؟

وكان أرتاباز ، قائد القوات البحرية ، يستمع صامتاً ، ووجد مناسبة للكلام :

- لا تكفيه أيها القائد ميكابوز . السلاح يأتي عن طريق البحر ، وبحيرة مربوط بحيرة كبيرة ، إلى جانب الفرع الغربي الكبير للنيل الذي تعبره السفن إلى مجراه . كيف للمرزبان أخمين أن يسيطر على هذا كله بجنود يعتصمون في العاصمة منف ؟

تأمله أرتخششتا وهو يتحدث ، ثم سأله :

- وماذا ترى أنت يا أرتاباز ؟

- أرى ، يا مولاي ، أن نستفيد من الحلف بيننا وبين الكنعانيين .

- كيف ؟

- نطلب منهم عدداً من السفن تقوم بحراسة منفذ النيل على البحر الكبير ، وتجوب النهر نفسه تحسباً للأخطار .

رفع أحد النبلاء يده طالباً الإذن بالكلام :

- لكنك تعلم أن الكنعانيين أبوا الإبحار إلى قرطاجة مع الراحل قمبيز بحجة أن المعاهدة لا تلزمهم بمقاتلة إخوتهم هناك .. وهم يعتبرون المصريين والليبيين إخوتهم كذلك ، فلن يقاتلوهم.

رد أرتاباز :

- لن نقول لهم إنهم سيقاتلون المصريين والليبيين .. نقول إنهم سيقاتلون الإغريق إذا وجدوا سفناً إغريقية هناك .

قال غوماتا :

- لم تبلغ الحال مرحلة الحرب والقتال بعد .

قال أردشير :

- نعم . ليس بعد . ولكن إذا تطورت الأمور فسيجد الكنعانيون أنفسهم يقاتلون الجميع بحكم الارتباط .

علق ميكابوز :

- الكنعانيون أعداء الإغريق ، وصديق العدو عدو .

أشار أرتحششتا بكفه ، فصمت الآخرون . قال :

- إنكم تستبقون الأحداث . لعل عمي أخمين يبالغ في خيالاته .. ما يهمني الآن تأمين الجبهة الشرقية أولاً .

قال ميكابوز :

- نعم ، يا مولاي . إنك على حق .

انبرى غوماتا :

- هذا صحيح . لكن النار تحت الرماد في وادي النيل بالذات .. يجب الاهتمام بمصر وما يحدث فيها ، فهي المصدر الرئيسي لمؤونة القمح وبقية الغلال

قال أرتاباز :

- أي حدث في مصر سيؤثر في بقية الأقاليم. أرى الرد بسرعة على طلب المرزبان أخمين .

تكلم أرتحششتا :

- اكتب إليه يا أردشير أن يتيقظ لأية حركة ويقمعها بأعنف ما يكون .. أما الرجال فيكفيه ما لديه الآن ، فنحن لا غنى لنا عنهم هنا وفي أماكن أخرى . وأما المال فليفرض مزيداً من الإتاوة وليجمع ما يكفيه من أهل مصر . له أن يستعمل كل سبيل للحصول على ما يريد .... كل سبيل . يمكنك ، يا أرتاباز ، أن تسحب قطعاً من أسطولنا في جزيرة قبرص لمراقبة مداخل مصر الشمالية . وأنت ، يا ميكابوز ، عليك بهستاسب ... قفل الديوان !

قال كلماته هذه ونهض من على عرشه فسجد الحاضرون ، ومضى هو في طريقه إلى الباب الجانبي الذي منه دخل .

4

جلس الشيخ تكلت متربعاً فوق حصيرة في إحدى غرف البيت وقد انحنى جذعه مستسلماً لصبي في نحو الثانية من عمره امتطى ظهره وهو يهتز به إلى الأمام وإلى الوراء ، والصبي يطوق عنقه بيديه الصغيرتين ويكركر مرحاً . وغير بعيد منه كانت كاروما ممسكة بغربال تنقي به كومة من القمح مكدسة بجانبها وهي ترقب زوجها وحفيدها يتعابثان ، بينما تشاغلت كليو بمغزل في يديها تغزل لفافات من الصوف الأبيض عند ركبتها . وبدا إينارو مرهقاً قد لوحت الشمس وجهه

فاسمرت بشرته ونمت لحيته ، متكئاً على وسادة بالقرب من زوجته التي كان واضحاً أنها في الشهور الأخيرة من الحمل .

همس لها محاولاً ألا يسمعه والداه :

- هذه بنيلوب ومغزلها ..

فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :

- وهذا أوديسيوس قد عاد من تطوافه .

بادلها الابتسام مسترجعاً ذكرياته الجميلة :

- هناك فرق صغير بينك وبين بنيلوب .

- ما هو ؟

- حين عاد أوديسيوس لم يجدها حاملاً .

- وهناك فرق بينك وبين أوديسيوس .

- إيه ؟

- لقد غاب عشرين سنة ، وغبت أنت خمسة أشهر . وفرق آخر .

- إيه ؟

- كان يمخر عباب البحر وكنت تمخر رمال الصحراء .

قال :

- أنبت العزيز كيمون لكي يمخر عباب الأمواج .

تشاغلت عنه حتى تتفادى الإحراج ووجهت كلامها إلى ابنها الصغير :

- كفي ! إثن رع ! أتعبت جدك .

فرد الشيخ مدافعاً عن حفيده :

- إثن رع يلهو معي وبي لأنه يشعر بالوحدة . أسرعي بأخ له يا كليو .

احمرت وجنتاها . قالت كاروما تنقذ كنتها من الإجابة :

- كل شيء بأوانه أيها العجوز . ألا تقول دائماً : في الوقت المناسب ؟

- صدقت أيتها الشابة .. أخطأ العجوز هذه المرة .

وضحك ممازحاً . ثم اتخذ سمة الجد واتجه إلى إينارو :

- أحسب أن «الوقت المناسب» اقترب موعده يا بني . كانت رحلة طويلة هذه المرة . قل لي: كيف تحمل شيحو السفر معك في الصحراء ؟ إنه فلاح أصيل ولم يتعود عناء السفر الطويل .

- كان رائعاً ـ لا يمكنني وصف قدرته على التحمل والصبر على المشاق . إنه رجل بكل معنى الكلمة ..

- هذا يدعو إلى التفاؤل ، لولا زوجته التي أضنتني بكثرة السؤال عنه والشكوى من العيال في أثناء غيبته .

- أنت تعرفها . امرأة أنانة منانة .

علق والده :

- يخيل إليّ أن شيحو تعلم الصبر والاحتمال من معاشرة هذه المرأة .

قالت كاروما :

- بعض النساء يتعلمن الصبر من معاشرة بعض الأزواج .

قال تكلت :

- آها ! ليس المهم أن نعرف من تعلم مِمَّن .. المهم أن نتعلم .

وأردف مستشهداً بكنته :

- أليس كذلك يا كليو ؟

قالت :

- الصبر فضيلة ممتازة خاتمتها النجاح دائماً .

فعقب الشيخ على قولها :

- أهذه حكمة إغريقية ؟ أرجو أن يعيها إينارو جيداً إذن .

قال إينارو :

- إنها حكمة كل زمان ومكان يا أبت .. تعلمتها منك .

ضحك تكلت وهو ينزل حفيده من على ظهره :

- ومن أمك الصبورة أيضاً . ربما تتعلمها من زوجتك كذلك .

فبادله إينارو الضحك :

– مثل شيحو يا أبي ؟

– مثل شيحو وغيره من الأزواج السعداء يا ولدي .

ونهض يسلم الصبي إلى أمه التي تركت مغزلها وتلقفته بين ذراعيها تقبله في حنان. وأضاف :

– لقد عدت وشيحو من رحلتكما بالأمس .. وسنجتمع بالرؤساء مساء هذا اليوم . فلتستعد للقاء .. في المنظرة بعيد الغروب .

5

مسح ثمر لحيته الشيباء بباطن كفه ونفّ مرتين وحك شاربه بسبّابته وقال :

– غيبة طويلة يا إينارو ، ونرجو أن تكون وفقت . أكان من الضروري أن تذهب إلي الواحات أنت ذاتك ، الزعيم ابن الزعيم ؟

– كان ضرورياً أيها الرئيس . تعرف جيداً أن من لا يأكل بيده لا يشبع .

– آثار الصحراء واضحة على وجهك .

– صدقت . لكن هذا لا يزيدني إلا صحة وعافية .

قال نكن :

– الرئيس ثمر صار يشكو من رطوبة البحيرة . مفاصله تؤلمه ، ونفسه يضيق . ماذا لو أرسلناه إلى الواحات ليستعيد صحته ؟

غمز دد بعينه :

– ما مضى لن يعود .

فسارع تكلت بالتدخل :

– بل يعود ويعود يا دد .

شعر صاحبه بالحرج فرام تغيير الموضوع ومناقشة الأهم :

– كيف حال زعيم الواحات قايا ؟

أجاب إينارو ؟

- بأحسن حال . لقد ساعدني كثيراً في الاتصال بالرؤساء هناك ..

قال ثمر :

- هاه .. حدثنا .

- في الواحة الغربية التقيت برؤساء قبيلتي التحنو والمشوش جادوا بناءً على رسائل من قايا . ومن هناك انطلقت إلى سيوة . حيث معبد إمن العظيم . التقيت بزعيم الأمونيين ، وأقمت شهراً تبادلت فيه الرسائل مع زعماء المرمريداي والجلغماي والأدورماخيداي والهاسا . إنهم جميعاً مستعدون . بل أبلغوني أن قبائل الأسبت وأهل مدينة برقة وما حولها سيزحفون معنا بمجرد إشارة. ليس هذا فحسب ، فإن إغريق قورينا سيعينوننا أيضاً .

علق ثمر :

- يبدو هذا مطمئناً ، وتبدو واثقاً أيها الزعيم .

- كل الثقة أيها الرئيس .

قال تكلت :

- بعث إليّ إمنروت برسالتين يخبرني فيهما عن اتصالاته واستعداداته ، حملهما صاحبه الذي قال إن اسمه باسخم . ذكر لي أنه زار بيتنا مع إمنروت ذات يوم منذ سنوات . أتذكره يا إينارو ؟

- نعم ، يا أبت . كان رفيقه في القارب ..

وصمت عن إكمال جملته ، فتدارك تكلت الموقف :

- لم أحبب هذا الرجل . شيء ما نفرني منه . لست أدري كيف يتخذ إمنروت مثله صاحباً ومستودع سر ...

قال دد :

- لا تحكم على المرء من مظهره .

فرد تكلت :

- مظهره مألوف ولا غبار عليه . مخبره هو الذي يزعجني .

سأله إينارو :

- هل بدا منه ما يريب ؟ هل قال شيئاً أزعجك ؟

- كلا .. كـلا . إنه صامت لا يتكلم . قعد هنا يـوماً كاملاً ولم يتـحدث .عيناه هما المريـتان . وقد طاف بالسوق وبعض المنازل ، أخبرت بأنـه كان يتأمل كل شيء ، وليس من عادة الرسول أن يفعل هذا .

قال نكن :

- دعك منه . إنه مجرد حب استطلاع .

فأيده ثمر :

- لو كان أمره مريباً لما أرسله إمنروت . عهدي به ذكياً أريباً ..

هز تكلت رأسه ومط شفتيه :

- إنما يؤتى المرء من مأمنه . أرجو أن أكون مخطئاً ، فظني مجرد سوء ظن .

قال إينارو :

- هل كتبت إلى إمنروت جواباً ؟

- لم أفعل . لم أطمئن لباسخم هذا ، فتركته يعود دون رسالة . الحرص واجب .

- ينبغي أن أزور إمنروت . هل أخبرك بمكانه الآن ؟

- نعم . إنه مكتـوب في رسالتـه الأخيـرة التي وصلت منذ شهـر تقريبـاً .. أليس من الواجب زيارتك لزوج أختك مرسن في الفيوم ؟

- سأفعل بعد زيارتي لإمنروت . أذهب من عنده إلى الفيوم .

قال نكن يقطع حديث الأب والابن :

- ثمة أخبار سيئة .

فالتفت الجميع إليه يترقبون ما سيقول وقد ظهر على وجوههم القلق. قال بعد لحظة صمت:

- يبدو أن الفرس يشتدون في جمع الضـرائب . كلا .. ليس الضرائب فحسب ، بل كل شيء يجدونه أمـامهم ، ويكتسـحون كل ما يرون. علمت اليـوم أن فرقاً كـثيرة من الجنود انتـشرت في القرى يسوقون أمامهم قطعان البقر والغنم .. وحتى الحـمير . وفرقاً أخرى تجمع المحاصيل وتفتح المخازن والأهراء ليحمل ما فيـها من غلال إلى منف . ولست أدري متى يصلوننا نحن في أطراف الدلتا .

سأله دد :

- ألا يكتفون بالضريبة السنوية ؟

- الضريبة السنوية ؟ أقول لك إنهم يجمعون كل شيء . فلأقل إنهم ينهبون .

- غصباً ؟

- نعم .. غصباً .

- ألم يقاوم أحد ؟

- من قاوم كان مصيره الموت . هكذا سمعت .

قال تكلت :

- الموت أفضل من حياة الذل هذه . فليزدد الفرس عنتاً حتى يزداد الحقد عمقاً . لعل هذا يحرك الساكنين .

قال إينارو :

- لو كان السلاح في كل يد لما جرؤ الفرس على فعل ما يفعلون .

رد والده :

- لقد وزعنا الأسلحة هنا . تمكننا المقاومة .

- طفح القلق على وجه إينارو :

- لا يا أبي . لا أعني هذا . أعني مصر كلها .

فسكت تكلت . سأله إينارو وقد تداعت خواطره :

- هل رأيت كيمون أخيراً ؟

- جاءني بعد رحلته الموفقة إلى بلاد الإغريق ..

- يجب أن أراه كذلك .. بأسرع ما يكون .

قال ثمر :

- العاصفة تتجمع بوادرها .

فأيده نكن :

- وهي تقترب .

قال إينارو :

- يجب أن نكون على حذر ولننبه رجالنا سأرى مدى استعداد إمنروت ومرسن . يلوح لي أن الوقت المناسب قد حان ..

6

في حديقة القصر الملكي في بابل كانت الملكة الأم أمسترا تتمشى وإلى جانبها الخصيُّ أرتوخار يتحدث إليها . كان فتىً فاتناً في بداية العشرينيات ، لا يكاد يفارقها وهو موضع ثقتها وموطن أسرارها ووسيلة اتصالها ، ومصدر معلوماتها . قالت له ، وهي تنظر إلى صفوف النخيل المتراصة في الحديقة الرحبة تتخللها أصناف عديدة من الأشجار المثمرة والنباتات المزهرة ، يتدلى بعضها على جدول من جداول الفرات :

- ماذا قلت لي عن ذلك اليهودي يا أرتوخار ؟

- الحبر نحميا ؟ نعم ... نعم .. يا مولاتي . قلت إنه هنا في بابل .

- تركته في سوسة .. فما الذي جاء بهب إلى بابل ؟

قال الخصيّ متخابثاً :

- لعله حن إلى حدائقها المعلقة يا مولاتي .

فرمقته مبتسمة :

- وحدائق بابل حنت إليه أيضاً .

- قال لي إنه يرغب في أن يراك يا مولاتي ..

- وأنا أرغب في أن أراه . متى رأيته ؟ أين هو ؟

- رأيته بالأمس ، يا مولاتي .. وهو قريب منك جداً الآن .

التفتت إليه مستغربة :

- قريب مني جداً :

- نعم ، يا مولاتي ، في الطرف الآخر من الحديقة ، مع أمستا .

انتفضت أمسترا غاضبة :

- مع أمستا ، زوجة ميكابوز ؟ انتهزت فرصة غياب زوجها ؟ كيف سمحت لهما ؟

سارع الخصيُّ يهدئ من غضبتها :

- عفوك يا مولاتي . ليس الأمر ما ظننت . إنهما ليسا وحدهما فحولهما الوصيفات والخدم . لقد جعلت مقابلته لأمستا ذريعة لأن يراك . أردتها مفاجأة لك يا مولاتي .

كان يعرف أن الغيرة تتحكم في قلب المرأة الكهلة من الصغيرة أمستا ، أخت الملك وزوجة أحد أكبر قادته ، بل هي ابنتها ذاتها ، وأن أي خطأ منه قد يطيح برأسه فوراً . لكنه يعرف أيضاً أن الملكة الأم لا تستغني عنه وعن خدماته الجليلة في علاقاتها السرية الحميمة جداً ... خاصة بعد اغتيال زوجها الملك السابق أرتحشويرش وتولي ابنها أرتحششتا العرش . إنها امرأة تقدم بها العمر وتريد أن تستمتع بما بقي منه إلى أقصى حد ، وقد مكنت لها سيطرتها على ابنها العابث الضعيف أن تكون لها الكلمة العليا في القصر وأن تفعل ما تشاء دون حسيب . ولكنها لا تخلو من المنافسين ، فهناك أمستا الجميلة المُدللة بجمالها ونجم زوجها الطالع ، كما أن هناك الحاجب الأكبر أردشير الذي ظل حاجباً ووزيراً أول في إيوان فارس منذ زمن طويل . وهذا الخصيُّ الفتي الوسيم يعرف كيف يستفيد من الأوضاع وصراع القصر ، رغم صغر سنه وكونه خصياً .. بل لعل هاتين الصفتين هما اللتان هيأتا له المكانة التي ينزلها وصار بها رفيقها المفضل .

- هل دفع لك كثيراً ؟

فاجأته بالسؤال .

- من ؟ الحبر نحميا ؟ آه ... ليس كثيراً جداً يا مولاتي .

لم يكن لأرتوخار أن ينكر ، فهو يعلم أنها لا بد أن تعلم .

- كثيراً أو قليلاً . لا بأس ، فأنت تأخذ من جميع الأطراف .

- لا أحد يدانيك في كرمك ، يا مولاتي . إنك تغمرينني بأفضالك .

أراد أن يدغدغ عواطفها ، ورامت هي أن تقول له إن أفضاله أكثر ولكنها أمسكت . قالت له :

- حسن يا أرتوخار .. مادام نحميا قد جاء فلتسرع بدعوته .. وحده . سأمضي إلى القصر لأراه هناك ، فلا أريد أن أرى تلك الفاجرة الصغيرة .

وتركته يمضي إلى طرف الحديقة الآخر بينما قصدت هي باب القصر .

***

هتف نحميا حين رأى أمسترا واقفة وسط غرفتها تنتظره ، بعد أن قاده أرتوخار إليها وأغلق

وراءه الباب. كان واثقاً بذاته . فتقدم منها قليلاً وشمّ رائحة عطر نفاذ يأتي من قبلها :

- تبدين فاتنة يا مولاتي .. فاتنة جداً .

تأملته معجبة :

- سلام .. أيها الحبر . هل أنا فاتنة حقاً إلى هذا الحد ؟

- أكثر من كل حد ، يا مولاتي . أنت أروع الفاتنات فتنة .

- لكن الأيام تسرع أيها الحبر الماكر . ألا تلاحظ هذا ؟

- ألاحظ ماذا يا مولاتي ؟ إنك تبدين أصغر سناً يوماً بعد يوم ، لكأنما الأيام تمضي بك القهقري .

قالت وهي تشير إلى حشية بجانبها :

- اجلس . ودعك من هذا الكلام المعسول .

كانت في الواقع تستزيده الإطراء ، فجلس بعد أن جلست هي :

- إنني لا أقول إلا حقاً يا مولاتي . لا ألوم الراحل أحشويرش إذ أخذت عليه قلبه وعقله معاً . أخذت قلبه بجمالك الساحر وتملكت عقله بحكمتك العظيمة .

- أحشويرش فقط ؟

- مولاتي ! إن كل من يراك لا يملك أمره . تعرفين هذا تماماً .

- هذه بداية طيبة حقاً . أنتم اليهود تحسنون الكلام .

- نرجو أن نحسن الفعل أيضاً يا مولاتي .

نظرت إليه مشغوفة . تأملت وجهه الأبيض ولحيته المشذبة السوداء وعينيه الكحيلتين :

- أين كنت طيلة هذه المدة ؟

فرد متملصاً :

- تعرفين واجبات الحبر يا مولاتي .. خاصة في هذه الظروف . كنت حيث تركتني في سوسة، ثم جئت إلى بابل طمعاً في أن أراك ، وها أنذا أحظى بالمثول في حضرتك ..

قالت له :

- كان يمكنك الاتصال بأرتوخار منذ زمن .

وجدها فرصة مناسبة :

- وكيف الوصول إلى أرتوخار وهذا الحاجب الأكبر يسد جميع الأبواب ؟

- أردشير ؟

- من غيره يا مولاتي ؟

- صدقت . إنه رجل مزعج . لست أدري لِمَ يحتفظ به أرتخششتا .

أراد أن يدخل في ما جاء من اجله ولكنه أجل ذلك قليلاً ، ومد يده إلى حزامه فأخرج منه علبة مخملة قدمها إلى إمسترا :

- ارجو أن تقبل مولاتي الملكة هديتي الصغيرة . إنها لا شيء يذكر في الواقع ولكنها تعبير عما أحمله لمولاتي من عظيم المحبة والتقدير .

فمدت أمسترا يدها وتناولت العلبة ، وفتحتها وأخرجت منها عقداً من الجواهر واليواقيت رائع النقش . هتفت :

- أوه ! هذا جميل .. هدية لا تأتي إلا من محب صادق . لعله كلفك كثيراً .

- يرخص لك كل غالٍ أيتها المليكة الرائعة . مهما بلغ جمال العقد فهو لا يضاهي جمال صاحبته .

انتشت بالهدية والإطراء معاً ، ومضت تتأمل العقد الثمين وتقلبه بين يديها ، ثم نزعت ما كان على عنقها من حلي ولبست العقد . رفعت رأسها تبرزه :

- هيه .. ما رأيك ؟

- بديع ، يا مولاتي .. بديع جداً ..لقد ازداد العقد جمالاً بجمال جيدك .

كان يتملقها بجلاء ، وأدركت هي هذا الملق ، كما أدركت أن في نفسه شيئاً . سألته :

- وما هي أخبارك ؟

- ليست على ما يرام ، يا مولاتي .

- إهيه ؟ ليست على ما يرام ؟

تغيرت سحنته فجأة وظهرت على وجهه الكآبة ، وشبك أصابع يديه :

- نعم ، يا مولاتي . إنني أحد أحبار شعبي ، أحس بأساه وآلم لما يألم منه . وشعبي يقاسي

ويتألم . كيف أكون سعيداً وشعبي شقي ؟

قالت مستغربة :

- أي ألم وأي شقاء عند اليهود ؟ إنهم لم يروا من فارس إلا الخير .

- صدقت يا مولاتي . لم نر إلا الخير .

- فأين الألم إذن وأين الشقاء ؟ لقد أطلق الراحل قورش سراحكم بعد أن سباكم نبوخذ نصر البابلي ، وعادت أفواج منكم إلى مدينتك .. ما اسمها ؟

- أورشليم .. يا مولاتي .

- نعم .. أورشليم . وزوجي الراحل أحشويرش أذن بإعادتكم بناء المدينة التي خربها نبوخذ نصر البابلي .

- هذا كله صحيح يا مولاتي ، ولن ننسى الفضل والجميل .

- ومن فضل البقاء منكم هنا في بابل أو في سوسة وغيرهما من البلدان يعيش في بحبوحة كاملة ..

- هذا حق ، يا مولاتي .

- فماذا تطلبون إذن ؟

قال وهو يتظاهر بالمسكنة والخنوع :

- لكن الحاجب الأكبر أردشير بدل كل هذا .

- ماذا ؟ كيف ؟

- جعل بعض أعدائنا في أورشليم يكتبون إلى الملك ، ابنك يا مولاتي ، رسائل كاذبة عن أهلنا هناك يتهمونهم فيها بتهم باطلة . أوغروا قلب الملك فأمر بإيقاف بناء المدينة .

- هكذا ؟

- نعم .. هكذا . وصدرت عن الإيوان رسائل باسم الملك تمنع أهلنا من البناء وتضيق عليه الخناق .

- ولهذا أنت حزين ويائس ؟

- جداً ، يا مولاتي .

حدقت فيه بعينين مفتوحتين تكاد تأكله بهمـا . كان حزنه الظاهر قد أسبغ عليه مهابة مرغوبة ، فسألته تحاول أن تسترضيه وتمحو الأسي عن وجهه :

– وما المطلوب عمله لكي لا تحزن أيها الحبر العزيز ؟

عرف أن اللحظة حانت لتسديد ضربته وتحقيق هدفه :

– إنني أطمع في كـرم مليكتي فتـتدخل لدى ابنـها ملك الملوك ليلغي أمـره بإيقاف إعـادة بناء أورشليم .

قالت بثقة :

– هذا أمر سهل . وماذا آخر يا نحميا ؟

لاحظ أنها نادته باسمه مجرداً وأنها أدنت وجههـا منه قليلاً وهي تسأله ، ونفذت إلى خياشيمه رائحة العطر القوية . قال :

– فليـزدد كرم الملـكة والملك بالسمـاح لمن يرغب من يهـود بابل ، بقـية الـسبْي ، بالعـودة إلى أورشليم .

قالت :

– إذا رغبوا فليفعلوا .

– لا بد من إذن الملك يا مولاتي .

– سيأذن لهم الملك يا عزيزي .

رنت الكلمة الأخيرة في أذنيه ، فذهب إلى تبرير طلبه :

– سيكون اليهود سنداً لفـارس إذا كانت لها بهم حاجة يوماً مـا . نحن لا ننسى الجميل . وقد تحدثت مع الحبـر عزرا بن سرايا ، كبيـر اليهود في بابل، في هذا الشأن . وجـود اليهود في أوشليم ويهوذا والسامرة حماية لمصالح فارس .. يا مولاتي .

قالت ، وهي تزداد قرباً منه :

– أوافقك تماماً . الكنعانيون لا يوثق بهم ، ولا بد لنا من حليف يعتمد عليه في تلك الأقاليم . هذا سبب قوي جداً سيجعل أرتحششتا يوافق على الطلب .. رغم أنف أردشير .

أشرق وجه نحميا بالسرور ، فقرب رأسه من راس أمسترا وهمس :

– مولاتي ..

قالت بصوت مبحوح :

- نحميا ..



لم يستطع المرزبان أخمين ، والي مصر ونائب الملك في منف ، أن ينام تلك الليلة ، فقد حمل إليه البريد من بابل خبر انتصار ميكابوز على أخي الملك المتمرد هستاسب في إقليم بلخ، والمجيء برأسه إلى أرتحششتا . ها هو ميكابوز يوالي صعوده يوماً بعد يوم ويحقق تقدمه في عاصمة فارس ويرتفع شأنه ، ويبرز باعتباره قائداً عسكرياً من الطراز الأول ، يمكن الاعتماد عليه في الساعات الحرجة . وهو هنا كالمنفيٍّ بعيد عما يدور في القصر والإيوان . ألم يكن الأولى أن يجلس هو على عرش الطاووس بدلاً من هذا الشاب العربيد ابن أخيه ؟ إنه ذاته ابن دارا الكبير وكان من المحتمل أن يرث عرشه لولا أن قفز إليه أخوه أحشويرش ، فلما هلك أورثه ابنه . والآن .. ها هو ميكابوز يخطط لأمر من الأمور . اقترن بابنة أخيه ، أخت الملك ، ثم سعى ليكون قائد (فرقة الخالدين) وتلت بانتصاره الساحق على منافس الملك . ومن يدري ماذا سيكون بعدئذ ؟

كانت ليلة مقمرة ، فجعل يدور في الجناح الذي يشغله من (القلعة البيضاء) والسكون مخيم عليها . إنها قلعة عالية الأسوار متينة البناء شيدت منذ زمن لتكون إحدى قلاع الدلتا الحصينة . وقد اتخذ جزءاً منها مقراً يعيش فيه ويمارس سلطاته ، بينما وضع في بقية أجزائها أفضل رجاله وأشد مقاتلي الفرس الذين جاءوا لحماية وجود فارس في وادي النيل . وهو وجد حكم مصر في البداية سهلاً لا عناء فيه ، فأهلها خانعون يصبون في خزائنه الأموال والنفائس، وكانت الأمور تمضي على ما يرام . لكن شيئاً حدث في السنوات الأخيرة ، شيئاً ينبئ عن خطر قادم ، إذ صار الفلاحون أشد جرأة على جباة الضرائب وبلغ الأمر حد رفض بعضهم دفع ما يجب حتى اضطر إلى شنق عدد منهم ليكونوا عبرة لغيرهم . وهذه الأسلحة التي أبلغه جواسيسه أنها تتسرب إلى أيدي الأهالي ، وتلك التجمعات السرية التي تعقد ، علامة - لا شك - على أن الوضع لم يعد هادئاً كما كان .

خرج إلى إحدى شرفات الجناح وألقى نظرة على منف . ظهر له من قريب معبد إله المدينة ، ورب وادي النيل كله ، المدعو (فتاح) يشع بناؤه الأبيض في ضوء القمر الباهت ورأى صفحة النيل يتدفق في مجراه وبضعة مراكب راسية على شاطئيه اللذين حفت بهما أشجار النخيل تعلو

قممها تيجان الجريد الخضراء ، ينحدر سعفها على جوانبها يزين قامات النخل المديدة . كم مخر هذا النهر العظيم من مراكب الفراعين ؟ وكم شهدت هذه المدينة الراقدة من أحداث ؟ وكم سجل التاريخ عنها من صفحات ؟ وسرح بناظره ناحية الغرب . هناك تقع بحيرة مريوط . إنه يعرفها جيداً . حدثه جواسيسه عنها وعما يجري حولها . ما اسمه ؟ ذلك الزعيم الليبي الأصل الذي قيل له إنه يتحرك كثيراً ؟ آه .. إينارو . هذا هو اسمه . لكنه حتى الآن لم يبد منه شيء . لم يعلن عن ذاته ولم يكشف عن أهدافه . أتمنى لو أراه ، فقد تردد اسمه كثيراً في مسمعي . هل يجرؤ على مقاومة جبروت فارس ؟ يقال لي إنه سليل فرعون صا .أتراه يطالب بعرش أجداده ؟ إن هذا لمضحك فعلاً . مجرد زعيم صغير لمجموعة صغيرة من أبناء عمومته الفقراء يعيشون في مستنقعات بحيرة لا قيمة لها ولا وزن . عرش الفرعون ؟ يا للسخرية !

أحس برعشة خفيفة من برودة الليل ، فضم عباءته يلفها حول جسده . لم تعد سنك تحتمل يا أخمين .. لكن ... هل يمكن أن يحدث هذا ؟ أيمكن أن تثور مصر ؟ لقد كتبت إلى ملك الملوك بما يدور سراً هنا وأجابك بما أجاب . وميكابوز يرتفع نجمه . أتترك الأمر حتى ينفلت ويعلن هذا الإينارو تمرده ؟ أتتركه يفاجئك ؟ لم لا تأخذ زمام المبادرة فتقبض عليه وتقتل الفتنة في مهدها ؟ يجب العمل بسرعة .. الآن .. قبل فوات الأوان ..

قصد مخدعه ، واستلقى على سريره يحاول النوم . كان خياله يرسم له صوراً مختلفة لغريمه الذي سمع به ولم يره .. يتخيله حيناً في شكل زعيم ليبي ذي سوالف طويلة ترتفع ريشتاه حتى تبلغا السقف ، وحيناً آخر في صورة أمير مصري مؤتزر ملتفت برأسه إلى إحدى كتفيه العريضتين كما رأى أمثالها مرسومة على جدران معبد (فتاح) . وتداخلت الخيالات وهو في تهويمته التعبة ما بين ميكابوز ممتطياً جواده يركض به في سهول بلخ حاملاً رأس هستاسب في مقدمة رمحه ، والغريم الغامض يخوض في مستنقعات مريوط . رأى زحوفاً هائلة من الفلاحين يحملون مناجل وسكك محاريث وعصياً يدبون كالنمل ويتسلقون أسوار القلعة البيضاء ، كما رأى أسراباً أخرى من أهل الصحراء تخرج من (معبد إمن) الذي بناه أبوه دارا في الواحة الغربية في خيط متصل حتى تبلغ القلعة فتتسلقها مع الفلاحين وتغطي واجهة الأسوار . وكانت صورة وجه شاب غاضب تبرز من كل جانب ، بقرنين مثل قرني كبش (إمن) تارة ، وبتاج مصر المزدوج تارة أخرى، يحدق فيه بعينين براقتين . كتل من السحب السوداء تتراكم ، وهزيم رعد يقصف ، وصفير الريح يكاد يخرق أذنيه. كان يختنق والظلام يحوطه ، ويهبط على صدره ثقل صخور القلعة المنهارة . صرخ من تهويمته فزعاً والعرق ينضح من جسده . كانت خيوط الفجر تتسلل من نافذة المخدع ،

ففرك عينيه يبعد عن فكره الحلم المرعب .. ولم يعد يحاول النوم .

8

أشرقت شمس الصباح على عربة زوجية المقعد تدور عجلاتها على الطريق المتربة فتساوق وقع خطوات الحصان الذي يجرها ، مثيرة زويعة صغيرة من الغبار من خلفها ، حاملة رجلين يبدو أحدهما في زي سري مصري والآخر في زي فلاح يشد اللجام في يد وسوطاً قصيراً يستحث به الحصان في اليد الأخرى . كانت العربة قد جاوزت القرية في طريقها إلى بلدة راقودة .

قال السري :

- سنصل راقودة ضحيّ يا شيحو . لم أر كيمون منذ مدة ، وسأعرف منه ما يهمني مما رآه في أثينا .

رد الفلاح :

- أشك في أنه سيعرفك أنت ، أيها الزعيم ، في هيئتك هذه . لذا كان من الضروري أن أرافقك حتى أثبت له أنك الزعيم إينارو .

- يسعدني ألا يتعرف عليّ كيمون ، فهذا هو المطلوب .. ألا يعرفني أحد ، حتى أقرب الناس إلي .

- حتى كليو ؟

- كليو ستعرفني ولو تنكرت في ألف صورة .

- إنها زوجة رائعة . أنت محظوظ بها أيها الزعيم .

- وأنت محظوظ بمريت إمن يا عزيزي شيحو . خلفت لك نتاجاً غزيراً .

فضحك شيحو وهو يستحث الحصان :

- لا تغرْني أيها الزعيم . لقد شرعت كليو في الإنتاج . إنها منافسة خطيرة .. أيها الزعيم .

في الطرق كانت تقابلهما مجموعات من الجنود فوق خيول بين الحين والآخر ، شاكي السلاح، يمضون فرقاً في مختلف الاتجاهات . قال إينارو :

- كف عن مناداتي بلقب الزعيم يا شيحو . للخيول آذان .

- حسناً .. أيها الزعيم . ولحصاننا أذنان ، لكنهما أذنان وطنيتان . ماذا أدعوك إذن ؟

- أمن الضروري أن تناديني كلما تحدثت ؟

- معك حق . نسيت أن تبدل اسمك ولقبك أحياناً .

نظر إينارو إلى ماء البحيرة التي كانت الطريق تحاذيها وتذكر ليلة فراره من راقودة في قارب إمنروت وكيف ادعى كل منهما اسماً غير اسمه الحقيقي في البداية ، ثم ما مرّ من تطورات .

انتشله من أفكاره سؤال شيحو :

- هل سنأخذ كيمون معنا إلى إمنروت ؟

أجابه :

- عربتنا لا تحمل سوى اثنين . ثم إن صحبته لنا ستثير الشبهة . الأفضل أن يظل في راقودة مع أبيه ، فنحن لا ندري ما تحمله الأيام بعد .

أراد شيحو أن يقصر الرحلة بالحديث عن تجربته الصحراوية :

- تمنيت لو كان كيمون معنا في رحلتنا إلى الواحات .. لم أكن أدري أن للصحراء كل هذا الجمال .

- أعجبتك ؟

- جداً . وأعجبني أهلها .. فيهم رجولة وصلابة ووضوح كوضوح الصحراء ذاتها . كنت أظن أنها خالية من الناس ، أحسبها مجرد بحار من الرمل فإذا هي عامرة بواحاتها الكثيرة ومياهها الغزيرة . صدقني يا سيدي.. إنني دهشت لما وجدته فيها من زراعة..حبوب وفواكه وخضر. أوه .. أود لو آخذ عيالي وأعيش هناك .

- إلى هذه الدرجة ؟

- نعم . واحة إمن ؟ تلك التي يسمونها سيوة . إن معبد الإله (إمن) وحده كاف ليجعلها محجة الزوار الكثيرين الذين رأيتهم فيها من كل مكان . وتلك العين العجيبة ، يا سيدي .. إنها عجيبة فعلاً .

- عين سيوة ؟

- نعم . هذا ما أتحدث عنه . في الصباح الباكر تكون حارة كأن من تحتها موقداً .. فإذا ارتفع النهار بردت ، حتى إذا احتلت الشمس كبد السماء ترسل لهيبها صار ماء العين بارداً كالثلج . ثم

يدفأ شيئاً فـشيئاً بغروب الشمس . فإذا برد الليل تحـول الماء حاراً من جديد . إنها وحق (إمن رع) لأعجوبة الأعاجيب .

وطفق شيحـو يتحدث عما رآه في الصـحراء ، وعن استقـبال الزعيم قايا لهمـا ، وعن زعماء القبائل الذين جاءوا للقاء إينارو ، كأنه يستـرجع أحلى الذكريات .. وإينارو يجاريه أحياناً ويسبح في أفكاره أحيـاناً أخرى . بلغا أطراف راقـودة ، ودخلا الجزء الغربي مـن ميدان سوقـها. نظر كل منهمـا إلى صاحبه ولم ينطقـا بكلمة . هنا .. في هذه البقعـة بالذات ، كان شيحـو يتلقى ضربات الجندي الفارسي ، وهنا غرس إينارو خنجره في جنب الجندي .. كـان الناس يروحون ويجيئون ، جماعات وأفـراداً ، وحركة السوق دائبة . مرا بالزقاق الذي انفلتـا منه ذلك اليوم وطافت الذكرى بذهن كل من الرجلين الصامتين ..حتى وصلا حانوت ثيوفرون . أوقف شيحو العربة ونزل إينارو داخلاً الحانوت . كان ثيوفرون يحادث رجلاً يبدو أنه يروم شراء شيء، بينما دفن كيمون رأسه في بطية يـغرف منها زيتـوناً مملحاً . انتظره حـتى رفع رأسه ، لكنه لم يـلتفت إليه . وضع الـزيتون في كيس من الخيش وسلمه للمشتـري ثم انتبه لوجود مشترٍ آخر ، فنظر إليه نظرة استـفهام عن بغيته . ابتسم إينارو في وجهه فتردد كيمون قليلاً ، ولمح شيحو داخلاً .. ردد بصره بين الاثنين ثم صاح :

- إينا .. ؟

قاطعه واضعاً سبابته على شفتيه :

- أريد خمرة معتقة مجلوبة من أرض الإغريق .. أيها السيد .

عرفه من صوته ، فرد عليه مسرعاً :

- وأنا أشتري الزيت الجيد من أرض التحنو .. أيها السيد .

وألقى بيده من حوله يعانقه بشوق ويقبله على صفحة وجهه الحليق :

- صرت ناعم الوجه .. مثلي . كانت لحيتك خشنة.

والتفت إلى شيـحو يعانقه أيضـاً ، ثم دنا من ثيوفرون الذي كان لا يزال منهـمكاً في الحديث، وأشار إليه بيده ليقترب :

- أبي . لدينا زائران .. غريبان .

فنظر ثيوفرون نحو إينارو وشيحو وبانت الدهشة في عينيه . مضى كيمون قائلاً :

- سآخذهما إلى البيت لأحتفي بهما .

رد ثيوفرون :

- سألتحق بكم بعد قليل .

وعاد إلى صاحبه يكمل حديثه .

9

قال كيـمون وهو يضع على الخوان قدراً من المرق واللحم ، إلى جانب طبق كـبير به خليط من الذرة والقمح والخضروات المطبوخة :

- لو كانت كليو هنا لكان طعامكم أطيب . لكنها فضلت هجرنا والحياة في تلك القرية .

جامله إينارو :

- لكنك طاهٍ ماهر يا كيمون .

- إذا كان طهوي خيراً من طهو كليو فلا بد أنك تكاد تتضوّر جوعاً في بيتك .. يا مسكين !

فرد مدافعاً عن حبيبته :

- دع كليو وشأنها . لو سمعتك لقرصت أذنك حتى تحمر .

علق بسرعة :

- أكاد أرى أذنيك محمرتين جداً ، أيها الزعيم ، خاصة بعد أن حلقت لحيتك الفظيعة .

وأضاف يداعب شيحو :

- أما شيحو التعيس فلم يعد ترى له أذنان من شدة الدعك . وتطلبون مني الزواج ؟

سأله شيحو وهو يلوك قطعة لحم في فمه :

- صحيح .. يا كيمون . لِمَ لم تتزوج ، أو على الأقل يتزوج السيد ثيوفرون ؟

ضحك كيمون :

- حاولت يـا عزيزي شيـحو ، أن أقنعـه بالزواج ولكنه يرفض باسـتمـرار . قد تكون التـجربة علمته ألا يعيدها ثانية .

قال ثيوفرون :

- أبعد الراحلة أمك تطيب لي عشرة امرأة أيها الفتى العاق ؟

مضى كيمون متجاهلاً تعليق أبيه حتى لا يذكره بأمه :

- أغريته بأن أخطب له امرأة ليبية من جوار قورينا كما فعل رجال جدنا باتوس .. أتدري ماذا كان جوابه ؟ قال : ولو كانت لاديكي زوجة أحمس الباهرة الجمال .. لن يتزوجها .

قال إينارو :

- ولِمَ لا ؟ يمكن لكما على الأقل أن تأكلا طعاماً أفضل .

رد على تعليقه :

- أبي يرى أن الليبيات أجمل مما يطيق . يخاف أن يغلبه الجمال على أمره وهو في هذه السن . ودعوته إلى المصريات فقال إنهن أغنج مّن أن يحتمل . أما الإغريقيات فلا تحلو في عينيه إغريقية بعد الراحلة أمي . ماذا أفعل ؟ هل ترضيه امرأة فارسية ؟

قال إينارو :

- عليه أن يخطفها في معركة بحرية يهزم فيها أسطول الإغريق أسطول فارس .. حتى ينالها .

كان الشيخ صامتاً يستمع إلى تعليقات ابنه وصديقه . فواصل كيمون :

- لعله يريد أن يكون فيلسوفاً مثل المشرع صولون .

فتساءل شيحو :

- من صولون هذا ؟

- ألا تعرفه ؟

وتذكر أنه يحادث فلاحاً لا يقرأ ولا يكتب ولا يدري عما يتحدث :

- لعل إينارو سمع به . إنه فيلسوف كبير ... أثيني ..عاش هنا في مدينة صا عشر سنوات كاملة ، وتعلم الكثير من كهنة معبدها . كان تاجراً مثل أبي بالضبط . جاء منذ مدة، أيام الفرعون أحمس المغتصب . تذكره يا إينارو .. أليس كذلك ؟

- أذكر الفرعون المغتصب يا كيمون ، ولا أذكر الفيلسوف .

- إنه معروف جداً عند الإغريق ، وفي أثينا بالذات .

***

فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم ، وجلسوا متقابلين في نفس المكان الذي جلس فيه إينارو

بركليس قطعاً ، وربما صرت نائباً في (الإكليزيا) .. أعني في الجمعية الشعبية .. أتدري يا إينارو ؟ لقد صار من الزعماء في الحزب الديمقراطي رجال من مثل كليون دابغ الجلود ، ولسكليز بائع الأغنام ، ويوكراتيس بائع حبال السفن ، وكليوفرون صانع القيثارات ، وهيبروبولس صانع المصابيح . فلِمَ لا يكون شيحو الفلاح كذلك ؟

خشي إينارو أن يكون شيحو تأذى من كلمات كيمون فعلق :

– فكرة جيدة هذه ، أن يحكم الشعب نفسه بنفسه . أليس الصانع والراعي والحبال والفلاح

يستمع إلى عزف كليو منذ بضعة سنوات . تردد صدى أنغام القيثارة في سمعه ، ورآها أمامه وهي منحنية على قيثارتها وشعرها الأسود الفاحم ينسدل فوق كتفيها وينحدر إلى حجرها . وتساءل بينه وبين نفسه : هل ستحبه كما يحبها في شكله الجديد ؟ لقد حلق سالفيه ولحيته وبدل من ثيابه فجر اليوم في بيت شيحو ولم تره بعد . ماذا سيكون موقفها منه ؟ وأقنع نفسه: إنها تحبني لذاتي لا لصفاتي . ولكن الصفات لم تتغير .ما تغير ظاهره فقط ، اجتذبه صوت ثيوفرون :

– معذرة يا أينارو . العادة تحكم . سأمضي لنومة القيلولة ... فاعذرني .

قال كيمون وكأنه يستعجله الذهاب :

– نوماً هانئاً يا أبي .. بعد هذه الوجبة الشهية . سلمت يدي !

مازحه أبوه :

– أشكرك أيها الطاهي السيء .. عفواً أعني الطاهي الماهر .

فسمح لي بالذهاب ، بل شجعني . اسمع ..

وانطلق كيمون يفصل كل ما رأى وسمع عن أحوال بلاد الإغريق وأثينا بالذات . تحدث عن هدوء الصراع القديم ما بين اسبرطة وأثينا بعد عقد ما عرف باسم (حلف ديلوس) لمواجهة الخطر الفارسي ، وعن انتصارات الأسطول الإغريقي المتوالية واسترجاع بعض المدن والمواقع التي احتلتها فارس . ذكر ما تموج به أثينا يومها من مظاهر الحضارة في مختلف فنون الأدب والشعر والمسرح والنحت ، والمذاهب الفلسفية ، والصناعات المتنوعة وازدهارها الاقتصادي بفضل ما يجلب إلى خزانة الأكروبول من أموال الضرائب والجبايات . تكلم أيضاً عن الصراع السياسي في المدينة المسيطرة على جزر الأرخبيل وحتى تساليا ومقدونيا في الشمال ، وما يمثله هذا الصراع من فروق

اجتماعيـة وفـكريـة، وشـرح مسهباً موقـف طـبقة الأشـراف فـي ما يسمى (حـزب الخاصـة) وتكتلهـا ضـد دعـاة الديمقراطيـة في (حـزب الشعب) وعن نظام الانتـخاب في (الإكليـزيا) أو (الجمعية) الشعبية وفي (البول) أو (مجلس الشيوخ) والصراع بين الاثنين. أوضح كذلك ما سمعه عن مؤامرات قـادة الحزبين الكبيرين بعضـهم ضد بعض ونشر كل منهم فضائح الآخـر الخلقية .. نسـاء ، واختـلاس أمـوال ، واتصـالات سرية بـ«الـعدو المشـترك» - حتى وصـل الأمر إلى حـد الاغتيال. قال :

- خـذ مثـلاً رجـلاً يـدعى ثيمو ستكلـيس . قصته عجيبة ، فقد كان رجـلاً شجاعاً قوياً أبلى فـي الحـرب ضـد فـارس بلاءً حسنـاً، فصـار حاكم أثينا منذ سـنوات لكنه كان يؤمن بأن البـر لا البحر والتـجارة لا الحرب هي سبـيل السيطرة والسيادة. وهو الذي بـنى سور المدينة العظيم. لكنه فاسد الخـلق.. للأسـف، مرتـش مختلـس للأمـوال، فحاكمـه الأثينيون ونفوه خارج البلاد لأنهم - تصورا ! - كانوا يخـشون مقدرته وفسـاد ضميره معـاً .. وهو لجـأ ، بعد سلسلة مطاردات ، إلى من ؟ إلى فارس .. عدوة الأمس .. ويقال إنه الآن في جملة حشم الملك أرتحششتا .

كان إينارو ينصت باهتمام بالغ ، فعلق :

- ياه ! هذا مثير فعلاً .

- السيـاسة ، يا صاحبي . السـياسة وشهـوة الحكم والرغبة في المال تغيِّر الرجـال وتقلب القيم وتبدل الموازين .

- ومن يقود أثينا الآن ؟

- يقال إن (الجمعية) هي التي تقودها . لكن الواقع أن ثلاثة رجال يتنافسون في قيادة الأحزاب ليقودوا من خلالها أثينا وما يتبعها في (حلف ديلوس) . هناك من الأشراف المحافظين زعيم يدعى سيمون بن ملتياس ، وهو حاكمهـا الآن . قائد بحري صلب . ينافسه في الزعامة ثلاثة من (حزب الشـعب) يدعى أولهم أرستيـدس ، والثاني أفـيلتـيس ، أما الثـالث فـاسمـه بركليس .. والناس يتحدثون عن بركليس هذا بإعجاب .. يقولون إنه أشد دعاة الديمقـراطية حماسة وأكثرهم إقناعاً ، رغم أصله الارستقراطي .

ونظر إلى شيحو الذي تطاول برأسه يحاول أن يفهم مـا يقوله كيمون ويتابع ما يردده من ألفاظ بدت بعيدة عن ذهنه ، وقال له :

- إنك من(الديموس) يا شـيـحو .. أعني من الشـعب . فلو كنت في أثيـنا لصرت من أنصـار

بركليس قطعاً ، وربما صرت نائباً في (الإكليزيا) .. أعني في الجمعية الشعبية .. أتدري يا إينارو ؟ لقد صار من الزعماء في الحزب الديمقراطي رجال من مثل كليون دابغ الجلود ، ولسكليز بائع الأغنام ، وبوكراتيس بائع حبال السفن ، وكليوفرون صانع القيثارات ، وهيبروبولس صانع المصابيح . فلِمَ لا يكون شيحو الفلاح كذلك ؟

خشي إينارو أن يكون شيحو تأذى من كلمات كيمون فعلق :

– فكرة جيدة هذه ، أن يحكم الشعب نفسه بنفسه . أليس الصانع والراعي والحبال والفلاح هم الشعب .. الديموس .. كما يدعون في أثينا ؟ أليسو هم المحاربين المدافعين عن الأرض والمنتجين الفعليين ؟ لو تحقق حكم الناس لأنفسهم لانتهت مآس كثيرة في هذا العالم .

دهش كيمون من حماسةصديقه المفاجئة ، وأراد أن يداعبه . قال :

– جميل جداً أن أسمع هذا الكلام من .. فرعون المستقبل . أن يكون لنا «فرعون ديمقراطي» شيء لم يسبق في التاريخ . أنا شخصياً ساكون سعيداً جداً لو تحقق هذا الحلم . قال إينارو جاداً :

– أي فرعون تتحدث عنه ؟ دعنا في البداية نحرر أرضنا ثم نرى ما يكون . أحب أن أستزيد معرفة ببركليس الذي ذكرته . هل رأيته شخصياً ؟

– بالطبع .. في أثينا يمكنك أن ترى الحاكم نفسه في ساحة السوق التي يسمونها (الفوروم) . إنها ليست مزدحمة بالسكان كما هو الحال هنا في مدن مصر ، والناس يعرف بعضهم بعضاً . رأيت بركليس يتحدث إلى أناس عاديين في السوق ، وتحققت مما يصفه الأثينيون به .

بماذا يصفونه ؟

– بطول جمجمته اللافت للنظر ، طولاً لا يتناسب مع جسمه ، ويلقبونه «طويل الرأس» .

– عجيب !

قال وهو يقيس طول رأسه هو بين يديه :

– لعل رأسه طالت أكثر من اللازم لما ازدحم فيها من أفكار . أو .. دعني أفكر . لعلها طالت لتنافس يد ملك فارس ، أرتحششتا ، الذي سمعت أهل أثينا يلقبونه في لغتنا الإغريقية «ماكروكير» أي (طويل اليد) . أتدري لماذا ؟

– لماذا ؟

– قيل لأن ذراعه اليمنى أطول من يسراه بشكل ملحوظ .

قال شَبحو الذي وجد فرصة للمشاركة في الحديث :

- أو لأن ذراعه ، ممثلة في جباة الضرائب ، طويلة جـداً فتصل إلى أقصى مكان وتجمع يده كل ما تقع عليه .

التفت إليه كيمون وخبطه على كتفه :

- هذه ملاحظة ذكية يا شيحو . صدقت . قد يكون هذا هو السبب .

أعاده إينارو إلى متابعة ما كان يرويه :

- واضح أنك اطلعت على الكثير يا كيمون .

- ألست مبعوثك ؟ يجب أن تكون لي أذن صاغية وعين راعية وذاكرة واعية .. وإلا فلن أكون كيمون .

- وماذا عن السلاح ؟

- وصل منذ مدة .

- أعرف أنه وصل . كيف حصلت عليه ؟

- بالمال الذي أعطيتنيه طبعاً . المال يحل جميع المشكلات ، والوسطاء مستعدون دائماً للعمل إذا توفر المال وبرق في الأكياس الذهب - خاصة الوسطاء من بني العم الإغريق .. الحق أن أثينا مستعدة لتزويدكم بالسلاح مجاناً دون مقابل .. إذا شهرتموه في وجه فارس .

زم إينارو شفتيه وهمهم :

- هذا مقابل باهظ . من مصلحة أثينا ضرب فارس في مصر .

قال كيمون متحمساً :

- طبعاً . ومن مصلحتنا أن تكون أثينا إلى جانبنا .

سأله :

- وماذا عن موقف إغريق راقودة ونكراتيس ؟

- تعرف أنهم تجار في جملتهم ، لا شأن لهم بالحرب والقتال ... لكنهم متعاطفون بالطبع، ومستعدون للعون بالمال والمؤونة . هذا ما علمته من الأحاديث التي تدور هذه الأيام إنهم يتوقعون حركة ما ويودون الإسهام .

في هذه اللحظة سمعت خطوات ثيوفرون قادماً . قال كيمون :

- هذا أبي صحا من غفوته . صار نومه خفيفاً ولم يعد يطيل الرقاد . مرحباً يا أبتاه !

جلس معهم وهو لا يزال يتثاءب فبادره إينارو :

- لِمَ لا تزورنا يا عمي ؟ إن كليو مشتاقة إليك .. وإثن رِع كذلك .

قال الشيخ :

- كليو وإثن رع مشتاقان إليك أنت أيضاً. كانت غيبتك مديدة كما علمت في زيارتي الأخيرة.

- واجبات الحياة يا عمي .

قال كيمون :

- وواجبات الزعامة .

فحدق ثيوفرون قليلاً في وجه إينارو :

- لم أحبب أن أكون فضولياً أيها العزيز . لم تخبرني لِمَ بدلت من هيئتك ومظهرك الليبيين؟

كان من الواضح أنه يحس بشيء ما يدور وأن ابنه مشارك بطريقة أو بأخرى فيه ، وأن تنكر صهره بهذه الصورة ذو دلالة لا تخفى . وقد توجس من رحلة ابنه إلى أثينا بعد أن شجعها ، ورحلات صهره الكثيرة التي تحدثه عنها ابنته . ولكنه كان غارقاً في تجارته منشغلاً بحانوته فلم يلق بالاً للشائعات التي تنطلق عن قرب انفجار عظيم يحدث في وادي النيل . سارع كيمون لإنقاذ إينارو من الحرج الذي يعانيه :

- ليبي أو مصري أو حتى إغريقي ... لا فرق . هل نسيت يا أبي أنك أنت ذاتك اشتريت له ثياباً إغريقية منذ مدة ؟

- هذا صحيح . لكن تلك المرة كانت لها ظروفها التي تعرفها . ما هي الظروف هذه المرة ؟

قال كيمون :

- لا تنس أيها الأب الحكيم أن جد إينارو كان يرتدي ثياباً مصرية . ألم يكن فرعون صا ؟

حك ثيوفرون فروة رأسه التي قل شعرها حتى كاد يصبح أصلع تماماً . أمعن النظر في الثلاثة وتهيأ للنهوض :

- أنتم الشباب تحيرونني . أرجو ألا أرى العزيز إينارو في ثياب فارسية المرة القادمة . قال إينارو سعيداً بانتهاء الاستجواب :

- هذا هو المستحيل يا عمي .

قال الشيخ :

- ليس ثمة في الحياة مستحيل يا بني . ستعرف هذه الحقيقة عندما تتقدم سنك مثلي .

والتفت نحو الباب يقصده :

- أنصح بعدم سفرك ليلاً . يبدو أن حامية (القلعة البيضاء) خرجت بكاملها تجوس خلال قرى الدلتا كلها .

قال كيمون :

- إذا كان النهار ذاته مخيفاً ، فما بالك بالليل ؟ سيبيتان عندنا الليلة . لعل إينارو يستعيد بعض ذكرياته .

أقفل ثيفرون الباب بعد أن خرج .. واستمر الحديث بين الثلاثة في مختلف الشؤون .

10

كان المنظر رهيباً مذهلاً. تنور عظيم نصب على قاعدة عريضة من المرمر الأفغاني المجزع يهبط منها درج رخامي صقيل ، مُد أمامه بساط طويل يصل إلي مدخل سرادق ضخم مسدود المدخل على من فيه ، ومن جانبي السرادق تراصت حشود من البشر ، مكونة دائرة لا يكاد يحدها البصر حول التنور الذي ارتفعت منه ألسنة اللهب تطاول السماء ، فترسل ضياءً ينير المكان كله ، حتى بدا كل شيء واضحاً للعيان كأنه في رائعة النهار . كانت الجموع متباينة الهيئة والثياب ، جيء بها من أقاليم المملكة الفسيحة للاحتفال بالمناسبة العظيمة ، طوائف من العشرين أمة التي سادتها فارس .. كان هناك صفوف من البابليين والأشوريين وعرب شمال الجزيرة والبلخيين ، ومن إقليم سمرقند في الشمال والبنجاب في القارة الهندية ، إلى جانب ممثلين عن مصر وأيونيا وسارديس وليديا في أرض الإغريق المحتلة ، وفرق من الأرمينيين والكبادوشيين وأهل هرو والعلميين والميديين ، ومن كل بقعة انبسطت فوقها يد الفرس . ومن جملة الحشد الكبير وقف بضع مئات من اليهود يتقدمهم عزرا بن سرايا يحيط به بقية الأحبار. وحول الدائرة المتسعة من آلاف الحاضرين كانت آلاف أخرى من جنود الفرس يطوقونها، ممتطين صهوات جيادهم مشرعين رماحهم وسيوفهم التي تلمع على وهج نار التنور.

كانت المناسبة الاحتفال بانتصار ميكابوز على هستاسب المتمرد ، أخي الملك أرتحششتا الذي أغلق عليه سرادقه حتى لا يراه أحد ، كما هو التقليد المتبع .. وأمام السرادق وقف ميكابوز وأرتاباز ، قائد الأسطول ، على يمين مدخله ، بينما وقف كاهن المجوس الأعظم وكبير الحجاب أردشير على يساره ومن بعدهما توالى النبلاء والأعيان ورجال الحاشية . وكان المكان سهلاً منبسطاً خارج مدينة سوسة ، عاصمة المملكة الإدارية ، التي انتقل إليها الملك من بابل ليقضي فيها فصل الشتاء .

خرقت همهمات الجموع أصوات الأبواق العالية ، وتبعتها دقات طبول مرتفعة ، ثم امتزجت أصوات الأبواق والطبول في لحن صاخب غطى على كل صوت سواه . وفي خطوات متمهلة تقدم الكاهن الأعظم نحو التنور يمشي فوق البساط الممدود حتى بلغ أول الدرج وفتح ذراعيه فسكنت الموسيقى وهتف :

- أهورا مزدا !!

رددت الجموع فاتحة أذرعها صيحته في صوت مجلجل :

- أهورا مزدا !!

وسجد الكاهن ، فسجد الجميع ، عدا فريق صغير منهم ظل واقفاً . ثم نهض وارتقى الدرج حتى وصل قاعدة التنور الملتهب ، والتفت إلى الجمهور المتوثب ، وصاح مرة أخرى :

- أهورا مزدا :

فنهض الساجدون ورددوا صيحته ثانية ، وظلت أعينهم متعلقة بالكاهن الذي امتد ظله طويلاً كالعملاق ، تعكسه ألسنة اللهب في التنور. رفع يديه إلى أعلى مفتوح الكفين وشرع يترنم بتراتيل مجوسية ، والجموع تردد بعد كل وقفة في صلواته بصوت يرتج له السهل كله : أهورا مزدا !

«يارب النور الساطع

يارب النار القدسية

يا خالق السماء والأرض

والنبات والخيول والأبقار

يا أهورا مزدا !

***

يا ابن الزمان الأزلي

يا ابن الزمان الأبدي

يا ابن زرفان

يا أهورا مزدا !

***

أدعوك باسم ربة الشمس .. مترا

أدعوك باسم ربة الخصب ... أنا هيتا

يا أهورا مزدا !

***

أدعوك يا قاهر الشر والظلام

يا غالب أهريمان

وأعوانه الديفا الأشرار

يا أهورا مزدا !

***

أدعوك يا ذا اللهب السرمدي

يا ذا اللهب الطاهر

يا أهورا مزدا !

***

أدعوك باسم نبيك النوراني

باسم الجليل زرادشت

أن ترعى عرش الطاووس

أن تحفظ ملك الملوك

يا أهورا مزدا !»

في أثناء ترديد كـاهن المجوس الأعظم صلواته ودعـواته ، كان عـزرا بن سرايا يهـمس في أذن

أقرب الأحبار إليه :

- ألم أقلها ؟ صدقت نبوءتي ! لقد صار من جملة حاشية الملك المقربين . ها هو ذا هناك يقف أمام مدخل السرادق . انظر إليه !

فوضع الحبر يده على حاجبيه يمنع بها ضياء النار وأحدّ النظر وقال دهشاً :

- أي نعم .. وحق يهوه ! إنه هو بعينه .. نحميا . هو بذاته . لقد وصل .

لكزه عزرا بمرفقه :

- اخفض صوتك . كنت أعرف أنه سيصل حتماً . لم تكن غيبته الطويلة عنا في سوسة عبثاً . صار من الحاشية .

- إنه يلبس ثوب ساقي الملك . ما أبرعه !

- لقد منحه العلي وجهاً جميلاً جديراً بأن يحمله ساقي الملك .

- وجعل في القصر ملكة كهلة .

قال عزرا منهياً الحديث خشية أن يسمعه أحد :

- الأفضل أن نصمت .. أعتقد الآن أننا في سبيلنا لتحقيق كل الأحلام .

غطى على كلام الحبرين هزيم الدعوات التي ما لبثت أن خفتت لتفسح المجال لضجيج الأبواق والطبول . خرج من جانب السرادق الأيسر أربعة من الكهنة يقودون كبشاً ضخماً كث الصوف أبيضه ذا قرنين عظيمين التويا على جانبي رأسه، تقدموا به على البساط وصعدوا الدرج إلى أن بلغوا قدمي الكاهن الأعظم على قاعدة التنور، فألقوا الكبش على جنبه وأبرز أحدهم من حزامه سكيناً طويلة لامعة النصل أعطاها الكاهن الذي انحنى على عنق الكبش وجرّ السكين . تفجر الدم الغزير يشخب ويتناثر رذاذه على القاعدة ويسيل على الدرج حتى البساط الممدود.. ارتفعت الهتافات .. كان الكبش يصك بقوائمه ويخبط الرخام بقرنيه والدم يسيل من عنقه المحزوزة ثم سكن .. وكان لهب التنور يتصاعد في الجو فكاد يبلغ عنان السماء .



النار والدم في سوسة . والنار والدم في قرية صغيرة على حافة بحيرة مريوط .

بدأت الحادثة بتقرير موجز إلى المرزبان أخمين في منف من جواسيسه ، ينبئه بأن مثير الشغب

المدعو إينارو عاد من رحلة طويلة في واحات الصحراء الغربية إلى مقره على بحيرة مريوط ، فقرر المبادرة إلى القبض عليه لكيلا يسمح بنمو الحركة وليدفن الشغب في مهده .. ارتأى أن تأديب إينارو هذا ، وربما القضاء عليه إن لزم الأمر ، سيقضي على أية محاولة من الأهالي للتمرد بالالتفاف حول زعيم قد يقوده طموحه إلى ما لا تحمد عاقبته على فارس ووجودها في وادي النيل كله . لذا كانت أوامره حاسمة لقائد فرقة من الفرسان بأن يذهب إلى قريته ويبحث عنه ويأتي به أسيراً، وأن يضرب بشدة أية مقاومة تقابله . وفي نفس اليوم الذي خرجت فيه العربة الزوجية المقعد في طريقها من القرية إلى راقودة برزت من (القلعة البيضاء) في منف فرقة خيالة تضم بضع مئات من الفرسان في هيئة القتال متجهة إلى الشمال الشرقي من الدلتا.. إلى بحيرة مريوط .

***

قال إينارو وهو يودع كيمون :

– إمنروت يوجد في قرية صغيرة تدعى (نبو) غير بعيد من منف . سأذهب وشيحو الذي يعرفها ، ثم أزور مرسن في الفيوم .

قال كيمون محذراً :

– أتذهب إلى الأسد في عرينه ؟ إن رجال أخمين منتشرون في كل مكان ، فكيف إذا اقتربت منه ؟

– هذه هي الفكرة . لن يظن أخمين أنني قريب منه كل هذا القرب . لكنني أوافقك في الحذر . لذا فإننا سنمضي أولاً إلى مصب النيل الغربي عند كانوب – وهو غير بعيد من راقودة – ثم نستقل مركباً إلى منف ، وبذا نتفادى اللقاء بالعسس ليلاً على الأقل . تدري أن المسافة من هنا إلى منف ليست قصيرة لنقطعها في يوم واحد كما فعلنا بالأمس .

آه .. ذكرتني . خذ أنت يا كيمون العربة وعد بها إلى أبيس .. قريتنا .

فسأله متغابياً :

– العربة .. بحصانها ؟

رد عليه وهو يمسك كتفه بيده :

– يمكنك أن تترك الحصان هنا .. إذا كنت ستجرها أنت !

بادل كيمون صاحبيه العناق ، فانطلقا في سبيلهما مسرعين .

ولمدة ثلاثة أيام بلياليها كان الرجلان قابعين في المركب النيلي المتجه نحو منف محملاً بأنواع مختلفة من البضائع وجملة ركاب آخرين. ولم يلفتا انتباه أحد، فقد بَدَوَا مجرد ثري مصري وتابعه مسافرين.. وقد حرصا على عدم تبادل الحديث المفصل مع أحد من الركاب أو حتى الملاحين. كانت المجاديف تضرب سطح النهر المتدفق عكس اتجاههم، يساعدها شراع تملأه الريح الهابة رخاء من جهة الشمال، فسهلت الرحلة كثيراً. وكان إينارو ينظر إلى ضفتي النهر فتظهر له مجموعات من البيوت الطينية والأكواخ، ويرى فِرَقاً من الفلاحين منحنين انحناءة أبدية على الأرض السمراء، في أيديهم المعاول والمجارف، أو الفؤوس والمناجل، ويرى آخرين يتبعون أبقاراً تجر محاريث تنغرز في التربة فتقلبها، يتبعهم غيرهم قد وضعوا في حجورهم بذوراً ينثرونها أمام المحاريث. رأى أطفالاً على ضفة النهر يقفزون في الماء ويسبحون نحو المركب ثم يعودون وهم يصيحون ويضجون، ونساءً يحملن على رؤوسهن جراراً كبيرة مدورة يملأنها ماء ثم يتهادين زرافات مبتعدات عن النهر. وفكر: إنه (حابي).. هذا النهر العظيم الذي تحول إلى معبود تتلى له الصلوات لكي يأتي فيضاناً كل عام فيغمر الأرض خير الطمي ويروي الحقول العطشى . إنه (حفي) حقاً .. فلا عجب أن يعبد .. لولاه لما كانت مصر .. لكن .. لمن يكد جميع هؤلاء الفلاحين وماذا ينالون من جهدهم الجهيد؟ كل ما ينتجون يأخذه المحتل ولا يبقى لهم إلا ما يضمن به استمرارهم في الكدح والعمل. فارس تغرف من أرض مصر خيراتها وتستعبد أهلها وتسلط عليهم سيف القهر والطغيان . آه .. لو تحركت هذه الجموع لتتخلص من نير العبودية . ماذا نقل كيمون عن صاحبه بركليس؟ الحياة بدون حرية خير منها الموت، والحياة هي الناس الشعب، الديموس، إذن الحرية هي الشعب. والشعب المستعبد ليس حراً فهو ليس حياً إذن. والتفت نحو شيحو :

- قل لي يا شيحو .

- نعم ؟

- ألا تلاحظ أنك تخليت عن العمل في الأرض ، ولم تعد تشتغل بالزراعة ؟

- إنها ليست أرضي .

- ولكنك كنت تحرث وتحصد فيها .

- لغيري .

- وتعيش منها .

- أي عيش؟ الفتات؟ لقد بعت بقرتي الوحيدة يوماً لأطعم أولادي.. هل نسيت؟ ولولا معونتك ومساعدة أبيك لماتوا جوعاً. أحرث وأزرع وأروي وأحصد، ثم يأتون ليأخذوا ما أنتجت.

- كانت بقرة مباركة .

- مباركة أو ملعونة . لست أدري .. يوم أملك أرضي سأعمل فيها وأكدح . ولهذا تجدني معك . ألست تعمل لكي تحرر لنا الأرض فنملكها ؟

شعر إينارو بثقل المسؤولية . أحس بأنه يمثل أمل شيحو وجموع الفلاحين في الخلاص ، والرمز الذي يلتفون حوله لتحقيق أحلامهم في الحرية والانعتاق والحياة الكريمة . لم يعد ثمة متسع من الوقت . الأعوام تكرُّ عاجلة وعناء المعذبين يزداد ، ولا بد من العمل السريع .

وخيّم على روحه همّ لا يحس بثقله إلا من نذر نفسه لإنجاز المهمات الجليلة .

ألقى المركب أخيراً مرساته في مرفأ منف ، وهبط الرجلان على عجل ميممين وجهيهما شطر قرية نبو يخترقان إليها الحقول .

***

دخلت كوكبة الفرسان المدججين بالسلاح سوق قرية أبيس الصغيرة فملأتها . كانت الخيول تصهل وهي تشب في ساحة السوق الضيقة وتدق الأرض بسنابكها فتحدث جلبة جعلت من في الساحة يبتعد عن طريقها ويلجأ إلى جدران الحوانيت ملتصقاً بها ، أو يفر إلى بعيد . لمح قائد الفرقة ثلاثة شيوخ عرف أنهم رؤساء ليبيون حين رأى هيئتهم والريشة منتصبة على رأس كل منهم، فاقترب منهم وزعق :

- هيه . أنتم !

وقفوا ثابتين ، ولم يجبه أحد .

فدار بجواده أمامهم مستعرضاً قوته ، وشد لجامه فشب الجواد في وجوههم حتى أوشك أن يضربهم بمقدّمتيه . وقفوا دون حراك ، فصاح :

- أنا أكلمكم ... هل أنتم صم ؟

فالتفت إليه أحد الشيوخ وسأله متحدياً :

- ماذا تريد ؟

- آها ! .. تستطيعون الكلام إذن . أين المدعو إينارو ؟

- لا نعرف .

وانصرف إلى زميليه دون اهتمام .. كان المتكلم هو تكلت ذاته ، والد إينارو . فاشتعل قائد الفرقة غضباً وأحس أنه أهين . خشي أن يفقد هيبته في عيون جنوده وأمام هذه الحفنة من الشيوخ، فأشار بسيفه متوعداً :

- اسمع أيها العجوز ! عندما أحدثك يجب أن تنتبه إلي وتجيبني عما أريد .

- سألت فأجبتك ..

- لم تجبني .. أخبرني أين إينارو هذا ؟

- قلت لك لا نعرف .

همس ثمر ، الذي كان أحد الثلاثة ، في أذن تكلت :

- قل له إنه في الصحراء أو أي مكان آخر . دعه ينصرف .

فأدرك قائد الفرقة أن الشيخ هو كبير الثلاثة ، قال محتداً :

- أنتم الرؤساء الليبيون يعرف بعضكم بعضاً . أين إينارو ؟

تجمع الحقد كله في روح تكلت وامتلأت نفسه بالغضب .. كان يغلي في داخله ، وتداعت في خاطره ذكريات السنوات المريرة . كانت فارس بأجمعها ممثلة في هذا الفارس يعتلي صهوة جواده شاهراً سيفه .. فارس بجبروتها وطغيانها ، وعساكرها يدوسون الأرض والرقاب ، وضرائبها الباهظة وعنف رجالها وغطرسة جنودها وموظفيها . فارس التي أفقدت مصر استقلالها وسلبتها حريتها وحشرتها في جملة الرقيق ضمن عشرين أمة أخرى . ها هي تتابعه وابنه هنا في هذه البقعة النائية عن صا موطن الأجداد ومقر السلطان الغارب . قرر التحدي ، فلم يجب. كان ثمر يتوجس شراً فرام تهدئة الموقف :

- اسمع أيها الفارس ! إنك تبحث عن إينارو هنا وهو في الصحراء .

زأر هذا بشراسة :

- اصمت أنت ! إنني أسأل هذا الكلب الهرم . نعرف أن إينارو رجع من رحلته الصحراوية البائسة .

كان نكن ، ثالث الثلاثة ، قد تملكه الغضب للوصف الذي أطلقه الفارس على تكلت . وبدون تفكير رفع يده في وجهه ، وصاح :

- اعرف من تخاطب . إنك تكلم الزعيم والد الزعيم .

انفلتت العبارة من فيه ولم يعد من الممكن استرجاعها ، هكذا يحدث أحياناً ، أن ينطق المرء بقول لم يفكر فيه ولم يحسب عواقبه ، ولا يفيد بعدها الندم .

تنهد قائد الفرقة بارتياح وأشار إلى جملة فرسان اقتربوا منه وأحاطوا به وبالشيوخ الثلاثة وتركزت أنظار من بقي في ساحة السوق عليهم .

أشار إليه بإصبعه :

- إذن أنت والد ذلك الكلب الأجرب جوّاب الصحراء والقرى ؟

رد تكلت وقد أهاجه الكره والحقد والغضب وهو يتقدم نحوه :

- عليك اللعنة أيها الخنزير القذر ، وعلى من أرسلك . امض من هنا ودعنا وشأننا .

- لكن ابنك لا يدعنا وشأننا. سنرى من هو الكلب ومن هو الخنزير أيتها الدودة الحقيرة ..

تقدم تكلت خطوة أخرى وهو يرتعد هياجاً ، وحاول ثمر ونكن التشبث به وإرجاعه ، لكن زمام نفسه كان قد انطلق وتجمع اللعاب في فمه فقذفه دفعة واحدة في وجه قائد الفرقة . ضاعت حكمة الشيخ وفقد عقله تماماً .. نسي أنه غير قادر على المجابهة إذ فوجئ في ساحة السوق بهذا العدد الكبير من الفرسان . لكنه كان يدافع عن كرامته ويحس أنه بموقفه هذا يستنهض الهمم ويستثير الأرواح . إن وقفة عز واحدة من رجل واحد قد تلهب نار الثورة وسعير التحرير .

وماذا سيقول عنه ابنه إن هو استكان وخنع ؟ ماذا سيقول الرؤساء والفلاحون والرعاة ؟ أني له أن يرفع هامته معتزاً إن تقبل الإهانة دون رد عليها وهو الذي يخطط للثورة ويهيء ولده لإعلانها؟ كيف ينظر في وجه من قال لهم يوماً : «إن الموت أفضل من حياة الذل . فليزدد الفرس عنتاً حتى يزداد الحق عمقاً ، لعل هذا يحرك الساكنين» ؟

كان تكلت واقفاً علي الرأس ، منتصباً كأنما هو شاب في العشرين يحدق في خصمه بعينين تقدحان شرراً ، وقد أحاط به الفرسان ينتظرون ما سيفعله قائدهم ، وعيون الملتصقين بالجدران ترقب من بعيد . فجأة سحب قائد الفرقة من حزامه حربة لمع نصلها في يمينه ، وهزها في يده ثم أرسلها إلى صدر الشيخ . ارتفعت صرختان خافتتان من رفيقيه ، بينما ظل تكلت واقفاً والحربة تخترق صدره .. برهة ثم مال إلى جنبه والدم القاني ينبجس من حول الحربة فيغمر رداءه النجيع . أسرع ثمر ونكن إليه يحاولان إسناده ذاهلين ، فنظر إليهما بعينين غاربتين وهمس في صوت متحشرج متقطع :

- قولا .. لإينارو .. الوقت .. المناسب .. حان ..

وأغمض جفنيه وسقطت رأسه على ذراع ثمر .

لم يكف قائد الفرقـة ما فعله ، فصاح برجـاله صيحة مدوية وهو يكز على أسنانه حنقـاً ويشير إلى مجموعة الحوانيت الصغيرة المحيطة بالساحة :

- أحرقوها !

بعد لحظات كانت النيـران تلتهم الحـوانيت وأعمـدة الدخان تتـصاعد مـشكلة سَحـابة داكنة السواد. انسحبت فرقة الفرسان متجهة تعدو بها الخيول نحو الجنوب الشرقي، ولم يكن وراءها في ساحة السوق أحد سوى شيخ طريح مضرج بدمائه، مغمض الجفنين، مسند الرأس إلى ذراع رفيق عمره، وآخر واقف ينظر بحسرة إلى ألسنة النيران، تسح دموعه على خديه في صمت .

12

- متى ؟ كيف ؟

وجه إينارو سـؤاله إلى إمنروت من خلال عبـراته وهو يجهش بالبكاء . فأمـسك إمنروت بيده يواسيه في مصابه :

- منذ خمسة أيام . علمت بخبر الفاجـعة قبل وصولك بقليل . مصاب جلل يا أخي ، لكن دم تكلت لن يضيع هدراً .

زفر إينارو وهو ينوح :

- آه يا أبتاه .. ما أمرّ فقدك . ما أمرّ فراقك .

وكان يهز رأسه المطأطأة ويخبط جبهته بكفه وعيناه تذرفان الدمع . وكان شيحو يبكي هو أيضاً ويحاول أن ينهنه من شجن صديقه . قال إمنروت :

- هوّن عليك يا إينارو . كل حي مصيره إلى الموت .

- من لي بمثله يا إمنروت .. من لي ؟

- العويل لن يرجعه حياً .

- أعرف . لكن الأسى يغلبني .

لم يدر إمنروت ما يفعل ، فتركه ينوح ليخفف من وقع الصدمة ويفرغ حزنه المريع . فلما تمالك إينارو نفسه وهدأ قليلاً مد ذراعه فوضعها على كتف شيحو يربت عليه حتى يكف عن النحيب ، ورجا إمنروت :

- اروِ لي ما حدث .

فلما قص عليه ما سمع في عبارات موجزة حتى لا يثير جراح شجنه ، سأله :

- من أخبرك ؟

- باسخم .

فكر إينارو لحظات وتذكر ما حدَّثه به والده عن باسخم ، كما تذكر أنه لم يره منذ لقائه به في القارب ليلة فراره من راقودة :

- وكيف علم باسخم بالأمر ؟

- علمه في منف كما قال لي .

- وماذا يفعل في منف ؟

- إنه يزورها بين الحين والآخر . الواقع أنه أكثر من زياراته لها في الفترة الأخيرة .. يتنسم لنا أخبار الفرس هناك .

- أنت على مرمى حجر منها يا إمنروت . ألا تخشى على نفسك ؟

- قربي منها هو الذي يحميني . الفرس لا يشكون في شيء هنا .

- وباسخم ؟

- ما له ؟

- ما موقعه بالضبط ؟

- قلت لك إنه قريبي من بعيد ..

وتردد قليلاً في إكمال عبارته :

- هو من نسل الفرعون أحمس .

وقعت الجملة في أذن إينارو كالجمرة ، فأحمس هو الذي أطاح جده الأعلى خفرع بعد أن كان قائد جيشه ، وهو الذي خانه وكان سبب قتله ، وهو الذي كان سبب مجيء الفرس بقيادة قمبيز يوم بعث له بابنة خفرع الأميرة نتت باعتبارها ابنته هو حين طلب قمبيز مصاهرته وكشفت له

الأميرة الحقيقة .. إلى آخر ما حدث . ولم يعلق بشيء ، بل غيّر موضوع الحديث :

- يحسن أن أسرع بالعودة.

فاعترضه إمنروت :

- إلى أين ؟

- إلى أهلي .

- هذا جنون . لا يمكن .. ما دام الفرس يطلبونك فالأفضل ألا تظهر للعيان . ثم إن لدينا أعمالاً نناقشها معاً . اسمع يا إينارو .. لقد كانت جذوة الثأر في صدري أنا سنوات طويلة وها أنت ذا تذوق نفس الحرقة التي ذقتها قبلك . إن لدينا ثأراً نحن الاثنين ، فلنضع يداً في يد ولنفكر معاً ، ولنعمل معاً .

- إنما جئتك من أجل هذا الذي تقول . أين باسخم ؟

أدرك إمنروت أن في نفسه شيئاً ولكنه لم يسبر كنهه ولم يعرف سر قلقه ، فأجابه :

- عاد إلى منف .

- متى يعود ؟

- ليس قبل يومين كما ذكر .

لم يكن إينارو مطمئناً كل الاطمئنان ، بيد أنه غالب مخاوفه وحاول إبعاد الشكوك التي تراوده . كيف له أن يتحقق من ظنونه ؟ لعل ما يساوره مجرد ظن إثم لا دليل له عليه ، أو هو متأثر بتلميحات والده عن الرجل . ها هو إمنروت يستأمنه ولا يرتاب في شيء منه ، فلو كان باسخم ما يظن لكان الأولى به الوشاية بإمنروت ذاته وهو رفيقه القريب منذ زمن . فوافق على البقاء تلك الليلة على أن يرحل في الغد إلى الفيوم .

***

قضى الرجلان مساءهما يناقشان الوضع في جملته ، ويستعرضان تفاصيل استعدادهما ، ويرسمان الخطط للانتفاضة التي يزمعان القيام بها . كان طلب الثأر لأبويهما يتأجج في صدريهما تحركه ثارات قديمة .. اختلفت ولكنها اتفقت في النهاية ضد العدو المشترك . ظلا يتناقشان إلى ساعة متأخرة من الليل ، حتى هدهما التعب والإعياء . فأوى كل منهما إلى فراشه . ولم يغمض لإينارو جفن ، وهو يتقلب على جنبيه ينحدر دمعه على الوسادة كلما لاحت له صورة أبيه . كان

يحس بجبهته تشتعل ويسيح من جسده العرق ، ثم يشعر بقشعريرة البرد تسري في عظامه ، فتتصلب أطرافه، ويرى أمه تنتحب بمزقها الحزن على رفيق العمر وشريك الحياة، وكليو تنوح وهي تناديه أن يثأر للشيخ المغدور .. كان تكلت يظهر له وإثن رع يكركر على ظهره المنحني لافاً ذراعيه الصغيرتين على عنق جده المستسلم لمرحه الطفولي ، وتغطي صورته أعمدة الدخان تتعالى من سوق القرية وأهلها يفرون في كل اتجاه ، وخيول كثيرة تحمحم وتشب والزبد منعقد على لجمها .

لم يطق المكوث في فراشه وخرج من غرفته ، فوجد شيحو جالساً على حجر في صحن البيت وقد طوى ذراعيه حول رأسه وأسندها إلى ركبتيه يبكي في صمت . وضع يمينه على كتفيه ووقف ينظر إلى الأفق الشرقي تتسرب منه خيوط الفجر .

◐◧◐

الفصل الثالث



1

مثلمـا تنفجر البـراكين فجأة تفـجرت الثورة فـي مصر . انقـذفت الحمم من فوهة البـركان في مريـوط تغطي أرض الدلتا كلهـا وتكتسح في طريـقها المـدن والقرى ، وعصـف الإعصار المـدمر بالحامـيات الفـارسية واحـدة بعد أخـرى ، واقتلعت ريح الثـورة جند فارس وحصـونها وعـدتها العسكرية في مختلف المواقع في بضعة أيام .. وكأنما كف جبارة تجرفهم كان الفرس يتراجعون من مكان إلى آخر ، يفـرون أمام الجموع الزاحـفة المنتصـرة تهدر في غضب عارم كـسيل الأتيّ . ومن مجـموع مائة وعشـرين ألف جندي لجأ بضعـة آلاف ، ظلوا على قيد الحياة ، إلى العاصـمة منف يتحصنون بقلعتها البيضاء .

أخذ المرزبان أخـمين على حين غرة . كان يظن الأمـر مجرد حـركة تمرّد من زعيم الليبيين في أطراف الدلتـا الغربية يسـهل قمعهـا بالقبض عليـه أو قتله ، أو شـغباً تحـدثه جمـاعة من تعسـاء الفلاحين والرعاة تكفي كتيبة من كتائبه الكثيرة للقـضاء عليه . غير أنه فوجئ بثورة حقيقية شاملة انطلقت دفـعةً واحـدة في كل موقع من الأرض السـمراء .. وإذْ كـان أخمين يرسل بفـيالقـه إلى الشمـال الغربي من منف ، كـانت النار تشتعل في وسط الـدلتا وشرقـها ، وتحرق كل مـا جاء في طريقهـا من مقاومـة حامياته . تلك هي الخـطة التي رسمها إينـارو وإمنروت ؛ أن تعلن الثورة في مريوط لينشغل بإعلانها الفرس ويوجهوا قـواهم إلى مصدرها ، فتنطلق شرارتها الأخرى في فرع النيل الشـرقي ، فلا يدري أخـمين ماذا يفـعل ؛ أيواصل صـده زحف إينارو من الغرب أم يلتـفت وراءه ليدفع زحف إمنروت من الشرق ؟ اشتعلت النار في أطراف عباءته الميدية فصار يضرب هنا وهناك دون وعي ولا تفكير .

***

وقف أخمـين على أحد أبراج (القلعـة البيـضاء) يرقـب بقـايا جنود الحامـيات يتقـاطرون على العاصمـة منف ، وهم يتدافعون على بوابتها الضـخمة طلباً للنجاة .. كـانوا في حالة يرثى لها من الفوضى والبؤس والتعب ، ولم يبق لهم ملجأ إلا هذه المدينة وقلعتها الحصينة . إنهم يعرفون هذا، وهو يعرفه جيداً . ولكن .. إلى متى يظل حبيساً ؟ وهل كتب عليه أن يعقل نفسه داخل قلعة ينتظر مصيره المحتوم ؟

لقد سقطت أرض الدلتا جميعهـا في أيدي «المتمردين» كما جاءته الأنباء وليس له من ملاذ إلا

موقع قدميه وهذا المدعو إينارو يتقدم كالعاصفة نحو هذا الموقع . صحيح أنه حصن لا يمكن اقتحامه بسهولة ، ولكنه يظل مجرد حصن يسجن فيه نفسه ويحاصره أعداؤه حتى يموت، ومن معه ، جوعاً . يا لها من ميتة شنيعة ! فما العمل ؟

ليس من سبيل إلا طلب النجدة من ملك الملوك ذاته .. ابن أخيه العزيز ... أرتحششتا . هل يرسل إليه رسلاً ؟ فما أدراه أنه سيستجيب بالسرعة الكافية ، والوقت يمر ، وليس من صالحه الانتظار ؟ عليه أن ينطلق بنفسه إلى سوسة ، أو بابل ، أو بسرغداي ، أو أكبتانا ، أو برسوبوليس.. حيث يجده في إحدى عواصم المملكة الفارسية الخمس هذه . يا له من ملك متقلب لا يقر له قرار حتى في عواصم ملكه ! ولكن .. لا بأس . ذلك خير من أن يتلبث مرتقباً ظهور الوجه الغاضب الذي رآه في منامه ذات غبش يبرز له بقرنين ملتويين كقرني كبش المعبود (إمن) معبود مصر العتيق، أو بتاج الأرضين المزدوج يعلو هامته كالفرعون . إن له الآن ثأراً لا يهدأ أواره ، فقد قتل أباه بجنده منذ بضعة شهور ، والثأر في نفوس هؤلاء القوم لا تخبو جذوته ولا بد أن ينتقم وقد واتته الفرصة ليفعل . ينبغي ألا يمكنه مما يروم ، وليبادر هو بضربة عنيفة تقصمه وتخلصه منه إلى الأبد . ساعتها قرر المرزبان أن ينسل قاصداً إيوان أرتحششتا ويترك أبواب منف موصدة على من فيها من الفرس وأهل البلد على السواء ، فأصدر أوامره بهذا إلى قادة جنده ورتب شؤون الإدارة والتموين ، وانطلق في سبيله تاركاً العاصمة الحصينة على جناح السرعة نحو الشرق .

2

شوارع مدينة صا ، العاصمة السابقة ، مكتظة بالآلاف المؤلفة من البشر ، وقد انتشرت في ميادينها وطرقاتها الواسعة حلقات الرقص والغناء وأصوات الجماهير الفرحة تشق أجواز الفضاء معلنة انتصارها ولنجاح الثورة المظفرة .. كانت حشود مختلطة تداخلت هيئاتها وسماتها وتنوعت ثيابها وأشكالها ، وامتزجت في كتلة متراصة واحدة تهتف للحرية وباسم ذلك الواقف منتصبا بقامته الفارعة على عربة زوجية المقعد يجرها جوادان أصيلان .. تشق طريقها بصعوبة في خضم البشر المتماوج . كان إينارو يرفع ذراعيه ويحيي الجماهير وهي تستقبله داخلاً عاصمة أجداده ، وإلى جانبه جلس إمنروت مبتسماً تملأ الغبطة روحه ويدفق من فؤاده فيض السعادة الغامرة . ها هو النصر قد تحقق ، وها هو و«أخوه» يحرران أرض الدلتا ويحصران شتات الأعداء خلف الأسوار ، وسيزحفان على طول شريط وادي النيل حتى الشلال الكبير في أقصى الجنوب ،

ويخلصان مصر نهائياً من طغيان فارس . سيعود إلى مصر مجدها وتحتل مكانتها بين الأمم حرة عزيزة كما كانت منذ فجر التاريخ .

تبعت العربة كوكبة من الفرسان تحمحم خيولهم ، ومن خلفهم فرقة من المشاة حملة الأقواس تنتصب الريشات على هاماتهم ، ثم سرية من حاملي الرماح مشرعة في يمناهم وفي أيديهم اليسرى التروس ، تتلوها مجموعة من ذوي السيوف الطويلة ، وفي نهاية الموكب جماعة متراصة في يد كل واحد منها فأس مسنونة . وكان الاتجاه نحو القصر الملكي الذي بناه الفرعون بسامتيك الأول وشغله خلفاؤه من بعده إلى أن نقل الفرس كرسي الحكم من صا إلى منف . وكانت باقات الزهور وحفنات القمح تلقى من الجانبين على الموكب الجليل ، بينما ارتفعت زغاريد النسوة تصلصل في الفضاء . فلما بلغ بوابة القصر انزلقت العربية إلى ساحته وتبعتها فرق القتال الرمزية وأقفل الحرس البوابة حتى لا تقتحم الجماهير المحتفلة القصر .

هبط إينارو وإمنروت من عربتهما ودخلا ، جنباً إلى جنب ، من باب القصر المفتوح وسارا في ممر طويل يؤدي إلى قاعة رحبة لم تهيأ بعد . كان من الواضح أن القصر أهمل زمناً مديداً وأنه أعد على عجل لاستقبال إينارو ورفاقه ، فأدار الجميع أبصارهم في الجدر المليئة بالصور والكتابات الهيروغليفية يتأملونها وكأنما هم يستعيدون ذكريات الماضي المجيد .

كان قد تبع القائدين المنتصرين عدد من رفاق المعارك وزملاء السلاح في ملابس الميدان ، وبدا باسخم قريباً جداً من إمنروت ، في حين ظهر شيحو وكيمون ملتصقين بإينارو لا يفارقانه . وعلى مجموعة من المقاعد القصيرة غير ذات مساند تحلق القوم وأمامهم خوانات رخامية نفض عنها لتوها الغبار ، وما لبثوا أن وضع الطعام أمام الجميع ، جاء به الخدم في قصاع كبيرة مع جرار الماء ، فقد كانوا جوعى ومتعبين غاية التعب .

افتتح إينارو الحديث :

– أخيراً يا عزيزي إمنروت .. ها نحن في قصر صا الفرعوني .

قال إمنروت :

– لم يكن وصولنا إليه سهلاً . كانت سنوات طويلة من العمل .. كم مضى على بدئنا له ؟

– أربع سنوات بأيامها ولياليها .. ربما ازدادت بضعة أشهر .

– صدقت .. انظر يا إينارو إلى قارب الشمس المرسوم على الجدار . ألا يذكرك بشيء ؟

فضحك وأجابه :

- يذكرني بقارب آخر يندفع على سطح بحيرة في ليلة مظلمة وقد امتلأ بالشباك والحبال ، تفوح منه رائحة السمك العطنة .

انتهز كيمون الفرصة فعلق :

- ألا يُذكر فضل من دل الهارب على صاحب القارب ؟

سارع شيحو مهتزاً على مقعده مرحاً :

- بل يُذكر فضل السبب الأول في هذا كله في سوق راقودة .

فنظر إليه كيمون مندهشاً ، وصاح :

- إنه يتكلم في ما نسميه - نحن الإغريق - الفلسفة . وحق زيوس ! إنه يتكلم عن السبب الأول والعلة الأولى التي تشغل الناس في أثينا .

قال إينارو :

- ولِمَ لا ؟ ألم تقل إن مشرعكم .. هذا المسمى ..

أدركه كيمون :

- صولون . اسمه الحكيم صولون .

- نعم ... نعم . صولون .. كان هنا .. في هذا القصر بالذات ، عشر سنوات ؟

- هذا صحيح . وهو يعني أن لي إرثاً هنا . ربما أحصل على جناح كامل فيه .

كان باسخم صامتاً ، فنطق أخيراً يغمز من قناته :

- إرثك محفوظ دائماً يا كيمون ، إن لم يكن من جدك الإغريقي صولون هذا فمن صهرك إينارو . الإغريق يستفيدون من كل شيء .

لم تعجب إمنروت ملاحظة باسخم . قال :

- كلا .. يا باسخم .. ليس الأمر كما تتصور . لا تنس ما جاءنا به كيمون من سلاح . لا تنس أيضاً أنه قاتل فعلاً معنا .

قال باسخم :

- مع إينارو .

فزوى إمنروت ما بين حاجبيه :

- مع إينارو .. أي معنا . نحن جميعاً شيء واحد .

صمت باسخم على مضض وتشاغل الآخرون بأحاديث جانبية مختلفة . بعد قليل وجه إمنروت الخطاب إلى صديقه ورفيق سلاحه :

- من رأيي يا إينارو ألا نؤخر الإعلان كثيراً .

فنظر إليه دهشاً :

- إعلان ماذا ؟

- إعلانك فرعوناً على أرض النيل .

انتبه الحاضرون للحديث وتوقف أكثرهم عن تناول الطعام . واصل إمنروت :

- ما دمنا حررنا أرضنا فلا بد أن يكون لها حاكم يرجع إليه ، ونحن مقبلون على إعادة تنظيم الأمور في البلاد. مصر الحرة في حاجة إلى من يسيّر شؤونها ويدير سياستها.. إلى فرعون حر مثلك ..

فوجئ إينارو بالعرض فرام تقليبه على مختلف الوجوه وليعرف رد الفعل وما يمكن أن يترتب عليه ، فتساءل :

- أترى الوقت مناسباً ؟

- هذا هو الوقت المناسب تماماً .

- لكن الفرس لا يزالون في منف ، وقلعتها البيضاء لم تسقط بعد .

- لهذا السبب أرى الوقت مناسباً للإعلان .

خرج باسخم عن صمته المعتاد وتدخل في الحديث الدائر بين الزعيمين :

- إينارو على حق . كيف نعلنه فرعوناً ومنف لا تزال محتلة ؟

قال إمنروت :

- نعلنه لأن منف لا تزال محتلة . الفرس لن يظلوا مكتوفي الأيدي ولن يفرطوا في مصر بهذه السهولة ، وإذا كان انتصارنا على حامياتهم يسيراً ساحقاً فإن من المؤكد أنهم سيعودون بجيش أكبر لاسترجاع ما فقدوه . ونحن في حاجة إلى عون خارجي أو حتى إلى تحالف مع بلاد أخرى ، فمن يتكلم باسمنا ؟ من يمثل مصر في علاقاتها بتلك البلاد ؟ من يقف في وجه «ملك الملوك» إن لم يكن «الفرعون» ؟

قال كيمون ، الذي كان متأثراً بما رآه في أثينا :

- يمكننا أن نحدث نظاماً جديداً .

فسأله إمنروت :

- نظام جديد ؟ ما هو ؟

- يعلن إينارو فرعوناً على مصر ، ونختار إلى جانبه جماعة تساعده في تسيير دفة الحكم. جماعة ممتازة من المستشارين يعينونه بالرأي والمشورة ، أو حتى من عامة الشعب ليعرف ما يدور في البلاد ويتلافى جوانب النقص .

قال شيحو :

- عامة الشعب ؟ أنا من عامة الشعب ، وسأكون مستشاراً جيداً ..

ابتسم إينارو :

- كيمون يأتينا بأفكار أثينية . فكرة لا بأس بها .

تحمس كيمون لفكرته المستوردة :

- ما يحدث في مصر الآن تحول خطير جداً . وينبغي أن يتبع طرد المحتلين تغيير في شكل الحكم وواقع حياة الناس ، وهذا يصعب بدون إشراك الناس أنفسهم في المسؤولية .

انتفض باسخم غاضباً :

- اسكت أنت ! ما دخلك في شؤون مصر وحياة الناس فيها ؟ ما لك أنت ولنظام الحكم والمسؤولية أو عدم المسؤولية ؟

قال كيمون متعجباً :

- أهذا صديقي الصياد باسخم هو الذي يتكلم؟ ما الذي بدلك هكذا أيها الصامت الأزلي؟

فأشاح بوجهه عنه :

- الصداقة شيء والسياسة شيء آخر. إننا نقرر مصير بلد بأكمله وليس ثمة مجال للعواطف هنا .

قال كيمون ساخراً :

- تقرر مصير بلد بأكمله وأنت تلتهم الطعام ؟ ثم من خوّلك الكلام باسم غيرك يا باسخم؟

بل متى كنت تتكلم أصلاً ؟

اشتد غضب باسخم :

– أتكلم لأنني مصري ، وأنت مجرد إغريقي لاجئ ... مثل كثيرين غيرك ..

أحس إينارو بالغضب وفـهم معنى الإشـارة العابرة ، لكنه امتلك زمـام غضبـه وتريث حتى لا يفسـد جو الاحتفـال . تيقن أن وراء باسخم شـيئاً وأن حـدسه وظن أبيه كـانا صادقين . فنظر إلى إمنروت الذي سارع إلى كبح جماح رفيقه :

– ما هـذا اللغو يا باسـخم ؟ كيـف تسمح لنفسـك بـأن تقـول ما قلت ؟ يجب أن تعتذر عما أبديت .

نهض باسخم من مقعده :

– لولاك يا إمنروت لقلت أكثر .

وخطا مبتعداً عن الجالسين وهو يغمغم في طريقه إلى الممر خارجاً :

– ربما فعلت أكثر .

ران الصمت على الحاضـرين وظلوا ينظرون بعضهم إلى بعض متحيـرين ، فأشار إمنروت أن ترفع قصاع الطعام حتى يبدد التوتر الذي ساد ، وقال كالمعتذر :

– أعصاب باسخم مشدودة . لقد أنهكته المعارك .

قال كيمون :

– ويريد أن يبدأ معركة معي ؟

قال إينارو :

– لا عليك يا كيمون . انس ما حدث . الأفضل أن نفكر في ما ينبغي فعله الآن .

قال إمنروت :

– قول سليم . كنت أقـول إن الخطوة الأولى هي تنصيبك فـرعوناً وإبلاغ البلاد الأخـرى بهذا التنصـيب ، ثم يكون لكل حـادث حديث . هـناك الكثيـر من العـمل في انتظارنا . فلنبـدأ الخطوة الأولى ، وننطلق بعدها إلى ما فيه الخير للجميع .

بدا الارتياح على وجوه الحاضرين ، ونظر إينارو إلى صديقه شاكراً .

3

تلك الليلة أوقدت المصابيح في القصر المهجور لأول مـرة منذ عقود ، واتخذ الحراس مواقعهم وبعثت الحـياة في غرف القـصر الكثيـرة وأبهائه ، وتوزع زعمـاء الثورة وقادة الجنود في القـاعات والحجرات ليـسمروا أو لينالوا قسطاً من الراحة والـنوم ، فقد كانت رحلتهم من مـختلف الأنحاء إلى مدينة صا شاقة متعبة .

سمع إمنروت طرقاً خفيفاً على باب غرفته ، فلما استفسر عن الطارق عرف أنه باسخم ، ففتح له الباب وأدخله ، ثم بادره بالسؤال :

- أين كنت طيلة العشية ؟

- كنت آكل نفسي .

فتفـرس في سحنته على ضوء المصـباح الزيتي المعلق في الجدار وهو لا يصـدق ما سمع . هذه لغة جديدة لم يعهدها فيه طيلة صحبتهما معاً :

- تأكل نفسك ؟

- نعم .. قبل أن يأكلني غيري .

- هل جننت ؟ ما هذا الكلام يا باسخم ؟

جلس باسخم على حافة السرير الذي اتخذه إمنروت مرقداً ، وقال :

- ما فعلته وتفعله يا إمنروت يبعث على الجنون .

فتساءل والحيرة تغلفه :

- ماذا فعلت يا ترى حتى تجن ؟

- ألا تدري ؟

- طبعاً لا أدري . كيف لي أن أدري بما في نفسك ؟

- هذا هو الغباء بعينه .

لبث إمنروت يرمقـه وفي ذهنه أن صاحبه جن فـعلاً . سلوكه على مـائدة الغداء يدل على هذا الواقع ، ثم وصفه له بالغبـاء .. هكذا مباشرة ودون مواربة وبلهجة لم يكن له بهـا عهد . لقد كان

باسخم صامتاً دائماً ، مطيعاً ، فما الذي غيّره فجأة كل هذا التغيير ؟ كان مقاتلاً شديداً في المعارك التي خاضها معه في شرق الدلتا ومحارباً بذل الكثير لتحقيق النصر الكبير حتى اعتبره رفاقه بطلاً من الأبطال. قد يكون هذا ما بعث في روحه الجرأة في الحديث ، جرأة تبلغ حدّ الجلافة والوقاحة .

- أنبئني عن مظهر هذا الغباء ومصدره .. أيها الذكي .

قلّب باسخم شفتيه :

- هذه اللقمة السائغة التي قدمتها عن طيب خاطر . أليس هذا غباء ؟

- أية لقمة تعني ؟ واضح أنك جائع ، إذ لم تكمل تناول طعامك وخرجت غاضباً من كيمون دون سبب يبرر فعلتك .

- كيمون الإغريقي وصاحبه الـ ...

ولم يكمل . قال إمنروت متمماً :

- الليبي .. أليس كذلك ؟

- بلى . هو كذلك . يظهر أن حبهما أعماك عن الحقيقة .

- أية حقيقة ؟

- أنهما .. غريبان .

استشاط إمنروت غضباً . وكاد أن يمد يده إلى عنقه، بيد أنه تراجع ولوّح بكفه في وجهه :

- صه ! كيف تجرؤ على مثل هذا الكلام ؟

- إنه الحقيقة .

- الحقيقة أنك أنت الأعمى عن الحقيقة .

- لقد كافحنا طويلاً لاستعادة عرش أحمس ، وتأتي أنت اليوم لتتوج حفيد بسامتيك فرعوناً وليجعل من صهره الإغريقي وزيراً .

فغر إمنروت فمه من الدهشة . اتضحت له الصورة، لكنه رام أن يستزيدها وضوحاً . قال :

- كافحنا معاً . قاتل الاثنان . السلاح جاء به كيمون ورجال إينارو هم الذين ماتوا في سبيل النصر ..

- ورجالنا ماتوا كذلك .

- في سبيل الأرض .. الوطن .. القضية .

- بل في سبيل استعادة تاج أحمس .

انفجر غضبه :

- لا تنس أن تاج أحمس كان على رأس خفرع. تاج جدك، يا باسخم، انتزعه من جد إينارو .. فهمت ؟

رد عليه ساخطاً :

- أخذه لأنه من حقه هو وليس من حق .. الغرباء ..

- الغرباء ؟ الذين عاشوا هنا مئات السنين ، بل آلافها ، غرباء ؟ الذي ماتوا من أجل هذه الأرض غرباء ؟ الذين حرروا معنا بسواعدهم مصر غرباء ؟ إنهم أهلنا ، إخوتنا ، دمهم من دمنا ووجودهم من وجودنا . أيكونون عندك غرباء ؟

زفر باسخم :

- كنت أريد التاج لك . أنت ابن عمي ... من آل أحمس أيضاً ..

فحملق فيه :

- نعم .. أنا من آل أحمس . ولكنني لست سليله مثلك .

- نحن سيان . أنا وأنت تربطنا القرابة .

- القرابة البعيدة .

- لِمَ لا تكون أنت الفرعون ؟

- ولِمَ لا يكون إينارو ؟

- أنت أولى . أريدك فرعوناً . ابن عمي هو الفرعون .

هز إمنروت قبضته :

- إنك تكذب . تريد التاج لنفسك . تحلم ، يا باسخم ، بالتاج .. التاج المغتصب . لكنني لن أنسى فضل إينارو الذي ثأر لنا من الفرس .

- ما حركك إذن هو الثأر ... الانتقام لأبيك .

- الانتقام لأبي ولمصر . وما يحركك هو الطمع .

بلغ خصام الرفيقين الذروة واقترب وجه كل منهما من الآخر محاولين الا يُسمع صوتاهما الحادان .

قال باسخم والزبد يخرج من شدقيه :

- الطمع في استرجاع حقي . أنا حفيد أحمس .

كشر إمنروت :

- بل هو الحسد . منذ لحظة كنت تزعم أنك تريدني فرعوناً ، وها أنت تتحدث عن حقك . صار الأمر من حقك أنت وليس لأحد سواك .

نهض باسخم من مكانه :

- لا فائدة من الحديث إليك . أعرف كيف أنال حقي .

وخرج دون أن يقفل الباب وراءه . أدرك إمنروت أنها القطيعة . رفيقا الكفاح والسلاح كانا يسيران في خطين متوازيين . والخطان المتوازيان لا يلتقيان .

4

لم تشهد صا في تاريخها حفل تنصيب فرعون مثل هذا الحفل . لم يكن الكهنة ولا النبلاء أو قادة الجيش هم المحتفلين . كان الشعب ذاته يحتفل . وعندما يغني الشعب يصدر غناؤه من القلب صافياً رقيقاً . وحين يهتف لابنه يكون هتافه صادقاً لا زيف فيه ، فإذا أحب عبّر عن حبه فيضاً دافقاً من الأهازيج الفرحة النشوانة . وهكذا عاشت صا يومها منذ بزوغ الشمس وليلتها حتى مطلع الفجر ، تغمرها البهجة والسعادة وينتشر في أرجائها الحبور . فقد أُعلن إينارو فرعوناً ، ملكاً على الوجهين البحري والقبلي ، حاكم الشمال والجنوب ، سيد الأرضين ، صاحب التاجين، ذا التاج الفرعوني المزدوج .

قال الفرعون الجديد وهو يكمل زينته ويثبّت التاج على رأسه :

- كيف تراني أيها الكاهن الأعظم .. حرمس ؟

- صورة طبق الأصل من .. جدك . انظر إلى رسمه هناك .

فنظر إينارو إلى صورة جده بسامتيك تزين جدار المعبد الفخم الذي كان أحد أعماله المشهورة. وعلق :

- كنت أحسب أنك ستقول إنني أشبه أبي .. في شبابه .

قال الكاهن :

- ذلك قبل أن تلبس التاج .

سأله :

- أتذكر يوم نصبتني زعيماً حين تنازل لي أبي عن الزعامة في قرية أبيس على ضفاف بحيرة مريوط ؟

- طبعاً . لم تنقض على ذلك اليوم أربع سنوات بعد .

- لكأن التاريخ يعيد نفسه .

- التاريخ لا يعيد نفسه . نحن الذين نعيده .. إذا شئنا .

- صدقت . لهذا جئت بك لتكون كاهناً أعظم في صا .

- مكافأة لما فعلته منذ أربع سنوات ؟

- بل ثقة . الثقة في حكمتك وبُعد نظرتك .. وإكراماً لذكرى صديقك .

- تكلت ؟ كم انتظر هذا اليوم ! كان يعرف أنه سيأتي حتماً .

- آه .. لو كان حياً !

- لو كان حياً ما أظنك صرت ملكاً .

التفت إليه مستفهماً . فأضاف حرمس :

- تكلت مات لكي تثور أنت وتثور معك مصر كلها . بذل دمه لكي يبذل الآخرون دماءهم في سبيل الحرية والخلاص .

- قالها إمنروت من قبل .

- ماذا قال ؟

- قال إن دم أبي لن يذهب هدراً . وقد صدق .

- يبدو أن إمنروت عزيز لديك .

- جداً .

- لا تضيعه إذن ، حتى لا يضيعك .

- نحن ، أيها الكاهن ، يدان في جسد واحد ..هل تضرب يدٌ أختها ؟

- قد تضرب .. إذا أمسكت بها يد ثالثة .

نظر إليه ملياً ولم يعلق.

***

كان هذا الحديث يدور بين الكاهن والفرعون في غرفة الزينة المليئة بالمرايا والتحف ، وقد مر إينارو منذ بزوغ الشمس بمراحل التنصيب الدينية المعتادة .. في المطهر وقدس الأقداس ، والصلاة لأصنام الآلهة المركوزة في المحراب ، واستمع إلى تراتيل الكهنة وأناشيد مغني المعبد ، ومسح بزيت الزيتون الصافي ، وشرب من ماء الشلال المقدس ، وقُرئ اسمه تتبعه مجموعة كبيرة من الألقاب والصفات التي أسبغت عليه ، وجلس على العرش المصنوع من أرز لبنان والمزين باللوحات الذهبية ممسكاً بالمنشة المفضّضة والصولجان المرصع بجوهرتين ثمينتين . نفس ما مر به في ذلك المعبد الطيني الصغير في قريته النائية . كل ما في الأمر أن المعبد هنا كان أفخم بكثير جداً، والكهنة أكثر وأزهى لباساً ، والأصنام أبدع ، والمظاهر جميعها أجمل وأروع . لكنه قرر أمراً جديداً لم تعرفه صا من قبل . قرر أن يبرز للناس ، ولا يكتفي بحلقة الكهنة من حوله ، ولم يكن الفرعون - في العادة - يخرج على الناس بعد تنصيبه قط ، فهو بهذا يصير إلها ابن إله لا يجوز أن يراه البشر .

أكمل استعداده وتهيأ للخروج إلى باب المعبد حيث كانت الآلاف من الجماهير في انتظاره ، فقد انتشر الخبر بينها بسرعة البرق . وتبعه الكاهن حرمس وصفّ طويل من الكهنة ، لكنه أوقفهم بإشارة من يده ليبقوا مكانهم ومضى هو في طريقه إلى الباب . فتحه بيديه الاثنتين وبرز منه يخطو على أولى درجات مدخل المعبد العالية ووقف ينظر إلى الحشد الهائل من البشر يتدافعون . رفع كلتا يديه يحييهم فهدرت أصوات الهتاف تزلزل أركان المكان . ودّ لو استطاع أن يهبط إليهم فيعانقهم واحداً واحدا . كان يريد أن يقول لهم إنه واحد منهم ، وإنهم إخوته ، بهم قاتل من أجل (كمت) - الأرض السمراء ، ومن أجل (دشرت) - الأرض الحمراء ، وبهم ينتصر في معاركه القادمة .

رفع يديه مرات ومرات ، وكلما رفعها انطلقت الهتافات .. لاحظ في الصفوف الأمامية وجوه أعزائه : مرسن ، وقايا ، وكيمون ، وشيحو ، ورأى الرؤساء ثمر ودد ونكن وآخرين ، مختلطين مع أمراء الضفة الشرقية من الدلتا . وأبصر في المقدمة إمنروت تحيط به جماعة من رفاقه يلوح له بيده ويبتسم . وجه واحد لم يعثر له على أثر ؛ كان باسخم غائباً عن الاحتفال !

لم يكن يريد العودة إلى داخل المعبد . خُيل إليه أنه لو دخل لاختنق بين جدرانه العالية بصور

الفراعين السابقين تحدق فيه بعيونها المفتوحة ترقبه وتتفحصه ، ملتفتة من وراء الأكتاف . لكنه ما عتم ، بعد أن كرر تحية الجماهير عدة مرات ، أن استدار على عقبيه .. ودخل المعبد ينضح عرقاً .

قال رجل من أهل صا يخاطب صاحبه وهو يلهث لشدة ما هتف :

– لم يحدث هذا قط . لم يحدث أن تجلى الفرعون ، ابن الإله ، للبشر !

5

في ركن قصيٍّ من أركان العاصمة ، سوسة ، جلست امرأة عجوز في أواخر سبعيناتها تدفئ كفيها المعروقتين على نار موقد أمامها ، متدثرة بلحاف من الصوف ، وإلى جانبها قعدت وصيفتان تسامرانها ذات ليلة من ليالي الشتاء القارسة ، تعوي ريحها فتهتز لها شجرة السنط الوحيدة في حديقة المنزل المنزوي الصغير . كان أثاث الغرفة يسيراً لكنه يدل على ذوق رفيع ، حيث بسطت طنفسة رائعة الألوان ، ومدت بضعة نطوع في أركانها عليها وسائد وحشايا لطيفة المظهر ، ونار الموقد تتأجج ، تجاوره كومة من الحطب في وعاء نحاسي كبير . تناولت العجوز قطعة من الحطب وألقت بها في الموقد فارتفع دخانها ثم التهبت تضفي على الجلسة الهادئة متعة الشعور بالدفء والحرارة . قالت لإحدى وصيفتيها وهي تحرك قطعة الحطب :

– ها .. ما الجديد عن فضائح الملكة المتصابية يا أنديا ؟

فكركرت الوصيفة ضاحكة وأجابت :

– غرامها باليهود . يا مولاتي .

– اليهود ؟ ألم يكفها رجال فارس وبابل حتى تغرم باليهود ؟

علقت الوصيفة الأخرى :

– لعلها تفعل هذا من باب التنويع . إنك تعرفينها جيداً يا مولاتي .

تنهدت العجوز :

– أعرفها جيد المعرفة يا أندريا ، منذ أن اتخذها أحشويرش زوجة له ، وعاشت معه عشرين عاماً حتى قُتل وورث ابنها أرتحشستا العرش . الواقع أنها لم تكن معه وإن كانت ، بحكم الارتباط المعلن ، زوجته . أنتما فتاتان صغيرتان لا تدريان كل ما حدث ، أما أنا فقد عشت طويلاً وشاهدت الكثير مما جرى في غرفات القصور .

قالت أنديا :

- نحن نعرف قصتك أنت على الأقل .

- دعك من قصتي أنا . ما يهمني هو أن تعرفي ما يدور الآن هنا وتبلغيني إياه . أمسترا تعبث إذن وتصاحب يهودياً ؟

- نعم ، يا مولاتي .

- ما اسمه ؟ ما عمله ؟

- يقال إن اسمه نحميا بن حكليا وهو أحد الأحبار .. هنا في سوسة .

- عجيب ! حبر يهودي ويلهو ؟!

تدخلت أندريا :

- لعله يتخذها وسيلة لمآربه . سمعت أنه عيّن أخيراً وزيراً في الإيوان بعد أن كان مجرد ساق للملك .

قالت العجوز بعد لحظة تفكير :

- هذا محتمل . لكنني أحسب أن أمسترا تنتقم .. ولكن بعد فوات الأوان .

تساءلت الوصيفة أنديا :

- تنتقم ممن ؟

فجاءها الجواب :

- من أحشويرش .. بعد موته . فهو أحب اليهودية إستير ربيبة مردخاي وفضّلها على أمسترا زوجته الرسمية ، ولم تستطع في حياته أن تفعل شيئاً . وها هي تتشبث بأذيال الشباب الغارب ، بعد أن مات الطاغية ، فتهوى يهودياً نكاية بزوجها المغدور . هذه قصة طويلة . أمسترا تحب الانتقام حتى إن جر عليها سوء المآل . إنها امرأة سوداوية المزاج غيور.

علقت أندريا :

- صدقت يا مولاتي . إنها شديدة الغيرة . يتردد في القصر أنها تغار حتى من ابنتها أمستا .

- زوجة ميكابوز ؟ لا أستغرب شيئاً بعد طول ما رأيت ، وقد تقتلها إذا لم تحتط ابنتها وأعمت أمها الغيرة .

– قد يقتلها القائد ميكابوز إذا فعلت . إنه يحب زوجتـه جداً ، ونجمه يصعد يوماً بعد يوم بعد انتصاره في بلخ . سـمعت أخيراً أنه عين قائداً عـاماً لجيوش المملكة بدلاً من القـائد غوماتا، ولعل ملك الملوك يرسله إلى بلاد النيل .

انتبهت السـيدة العجوز واسـتفسرت من وصيـفتها التي هي مصـدر الأخبار عندها ، فسـألتها متلهفة :

– ماذا يفعل في بلاد النيل يا أندريا ؟ خبريني .

فهمت الوصيفة سر لهفتها فأجابتها وهي تخفض من صوتها محاذرة :

– تقول الشائـعات المنتشرة منذ يومين إن تمرداً حـدث في مصر وإن الحاميـات هناك انكسـرت أمام المتمردين .

– أصحيح ؟ أمر خطير جداً .

– هذا ما يشيع . وسمعت اليوم أن المرزبان أخمين ذاته وصل هنا .

– بذاته ؟ معنى هذا أنه جاء هاربا . هل عُـيّـن أحد مكانه واستبدل به ؟

– كلا يا مولاتي . الواقع أن كلامـاً كثيراً يدور في سوسة . يقـال – ولا أدري مدى صحة هذا القول – إن دلتا وادي النيل باتت تحت سـيطرة المتمردين في مصر ، وإن قائد التمـرد.. اسمه أنيرو أو أنورا أو شيء من هذا القبيل ..

صححت لها العجوز نطقها :

– إذا كان مصرياً ، كما يتوقع ، أو متمصراً ، فنطقه .. إنحرو .

قالت الوصيفة :

– إنك تعرفين النطق الصحـيح يا مولاتي ، فأنت تحسنين لغة أهلك . لكنني سمـعتهم ينطقونه .. إينارو .

– ليس مهماً كيف ينطق اسمه . ما به ؟

– أعلن نفسه فرعوناً على أرض مصر .

لاذت العجوز بالصمت فـترة من الوقت وهي تقلب كفيها على نار الموقد وتغـمض عينيها ثم تفتحهمـا ناظرة إلى بعيد بعيد . كانت الخواطر تنتقل بها من زمـان إلى زمان ، وكانت الانفعالات المتباينة تبدو على قسمات وجهها المغـضن وتختفي وهي غارقة في تفكير عميق . ولم تبد أي من

الوصيفتين حركة تقطع تفكيرها أو تشوش سكونها وظلتا صامتتين تماماً ، حتى أحستا بأن مولاتهما تنهدت مبتعدة عن الموقد قليلاً وعمدت إلى دثارها تحكم تطويقه حول ركبتيها ، وقالت:

– اسمعي يا أنديا ! اسمعي يا أندريا !

قالتا في صوت واحد :

– نعم يا مولاتي .

– كم مضى عليكما معي ؟

ردت أندريا وهي لا تدري سر السؤال المفاجئ :

– سنوات يا مولاتي . منذ كنا صغيرتين جداً .

– وتعلمان من أين جئت بكما .

قالت أندريا :

– من باركي .. يا مولاتي .

– صواب اسمها .. برقة . المدينة التي عاش فيها الليبيون الذين جيء بهم من بلادهم أيام دارا الأكبر . آلاف منهم جيء بهم من بعيد في سبي يعادل سبي نبوخذ نصر البابلي ليهود أورشليم . هل تفهمان ما أقول ؟

سارعت الوصيفتان :

– نعم .. طبعاً نفهم يا مولاتي .

– هم أسموها كذلك تخليدا لاسم مدينتهم العزيزة عليهم جداً . كان ذلك منذ نحو أربعين أو خمسين عاماً – لا أذكر – بعد وفاة زوجي بمدة قصيرة .

أرادت الوصيفة أندريا أن تبعد عن سيدتها الذكريات الأليمة :

– كثيراً ما حدثني أبي عن بلاده الأصلية . فهو ليبي – كما هو شأن والد أندريا . تزوجا بوالدتينا الفارسيتين بعد انقطاع أملهما في العودة . إذن هذا هو أصل تسمية باركي ... يا مولاتي؟

قالت العجوز :

– هذا هو الأصل . ولهذا اخترتكما لتكونا وصيفتي . أنتما قريبتان جداً مني ، أشعر أنكما ابنتاي .

قالت أندريا :

– وأنت أمنا .. يا مولاتي . نحن نعرف قصتك جيداً .

– ما دمتما تعرفانها فلا شك أنكما ستساعدانني .

أسرعت أندريا :

– بكل تأكيد يا مولاتي . أآمري !

– أريد أن أعرف كل شيء بالتفصيل عما يحدث في مصر ، وكل شيء يجري في القصر وفي الإيوان ، وكل ما يفعل المرزبان أخمين وملك الملوك أرتحششتا ، وكذلك ما تفعله أمسترا – طبعاً . هذه مهمتك يا أندريا . أما أنت ، يا أنديا ، فتتصلين بأبيك في باركي – كما يسمونها هنا – وتخبرينه بأنني أريد رؤيته . إنه لا يزال حياً . أليس كذلك ؟

– بلى يا مولاتي . حارب في بلاد الإغريق مع الملك أحشويرش وعاد حياً .

قالت أندريا ومسحة من الحزن تعلو محياها :

– أبي هو الذي مات غريباً هناك ، يا مولاتي .

واستها العجوز :

– هناك غريب وهنا غريب .. ما دام بعيداً عن وطنه يا بنيتي .

***

الغربة .. ما أمرّها !

طويلة تلك الأيام والليالي التي قضتها بعيدة عن أرض الوطن ، ومديدة تلك السنون التي عاشتها تحن إلى الأرض السمراء وتتحرق شوقاً إلى مرابع صبا . أغمضت عينيها تسترجع صورة القصر الفرعوني . المعبد العظيم . خفرع وجيوشه ، وأحمس وانقلابه . قمبيز بنظرته النارية . قورش وخيوله المطهمة تنهب الأرض نهباً . دارا وجولاته . أحشويرش وطغيانه . ثم أرتحششتا الأجلح اليدين ، وأمه المتصابية ، وقادته ، وصراعه مع أخيه ، ومصر الثائرة . من يا ترى إينارو هذا الذي يقود الثورة في الأرض السمراء ؟

أغفت ، فأبعدت الوصيفتان الموقد ، ومددتاها على الفراش بجانبها . أسندتا رأسها الأشيب إلى الوسادة ، وأسدلتا عليها الغطاء وهما تنظران إليها بفيض من الحب والحنان .

6

انتشرت أخبار انسحاق الجيوش الفارسية في مصر بسرعة مذهلة في أرجاء المملكة كلها ، وتناقل الناس تفاصيل الزحف الهائل على حاميات الدلتا حتى اجتثها ، وجاءت تفاصيل انتصار الثورة الصاعق وما حدث في أثنائها . كان اسم إينارو يتردد على كل لسان ويطرق كل سمع ، ونسجت حوله حكايات تمثله زعيماً قوياً قادراً على تدمير الامبراطورية بأجمعها لو أراد . وكان ملك الملوك أرتحششتا وحاشيته وقادته الكثيرون في حيرة من أمرهم لا يدرون كيف حدثت الكارثة ولا كيف يواجهون نتائجها الخطيرة ، فمصر لم تكن مجرد مدينة تسقط وقد تستعاد بحملة صغيرة أو بضربة عسكرية محكمة . إنها جوهرة التاج الفارسي، ومصدر تموين مخازن فارس بالمال والغلال ، وهي بموقعها المميز تمثل مفصلاً بالغ الأهمية في صراع الفرس المستمر مع دويلات الإغريق وحلفها المتربص بأية لحظة ضعف أو نقطة تفكك لتنقضّ آخذة بثأرها القديم . ليس هذا فحسب بل إن ما حدث في وادي النيل سيشجع حتماً بقية أقاليم المملكة وشعوبها على الانتفاضة ضد عرش الطاووس ، إن تركت مصر وشأنها وسمح لها بالاستقلال .. لكن استعادة ما فقد من الأرض السمراء ليس بالأمر الهين ، وإذا كان مصير أكثر من مائة ألف مقاتل فارسي في الدلتا قد حسم بهذه السرعة والثورة في بدايتها فكيف يكون الحال ، وقد أعلنت مصر استقلالها وتوّجت فرعونها وأعادت تنظيم جيوشها ونظّمت إدارتها وتهيّأت لأي هجوم محتمل عليها ؟

كان أرتحششتا جالساً على عرشه يتملكه الغضب والخوف معاً ، وقد اجتمع بأركان دولته وقادة عساكره وهو ينظر شزراً إلى عمه المرزبان أخمين ويخبط مسند عرشه المرصع :

– أتدرون معنى ما حدث ؟ هذه مصيبة فاجعة . ضاع ما فتحه قمبيز وأسسه دارا في لمحة عين. هكذا بكل بساطة ؟

فهم أخمين أنه المعني بالتقريع وإن كان ابن أخيه تفادى توجيه الخطاب إليه مباشرة .

قال :

– لقد حذرتكم ، يا ملك الملوك ، قبل حدوث ما حدث . ذكرت أن الحامية لا تكفي وطلبت مزيداً من الرجال ، لكن طلبي لم ينل قبولاً . ما الذي يمكن عمله في مواجهة شعب كامل قرر الموت في سبيل ما يعتبره حريته ببضعة حاميات منتشرة في مساحة شاسعة من الطين والمستنقعات؟

قال أرتحششتا :

- يمكن عمل الكثير .. ولقد أمرت أرتاباز أن يسندكم بسفن ورجال من أسطولنا في قبرص .. فماذا فعل ؟

انتفض أرتاباز مذعوراً من خطر تهمة التقصير :

- عفوك يا مولاي .. أسطولنا في قبرص ، وفي البحر الأخضر الكبير ، يواجه أسطول الإغريق ولا يمكن الاستغناء عن أية قطعة منه . إنهم يبنون سفينة كل يوم ، وأثينا وحدها تملك أكثر من ثلاثمائة سفينة حربية مجهزة ، إلى جانب ما لدى الدويلات الإغريقية الأخرى . كنا نظن أن المرزبان مكتف بما عنده ، فهو لم يكتب ثانية يوضح الموقف الخطير في بلاد النيل .

حلّت لحظة تبادل تهم الإهمال والتقصير بين القادة ، وكان كل منهم يحاول إلقاء التبعة على سواه . قال أردشير ، الذي كان يكن كراهية شخصية لأخمين ولكنه يعرف أنه من البيت المالك ولا يرضي ملك الملوك الطعن في أحد من بيته :

- المرزبان أخمين على حق في رأيه أن الحامية في دلتا النيل لا تكفي ، يا مولاي .. والقائد أرتاباز على حق في أنه كان ينبغي طلب مزيد من .. لنقل النجدة - مرة أخرى .

فالتفت إليه أخمين قائلاً :

- ممن أطلب ما تسميه النجدة يا كبير الحجاب ، وقد مكث رسولي إلى الإيوان أكثر من شهر لكي ينقل رسالتي إلى ملك الملوك ؟

كان أرتحششتا يعرف هذا بيد أنه لم يرد أن يبديه حتى لا يضعف من موقف كبير حجابه الأثير أمام أركان مجلسه، كما خشي أن يتطور الموقف إلى تبادل للتهم بدلاً من معالجته ، فأنهى الجدل :

- نحن جميعاً نعرف ما جرى . المهم الآن هو أن نعرف ما العمل .

استأذن ميكابوز الذي أراد أن يستعرض قدرته العسكرية :

- نحن مقبلون على معركة كبرى ، يا مولاي . إنها حرب حياة أو موت لجميع الأطراف ويجب الا نخسرها بأي حال من الأحوال . لذا ينبغي الاستعداد الكامل لها قبل بدئها .

أراحت كلمات ميكابوز المرزبان أخمين فانتهز الفرصة ليدعم موقفه :

- القائد ميكابوز على صواب في ما يقول . ولدلتا النيل ثلاثة منافذ رئيسية إن استطعنا السيطرة عليها أمكن استرجاع ما فقد بسهولة .

فسأله أرتحششتا :

– ما هي ؟ المفروض أنك عليم بها أيها المرزبان .

قال أخمين :

– هناك أولاً المنفذ الشرقي مما يسمى صحراء سيناء وما يتبعها غرباً من مستنقعات وبحيرات صغيرة ، وهو مدخل جيشنا البري إلى مصر . ثم البحر الأخضر الكبير في الشمال ومنافذ السفن فيه إلى النيل عن طريق مصباته حتى تبلغ الشلال . وأخيراً ثمة بحيرة مريوط وما حولها جنوباً حتى منطقة الفيوم . وهذه أخطرها .

سأله أرتحششتا مستفسراً :

– لِمَ ؟

– لأن الإمداد البشري من المقاتلين لا يأتي مصر من شرقها ولا من شمالها ، بل يتدفق عليها من الغرب .

– كيف ؟

– في غرب وادي النيل تقع بلاد يسميها المصريون أرض «الريبو» ويسميها الإغريق بلاد «الليبو» – أي الليبيون . قبائل كثيرة شديدة المراس ، يعتبر أبناؤها من أعنف المحاربين وأصلبهم . المشكلة أنهم اندمجوا في أهل مصر اندماجاً كبيراً ، ويحسب المصريون والليبيون أنفسهم إخوة متحدين ضدنا .

تململ الحاجب الأكبر أردشير في مجلسه قلقاً ، ولاحظ أرتحششتا هذا فتوجه إليه بالسؤال :

– ما بك أيها الحاجب ؟ ألديك شيء تقوله ؟

تردد قليلاً ثم قرر الكلام :

– العفو يا مولاي .. ما دام المرزبان قد جاء على ذكر الليبيين فإن لدي ما أود قوله :

– تكلم .

– الواقع ، يا مولاي ، أن الليبيين موجودون هنا .

– هنا ؟ أين ؟ في مجلسي ؟!

– كلا .. يا مولاي ... لا أعني هذا . أعني عدداً منهم يعيش في مدينة باركي ، غير بعيد عن العاصمة سوسة .

- ماذا يفعلون ؟ كيف وصلوا ؟ أيغزوننا في أرضنا ؟

- لا .. يا مولاي .. ليس الأمر كذلك . لقد جلبوا أسرى في عهد جدك دارا ، لكنهم عاشوا بهدوء واندمجوا في حياتنا وتزوجوا وأنجبوا كذلك .. ولا خطر منهم . بل هم قاتلوا مع جيوشنا في بلاد الإغريق .

- أي تفرسوا .. صاروا فرساً .

- بطريقة أو بأخرى .. نعم . لكنهم هناك - في مصر - أخطر ..

- ماذا تعني ؟

- أعني ، يا مولاي ، أن المدّعي المُلك في عاصمة الدلتا صا منهم . زعيم المتمردين في مصر ليبي الأصل ينتسب إلى بيت فرعون . إنه يسمى إينارو .

كان أردشير يدلي بهذه المعلومات التي لم يسمعها أرتحششتا من قبل نكاية بالمرزبان المهزوم ، شامتاً ، متلذذاً بتعذيب أخمين . قال أرتحششتا وهو يشدد قبضته على المسند :

- هذا أمر طريف جداً . من ترانا نقاتل ؟ المصريين أم الليبيين ؟

قال ميكابوز :

- الاثنين معاً يا مولاي ، عندما تحتدم المعركة لا فرق بين الاثنين .

***

من المهم جداً أن يعرف ملك الملوك رأي ميكابوز ، فهو قائد أثبت قدرته . ألم يقض على أخيه المتمرد هستاسب فلم لا يقضي به على هذا المتمرد الجديد في أقصى غرب المملكة ؟ يبدو أنه سيواجه ما واجهه جده دارا الذي سجل في نقش مشهور كبير فوق صخرة أعلى جبل (بهستون) أنه قمع في حياته تسعة عشر متمرداً . لم تبق أمة من أمم المملكة العشرين لم تَثُرْ في عهد دارا سوى واحدة طبعاً .. هي أمة الفرس . لعل أمسترا كانت على صواب حين قالت إن مملكة فارس ليست إلا لوحة فسيفساء سرعان ما تتناثر قطعاً إذا لم يحكم لحمها . التفت إلى صهره وقائد جيوشه البرية :

- ما رأيك في الموقف يا ميكابوز ؟

فأجابه مراوغاً:

- خطير ومعقد ، يا مولاي .

- هذا واضح . ما أردته هو ما العمل الذي يجب علينا اتخاذه الآن ؟

- الرأي للجميع يا ملك الملوك والأمر لك .

كان ميكابوز يدرك بخبرته العسكرية أن المسألة ليست ببساطة مطاردة هستاسب على مسافة قصيرة من سوسة قريباً من مصدر تموينه وإمداده ، وأنه إذا كان هستاسب يقاتل ليحتل عرش فارس ، فإن من في مصر يقاتلون من أجل أرضهم وحريتهم .. وشتان بين القتالين . إضافة إلى بُعد المسافة ووعورة الطريق . الأفضل ألا يتورط هو في هذه المغامرة ، وليترك غيره يفعل .

يئس الملك منه ، فتوجه إلى كبير حجابه :

- ماذا ترى يا أردشير ؟

فأجاب ، وقد أعد نفسه للسؤال الذي توقعه :

- أرى ، يا مولاي ، الضرب بشدة في مصر . التهاون سيكلفنا كثيراً .

قال الملك :

- وأنت يا أرتاباز ؟

- رأيي من رأي كبير الحجاب ، يا مولاي .. على أن قواتنا البحرية ستتدخل هذه المرة . يمكنني توفير خمسين سفينة مقاتلة على الأقل في البحر الأخضر الكبير .

شعر ميكابوز أن أمر الحملة قد تقرر فسارع قبل أن يفوت الأوان :

- القوة البحرية ضرورية الآن لسد منافذ شمال مصر ومجرى النيل وفك الحصار عن منف . أليس كذلك أيها المرزبان ؟

فلم يسع أخمين إلا الكلام ، وقد كان يفضل الصمت :

- بلى . هذا صحيح .

- ولا بد من قوة كبيرة .. كبيرة جداً .... تقودها براً لكي تستعيد بها ما فقدت .

أدرك أن الفخ ينصب له ، لكنه لم يدر ما يقول .. فصمت . تدخل أردشير - وقد فهم مرمى ميكابوز :

- نعم . لا بد من جيش جرار يقوده المرزبان أخمين ذاته ، ليستعيد ما فقد أولاً وليسترجع مكانته ثانياً . أن يدخل منف منتصراً شيء عظيم يعيد الثقة إلى الجميع .

قال أرتخشتا في لهجة بين السخرية والغيظ :

- لقد كان تحت إمرة المرزبان مائة وعشرون ألف مقاتل .

عقب ميكابوز :

- إنه يحتاج الآن إلى مئات آلاف أخرى من الجنود ، يا مولاي ، هذه مصر بكل عظمتها وكبرها .. ليست كغيرها من البلدان والأقاليم . إنني أقدر المطلوب بجيش قوامه ما بين الثلاثمائة والأربعمائة ألف مقاتل - إذا سمح لي بالتقدير .

انفرجت أسارير أخمين وحمد لميكابوز في نفسه هذه المبادرة ، ورغب في توكيدها :

- على الأقل .. ثلاثمائة ألف مقاتل. إن المتمردين لا يحصى لهم عدد، فإن كل رجل قادر على حمل السلاح في وادي النيل من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق يعتبر من المقاتلين .

قال أردشير :

- ينبغي ألا ننسى أن قواتهم تحتل الآن الحصون والقلاع التي سقطت في أيديهم ومن العسير اكتساحها بدون جيش كبير .

ازدادت سعادة أخمين بهذا التأييد ونسي الشرك المنصوب . تساءل أرتخشتا :

- هذا في حاجة إلى وقت . إعداد مثل هذا العدد وتدريبه في حاجة إلى وقت . متى ترون أن جيشاً بهذا الحجم يكون جاهزاً للتحرك ؟

قال ميكابوز :

- ليس قبل سنتين يا مولاي .

علق أخمين وكأنه يخفف الوقع عن ابن أخيه :

- لنقل سنة أو سنة ونصف السنة على الأكثر .

فحك أرتخشتا أذنه متظاهراً بالتفكير في الأمر :

- ستفرغ خزائن فارس من المال قبل أن تكملوا الاستعداد .

قال أخمين يشجع الملك على اتخاذ القرار .

- ستملأها مصر مرة أخرى يا ملك الملوك .

صمت أرتخشتا مقلباً شفتيه ومجيلاً ناظريه في من حوله ، هكذا يسلك الملوك في الساعات الحاسمة . القرار اتخذ ... لا شك .. لكن إعلانه يتطلب التظاهر بإعمال الفكر وانشغال البال . ليذهب أخمين إلى الجحيم وليغرق ميكابوز في التدريب والإعداد ، وليبتعد أرتاباز عنه إلى ما

يدعوه البحر الأخضر الكبير . أيهما أحلى يا ترى ؟ أهي الكونا أم كوزمارتا ؟ جاريتان بابليّتان بديعتان ، ولا يستطيع الحكم لأي منهما .. لقد سلبتا لبه وهو مغرم بالثنتين ، ومشتاق جد الشوق إليهما . طالت هذه الجلسة المملة وحديثها السخيف . وهؤلاء القادة المتناحرون . ألم يكن أهنأ له لو كان جالساً إلى جاريتيه الأثيرتين يتساقى معهما لذيذ الشراب ؟ فليعلن ما يعرفون أنه سيعلن ، فهم الذين يقررون وعليه الإعلان .. جلجل صوته وهو يعلن القرار :

– ما دمتم اتفقتم على الخطوط الكبرى فإنني أترك لكم التفاصيل . أعدوا الجيش الذي ترون وهيئوا الحملة لاسترجاع ما فقد .. وليقدها المرزبان بنفسه . لديه – هذه المرة – العدة والعدد ، ولا عذر في الإخفاق . فليكن أهورا مزدا معه !

وقام من على عرشه فأحنى الحاضرون رؤوسهم ساجدين ، وفي نفس كل منهم تعتمل مختلف الهواجس والانفعالات .

7

ضحكات مجموعة من الصبية الصغار تملأ جو الحديقة في القصر الفرعوني في صا ، وهم يتجارون بين أشجارها محدثين جلبة وضجة ، يدورون حول شجرة جُمّيز ضخمة ويختبئون خلف جذوع النخلات التي تناثرت في الحديقة المغطاة جوانبها بأنواع من الزهور المتفتحة يضوع أريجها فيعبق به المكان . والأسرة الفرعونية تجمع أفرادها مستمتعين بجلسة عائلية هادئة عشية ذلك اليوم الربيعي المشمس . كان هناك إينارو – وقد تخلص من تاجه وارتدى ثوباً بيتياً مريحاً – وزوجته كليو ، وأمه كاروما ، وصهره كيمون . صاحت كليو تنهر ابنها الذي أمسك بعصا يلوح بها متوعداً رفاقه :

– كفى يا إثن رع ! ألق العصا من يدك . ما هكذا يكون اللعب .

فألقى الصبي عصاه ومضى يجري بعيداً . قال كيمون معلقاً :

– دعيه يتدرب على الإمارة منذ الآن يا أختاه . اليوم العصا وغداً الصولجان .

ردت عليه وقد مطت شفتيها في وجهه :

– لا غداً ولا بعد غد . خير له أن يصبح تاجراً مثل جده ثيوفرون ، فهذا أسلم له وأحسن .

ابتسم إينارو مدركاً ما تعنيه وقال :

- يبدو أن تأثير أمي العزيزة قد نفذ . ألا يرضيك كل ما حولك يا كليو ؟ قصر بديع ، وحديقة غناء ، وخدم وحشم ، وثياب فاخرة . كل ما تطلبينه يجاب .

قالت كليو:

- راضية يا إينارو ، لرضاك ... ولكن ..

قال كيمون :

- وهل ترينه هو ذاته راضياً عن حاله ؟

- ربما .

- هو الذي يقرر .. هه يا إينارو ... ما رأيك ؟

اعتصم بالصمت ولم يجب . تكلمت كاروما :

- لو كان لي أن أختار لعدت إلى أبيس ، قريتنا الوديعة ، وأهلها الطيبين .. هناك الراحة والسعادة الحقيقية . أما هذه المدينة المزعجة ، وهذا القصر الكبير ، فلا يناسبني أي منهما . لو كان تكلت حياً لما بقيت ساعة واحدة هنا .

احتجت كليو :

- وتتركينني وحدي هنا .. يا أماه ؟

- أنت لك إثن رع وأخوه تكلت الأصغر وأخته الوليدة كاروما الصغرى . ولك إينارو بالطبع ، وهو لا يستطيع مغادرة صا .

هنا تكلم إينارو :

- إذن كان قايا ومرسن محقين حين قررا العودة إلى الواحة الغربية والفيوم ، كما كان ثمر ورفاقه حين عادوا إلى أبيس . وها هي كليو وأمي تخططان للفرار . لن يبقى إلا أنا وأنت يا كيمون .

قال كيمون :

- وإمنروت حاكماً لإقليم بوباست ، وشيحو .

- إمنروت بلدته الأصلية بوباست . أما شيحو فغارق إلى أذنيه .

- في جمع الضرائب . ألم تعيّنه مسؤولاً عنها ؟

- بلى . ليكون أرحم من الفرس على الأقل ، فهو ذاق الأمرين من جباة ضرائبهم . لكنني

عنيت أنه غارق في بيته مع مريت إمن وأولاده الكثيرين .

- تعني فيلقه ؟ إنه يسهم في زيادة عدد جنودك زيادة وافرة .

قالت كاروما :

- أخيراً ضمن شيحو قوت عياله . أرجو أن تتوقف مريت إمن عن تقريعه الآن .

فعقب كيمون ضاحكاً :

- إذا استمرت في الإنجاب فإن خراج مصر كلها لن يكفيها وأولادها . انظروا ! جزء من الفيلق هنا مع إثن رع، وجزء آخر في البيت، وثالث في السوق، ورابع مع أبيهم. كلما تخرجت سرية في المنزل وشبت عن الطوق مدته بأخرى .. إذا اجتمعوا كوّنوا جمعية شعبية تنافس جمعية أثينا .

انتبه إينارو إلى ما أورده كيمون من تشبيه :

- لقد ذكّرتني . ما أخبار أثينا وبلاد الإغريق ؟

- آخر الأخبار أن الصراع احتدم ، بين من حدثتك عنهم ، في العامين الأخيرين ، وهو صراع بلغ حده في اغتيال المدعو أفليتس من زعماء حزب الديموس .. حزب الشعب ، وتولى قيادة أثينا سيمون بن ملتياس ، من الأرستقراطيين .. هل يسكت الزعيم بركليس ؟ تذكره بالطبع ، وهو الداهية الخبير بلعبة السياسة ومناوراتها .

- نعم أذكره .. ماذا فعل ؟

- استطاع ببلاغته وقوة حجته وقدرته على الإقناع أن يصل إلي غايته دون حاجة إلى أن يلوث يديه بدماء خصومه .

- أسألك ماذا فعل ؟

- فعل ما يفعله الداهية الخبير . استصدر قراراً من (الإكليزيا) و(البولو) - مجتمعين - بنفي سيمون .. تصور ! نفى الأثينيون حاكمهم وقائد أسطولهم الذي انتصروا به على أعدائهم الفرس . لفق له تهماً وأثار ضده أهل أثينا . فنفوه !

قال إينارو :

- من حسن حظ سيمون أنه لم يُقتل . عندما يهيج الجمهور لا يمكن التنبؤ بالعواقب .

- يقال إن الحب هو الذي منع بركليس من قتل سيمون بن ملتياس .

- الحب ؟ وما دخل الحب في السياسة ؟ ما صلته بالجمعية الشعبية ؟

- أوه ! إنك لا تدري .. بل تدري .. ما يفعله الحب .

- ليس في السياسة .

- بل في السياسة بالذات .. هما صنوان .

- دعك من الهذر يا كيمون . قل لي ماذا فعلت السياسة بالحب ؟

- الأصح .. ماذا فعل الحب بالسياسة ؟

- فليكن . ماذا فعل أي منهما بالآخر ؟

- أو كل منهما بالآخر .

- سيان .. ماذا فعلا ؟

- يقال إن بركليس وقع في هوى أخت خصمه سيمون .

- ابن ملتياس .

- هذا هو نسبه الذي يعرف به . ربة القدر وحدها أعلم بالحقائق . وأخته فتاة جميلة .. جميلة جداً . اسمها إلينيس .

ابتسم إينارو :

- حتى اسمها تعرفه ؟

فلامس كيمون خده مميلاً رأسه قليلاً :

- أسماء الجميلات لا بد أن تعرف . من لا يعرف اسم كليو .. مثلاً ؟

التفتت أخته إليه تنظر شزراً :

- تشبيه سخيف . أيها الثرثار .

فأغرق رأسه بين كتفيه متظاهراً بالخوف :

- عفوك .. يا مولاي ، أردت التشبيه في مقام الجمال .. ليس إلا .

قال إينارو يستحثه على إكمال حديثه :

- ما قصة إلينيس هذه ؟

- آه .. يقال إن بركليس يحبها .

- وماذا بعد ؟

- وفي الوقت نفسه يريد إزاحة أخيها من طريقه .

- هاه !

- فاكتفى بنفيه بدلاً من أن يقتله .

علق إينارو :

- عصفوران بحجر واحد .

فقهقه كيمون :

- فهمتها . عصفور .. أعني عصفورة في اليد ، وعصفور طار خارج الحدود .

قال إينارو متأملاً :

- حتى بركليس ؟ طالما حدثتني عنه حديثاً يثير الإعجاب .. حكمته ، دعوته ، حبه للفنون والآداب ، اهتمامه برفاه أثينا .. إلى آخر حديثك .

- نعم .. حتى بركليس . الحب لا يفرق بين المقامات ولا يميز بين الأعمار . يقولون إن الحب أعمى لكنه هذه المرة كان حاد البصر ، فإلبينيس فائقة الجمال . منذا الذي يلوم بركليس ؟

كانت كاروما منصتة فسألته :

- وأنت يا كيمون .. ألم يحن الوقت لأن تحب وتتزوج ؟

- عرض عليّ شيحو هذا الأمر منذ مدة ، لكن حاله يخيفني . كأنه وقع في الشرك فأراد أن يوقعني معه . ألا يكفي وقوع إينارو ؟

فضحكت العجوز وقالت تجامل كنتها :

- لو وقع كل رجل في مثل الشرك الذي وقع فيه إينارو لعاش الجميع في سعادة كاملة .

- إينارو محظوظ في الحب والسياسة .. أين لي بحظه السعيد ؟ ثم إنني قررت ألا أرتبط ما دام العجوز ثيوفرون يعيش وحده .

خطر له أن يلمح إلى إمكانية الجمع بين كاروما ووالده ، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة . خشي أن يساء فهمه ، فهو يعلم مقدار حزنها على زوجها الراحل ، وقد يفسر عرضه تفسيراً خاطئاً ، فأردف :

- سيأتي الوقت المناسب .. يا أم .

الوقت المناسب .. هل سيأتي فعلاً ؟ وكم من الأوقات المناسبة يحتاج هو وصاحبه في الأيام القادمة ؟

***

ساد الصمت ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الأخيرة قبل أن تستقر في جوف الأفق . هدأت ضجة الأولاد الذين ركنوا إلى داخل القصر ، وقامت كاروما تعلن أنها ستتركهم وتدخل لتناول عشائها والاستعداد للنوم ، ولبث الثلاثة وكل منهم غارق في أفكاره . كيف حال ثيوفرون يا ترى؟ ما أقسى الوحدة عليه ! إنه يرفض أن يخصص له خادم يقوم بشؤونه ، ولا يزال يذهب إلى حانوته كما كان ، ويعيش في بيته القديم وحده ، كأنما كل ما حدث لا صلة له به ، كأنه ليس صهر فرعون مصر ذاته . أين باسخم ؟ لقد اختفى تماماً وكأن الأرض ابتلعته ، وليس من خبر عنه . حتى إمنروت لا يدري عنه شيئاً . عجيب أمر هذا الرجل الغامض . عرفته مجرد صياد سمك مع رفيقه قبل أن أطلب منهما نقل إينارو بقاربهما من راقودة ، وكان صامتاً لا يتكلم ، ثم إذا به يتحول إلى مقاتل عنيد وينقلب شخصية أخرى مغايرة تماماً لما كان عليه . صار شرساً ، ثم اختفى في قمة لحظة الانتصار . مدينة منف لا تزال في أيدي الفرس ، منعتها أسوارها العالية فلم تسقط بعد رغم طول الحصار . مرت سنة كاملة الآن وهي تقاوم ، وإن ظلت تقاوم فإن النتائج لا يمكن التنبؤ بها . صحيح أن الدلتا بأجمعها في أيدي الثوار وأن التاج المزدوج ارتفع على رأسي ، ولكن حرية مصر تظل ناقصة إذا لم تسقط منف ويتم الزحف على بقية الوادي جنوباً . انتصار الثورة النهائي لم يتم، والمشكلات تتراكم . تلاشت روعة أيام الثورة الأولى ونشوة النصر وبدأت تطفو على السطح قضايا لم تكن تخطر لي على البال ، ولم تكن في حسباني . كنت أظن أن كل شيء سيمضي في هدوء . أي هدوء.. وكل يوم تبرز مشكلة جديدة ؟ الحكم ليس تاجاً وصولجاناً ، الحكم إدارة مجتمع بأكمله .. بكل ما تموج به حياة الناس المنتشرين على مساحة كبيرة من الأرض ، وقد صرت مسؤولاً عن كل شيء في هذه الحياة . أي هدوء ، وهذا المساء من الساعات القليلة التي أجلس فيها إلى أهلي ؟ كليو على حق في تعاستها بهذا القصر ، وأنا متعب مرهق مكدود الخاطر قلق الروح محطم النفس .. رغم أنني الفرعون ، بل لأنني الفرعون . القيثارة ! هل لا تزال كليو تذكرها ؟ مضى زمن طويل لم أسمع عزفها فيه :

- كليو ؟

- نعم ؟

- هل جئت بقيثارتك معك من أبيس ؟

انفرجت شفتاها عن بسمة السعادة ، وخفق قلبها بعنف :

- نعم .. يا إينارو . كيف أنساها ؟

- أشكرك . أريد أن أسمع عزفك .

فقامت كليو لتأتي بقيثارتها ، وتبعها كيمون مغادراً . لم يستبقه إينارو ، فقد أدرك أنه رام أن يدعه وحبيبته وحدهما . وعادت كليو بعد قليل تحمل حشية في يد والقيثارة في اليد الأخرى ، وطرحت الحشية لتجلس عليها ، فنزل من على كرسيه وجلس إلى جانبها . لاحظ شيئاً ، كانت قد حلت عقدة شعرها وتركته يتهدل على صدرها وكتفيها . وشرعت تلاعب الأوتار ، ثم انطلقت تعزف نفس اللحن الذي سمعه في بهو البيت الصغير في راقودة .

أسند رأسه إلى كتفها ، وأغمض عينيه ، ومضى يسبح في عالم آخر بعيد عن عالمه الذي يحياه . كانت كليو تعزف وخداها مبللان بالدمع . لم تكن تعرف هل هو دمع السعادة أم دمع الألم ؟

8

أغرقت الأقاويل عواصم فارس الخمس وأقاليمها وتنوقلت الشائعات في كل مكان . لم يك أحد يدري على وجه الدقة ما الذي سيحدث بعد ما جرى في وادي النيل ، فقد تكتم قادة الجيش ما يعدون له واتخذوا الحيطة في ترتيباتهم أملاً في مفاجأة سيد صا الجديد ، واكتساح مصر دون أهبة منه . لكن المقربين من القصر الملكي كانوا على علم بما يرتب ويعد ، ولا يلبث علمهم أن يتسرب ، بشكل أو بآخر وإن أعوزته التفاصيل . كانت العيون هنا وهناك ، وطبيعي أن تتوالى اجتماعات المعنيين بالأمر ، كل يحاول أن يوجه الريح القادمة وجهة لمصلحته ، ويسهم في الأحداث المنتظرة إسهاماً قد يقيه شر ما لا يزال في طيات الغيب . وكان اسم إينارو يتردد على كل شفة ، وصار صاحبه أسطورة مدهشة تثير الخيال وترسم من حولها آلاف الصور العجيبة .

***

قال عزرا بن سرايا يتحدث إلى مجموعة من الأحبار في أحد بيوت بابل المنزوية :

- إذن هو سليل بسامتيك ، كما ذكرت لي يازيديا ؟

- نعم .. وجدك هارون، الكاهن الرأس ! هذا مؤكد .

- أي أنه من (اللوبيم) في الأصل .

إنك أدرى بذلك . فأنت الكاتب .

- هم مؤسسو ما يسمى (الأسرة الصاوية) في مصر منذ أكثر من مائتي عام . زكريا يعرف هذا جيداً .

قال زكريا وهو يمسح لحيته الكثة :

- الذي أعرفه أن لنا مع هذه الأسرة الليبية الأصل تاريخاً طويلاً . ابن بسامتيك ، المدعو الفرعون نخاو ، هو الذي زحف على يهوذا أيام ملكنا يوشيا منذ ما يقرب من قرن ونصف قرن، وقضى عليه في مدينة مجدو .

أيده عزرا :

- صحيح . هذا مسجل في (سفر الملوك الثاني) من كتابنا . وقد فرض نخاو هذا سيطرته علينا وتدخل في كل شأن من شؤوننا . أزاح يهو آحاز الذي ملكناه علينا وعين بديلاً له ابن يوشيا المدعو إلياقيم يحركه كالدمية. وصل الأمر به إلى حد تغيير اسم صنيعته إلى يهوياقسم. تصوروا !

أكمل الحبر زكريا ما كان بصدده من معلومات تاريخية :

- «ودفع يهوياقيم الفضة والذهب لفرعون .. فطالب شعب الأرض بالفضة والذهب ليدفع للفرعون نخاو» .

هكذا بالنص من (سفر الملوك) .

صحح له عزرا :

- الثاني . سفر الملوك الثاني يا زكريا .

- نعم .. نعم . الثاني .

تدخل حبر آخر :

- لكن نخاو لقي جزاءه .. هنا على الفرات . رده نبوخذ نصر مالك بابل .

قال عزرا :

- هذا صحيح يا دانيال ، لكن انظر ماذا فعل بنا نبوخذ نصر البابلي نحن اليهود . سبانا، وهذا سبب وجودنا في هذا المنزل في بابل بالذات .

قال دانيال :

– كان ذلك بسبب خفرع ، أيام ملكنا صدقيا .

– وخفرع ابن من ؟ إنه ابن نخاو .

عقب زكريا :

– تصارعت الريحان ، ريح الشرق وريح الغرب . فتكسرت صوارينا .

قال عزرا :

– أرى أن ريح الغرب أخطر وأشد . نحن هنا في أحسن حال .. منا التجار الأثرياء ، ورجال الحاشية . هل نسيتم أن نحميا صار وزيراً للملك الملوك ؟

فقال دانيال :

– لا ينقصنا شيء .. حتى أن الكثيرين من اليهود لا يريدون الذهاب إلى أورشليم .

– هذا ما يقلقني . وعلى كل فإن ريح الشرق الآن تدفع شراع سفينتنا إلى حيث نريد . ما يخيفني هو الريح الغربية . إنها ريح السموم . هل أذكركم بشيشنق – الذي يدعونه أيضاً شيشق – كان من (اللوبيم) ، بل كان في الدلتا بالذات ؟

تدخل زكريا يستعرض معارفه التاريخية :

– منذ ما يقرب من خمسمائة عام ، أيام سليمان الحكيم .

قال عزرا الذي لم يرد أن يفقد ميزته باعتباره الكاتب الشهير :

– صاهره بأن زوّجه من ابنته ، فلما مات سليمان وانقسمت الدولة من بعده زحف على فلسطين كلها ، وأخذ أورشليم وكل ما في الهيكل . كان جباراً وفرعوناً من أشد الفراعين سطوة . بعدها لم تقم لدولتنا الموحدة قائمة .

ظهر التأمل على وجه دانيال وبدا أن له رأياً . قال :

– ألم تلاحظوا شيئاً ؟

فسأله زبديا :

– ماذا نلاحظ ؟

– أن الفراعين الثلاثة الذين ذكروا كانوا جميعهم من (اللوبيم) .

قال زكريا :

- إنك على حق يا دانيال . لم يغز أي فرعون أرض فلسطين - بعد دخولنا إياها وتكوين دولتنا على يد داود - سوى هؤلاء .

التفت إليهم عزرا كالمنتصر :

- ألم أقل لكم إن ريح الغرب أخطر وأشد ؟ وإينارو بن بسامتيك تهب ريحه من الغرب . لذا ينبغي العمل على صدها قبل أن تصلنا فتمسح كل شيء بنيناه من الوجود .

تساءل زبديا :

- وما العمل ؟

حك عزرا كفيه إحداهما بالأخرى ووجه بصره إلى سقف الغرفة كأنه يستوحي أفكاره :

- هناك الكثير مما يعمل . لا بد أولاً أن نمد الملك أرتحششتا بالمال ليعد جيشه الذي يزمع إرساله إلى مصر . بهذا نحقق غايتين ، يحس ملك الملوك أننا معه ، أصدقاء مخلصون عند الشدة ، ونوقف ريح الغرب عن الهبوب . ويجب ، ثانيا ، الاستعداد للعودة إلى أورشليم برضا الملك ومساندته . حين يرانا معه سيكون معنا .

قال دانيال :

- تجار بابل وأغنياؤها من اليهود لن يبخلوا بالمال إذا سمح لهم بالبقاء هنا ولم يجبروا على الذهاب إلى أورشليم . تعرفون هذا بالطبع .

قال زكريا :

- وعلى نحميا استصدار قرار الإذن بالعودة من ملك الملوك .

قال عزرا :

- لن يعجز عن هذا ، إذا صمم . أنا أعرفه جيداً .

قال زبديا :

- وهو يعرف الملكة الأم ، أمسترا ، جيداً جداً ، ويعرف الملك ، والملك يعرفه .

قال دانيال :

- والملكة تعرف نحميا ، وتعرف الملك ، والملك يعرفها طبعاً .

- كل يعرف الآخر . المهم أن نعرف نحن كيف نصل إلى ما نريد .

***

بدت السيدة العجوز وكأنها استعادت شبابها ، وهي جالسة على أريكة صغيرة مغلفة بالمخمل، تنظر إلى شجرة السنط الوحيدة في حديقة ذلك المنزل القصي من منازل سوسة .. وأمامها جلس رجل جاوز الستين بقليل على حشية ، وإلى جانبه وصيفتاها ، أنديا وأندريا . قالت وهي ترجع البصر إلى جليسها :

- لم يعد الأمر خافياً يا كبر . ها هو أخمين يتأهب للزحف غرباً على وادي النيل .

- نعم ، يا مولاتي بجيش كبير جداً . ربما استمر في زحفه نحو الغرب لو نجح في العودة إلى منف ..

- مثلما فعل أرياندس . أليس هذا ما تريد قوله ؟

سكت . لم يجرؤ على أن يقول لها : مثلما فعل قمبيز ، زوجها الذي ابتلعت الصحراء جنوده. ارتأى أنه لو ذكر اسمه لأثار كوامن أشجانها ، وهي راعية ابنته أنديا تحوطها بعناية تفوق عناية الأم. وهو يعرف الكثير وشاهد الكثير . لقد جيء به صغيراً ضمن آلاف المسبيين من برقة بعد اقتحامها بخدعة دنيئة ، ويذكر أيام الحصار وبسالة أهله في الدفاع عن مدينتهم، كما يذكر ما فعلته فريتيمي بهم وكيف استباح الفرس المدينة المخدوعة ، وكيف اقتيد هو وآلاف غيره من الليبيين إلى فارس ، وكيف أجبر على القتال معهم في بلاد الإغريق. يذكر كل هذا وتقلبات الأيام وتبدل الظروف والأحوال . هل يقول له إنها السبب في كل ما حدث ؟

وكأنما خمنت ما يدور في خلده فأردفت :

- أتدري يا كبر أن جملة واحدة ، بل كلمة واحدة ، قد تغير مجرى التاريخ ؟

قال وكأنه يلتمس لها العذر :

- صدقت يا مولاتي. بل قد يكون حرف واحد، يخرج لظرف من الظروف لا يمكن منعه معه.

- لست أدري هل الظروف تصنع الحروف ، أم أن الحروف هي التي تصنع الظروف .

- كلاهما يصنع الآخر ، يا مولاتي ، حسبما يقال أو يعمل .

أحست بالرغبة في الاعتراف . قالت :

- ليتني ما تعلمت حرفاً من لغة الفرس . لو لم أتعلمها لظللت صامتة إلى الأبد . الصمت

نعمة وحكمة .

أدرك أنها تضعف ولم يرد لها أن تنهار أمام وصيفتيها :

- لو لم تتعلميها أنت ، يا مولاتي ، لكان غيرك تعلمها وأبلغ الخبر لمن يهمه الأمر ، ولكنت أنت الملومة على كل حال .. ثم إننا لا نصنع التاريخ ، فهو الذي يصنعنا .

سرى عنها الاعتذار الرقيق لها وإن أدركت مغالطته في صناعة التاريخ ، ورامت توجيه الحديث وجهة أخرى :

- إن لم نصنع التاريخ كله فقد نسهم في صناعة بعض أحداثه على الأقل ..

جاملها موافقاً :

- نعم يا مولاتي .. إذا كنا قريبين من هذه الأحداث .

قالت :

- المسافات لا تهم . ما يهم هو قرابة الصلة .. قرابة الدم .

سكت كبر مرة أخرى، إذ لم يجد ما يضيفه ولم يكن يدري الغاية من كلام السيدة العجوز.

فلما لاحظت صمته وجهت الكلام إلى إحدى وصيفتيها :

- ماذا قلت ، يا أندريا ، عن قائد الحركة في مصر ؟

أجابت الوصيفة :

- كما أخبرتك يا مولاتي . يقال إنه أعلن نفسه فرعوناً على وادي النيل لأن له حقاً في عرشه . يقال إنه من نسل بسامتيك الفرعون الأسبق .

- من آل بسامتيك ! أرأيت يا كبر ؟ إنه من أهلي . ابن عمي القريب .

لم يكن كبر يعلم هذا فرفع حاجبيه يبدي دهشته ، بينما مضت العجوز :

- اسمه إينارو ، كما تعلم قطعاً . ها هو يسترد العرش المغتصب .. أخيراً .

توالت في ذهنها الصور وتتابعت في نفسها الانفعالات . استعادت ذاكرتها جملة الأحداث الرهيبة التي عاصرتها طفلة صغيرة ، يقتل والدها ويمحق أفراد عائلتها ، وتذوق مرارة اليتم ولحظات الخوف . ثم ترسل عروساً مزيفة لتعيش مغلوبة على أمرها مع جبار مجنون حتى تفشي له السر الغريب انتقاماً من قاتل أبيها ، فإذا هي تسلطه على بلدها دون أن تنوي وتضع سيفه في رقاب أهلها دون أن تعي . اللعنة على الخائن أحمس ! لولا الخيانة لما كان الذي كان . وها هي

الآن عجوز محطمة منسية في طرف مدينة سوسة . لكن ... يمكنها أن تفعل شيئاً وهي تحصي أيامها الأخيرة المعدودات . يمكن أن تقدم خدمة لوطنها عساها تكفّر عن سوء نتائج بضعة الحروف الفارسية التي نطقت بها أمام قمبيز . أضافت بعد قليل :

– وهو ابن عمك أنت ، يا كبر ، ولو كان ابن عم بعيداً . دماؤنا واحدة يا كبر .

نظرت أنديا إلى أبيها متعجبة . أيكون والدها من بيت ملكي دون أن تدري ؟ لكنه أخبرها أنه من ليبيا .. من مدينة برقة البعيدة جداً . وهذه السيدة العجوز – في ما علمت – ترجع إلى مدينة صا في مصر ، فما الذي يجمع بينهما ؟ هو جاء صغيراً مع آلاف الليبيين ، وهي جاءت أميرة من بيت فرعون لتصبح إحدى أميرات فارس ، فكيف يكون دمهما واحداً ؟ لم تفلح في كبح جماح دهشتها وانطلق السؤال من بين شفتيها :

– عفوك يا مولاتي . هل لي أن أفهم ما ذكرته الآن ؟

ابتسمت مولاتها بمودة :

– دمك أنت ، يا أنديا ، كذلك من دمي . ودم أندريا أيضاً ، دعيني أشرح لك الأمر .

ثم طفقت تبين لها الصلة العتيقة ما بين أسرتها الفرعونية في صا والبلاد الليبية ، وتاريخ هذه الأسرة بالتفصيل ، وعلاقات الليبيين بالمصريين وامتزاجهم نتيجة الأصل والجوار ، حتى بلغت قصتها هي فسردتها كما حدثت حتى ساعتها تلك . وكان كبر مصغياً لا يطرف جفنه ، فإن كثيراً من التفاصيل التي سمعها جديدة على أذنيه ... وبعد أن أنهت روايتها قالت :

– ما كنت أظن العمر سيمتد بي حتى أبلغ هذه السن وأشهد ما أشهده ..

قالت أندريا :

– سيطول عمرك يا مولاتي حتي تشهدي ما تحبين .

فنظرت إليها في عطف بابتسامة شاكرة وهزت رأسها قليلاً والتفتت إلى والد أنديا :

– والآن يا كبر – بعد أن سمعت – ألا ترى أنه يجب العمل لمساعدة الفرعون إينارو ؟

أجابها في لهجة المتحفز :

– بلى يا مولاتي . بعد أن سمعت ما سمعت لا بد من المساعدة . إنني طوع أمرك .

فوجهت كلامها إلى وصيفتيها :

– ما هذا يا أنديا ؟ ألا تكرمين أباك بشيء يتناوله ؟ وأنت يا أندريا ؟ يحسن أن تساعديها .

نريد طعاماً طيباً .. طيباً جداً . أعداه على مهل .

فهمت الوصيفتان معنى ما قالت، فخرجتا، بينما انصرفت السيدة العجوز تحدث ضيفها..

9

كان سيد صا يجلس على عرشه ، في نفس القاعة التي جلس فيها أجداده من قبل ، تحيط به مجموعة من القادة والسراة يصرف معهم أمور الدولة الناشئة . كان إلى يساره الكاهن الأعظم ، حرمس ، ومسؤول الخزينة شيحو ، بينما جلس على يمينه حاكم إقليم بوباست ، إمنروت ، ثم مستشاره الخاص كيمون الإغريقي ، يتلوهم بقية كبار المسؤولين وأركان الدولة . قال صاحب التاج المزدوج يخاطب رفيقه القديم بلغة الحكم أمام الحاضرين :

- جميل أن يزورنا حاكم بوباست . نرجو أن يكون السبب خيراً .. لقد أخذتك بوباست منا وشغلتك عنا في ما يبدو .

قال إمنروت :

- لا يشغلني عنكم شيء في الوجود يا سيد الأرضين . أما سبب زيارتي ، إضافة إلى الحظوة برؤياكم وإعلامكم بأخبار بوباست ، فرجل غريب .

- رجل غريب ؟ ماذا تعني ؟

- أعني ، يا سيد الأرضين ، رجلاً أمسك به حراس الحدود الشرقية متسللاً في ما ظنوا . فلما استجوبوه وجدوا أنه يتحدث لغة قريبة من لغتنا بلهجة مغايرة مع كثير من الكلمات الفارسية ، مع أنه يرتدي ثياب راع من رعاة صحراء (أمو) .

- تقصد صحراء العرب أو سيناء ؟

- هذا ما عنيته يا سيد الأرضين . وقد جاءوا به إليّ في بوباست وسألته بنفسي عن أمره فقال إنه يحمل رسالة مهمة إلى رب وادي النيل . فتشته فلم أعثر معه على شيء ، لكنه أصر على المثول بين يديكم ليبلغ الرسالة ، كما قال .

فتفكر رينارو قليلاً وتساءل :

- راع يتكلم لغتنا بلهجة مغايرة ، يأتي من جهة الشرق ، ويعرف الفارسية ، ويزعم أنه يحمل رسالة إلينا . ممن ؟

- أبي ذكر المرسل ، يا سيد الأرضين .

قال الكاهن الأعظم حرمس :

- لا بأس من رؤيته ، فيما أحسب ، ثم تقررون أمره .

سأل إينارو :

- أهو هنا في صا ؟

فأسرع إمنروت بالجواب :

- إنه ببابكم ينظر الإذن بالمثول .

- أدخلوه .. إذن .

***

كان يرتدي ثوباً فضفاضاً ربطه بحزام رقيق من الكتان في وسطه ، وعلى رأسه خرقة كانت فيما بدا بيضاء اللون قبل أن تتسخ ، يلفها عقال أسود ، وفي قدميه نعلان من جلد الإبل ، وقد استرسلت لحيته وشعر رأسه اللذان وخطهما الشيب . انحنى البدوي في حضرة الفرعون ، ثم وقف جامداً يجيل بصره في الحاضرين .. فتأمله إينارو لحظات قبل أن يسأله :

- أتتكلم لغتنا ؟

أجاب بلكنة أثارت اهتمام الجماعة :

- نعم .. يا سيد الأرضين .

- ما اسمك ؟

- كبر .. يا سيد الأرضين .

- هذا ليس اسماً غريباً علي . إنه مستعمل في الواحات الغربية وفي سيوة . ما قصتك ؟

شرع كبر يروي قصته باختصار في جمل حاول أن يجعلها واضحة بقدر الإمكان ، تتخللها كلمات فارسية كثيرة . فلما انتهى سأله :

- تقول إنك تحمل رسالة إلينا . أبرزها إن كنت صادقاً .

فأشار كبر إلى رأسه :

- إنها هنا يا سيد الأرضين .

- تحت العقال ؟ هاتها .. يقول حاكم بوباست إنه فتشك ولم يجد معك شيئاً .

قال كبر :

- أرجو أن تأمروا بحلق راسي يا سيد الأرضين .

فضحك إينارو والتفت إلي إمنروت :

- لم يخطر هذا في بالك يا حاكم بوباست طبعاً . احلقوا شعر رأسه وأعيدوه إلينا .

حين عاد كبر حليق الرأس رأى الحاضرون على جلدته سطوراً من صور ورسوم منوعة . قال إينارو :

- إنها الكتابة المقدسة فيما يظهر . إنك تعرفها يا إمنروت . فقد كنت تنوي أن تصبح كاتباً . ادن من حاكم بوباست يا كبر ليقرأ ما على رأسك .

فعل كبر ما أمر به ، فأخذ إمنروت هامته بين يديه يديرها ويحاول قراءة ما عليها . كانت الكتابة الهيروغليفية دقيقة مسطرة بمادة سوداء لا يمحوها الماء ولا يزيلها العرق . فلما عرف بدايتها شرع يقرأ :

«مرزين أخمن بر حنع مشع ور.

خمت شنت خأو وعو.

ركمت.

سسبد ر سن.

دبح ند، بأو نبو.

نتت» .

فرفع إينارو حاجبيه مستغرباً وقال :

- هذا كلام قديم يحتاج إلى تفسير .

قال الكاهن الأعظم حرمس :

- نعم . إنه لغة القصور الخاصة ، ولغة المعابد .

- أتفهمها ؟

- بالطبع .

- إذن أوضح لنا معنى هذا الكلام ..

قال حرمس ، سعيداً بإظهار تميزه ومعرفته بهذه اللغة البالية :

- إنها تقول :

«المرزبان أخمين يخرج مع جيش كبير .

ثلاثمائة ألف جندي .

إلى مصر .

تأهب لهم .

اطلب العون من أي مكان .

نتت» .

قال إينارو :

- رسالة قصيرة واضحة . من أرسلك بها يا كبر ؟ من هي نتت هذه ؟

- سيدة عجوز في سوسة . كانت يوماً أميرة في هذا القصر يا سيد الأرضين . إنها الأميرة نتت ابنة جدك الفرعون خفرع .

فهتف الكاهن الأعظم :

- زوجة قمبيز ؟ ألا تزال حية ؟

- حية ترزق ، يا سيدي ، وهي بخير .

قال إينارو :

- حدثنا عنها . أخبرنا بكل شيء تعرفه عنها .

فاستجاب كبر للأمر وروى كل ما عرفه عن نتت وما سمعه منها ، وأفاض في تفصيل روايته ليشبع فضول الفرعون وحاشيته .. وكانت الأنظار والأسماع مصوبة إليه ، وهو يتحسس بين الحين والآخر جلدة رأسه الحليقة لتوها مفتقداً خرقته وعقاله . فلما أكمل نظر إليه إينارو راضياً وقال :

- أحسنت يا كبر .. كنت صادقاً ، وقد أبلغت الرسالة وأديت المهمة على خير وجه . أكرمه يا شيحو بما ينبغي لمثله .

فتدخل كيمون :

- أكرمه حتى ينمو شعر رأسه . من حسن الحظ أنه ليس أصلع . أرى أن يلبس خرقته وعقاله قبل أن يخرج ، إذ لا نأمن وجود من يحسن قراءة الكتابة المقدسة على هامته غير حاكم بوباست .

حاول إينارو كتمان ابتسامته لتعليق صهره ومستشاره ، بوضع كفه على فمه ، قبل أن يوجه كلامه إلى المحيطين به :

- قلت إن الرسالة قصيرة واضحة وقد عرفنا مصدرها ، فهي رسالة صادقة أيضاً .

قال إمنروت :

- منذ الأيام الأولى لانتصارنا رأيت أن الفرس لن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هزيمتهم هنا. وها هم قادمون .

قال كيمون :

- بثلاثمائة ألف مقاتل . جيش يكفي لاقتحام العالم وليس للزحف على مصر وحدها .

قال إمنروت :

- على كل حال .. نحن مستعدون للمعركة . أهل مصر كلهم مستعدون للقتال في سبيل أرضهم وحريتهم .

عقب الكاهن الأعظم حرمس :

- هذا صحيح . لكن الحملة الفارسية القادمة كبيرة جداً والمرزبان أخمين قادم بروح الانتقام لكرامته الشخصية قبل الثأر لفارس . الأميرة نتت تعرف ما في نفسه من حقد ، وهي تنصح بطلب العون من أي مكان .

فالتفت إليه إينارو :

- ألم أقل لك يوماً إنني أثق بحكمتك ؟ أرى أننا محتاجون فعلاً إلى المعونة المباشرة ، هذه المرة . لا تنسوا أن أسطول الفرس موجود بالقرب من شواطئنا الشمالية ولا شك في اشتراكه في الهجوم علينا . إذا أطبق الفرس من الشرق ومن الشمال قد نجد أنفسنا في موقف عسير . كم يمكنك حشده للقتال يا تافناخت ؟

كان تافناخت قائد الجنود المشاة .. وإلى جانبه سامحت المسؤول عن القوات البحرية . رد تافناخت :

- قد يمكنني حشد مائة ألف من الجنود المدربين يا سيد الأرضين ، وربما عشرة آلاف من الرديف . هذا أقصى ما يمكن .

تساءل إينارو :

- وأنت يا سامحت ، هل لدينا قوات نهرية ، إن لم تكن بحرية ، كافية ؟

- تعلمون ، يا سيد الأرضين ، أننا في بداية تكوينها .. لست مستعداً للمواجهة إلا انتحاراً . هذا هو الصدق .

قال إينارو بعد لحظة تفكير :

- لم يبق إلا هم . حتى إن استدعينا كل محاربي المنطقة الغربية والواحات .. فلا بد من المعونة . ما أظن أثينا تضيع مثل هذه الفرصة لضرب أعدائها . ما رأيك يا كيمون ؟

أجاب كيمون ، وقد فهم مراده :

- سبق أن أشرت بهذا ، وأرى المحاولة مجدية ، فإن الظروف كلها تؤكد الاستجابة .

علق إمنروت :

- نحاول . لن نخسر شيئاً من المحاولة .

تدخل شيحو :

- إذا كان المقصود - حسبما فهمت - الاستعانة بإغريق أثينا فقد يطلبون مالاً كثيراً ، والضرائب المفروضة هنا قليلة لا تلبي طلبهم .

قال كيمون :

- صارت الضرائب قليلة يا صاحب الخزانة الآن .. هه ؟ منذ سنتين فقط كنت تصرخ من ضرائب الفرس الباهظة .

فرد شيحو موضحاً :

- لا أقصد زيادة الضرائب بالطبع . لكنني أقرر الواقع . هذا ما أراده سيد الأرضين . تخفيف الضريبة عن الناس . ماذا أفعل ؟

قال إينارو يفض الاشتباك بين صديقيه :

- لدينا الكثير مما نعرضه على أثينا غير المال . ثم إن من مصلحتها إعانتنا في صد الهجوم

وكسر شوكة فارس . فلنحاول ، على كل حال ، ولنر النتيجة . تصوري أن كيمون مستشارنا ، يصلح سفيراً إلى أثينا . فهو يتحدث لغة أهلها وقد زارها من قبل .

قال إمنروت :

- نعم الرأي .

ختم إينارو الاجتماع :

- لا وقت لدينا . فليستعد كل في مجاله ، ولنأخذ حذرنا .. لنكثف طلائع استكشافنا على الحدود الشرقية ، وننبه أهلنا في الغرب .. ابدأ يا تافناخت في حشد الجند وتدريبهم ، ولتحاول أنت يا سامحت تجميع ما أمكن من المراكب وإعدادها للقتال . أما أنت يا كيمون فلتتهيأ للسفر إلى أثينا . أمامنا معركة مريرة في حرب طويلة جداً .

فجأة لمعت في ذهنه صورة باسخم ، فهمس في أذن إمنروت :

- ألم يظهر صديقك باسخم ؟

- لم يظهر صديقنا باسخم .. لعل التماسيح ابتلعته وهو يصطاد في الماء العكر .



مد مبنى الأكروبول ظله السارح على شرفة البيت الصغير الأنيق ، فوق أحد تلال مدينة أثينا ، ونسمات العشية اللطيفة تداعب وجوه الأصدقاء الأربعة في جلستهم المريحة .. كان هناك النحات فيدياس ، الذي بدأت شهرته تذيع ليس باعتباره نحاتاً موهوباً فحسب بل بكونه رساماً ونقاشاً كذلك . وكاتب المسرح اللامع سوفوكليس . وإلى جانبهما أول فيلسوف يطيب له أن يستقر في العاصمة المزدهرة أنكساغوراس يجالسهم رب البيت وحاكم أثينا ، بركليس . وكان الحديث يدور شائقاً في الفن والأدب والفلسفة ، وطبعاً ، في السياسة .

كان سوفوكليس يتكلم بحرارة :

- نعم .. الفلسفة هي محبة الحكمة كما حددها فيثاغورس . لكن ما معنى الحكمة أصلاً؟ ما أراه أنا حكمة قد تراه أنت نزقاً أو حمقاً . معيار الحكم ذاته يختلف من إنسان إلى آخر ، ولذا اختلفت الفلسفات .

قال أنكساغوراس :

- هذه سفسطة يا عزيزي . الصواب أن تقول إن وجهات النظر تختلف وليس الحكمة ذاتها.. الحكمة ثابتة أصولها أما وجهات النظر فتتباين نتيجة عوامل كثيرة ، منها البيئة ، والنشأة ، والظروف المحيطة ، والتراث الاجتماعي والديني ، والحالة الاقتصادية .. إلى آخره . لكن العقل العام ، أعني العقل الكلي الشامل ، مشترك بين البشر ، وهو الذي يسير حياتهم .

علق بركليس :

- العقل العام عندك، يا معلمي، منفصل عن الوجود العيني. إنه شيء مجرد فوق الأشياء. والناس، أقصد الشعب، أشياء. هذا يعني أن (النوس) أي العقل لا صلة له بـ(الديموس) أي الناس .

رد أنكساغوراس :

- أنا أقول إن في كل شيء أشيئاً من كل شيء .

- ما معنى هذا ؟

- معناه أن الأشياء الوجودية كلها مختلطة في أصولها الأولى ، مما يؤدي إلى القول بأنها مشتركة في وجودها المتعين ، أي وجودها المادي المحسوس ..

قال سوفوكليس :

- هذه لغة صعبة على الفهم . لو أنطقتها في المسرح على لسان شخصية ترسمها قد تفهم بحسب سياق الأحداث .

أجاب أنكساغوراس :

- هذه مهمتك أنت يا سوفوكليس ، علينا - نحن الفلاسفة - الفكرة وعليكم - معشر كتاب المسرح - عرضها على الجمهور .

- لكن الجمهور لا يتقبل الأفكار العميقة . إنه يأتي إلى المسرح إما ليضحك من عروض الهزل أو ليبكي للفواجع الرهيبة، لا لكي يتأمل الأفكار ويشغل مخه بقضايا الكون والوجود.

هنا تدخل النحات فيدياس :

- إئذن لي أيها الصديق في القول إن الفن يمكنه أن يمتع كما يمكنه أن يفيد . المتعة والفائدة قمة الفن الحقيقي ، لا تنفصل إحداهما عن الأخرى .

قال بركليس :

- هذا صحيح إلى حد كبير يا فيدياس . لكنني أخالف العزيز سوفوكليس الرأي . فالجمهور قد يُعْمِل فكره في العمل الفني فلسفياً . الجمهور يفكر جيداً بشرط أن تقدم له الأعمال الجيدة .

عارضه سوفوكليس :

- عدنا إلى العقل العام مرة أخرى .. أعرف أنك من حزب (الديموس) يا بركليس لكن أصدقني القول .. هل تؤمن فعلاً بـ(الديموس) ؟ هل تسلم للجمهور زمام الأمر في كل شيء ؟ ما كان ثمة حاجة إليك لو كان هذا صحيحاً .

تدخل الفيلسوف أنكساغوراس موفقاً بين الطرفين :

- الجمهور هو الذي يختار قيادته ، بمعنى أن القيادة يجب أن تخرج من الشعب ، من الناس ، برضاهم ، لا أن تفرض عليهم فرضاً بقوة السلاح أو سلطة المال أو ما يسمى ميزة النسب . القيادة هنا لا تنفصل عن الجمهور . تماماً كالرأس .. تراه كوناً قائماً بذاته تسميه (الرأس) لكنه - في الواقع - كون متصل بسائر أطراف الجسد ، وهذه الأطراف متصلة به .. هذا معنى قولي إن ثمة شيئاً من كل شيء في كل شيء .

قال فيدياس :

- لا أزال عند رأيي أن الفن يمكن أن يخدم الفلسفة ، والعكس صحيح . عندما أنحت تمثالاً أضع فيه روحي ، وأصور فيه مبادئي ، وأصوغ فكري ... أي فلسفتي .. وحين يكتب سوفوكليس مسرحية من مسرحياته لا شك في أنه يقدم من خلال شخوصه أفكاره هو ونظرته إلى الحياة ، بل أحلامه أيضاً .. تلك التي لم تتحقق . وعندما يتحدث فيلسوفنا أنكساغوراس يصوغ حديثه في عبارات فنية ... صعبة فعلاً لكنها تتجلى في جمالها الفني عند التحليل .

قال بركليس :

- إنها تقدم متعة الفهم ، والفن يقدم فهم المتعة .

قال سوفوكليس :

- المتعة نسبية ، والفهم نسبي ، كل شيء في الوجود نسبي .

قال أنكساغوراس :

- لا جدال في هذا . المطلق هو العلة الأولى .

مضى سوفوكليس ينهي حديثه :

- الحياة كلها نسبية . الموت وحده المطلق .

قال فيدياس :

- معنى هذا أن البداية - ما يسمى العلة الأولى - والنهاية - ما يسمى الموت - هما المطلقان . ما عداهما نسبي . البداية والنهاية حقيقتان ثابتتان ، وما بينهما وهم . هل أقول.. باطل ؟

اعترض سوفوكليس :

- ليس هذا قصدي بالضبط . قلت إن البداية والنهاية ، أعني الحياة والموت ، مطلقان . بقية ما يدعوها انكساغوراس «الأشياء» نسبية . لعل المصريين وفقوا في المزج بين المطلقين

قال أنكساغوراس :

- المصريون اهتموا بما قد تسميه المطلق الأخير .. الموت وما بعد الموت . بعكس ما نفعل هنا ، إذ نهتم بالمطلق الأول .. بداية الحياة ..

قال فيدياس :

- تثيرني التماثيل المصرية بأسلوبها التجريدي ، المعن في التجريد . لكنها - فيما أرى - تبدو جامدة ، الحركة فيها .. كأنها ميتة .

انبري سوفوكليس :

- ذلك ، كلما قال أنكساغوراس ، لأنهم يهتمون بالموت ، فلا يلقون بالاً لتفاصيل الحياة . أنت ، يا عزيزي ، تعتني بالتفاصيل جداً حتى لتوشك تماثيلك أن تنطق . تمثال أثينا الذي تكاد أن تكمله شاهد على ما أقول .

قال بركليس :

- لقد ذكرتموني بمصر والمصريين . جاءني اليوم مبعوث من ملكها الجديد ، يحمل رسالة . الطريف أن المبعوث شاب إغريقي من سكان الدلتا ، بالغ اللباقة في حديثه وجيد العرض ، يدعى كيمون بن ثيوفرون .

تنحنح أنكساغوراس :

- اللباقة ممن أرسله إذ اختار إغريقياً ليكون سفيره إليك . ماذا في الرسالة يا ترى .. إن كان لي أن أسأل ؟

- طبعاً من حقك أن تسأل يا معلمي ، فقد أصبحت مواطناً أثينياً له حق السؤال . فرعون مصر

الذي أخرج الفرس من دلتا النيل يطلب مساعدة أثينا لصد هجوم فارسي قادم عليه .

- أهذا المسمى إينارو ؟

- هو بذاته . لقد علمنا جميعاً بما جرى في وادي النيل منذ سنتين .

- وماذا تنوي أن تفعل ؟

- سأستشير الجمعية الشعبية غداً ..

- أسألك عما تنوي أنت وليس عما تفعله الجمعية الشعبية .

- أتريد الحقيقة يا معلمي ؟

- المفروض أن الحقيقة مطلبي .

- إنني ميال إلى الاستجابة للطلب . لكن القرار بيد الجمعية طبعاً .

قال سوفوكليس ضاحكاً :

- لقد اتخذت قرارك أنت . المهم أن تقنع به أعضاء الجمعية .

دافع بركليس عن قراره الذي يراه :

- هذه فرصتنا لضرب الفرس ضربة موجعة. ضياع وادي النيل من أيديهم يضعفهم كما تعرف .

- أتنوي الدخول في حرب جديدة ضد فارس ؟

ابتسم بركليس :

- إن كان لا بد . على الأقل حتى أتيح لك - يا صديقي - كتابة مسرحية عن الفرس تبذ بها مسرحية صديقك اللدود أسخليوس عنهم . إنها تعرض بنجاح على المسرح منذ اثني عشر عاماً . ألا تلذ لك منافسته ، بل والفوز عليه ؟ هذه فرصتك .

قال أنكساغوراس :

- (النوس) يفكر ويقرر . بقي عليه أن يشد إليه (الديموس) حتى يحقق النجاح المطلوب .

قال بركليس :

- لا (نوس) بدون (ديموس) ، والعكس صحيح ، يا معلمي . أنت الذي يقول هذا .

قال سوفوكليس :

– إذن .. غداً تعرض الأمر على الجمعية . سنرى مسرحية لطيفة .

قال فيدياس :

– أرجو أن يتفضل رب الأرباب ، زيوس ، بأن يرسل إلى الاجتماع الربة أثينا .. ربة الحكمة .

قال بركليس :

– لا تنس ، أيها المفتون بأثينا هذه ، أنها ربة الحرب أيضاً !

***

لم يكن اجتماع الجمعية الشعبية هادئاً ولم تكن مهمة بركليس في إقناع أعضائها يسيرة ، فقد أصروا على أن يسمعوا سفير الفرعون يشرح الموقف في مصر بالتفصيل ، بعد أن قدمه إليهم بركليس وتلا الرسالة التي حملها السفير .. ثم طلبوا مناقشة مواقف دول (حلف ديلوس) الذي ترتبط به أثينا وتتزعمه من الصراع الدائر والمعركة المحتملة ، وانعكاسات التدخل الأثيني على جملة الحلف الهش ، وتساءل بعض الأعضاء عن الفائدة المرجوة من هذا التدخل وما يعود منه على الأثينيين .. وأثار آخرون خطر إحداث فراغ في بحر إيجه ومنطقة الأرخبيل قد يستغله الفرس لهجوم مباغت من أسطولهم في هذا البحر . ونبّه عضو بصوت متحشرج إلى أهمية احترام الهدنة غير المعلنة بين أثينا والفرس ما دام هؤلاء لم يبدأوا العدوان. وتداخلت الآراء والملاحظات ، والتعقيبات ، وكان الضجيج يملأ القاعة الوسيعة المكتظة بنواب الشعب ، يحاول كل منهم أن يعلو صوته بما يرى حتى يغطي بقية الأصوات . أخيراً تكلم بركليس بعد أن بذل جهداً كبيراً للسيطرة على الموقف وإحلال شيء من الهدوء . حتى يسمع :

– أيها السادة المبجلون ! إننا حين نرسل بسفننا إلى مصر فإنما نفعل ذلك لمصلحة أثينا ذاتها . وعندما نرسل بأبنائنا البواسل للقتال في الدلتا ضد الفرس فنحن نضربهم بعيداً عنا بدلاً من أن يضربونا هم هنا في بلادنا . هل نسيتم ما فعله دارا ؟ هل نسيتم حملة أحشويرش؟ هذه فرصة لا تعوّض ، أن نقاتل أعداءنا إلى جانب مصر بدلاً من أن تقاتل مصر إلى جانب أعدائنا .

وسكت قليلاً ، يلاحظ رد فعل كلماته كعادة الخطيب المتمرس ، ثم أضاف :

– لا تنسوا أيضاً أن لنا في دلتا النيل جالية إغريقية وفيرة العدد .. هناك في نكراتيس وحدها عشرات الآلاف ، وفي راقودة وجزيرة فاروس ، بل في منف وصا وبوباست . يجب أن ندافع عنهم ، أم نتركهم تحت رحمة الأعداء ؟

والتفت إلى كيمون :

- هذا واحد منهم ، جاءكم سفيراً من الفرعون يطلب المساعدة ، فهل تردونه خائباً ؟

سرت همهمة بين الحاضرين ، فانتهز بركليس الفرصة ومضى يهدر :

- إننا نحمي أيضاً إخواننا في قورينا وبرقة وغيرها من مدن ليبيا القريبة . ألم يزحف الفرس مرتين عليهم ؟ فلو نجحوا في السيطرة على هذا الجزء المهم من شاطئ البحر الجنوبي لقضوا على الجميع .

وتوقف قليلاً قبل أن ينطلق مرة أخرى :

- إن خيرات وادي النيل وفيرة ، وبدلاً من أن نعتمد على قمح ما وراء البحر الأسود غير المنتظم والذي يتعرض للمخاطر ، فإن قمح مصر وبقية غلالها تكون مصدراً لا ينضب لنا ، رداً لجميل معونتنا .

ساد الهدوء التام ، فقد نفذت كلماته تماماً وحققت غرضها ، فختم خطبته :

- استقلال مصر يعني المحافظة على استقلال أثينا وحريتها ، بل حرية الإغريق جميعاً . أما عن خطر الفراغ في البحر فلن يكون . لن نرسل بأسطولنا كله بالطبع ، وهو أسطول كبير ، كما أن أسطول فارس سيتجه قطعاً إلى مصر ليسند جيشها البري الزاحف .. فكروا ، أيها السادة ، في ما قلت . فكروا جيداً . وأرجو أ توفقوا في اتخاذ القرار الملائم لمصلحة أثينا ولفائدة الإغريق .

لم تطل المناقشة بعدها ، فقد قررت الجمعية الاستجابة لطلب المساعدة وإرسال العون إلى مصر على الفور ، وفوضت بركليس في تحديد صورة المعونة وحجمها على الوجه الذي يراه .

***

قال بركليس يحادث ، بصوت خفيض ، كيمون الذي يحاذيه هابطين درج الأكروبول :

- سنرفع حصارنا عن جزيرة قبرص مؤقتاً ، وسنحوّل إلى مصر مائتي سفينة من ذوات الثلاثة قلوع ، فوقها عشرون ألف مقاتل . سوف تقلع بها أنت أيها السفير . هل يكفي هذا ؟

رد كيمون شاكراً وقلبه يرقص طرباً لنجاح مهمته هذا النجاح الباهر :

- هذا كاف تماماً .. أكثر من كاف في الحقيقة . لا أدري كيف أشكرك يا سيدي .

قال بركليس :

- لا أراك ملزماً بشكري أيها السفير . كل ما أرجوه أن تعرف أثينا كيف تشكرني لما أفعله من أجلها . سنتخذ الترتيبات الضرورية خلال بضعة أيام ، وسترحل بما طلبت ، مع تحياتي وتمنياتي

الطيبة للفرعون الشاب .

11

اقتربت الساعة !

نُفخ في الصور فتردد صداه في طول الدلتا وعرضها . غادر شباب الفلاحين حقولهم وأسرعوا إلى معسكرات التدريب ، ودفعت الصحراء الليبية بأفواج من فرسانها شرقاً تطير بهم خيولهم صوب الدلتا ، وانشغل البحارة في مجرى الوادي بإعداد المراكب النيلية للقتال . لم يكن ثمة حديث إلا حديث الحرب في جلسات الشيوخ على المصطبات في الأماسي ، وحلقات النسوة وهن يغزلن أو ينسجن أو يقمن بإعداد ما يتطلبه القتال ، وحتى في ألعاب الأطفال يمثلون المعركة المرتقبة يتصورونها بمختلف الصور . كانت الصيحة : الفرس قادمون !

أمر تافناخت بالإكثار من عدد نقاط المراقبة على الحدود الشرقية ، وكانت سرايا الاستطلاع تمسح الحدود شمالاً وجنوباً من ترعة تانيس وبحيرتها في الشمال حتى البحيرات المرة وبحر القلزم في الجنوب ، وكان لا يقر له قرار وهو ينتقل من معسكر تدريب إلى آخر ، ويتفقد أسلحة جنوده وعدتهم . أما سامحت فقد انهمك في متابعة إصلاح المراكب وتزويدها بالدروع والنبال وكان قلقاً ، إذ هو يعلم أن قوة مصر البحرية ضُربت منذ زمن ولم يعد لها في عالم الماء وجود ذو خطر. وكان القائدان يرفعان تقاريرهما إلي الفرعون وينبئانه بكل ما يستجد . وكان إينارو ينتظر جواب أثينا بعودة سفيره إليها ، لكنه لم يعتمد الاعتماد كله على هذا الجواب . كان يرى في روح المقاومة التي سرت في الجميع الأمل في الانتصار على الزاحفين كما انتصرت الثورة من قبل دون مساعدة من أحد .

***

وكأنما هو التوقيت الذي اختاره الفرس ، موفقين بين هجوم سفنهم داخلة من البحر الأخضر الكبير إلى مجرى النيل من فرعه الشرقي حتى تبلغ منف ، وبين وصول جيشهم الضخم حدود مصر الشرقية ، لتطبق القوات البحرية والبرية دفعة واحدة على المقاومة التي تقابلها .

كانت السفن الفارسية تتقدم تحرسها مجموعة كبيرة من سفن كنعان حتى توصلها غايتها ، دون الاشتراك في قتال أهل مصر كما هي نصوص المعاهدة بين فارس وكنعان ، ولم يقابلها في طريقها من سواحل الشام حتى اقتربت من ساحل مصر الشمالي ما يزعجها . كانت الشمس في

كبد السماء والبحارة ينظرون جنوباً فيرون قمم النخيل المنتشر على الشاطئ غمامة سوداء، فلو نظروا إلى الغرب لرأوا عشرات من أشرعة السفن الثلاثية القلوع يرتفع بها الموج ويهبط وهي تدنو منهم في سرعة فائقة . كانت مائتا سفينة أثينية متخذة شكل هجوم صاعق في شكل نصف دائرة تتقدم لتحيط بالأسطول الفارسي المدعم بالسفن الكنعانية .

ولم تطل المعركة البحرية المفاجئة. دُمر أسطول فارس تدميراً كاملاً، وأُغرقت خمسون سفينة كنعانية وفرت بقيتها ميممة صوب الشمال الشرقي تطلب النجاة. ولم يحل الظلام حتى كان كيمون بن ثيوفرون جالساً في كوثل سفينة القيادة تغمر فؤاده السعادة ويطفح وجهه بالهناء والسرور. كانت الموقعة البحرية التي شاهدها قصيرة سهلة حاسمة.. ومع إطلالة الصباح ولجت السفن الأثينية المنتصرة مصب فرع النيل الشرقي تتهادى في رتل طويل يمتد إلى ما لا نهاية .. واحدة .. اثنتان ..خمس .. عشر .. ثلاثون .. مائة .. مائة وخمسون .. وقد تجمع حشد كبير من الناس عند المصب وعلى جانبي فرع الوادي يلوحون للبحارة في ابتهاج دافق . إنه النصر الأول في معركة الحرية .

***

في نفس الساعة التي دخل فيها كيمون قاعة العرش الفرعوني في صا كان إينارو مجتمعاً بأركان حربه ومستشاريه . لم يغب أحد ، فقد أنبأت سرايا الاستطلاع أن الجيش الفارسي وصل الحدود الشرقية بعد عبور صحراء سيناء ، وكانت أخبار المعركة البحرية ووصول العون الأثيني قد بلغت الأسماع ، ورفعت الروح المعنوية بدرجة عالية . تحدث كيمون عما رأى وسمع في أثينا وعن سرعة استجابة بركليس لطلب المعونة ، وكل ما جرى في الطريق حتى وصل القصر ، ولم يكن الوقت مناسباً للتفاصيل الكثيرة أو الأحاديث الجانبية البعيدة عن هموم اللحظة .

قال إينارو :

- حسناً .. ها هم قد جاءوا . أطلب منكم الرأي .

كان إمنروت أول من تكلم :

- جميع الاحتياطات اتُّخذت . الحصون مهيأة ، ومراكز دفاعنا متينة .

قال تافناخت :

- تم تدريب كل قادر على حمل السلاح ، وهو متوفر . يمكنني القول إننا حشدنا ما يزيد عن

مائة ألف من المشاة ، وهناك نحو عشرة آلاف فارس .

وقال سامحت :

– لقد كنت قلقاً لضعف قوتنا البحرية ، غير أن وصول سفن أثينا ودحرها أسطول فارس يمكننا من إلحاق مقاتلي مراكبنا بزملائهم في الدلتا الشرقية لصد الهجوم .

تأملهم إينارو وعقب :

– ليس من الحكمة انتظار وصول الفرس قلاعنا في المدن الكبرى مثل بوباست أو غيرها ، ولن ندعهم يختارون مكان المعركة ، أو المعارك . مثل هذا الجيش الزاحف الكبير لا بد من إيقاعه في شرك محكم . ينبغي أن نختار نحن موقع الصدام ونجرهم إليه .

نظر الجميع إليه مستفسرين ، فمضى قائلاً :

– سنحشد قواتنا كلها في مكان واحد ، ثم نناوش جيش فارس ، ونستدرجه إلى المكان الذي أراه مناسباً للقاء . يجب أن تكون معركة واحدة فاصلة ، ولن نسمح لهم بفرصة محاصرة قلاعنا حتى لا يشلوا حركتنا . سنلتقي بهم هنا في (مدينة رعمس) . في هذا المكان يمكن لأسطول أثينا التدخل بسفنه ورجاله .. إن دعت الحاجة . ولن يستطيع التدخل إذا كان صدامنا مع جيش فارس على الحدود أو إذا سمحنا له بالتوغل في الدلتا .

***

كانت (مدينة رعمس) هذه قد أسسها الفرعون (رعمس الثاني) في موقع يمر به القادم من البحر أو من سيناء قاصداً وسط الدلتا ومدنها الرئيسية ، وعرفت عند الإغريق باسم (بابرميس) ، وهو موقع متصل بمساحة هائلة من بحيرة شاسعة في شماله ، يسهل الدفاع عنه كما يسهل الهجوم منه كذلك ، كما هو متصل بطرق الإمداد من جنوبه وشرقه على مدى بعيد. فإذا اضطر المدافعون إلى الانسحاب ، لسبب أو لآخر ، كان انسحابهم منظماً إلى أعماق الدلتا وحصونها .

وسرعان ما صدرت الأوامر بتوجه فرق الجيش الفرعوني نحو الشمال الشرقي ، وطلب من مائة سفينة أثينية الانطلاق إلى البحيرة وبقاء سائرها في مجرى النيل عند فرعه الشرقي ، احتياطاً لأية مفاجآت .

كان الجيش الفارسي يتحرك ببطء شديد ، لكثرة عدده وتنوع فرقه وتعدد أسلحته المتباينة، فقد جمع أخمين جنوده من مختلف أقاليم المملكة ، وكان الثلاثمائة ألف جندي الذين حُشدوا من كل مكان مختلفين سحنةً ولباساً ولغةً وسلاحاً . كانوا يمثلون ، بحق ، تلك الفسيفساء الفارسية . وقد

علم أخمين بحشد إينارو جيشه قرب (مدينة رعمس) - سرب إينارو نفسه هذا الخبر حتى يوهمه بأنه تخلى عن صا وعن بوباست وبقية مدن الدلتا الكبرى وربما أعد نفسه للفرار - فوجه جيشه نحو الشمال الغربي يتابع غريمه ليقضي عليه ويثأر لشرفه العسكري المثلوم .

12

اصطف الجيشان متقابلين في سهل منبسط تحيط به بضعة تلال قليلة الارتفاع ، وقد برزت الشمس يعكس أشعتها سطح البحيرة والمستنقعات المحيطة . وقف إينارو على عربته الحربية واضعاً تاجه المزدوج على هامته ، بينما أمسك شيحو بعناني فرسي العربة . وإلى يمين إينارو كان إمنروت في عربة مماثلة ، وتهيأ الاثنان بقوسيهما المشدودين وعلى كتف كل منهما جعبة ملأى بالسهام . وحول الزعيمين ثبتت كوكبة من خيول الصحراء انتصبت ريشات فرسانها ، في أيديهم رماح طويلة مشرعة ، وهي تحمحم وتضرب بأقدامها الأرض وترسل صهيلها المدوي فيرتج له السهل . وأمامها في المقدمة تلاحمت آلاف من التروس تكّون سداً حامياً منيعاً ، ومن خلفها آلاف من حاملي الأقواس والسهام .. أما في الميمنة والميسرة فكان المقاتلون بالسيوف . تحميهم على الجانبين أعداد أخرى من الفرسان . ووضع في المؤخرة أصحاب الفؤوس والحراب والخناجر . وكان الجميع في انتظار اللحظة الحاسمة للالتحام .

على الجانب الآخر كان المرزبان أخمين واقفاً في عربته المذهبة يزينها نسر عظيم ، وهو مطمئن إلى نتيجة المعركة . إن جيشه يعد ثلاثة أضعاف جيش عدوه ، وفيه من المقاتلين الأشداء ما يكفي لسحق الخصم سحقاً كاملاً وقد هيأه بمختلف أنواع الأسلحة ودربه أفضل تدريب .. سنتان مرتا على خروجه من (القلعة البيضاء) وها هو يعود ليستعيدها ويسترجع مصر كلها بعد ساعات .

قال إينارو لشيحو الذي أمسك باللجامين يمنع بهما انطلاق جوادي عربة الفرعون :

- شيحو ؟

- نعم .. يا سيد الأرضين ؟

- نادني باسمي .

- نعم .. يا إينارو ؟

- أكنت تظن أن هذا كله سيحدث ؟

- كنت مؤمناً بحدوثه منذ قلت لي إنها البداية لساعة الخلاص .

- أتذكر البداية يا شيحو ؟

- لكأنها الساعة .

- حياتنا ليست إلا ساعات .

- ساعات عز تساوي دهوراً .

- وهذه الساعة ؟

- ساعة العز المجيدة . إنها ساعة الكرامة والحرية .

- تعلمت الكثير يا شيحو .

- منك .

- وقد تعلمت منك أكثر .

والتفت إلى إمنروت :

- هل نبدأ الآن يا .. أخي !

فنظر إليه إمنروت بحب :

- اعط الإشارة يا ... أخي .. اعط الإشارة يا سيد الأرضين ؟

***

رفع إينارو يده وأشار ببدء الهجوم فاندفع آلاف الجنود إلى الأمام وهم يطلقون صيحات القتال ، وتقدم الجيش الفارسي زاحفاً.. ولاحظ إينارو أن تقدمه كان يقصد ميسرة جيشه، فأدرك خطته لكسر جناحه الأيسر أولاً بدلاً من القلب المحصن بالدروع والمتاريس. كانت فرصة مناسبة له لكي يطلب من إمنروت أن يميل بقواته يميناً ليشق بها وسط جيش العدو، فاستجاب إمنروت واستطاع بهجمة مباغتة أن يحقق ما أراد. تضعضعت قوات أخمين نتيجة انكسار وسطها، فرام رد الضربة بالالتفاف على ميسرة المدافعين.. وكان هذا خطأ فادحاً ، إذ ما أن رأى إينارو هذا التحرك حتى أمر فرسان الطرف الأيمن بتوجيه ضربة أخرى إلى جانب العدو ومؤخرته ، وبذا تقطع جيش فارس إلى أربعة أجزاء بعد أن كان كتلة واحدة. وسهلت عملية اقتحامه وتمزيقه. وحين ابتغى أخمين التراجع حُصر ما بين قوات إينارو في الغرب والجنوب ومستنقعات البحيرة في الشمال والشرق ..

دبت الفوضى في الجيش الفارسي ، ولم يعد من الممكن توجيهه والسيطرة عليه . وقع أخمين في المصيدة التي نصبت له ، فحاول جمع أكبر عدد من الجنود من حوله لحمايته هو بدلاً من مهاجمة قوات عدوه ، وبذا زاد وضعه سوءاً ، إذ تراجع الجنود يحمون قائدهم بينما ازداد الضغط عليهم في القواطع المخترقة الثلاثة وفقدت قيادتهم اتصالها بعضها ببعض . كان قايا يقود مجموعة الخيالة على أقصى طرف الجيش الأيمن ، ومرسن يقود مجموعة أخرى في أقصى اليسار، وهما يهجمان بخيولهما الليبية الشهيرة بسرعتها وقوتها والتي طالما فازت بقصب السبق في (المراثون) وتغنى بها الشعراء ، تتطاير أعراقها ونواصيها وهي تدك الأرض والأجساد معاً . وقد أحدثا ثغرة واسعة في مقدمة جيش أخمين ومؤخرته بهجماتهما المتتالية . أما كيمون فقد أسندت إليه قيادة السيافين ، وهو مرتد درعه المزردة ووضع في يساره ترساً عظيمة ، يعمل سيفه المدبب الطويل في الأعناق .. وقد حمت المعركة الرهيبة وتعالى غبارها وارتفعت جلبتها ، وجاء الضحى وهي لم تحسم لصالح أي من الطرفين بعد .

***

رأى تافناخت أن ضرب جناحي جيش فارس لم يقض على كتلته الضخمة وأن التركيز ينبغي أن يكون على القلب في هذه المرحلة ، فاقترب من إينارو يبدي وجهة نظره ويبلغه آخر التطورات على جبهات القتال . استصوب هذا الفكرة وقرر الأخذ بها وأصدر أوامره بذلك ، ثم اندفع بعربته يقودها شيحو محرضاً رجاله على الاندفاع وراءه .

هناك على تل صغير قريب رأى شيحو رجلاً شد قوسه ووجه سهمه نحو إينارو . كان قريباً بدرجة تمكنه من إصابة الهدف . عرفه . كان باسخم . أطلق عناني الفرسين وقفز من مكانه وارتمى على صدر إينارو يحميه ، في نفس اللحظة التي انطلق فيها سهم باسخم . تضعضع إينارو للمفاجأة .. وانغرز السهم القاتل في ظهر شيحو .

كان إمنروت قريباً . رأى كل ما حدث . شد قوسه وأطلق السهم . ترنح باسخم وسقط .

حدث هذا في لحظات .

ضم إينارو رفيقه إلى صدره يحاول أن يصلب عوده ، وكان نفس شيحو متقطعاً وهو يلهث وقد أسند رأسه إلى كتف صديقه العزيز ، وهمس في أذنه بصوت متحشرج :

- إينارو .. أظنني رددت .. لك .. الجميل .

ثم همد .. وخيط من دمه يسيل من جرحه الغائر وينسكب على صدر إينارو حاراً فيكويه.

***

جن جنونه ، فاستل السهم من ظهر شيحو وأسنده إلى كرسيه ، ثم أمسك بالعنانين وصاح صيحة عظيمة بجنوده أن يتبعوه وأنقذف كالشهاب قدماً . وكان إمنروت يغلي غضباً فاندفع هو أيضاً إلى قلب جيش فارس كأنه الصاعقة . كانا يهدران ويزعقان وقد تخليا عن قوسيهما وأعملا في يديهما السيف يضربان به ذات اليمين وذات الشمال . كانا يتقدمان وجنودهما يتقدمون معهما زاخرين كالنيل في قمة فيضانه . وما أن توسطت الشمس السماء حتى كان جيش فارس العرمرم يتقهقر ، ثم يتشتت ، ثم تلوذ قواته بالفرار في كل اتجاه كالفئران المذعورة . ومن مئات الآلاف الثلاث لم ينج سوى القليل ممن استطاع المروق شرقاً صوب صحراء سيناء .

صعق المرزبان أخمين وهو ينظر إلي فلول جيشه تتراجع ، ثم وهي تتدحر ، وهي تطارد تقتيلاً وتذبيحاً ، وتمزيقاً كما تمزق الخرقة البالية . أدار عربته الحربية في اتجاه الشرق يطلب النجاة ، لكن عجلتيها انغرزتا في الأرض الطينية الرخوة التي كانت تنز بمياه البحيرة وغرقت قوائم فرسيه في الوحل ، فهبط منها يركض على قدميه يحاول الفرار ، وقد ألقى بقوسه حتى لا يثقله وشمّر عن ساقيه عباءته المسترسلة ، تغوص قدماه في الطين . رآه إينارو هو يهبط من العربة ، فلحق به حتى حاذاه ، ثم قفز من عربته وقبض على عنقه ليصرعه ويطرحه أرضاً، وصرخ في وجهه وهو جاثم على صدره :

- لن أقتلك بسيف . لن أقتلك بخنجر . لن تموت ميتة الرجال ... ستموت بيدي هاتين .

ثم أحكم قبضتيه على عنقه ، وقد انغرست مؤخرة رأسه الحاسرة في الوحل . وظل يضغط ويضغط ، ونفسه يعلو ويهبط وصدره يرتفع وينخفض ، وأخمين يرفس بساقيه في الهواء ويحاول أن يدفع الصخرة التي حطت على صدره بيديه ، حتى شعر إينارو بأن ضحيته تتراخى، وانبسطت يداه إلى جانبيه وقد تدلى لسانه وجحظت عيناه . ضغط مرة أخيرة بقوة وهو يصر على أسنانه بشدة ويصرخ :

- أبي ي ي ي ! شيحو و و !

فك قبضتيه بصعوبة من عنق الجثة الهامدة ، ومضى إلى عربته .. كان جسد شيحو لا يزال في مكانه مغمض الجفنين وعلى محياه يرف طيف ابتسامة راضية . حمله بهدوء ليضعه في مقعده هو، وجلس ممسكاً بالعنانين وقفل راجعاً نحو إمنروت . كان يبكي في صمت .

13

سُحق جيش الفرس سحقاً تاماً وتناثر ما جمعوه على مدى سنتين كاملتين أشلاء في بضع ساعات . كانت الهزيمة منكرة لا يمكن تصديقها لولا أن كتب التاريخ القديم كلها تجمع على ما حدث ، وقد لجأ قسم من بقايا الجيش المهزوم إلى مدينة منف يحتمي بأسوارها يلاحقه المنتصرون ، وانضم إلى من كان محاصراً من الفرس وبعض الأهالي هناك . لكن منف نفسها لم تلبث أن تداعى دفاعها وسقطت في أيدي الثوار .

(القلعة البيضاء) وحدها هي التي ظلت صامدة مقفلة الأبواب على من في داخلها مستحيلة الاقتحام .

ويقال إن جثة المرزبان أخمين ، وفي بعض الروايات أنها رأسه ، أرسلت إلى أرتحششتا حتى يتأكد بنفسه من مصير عمه ، واليه على مصر وقائد جيشه الزاحف على أرض النيل .

***

زلزلت الأرض زلزالها ، وكانت الكارثة أكبر من أن يحتملها ملك الملوك وحاشيته ، وسادت البلبلة أرجاء العاصمة الفارسية وبقية أصقاع المملكة ، وقد أدرك الجميع حجم النكبة المريعة ونتائجها البالغة الخطورة والسوء .

كان الإيوان مكتظاً ، فقد جمع أرتحششتا كل وزرائه ومستشاريه وقادته ومعاونيه . وكانوا يتبارون في إظهار فجيعتهم المُرة ، وإن دغدغ السرور الخفي بعض الأفئدة ممن كان أصحابها يعدون أنفسهم لأداء دور معين على مسرح الأحداث القادمة .

دوّى صوت أرتحششتا كالرعد وسط الصمت المطبق :

- هذا لا يصدق .. لا يصدق . ثلاثمائة ألف جندي . سنتان من الإعداد .. تلال من الذهب أنفقت .. ثم .. يُدمر جيشنا ويغرق أسطولنا ، ويُرسل إلينا هذا الأخمين جثة هامدة . أية سخرية هذه ! وضع أنف فارس في الرغام وأذل عرش الطاووس . من المسؤول عن هذه المصيبة ؟ أنتم .. أنتم جميعاً المسؤولون .. أسهمتم واحداً واحداً في النتيجة التعسة ، وشاركتم في الخاتمة البائسة لحملة لم يشهدها التاريخ .. تركت لكم حرية التصرف والإشراف والإعداد .. فانظروا ما حدث .

كان غاضباً أشد الغضب ، ولم ينبس أحد بكلمة . فضرب كفاً بكف ومضى يزمجر :

- وادي النيل كله يضيع ، مصر تفلت من قبضتنا . فماذا فعلتم ؟ وماذا تفعلون ؟ بل ماذا ستفعلون يا ترى ؟

لم ينطق أحد . فقال آمراً :

- أجيبوا ! تكلموا ! افعلوا شيئاً .. أي شيء ! من هذا الإينارو الذي مرغ شرف فارس ، شرفكم ، في التراب ؟ أي ديفا هو ؟ أخبروني !

كان كاهن المجوس الأكبر أول من جرؤ على الكلام ، ربما بحكم مكانته الدينية العالية وبعده عن المسائل العسكرية ، محاولاً فتح الأفواه المغلقة :

- صدقت يا ملك الملوك . إنه ديفا بكل معنى الكلمة . شيطان حقيقي . لعل روح أهريمان الشرير ذاته تجسدت فيه . ما فعله يدل على أنه شيطان رجيم .

رغم هذا لم تواتِ أحداً من الوزراء والمستشارين والقادة الجرأة الكافية للمشاركة في الحديث الصعب عن الموقف الشائك سوى وزير واحد ، ربما أهّله ظرفه الخاص وعقيدته المختلفة للكلام . كان اسمه نحميا . قال - يجاري الكاهن ويداهن الملك :

- الكاهن الأكبر على حق يا مولاي . في مصر يدعون الشيطان (شث) وهو عندهم رب العواصف والزوابع الذي يسكن الصحراء . أحب أن أذكر بأن إينارو هذا عاصفة قادمة أصلاً من الصحراء .

فنظر إليه أرتحششتا وقال :

- فليتلبسه ديفا أو شث أو الشيطان . فليتملكه أهريمان نفسه . المهم الآن أن اسمه إينارو ، وأنه يحتل عرش الفرعون في مصر وهزمنا هزيمة منكرة . هذه هي الحقيقة . يبدو أنه لا مفر من المسير إليه بنفسي ، ما دام قادتي قد أخفقوا في ما رجوت أن ينجزوه وعجزوا عن تحقيق النصر الذي أملت أن يحققوه .

كانت لهجته أقل حدة وهو يستعرض بعينيه الحاضرين لعل أحداً منهم يبدي رأيه .. تكلم كبير الحجاب :

- عفوك يا مولاي . إنه لا يستحق أن يخرج إليه ملك الملوك بذاته .. إنه غير جدير بهذا الشرف .

أخيراً نطقوا ، فتنهد أرتحششتا وتساءل :

– من سواي إذن ... يا أردشير ؟ من ؟

قال كبير الحجاب :

– فلنفكر في الأمر على روية يا مولاي . ولنعد حساباتنا ونراجع الموقف ثم تتخذون القرار الصائب الملائم .. لا يمكن – طبعاً – التسليم بما حدث ولا بد من اتخاذ القرار .

انفتح باب الحديث فانطلقت الألسنة بمختلف وجهات النظر تحلل الواقع وتعدد الأسباب وتقترح سبل العمل . كان الاتفاق شاملاً على ضرورة استرجاع أرض النيل بأي ثمن . وكان اهتمام أرتحششتا منصباً على ما يقوله صهره ميكابوز .

بعد بضع ساعات من النقاش ، وقد استقر الرأي على إعداد حملة جديدة لاسترجاع مصر قال أرتحششتا :

– هذا جيد .. ما دام اليأس لم يستول علينا ولم نقبل نتيجة ما جرى ، فلا بد من العمل . أنت يا ميكابوز المسؤول عن تعويض الخسارة الفادحة .

كان ينتظر هذا القرار، لكنه رأى ضرورة الاحتياط والتأكد من خطواته قبل أن يقفز، فقال:

– الأمر أمرك يا ملك الملوك . لكن هذا ليس بالأمر الهين .

– لو عرفت أنه هين ما أسندته إليك أنت بالذات ... ماذا ينقصك لنستكمله ؟

– إذا كان الراحل أخمين قد أخفق وهو يقود ذاك الجيش العظيم فلا بد أن أقود مثله عدداً وعدة على الأقل .

– يمكنك أن تجمع من العدد والعدة ما يفوقه .

– وهو ظل سنتين يتأهب .

– لك الزمن الذي تراه والوقت الذي تحدده يا ميكابوز .

– لأعدائنا حلفاء ، يا ملك الملوك ، فلا بد لنا من حلفاء .

هنا تدخل أردشير :

– بيننا وبين كنعان معاهدة تمكن الاستفادة منها .

قال أرتحششتا :

– هذا صحيح . آه .. ما رأيك لو عينتك والياً على بلاد الشام ؟ هناك يمكن التنسيق مع بني كنعان ، لنقل إجبارهم على الاستجابة لطلباتك ، كما يمكنك جمع جيشك وتدريبه دون أن يشعر

الأعداء . ولِمَ لا يذهب أرتاباز إلى صور ليشرف على إعداد القوة البحرية .. هه ؟

تدخل أردشير مرة أخرى :

- هذا رأي صائب يا مولاي .. لن يستطيع حاكما صور ، صدق ملك وبعل ملك ، رفض الاستجابة لما نطلب مع وجود قائدي قواتنا البرية والبحرية إلى جانبهيما .

قال ميكابوز :

- مع تقديري لقوة بني كنعان البحرية فقد أثبتوا أنهم غير جادين في القتال معنا . ألا ترون كيف هزموا أمام أسطول أثينا ؟

كانت إشارة مبطنة لأرتاباز الذي أغرقت السفن الأثينية أسطوله أمام فرع النيل الشرقي ، فانتفض مدافعاً :

- سفننا كانت مشغولة في الأرخبيل ، وهي قليلة العدد ، وقد أُخذ الكنعانيون معنا على حين غرة . لم يكن أحد يتصور وجود مائتي سفينة أثينية أمام شواطئ مصر .. ثم إنني - شخصياً - لم أكن هناك . هذه المرة سأقود الأسطول بنفسي .

قال أرتخشاشتا :

- هذه المرة ، يا أرتاباز ، إما أن تغرق أسطول أثينا أو تغرق أنت . لا وسط .

عاد ميكابوز إلي الكلام :

- معذرة يا مولاي . لم أقصد ما فهمه القائد أرتاباز . ما أعنيه ، ولأوضحه ، هو وجوب كسر الحلف ما بين أثينا ومصر .

قال أرتخشاشتا :

- كيف ؟

رد ميكابوز :

- هذه مهمة كبير الحجاب ، يا ملك الملوك .

فنظر إليه أردشير متأملاً والتفت إلى أرتخشاشتا :

- سندبر الأمر يا مولاي . سأحاول .. بمعونة القائد ميكابوز ومساعدة ابن من أبناء أثينا المخلصين !

علت الدهشة وجوه الحاضرين ولم يدركوا مرماه ، فسأله أرتخشاشتا :

- ما قصدك من هذا الكلام يا أردشير ؟

- سأوضح قصدي يا مولاي . هنا عندنا المدعو ثيموستكليس ، أحد كبار رجال أثينا ، بل كان حاكمها في يوم من الأيام . صحيح أنه قاتل ضدنا بشراسة أيام الراحل أحشويرش ، واشتهر في قومه بالشجاعة وقوة المراس حتى اختاروه حاكماً لهم . لكنهم ما لبثوا أن انقلبوا عليه ونفوه من بلاده بعد محاكمة قصيرة ، بل طاردوه وتعقبوا أثره حتى لجأ إلينا منذ سنوات. وهو الآن يحيا في حمايتنا ... آمناً مطمئناً .

قال أرتاباز :

- نعم .. نعم . تذكرت . لكن يقال إنه رجل فاسد الخلق ، مرتش ، مختلس للأموال ، يا كبير الحجاب .

قال أردشير ، وهو يميل رأسه بمكر :

- وهذا هو المطلوب أيها القائد . رجل حاقد على قومه الحقد كله ، مستعد للقيام بأي عمل يسيء إليهم . رجل مرتش يحمل الرشوة إلى خصوم من يحقد عليهم . هل ثمة أفضل من هذا لتحقيق ما نصبو إليه ؟

استثارت كلمات أردشير من في الإيوان جميعاً، وأعجبت أرتحششتا فطنة كبير حجابه ودهاؤه، ولكنه لم يفهم تماماً كيف يمكنه أن ينتفع من الطريد الأثيني في هذه الظروف، فاستعلم منه :

- ماذا تنوي أن تفعل بهذا الحاقد المرتشي يا ترى ؟

- كسر ظهر أثينا يا مولاي ؟

فكر ملك الملوك قليلاً ثم قال ظاناً أنه خمن ما يدور في خلد كبير حجابه :

- ترسله على رأس حملة إليها ؟

- كلا .... يا مولاي . بل أرسله بالمال .

- بالمال ؟! إلى أثينا ؟!

- كلا يا مولاي . إلى أسبرطة .

- آه .. رشوة إلى أسبرطة .

- لتشغل أثينا .

– فتنشغل عن مصر .

– تماماً .. يا مولاي . لقد أصبتم الهدف . فليرعك أهورا مزدا يا مولاي !

– فكرة رائعة .

فأحنى أردشير هامته في خشوع وقال :

– إن أفكاركم ، يا مولاي ، مصيبة دائماً . سأنفذ ما فكرتم فيه وأمرتم به على الفور ، يا ملك الملوك .

***

التحق ميكابوز بمقر ولايته على الشام ، وذهب أرتاباز إلى صور ليشرف على إعداد أسطول كنعاني كبير . انقضت ست سنوات قبل أن يكون القائدان الشهيران مستعدين للزحف على وادي النيل ، أما ثيمو ستكليس ، ابن أثينا وحاكمها السابق ، فقد راح إلى أسبرطة محملاً بأكياس الذهب الفارسي هدية من ملك الملوك ، فتقبلها الإسبرطيون فرحين وقاموا بما كان ينتظر منهم من واجب رد الجميل . ناوشوا الأثينيين واستثاروا بركليس حتى جروه إلى معركة مفتعلة على حدود إقليم بويتيا ، وهناك في مكان يدعى تاناغرا . قبل الهجوم على مصر بسنة وحدة هزمت اسبرطة أختها أثينا هزيمة مرة وردت جنودها إلى ما وراء السور العظيم الذي بناه ثيموستكليس نفسه حول مدينته يوم كان حاكمها . كان ذهب فارس يحارب أثينا في يد ابنها ثيموستكليس وبسيف أختها اسبرطة !



كان ساهماً ، ذقنه على قبضة يده ، مسنداً مرفقه إلى فخذه وهو يحدق في الفراغ ، يميل بجسده حيناً إلى الأمام ثم يقيمه إلى الخلف . وإلى جانبه كان كيمون يتلفت يمنة ويسرة ، يكدره صمت صديقه ومسحة الحزن البادية على محياه . ولم يطق الصبر كثيراً على هذه الحال :

– هيه .. إينارو ! ماذا بك ؟ ما كل هذا الوجوم ؟

فالتفت إليه منتبهاً ، يحاول أن يبتسم :

– ماذا ؟ ماذا بي ؟ لا شيء .

– تقول لي لا شيء ؟ أين إينارو الذي عرفت ؟ كان المفروض أن تكون .. دعني أختار لك

لقباً مناسباً . نعم .. أن تكون «الفرعون السعيد» . هذا لقب رائع يمكن إطلاقه عليك إلى جانب بقية ألقابك . سنضعه مع اسمك المبجل في الدرج البيضاوي ، كما هي عادة الفراعين ، حتى تقرأه الأجيال القادمة وتخلد على مرّ الزمن . سنصور الآلاف من الدروج البيضاوية نوزعها على معابد مصر كلها مكتوبة بالحرف المقدس .. الذي نسميه نحن الحرف الهيروغليفي .. ها .. ما رأيك ؟

- أنت تهذي !

- أهذي ؟ إنني مستشارك ، ومهمة المستشار أن يشير في العادة بما يحبه سيده ويرضاه. هذا واجبي .

نفض يده ، وقال برماً :

- أنا لا أحب دروج أسماء الفراعين البيضاوية التي تتحدث عنها . لا أحب أن يكتب اسمي في أي مكان . فهمت ؟

- لم أفهم . كيف يمكن هذا بعد انتصارك العظيم على فارس ؟ كيف لا يسجل اسمك ليحفظه التاريخ وقد حررت أرض مصر من سيطرة الفرس الغاشمة ؟ لم أفهم ، ولن أفهم .

قال إينارو :

- أرض مصر حررها أبناؤها . هم الذين ماتوا ليحرروها . أنا لم أمت بعد في سبيل الأرض .

- «الفرعون المتواضع» . هذا لقب آخر بديع ، يضاف إلى بقية الألقاب .

- الفرعون المتواضع ، أو الفرعون المنسي . لقب آخر . أيعجبك ؟

قال كيمون :

- كلا .. لا يعجبني ، وليس لقباً مطابقاً . إن الناس يعرفون ما فعلت لأجلهم ، ويرحبون بتخليد اسمك مكتوباً .

- تعني الشعب .. الديموس كما تسميه ؟ حسن . أريد أن أبقى في ذاكرة هذا الشعب . فإذا كان لا بد من طلب الخلود فلأخلد في روح الديموس .

- لكن ذاكرة الشعب ضعيفة .. أيها «الفرعون الشعبي» .

- لقب آخر ؟ على رسلك يا كيمون ، إذا سقطت من ذاكرة الشعب فمعنى هذا أنني لم أفعل ما يستحق الذكر والخلود .

- أنت عنيد .

- أنا واقعي .. أيها المستشار .

***

خيم الصمت مرة أخرى .. حلقت مجموعة من طيور السنونو سوداء الجناح تنزلق في الجو وتدور . نظر إليها إينارو وقال كأنه يحدث نفسه :

- يقولون إن أرواح الموتى الطيبين تحل في أجساد السنونو . ترى في أي من هذه الطيور حلت روح شيحو ؟

ارتعشت شفتاه فزمّهما ، وانحدرت دمعة على خده دون إرادة منه ، ورغب في أن يغطي ضعفه . قال لرفيقه وهو يمسح دمعته بطرف إبهامه :

- يمكنك أن تضيف .. «الفرعون الباكي» إلى قائمة ألقابك الطويلة .... إن شئت .

تتابعت في مخيلته الصور، ولم يسمع تعليقاً من جليسه. فسكت لحظات ، ثم سأله فجأة :

- أتدري يا كيمون ما أقسى شيء على نفس الإنسان وأمره على روحه ؟

فنظر إليه وهز رأسه مستفهما .. قال إينارو :

- الخيانة . لا أعرف كيف سولت لباسخم نفسه أن يخون ؟ خان رفيقه إمنروت وخانني ، وخان قضية بلده وأهله . كان يبدو بطلاً مقاتلاً طيباً . فكيف انضم إلى الأعداء بإرادته ؟

قال كيمون :

- الحسد والطمع ينسيان المرء كل مبدأ قويم .

- الخيانة لا تبرر يا كيمون . لا تبرر الخيانة إطلاقاً .

- تقول حكاية ليبية سمعتها من أبي إن سهماً ضرب نسراً فلما نظر إلى الريشة المنتزعة من نسر آخر في نهاية السهم قال : ليس بالآخرين ... بل بريشنا نحن نُضرب .

- هذه حكاية معبرة . بريشنا نحن نضرب ..

أراد كيمون أن يسري عن صديقه الحزين :

- ولكن يا إينارو .. ألا تنظر إلى الجانب الآخر ؟ كما وُجدت الخيانة وُجد الوفاء .

- صدقت .

- كان شيحو وفياً .

- أوفى الأوفياء .

- وكذلك إمنروت .

- نعم .. وكذلك إمنروت .

وجد الفرصة سانحة لتخفيف الجو المتوتر :

- اثنان ضد واحد . كفة الوفاء هي الراجحة إذن .

علق إينارو مجاملاً :

- فليكونوا ثلاثة ضد واحد . نسيت كيمون بن ثيوفرون يا هذا .

احمرت وجنتا كيمون لإطرائه :

- أرجو أن أكون عند حسن الظن . إنك تخجلني ، ولكنك تؤيد رأيي . الأوفياء كثيرون يا صاحبي ، لو أحصيتهم لما انتهيت عداً .

قال إينارو :

- الوفاء هو الأصل . لهذا يكون الألم عظيماً عندما يظهر خائن .

- لكنه يلقى جزاءه دائماً .

- نعم .. بعد أن يحدث الجرح الغائر .

- الجروح تندمل مع مر الأيام .

- بعض الجروح ، ليس كلها . هناك جروح قاتلة .

كان يحس بألمه ويعرف أنه يتعذب ، ولم يجد الكلمات المناسبة ليجعله يسلو . للمرة الأولى يخفق في إيجاد العبارات المناسبة ، فلاذ كيمون بالصمت . أنقذه ظهور فتيين في طرف الحديقة .. كان إثن رع يحاذي فتى آخر يبدو أكبر منه سناً ، فقال كيمون : -

- ذاك إثن رع وصديقه باإزر بن إمنروت .. إنهما يكبران بسرعة خارقة .

فنظر إليهما إينارو :

- ونحن نكبر معهما كذلك . جميل من إمنروت أن يرسل ابنه ليرافق إثن رع .

- وزوجته أيضاً لتسلي كليو . هل ترى كليو كبرت هي الأخرى فلم تعد تهتم بها أيها العاشق القديم ؟ إنها تضيق بالملل .

شعر بالتأنيب الخفي وأحس بالذنب :

- كلا .. يا كيمون . إنها الهموم . الحب والهم لا يلتقيان .

- الحب ذاته همّ . لكنه همّ ممتع .

- إذا خلا من هموم أخرى .

قال كيمون وهو ينهض :

- قم أيها .. الفرعون الحزين . قم إلى داخل القصر علّنا نجد في حديث النسوة ما يبعث على الفرح . لو ظللنا وحدنا لأجهشنا معاً بالبكاء .

ومد إليه يده يستنهضه ليدخلا القصر .

15

كان صوت الحاخام عزرا متهدجاً وهو يخاطب الحبر نحميا مؤنباً :

- ست سنوات . ست سنوات كاملة مضت على حكم أرتحششتا يا نحميا بن حكليا ، ونحن قابعون هنا في بابل ، ولم تفعل أنت شيئاً بعد .. متى تتحرك ؟ ما فائدة كونك وزيراً من وزرائه ؟ ما نفع أمستراك تلك ؟

كان الاجتماع ثنائياً ، وخفف عدم وجود أحد غيرهما من الأحبار وقع التأنيب على نحميا الذي قال مدافعاً :

- هون عليك يا عزرا بن سرايا .. أنسيت كل ما فعلته ؟ لقد سمح لكم ملك الملوك بإتمام بناء السور وتزيين الهيكل .. عن طريقي .

قال عزرا غاضباً :

- هذا لا يكفي . إن لم ننتهز الفرصة الآن فقد لا تسنح لنا فيما بعد .

- فرصة ماذا بحق يهوه ؟

- فرصة العودة إلى أورشليم . أريد أن أسير ببقية اليهود من بابل إلى أورشليم . طلبت منك السعي لتحقيق أملي ، لكنك لم تبال بما طلبت عدة مرات .

- تعرف كل ما جرى أخيراً . أرتحششتا منشغل بهَم مصائبه في أرض مصر ، ولم يكن من

الحكمة مخاطبته في شأن العودة إلى أورشليم أو غير أورشليم .

- الحكمة تتجلى في طريقة مخاطبته في هذا الأمر . يبدو أنني علقت آمالي في غير موضعها .. أهذا نحميا الذي أعرفه ؟

أحس بالغيظ فقال حنقاً :

- هو ، نحميا الذي تعرفه ، لكنك لا تعرف ما يدور . شغلتك كتاباتك وصلواتك عما يجري من أحداث جسام .

فلانت لهجة عزرا قليلاً وخاطب رفيقه متلطفاً :

- اسمع يا عزيزي . أود تحقيق أمنيتي في العودة قبل أن أموت . هناك مئات من اليهود سيعودون معي . نعم .. لقد كتبت كثيراً ، واستفدت من إقامتي في بابل ، لكن الشريعة يا نحميا تضيع .. شريعتنا تتفتت وتتلاشى ، ليس هنا فحسب بل هناك أيضاً ، ولا بد من رجل يحميها ويحافظ عليها ويحرسها من الضياع .

قال نحميا يجامله ويمنّيه :

- أعرف أنك الكاتب والحارس للشريعة ، ولا أقل حماسة عنك .. اسمح لي بوقت أفكر فيه وأعمل . ساعود إلى سوسة غداً وسنرى ما الذي يمكن عمله .

***

لم يضيع نحميا وقتاً حين وصل سوسة قادماً من بابل ، بل قصد فوراً الملكة الأم ، أمسترا. ولم يحتج إلى إذن مسبق ، إذ صار وزيراً من وزراء الملك له مكانته . إلي جانب صلته الوثيقة المعروفة بالملكة الأم .. كذلك لم يضع وقتاً آخر في طرق ما جاء من أجله . فبعد أن رحبت به ترحيباً حاراً وتبادل معها كلمات المجاملة والتكريم قال :

- غمرتني بأفضالك يا مولاتي ، وضعت في عنقي أطواق كرمك .

قالت :

- ما هذا الحديث عن الأفضال وأطواق الكرم يا عزيزي ؟ أبيننا مثل هذا الكلام ؟

- إنني مدين لك بالكثير .. أيتها المليكة الرائعة .

- ومدين لي أيضاً ؟

- نعم . بالكثير جداً .

- أنا أعرفك جيداً يا نحميا ... هذه طريقتك . عندما تبغي شيئاً تكثر من حمدك وثنائك. ما هو طلبك هذه المرة .. أيها الوزير ؟

كانت تلمح إلى دورها في تعيينه وزيراً لدى ابنها الملك ، فكست وجهه سمات الرقة والخضوع :

- ليس طلبي أنا يا مولاتي .

- طلب من إذن ؟ لا بد أنه يهمك كثيراً حتى تشفع له هذه الشفاعة .

- إنه رجاء وأمل . شيخ كبير يحلم بتحقيق أمله .

- في ماذا ؟

- في أن يعود إلى مدينته ويموت ويدفن فيها .

- أورشليم . أليس كذلك ؟

- هي تلك يا مولاتي .

- من هو هذا الشيخ يا ترى ؟

- الحبر عزرا بن سرايا . حاخام اليهود في بابل . يا مولاتي .

- ولِمَ لا يعود كما يشاء ؟

- لا تمكنه العودة دون إذن من ملك الملوك ، يا مولاتي ، وهو لا يريد أن يمضي وحده . وهناك بضع مئات من أتباعه يود أخذهم معه .

لاحظ نحميا أن الملكة مترددة في أن تعده بشيء وأنها تفكر في المسألة ، فألقى إليها بما يمكنها عرضه على ابنها الملك :

- سيكون ذا نفع كبير لفارس لو ذهب إلى أورشليم يا مولاتي . فهو كبير أحبار اليهود هنا وهناك ، والجميع يطيعونه ويأتمرون بأمره ، وجيش فارس الذي يعد في أرض كنعان لاستعادة أرض يمر في أرض يهوذا والسامرة يا مولاتي .. سيوفر عزرا المؤونة الكافية والخدمات اللازمة للجيش العظيم .

قالت الملكة :

- أيمكنه هذا فعلاً :

فأسرع يردف ما عرضه :

- يمكنه واكثر . إن لكم أصدقاء أعـزاء في أرض فلسطين يمكنكم الثقـة بهم أكثـر من ثقتكم بكنعان .

قالت ساخرة :

- كنعان ؟ إنني لا أثق ببني كنعان مثقال ذرة . مسكين أرتاباز ، إذ يقصد معونتهم . خشي أن تغير مجرى الحديث فألقى بما يعرف أنه يثيرها :

- أرتاباز وميكابوز ، يا مولاتي ، يثأران للراحل المرزبان أخمين .

ضربت جبهتها بكفها وتنهدت في أسى :

- آه .. أخمين . ياللتعس ! أية ميتة ماتهـا أخو زوجي البائس ؟ لقد خلف موته في قلبي حرقة لن أنساها ما حييت ..

- سيأتي الوقت الذي تطفئين فيه حرقتك يا مولاتي . أؤكد لك .

- هذا المدعو ..

- إينارو .. يا مولاتي .

- قضى عليه خنقاً بيديه الاثنتين . لو طالته يدي لقتلته شر قتلة .

تمتم بكلمات لم تتبينها ولم تنتبه لما قال :

- إن لنا ثأراً مشتركاً لا بد أن نأخذه .

وأضاف :

- بتعاوننا نستطيع أن نحقق المستحيل يا مولاتي .

فحدقت فيه لحظات :

- ولكنك أنت لن ترحل مع عزرا ويهوده الآخرين .. هه ؟

أدرك أنه نجح فأراد طمأنتها :

- لن أرحل يا مولاتي . كيف لي البُعد عن سوسة وأنت فيها ؟

فابتسمت في وجهه وقال :

- حسن .. سوف أكلم أرتخشتا وأحاول إقناعه . حجـجك التي قدمتها قوية يا نحميا . أنت دائماً قوي الحجة ..

***

بعد بضعة أيام فقط كان نحميا يحمل رسالة من ملك الملوك إلى عزرا .. هذا نصها - كما سجلها عزرا في (سفره) :

مِنْ أرْتحشَشتا مَلِك المُلوك إلى عَزْرا الكاهن كَاتِبِ شريعة إله السماء الكاملِ إلى آخِره .

13 قَدْ صَدَرَ مِنّي أمرٌ أنَّ كُلَّ مَنْ أرادَ في مُلكي مِنْ شَعْبِ إسْرائيلَ وكَهَنَتِه واللاويينَ أنْ يَرْجِعَ إلى أورشَليمَ مَعَكَ فَلْيَرْجِعْ . 14 مِنْ أجْلِ أنَّكَ مُرْسَلٌ مِنْ قِبَلِ المَلك وَمُشيريه السَّبْعَة لأجْلِ السُّؤال عَنْ يَهُوذَا وأورُشَليمَ حَسَبَ شَرِيعَةِ إلهِكَ التي بِيَدِكَ 15 ولحَمْلِ فضةٍ وذَهَبٍ تَبَرَّعَ بِه المَلَكُ وَمُشيروهُ لإله إسْرائيلَ الّذي في أورُشَليمَ مَسْكَنُهُ .. 16 وكُلَّ الفضّةِ والذَّهَبِ الّتي تَجِدُ في كُلِّ بلاد بَابِلَ مَعَ تَبرُّعَاتِ الشَّعْبِ والكَهَنَةِ المُتَبَرِّعينَ لبيْتِ إلهِهِم الّذي في أورُشَليم 17 لكَيْ تشْتَرِي عَاجِلاً بِهَذه الفِضَّة ثِيراناً وكِبَاشاً وخِرافاً وتَقْدِمَاتِها وسَكَائِبَهَا وتُقَرِّبُهَا على المَذْبَحِ الَّذي في بَيْتِ إلَهِكُمُ الّذي في أُورُشَليمَ .18 وَمَهْمَا حَسُنَ عِنْدَكَ وَعِنْدَ إخْوَتِكَ أنْ تَعْمَلُوهُ بِبَاقِي الفِضّةِ والذَّهَبِ فَحَسَبَ إرَادَةِ إلَهِكُمْ تَعْمَلونَهُ 19 وَالآنِيَةُ الّتي تُعْطَى لَكَ لأجْلِ خِدْمَةِ بَيْتِ إلهِكَ فَسَلِّمْها أمامَ إله أُورُشَليمَ . 20 وبَاقِي احْتِيَاجِ بَيْتِ إلهِكَ الّذي يَتّفِقُ لكَ أنْ تُعْطِيهُ فَأعْطِه مِنْ بَيْتِ خَزائنِ المَلِك . 21 ۲ وَمِنّي أنا أرْتَحْشَشْتَا المَلِكَ صَدرَ أمْرٌ إلى كُلِّ الخَزَنَةِ الّذينَ في عَبْرِ النَّهْرِ أنَّ كلَّ مَا يَطْلُبُهُ مِنكُمْ عَزْرَا الكَاهِنُ كَاتِبُ شَرِيعةِ إله السَّمَاء فَلْيُعْمَلْ بِسُرْعَة 22 إلى مِئَةِ وَزْنَةٍ مِنَ الفِضَّة وَمِئة كُرٍّ مِنَ الحِنْطة وَمِئَة بَثٍّ مِنَ الخَمْرِ وَمِئَة بَثٍّ مِنَ الزَّيْت والمِلْحِ مِنْ دُونِ تَقْييد . 23 كُلُّ مَا أمَرَ بِه إلَهُ السَّمَاء فَلْيُعْمَلْ باجْتهَاد لبَيْتِ إلَه السَّمَاء لأنَّهُ لمَاذَا يَكُونُ غَضَبٌ عَلَى مُلْكِ المَلكِ وبَنِيه . 24 ونُعَلِّمُكُمْ أنَّ جَميعَ الكَهَنَة وَاللاّوِيينَ والمُغَنِّينَ والبَوّابين والنَّثِيم وخُدّامَ بَيْتِ الله هَذَا لا يُؤْذَنُ أنْ يُلْقِيَ عَلَيْهِمْ جِزْيَةً أوْ خَرَاجَ أوْ خُفارَةً . 25 أمّا أنْتَ يَا عَزْرَا فَحَسَبَ حِكْمَةِ إلَهِكَ الّتي بِيَدِكَ ضَعْ حُكّاماً وقُضَاةً يَقْضُونَ لِجَميعِ الشَّعْبِ الّذي في عَبْرِ النَّهْرِ مِنْ جَميعِ مَنْ يَعْرِفُ شَرائِعَ إلَهِكَ والّذينَ لا يَعْرِفُون فَعَلِّمُوهُمْ . 26 وكلُّ مَنْ لا يَعْمَلُ شَرِيعَةَ إلَهِكَ وَشَرِيعَةَ المَلِك فَلْيُقْضَ عَلَيْهِ عَاجِلاً إمّا بالمَوْتِ أو بالنَّفْيِ أوْ بِغَرَامَةِ المَالِ أو بالحَبْسِ (*)

***

بهذه الرسالة انطلق عزرا الكاهن آمناً إلى غايته . جمع نحو ألف وستمائة من أتباعه عند فرع من الفرات يسمى نهر (أهوا) وسار بهم غرباً حتى بلغ أورشليم مكث ثلاثة أيام يصلي، وفي اليوم الرابع جمع رؤساء الكهنة والأحبار ويهود بابل الأغنياء وأصدر أوامره

* بالنص من «سفر عزرا» من «العهد القديم» .

- انت يا مرموث بن أوريا .. والعازرا بن فينحاس ، ومعكما يوزاباد بن يشع ونوعريا بن بنوي .. عليكم بوزن الفضة والذهب والآنية في بيت إلهنا .

شرع الكهنة يزنون :

- ستمائة وخمسون وزنة من الفضة . مائة وزنة من الذهب .. مائة وزنة من آنية الفضة . عشرون قدحاً من الذهب . ألف درهم . وآنية من نحاس صقيل جيد ثمين كالذهب .

***

كان رحوم القاضي وشمشاي الكاتب ، اللذان سبق لهما أن كتبا إلى أرتحشستا محذرين من نوايا اليهود ، يقفان بجانب الهيكل واجمين . قال رحوم :

- جاء عزرا من بابل بمال كثير . لقد استرد ما دفعه في حملة فارس على مصر من مال .

قال شمشاي :

- وجاء بالرجال أيضاً.. يقال إنه سيُعين فارس بالرجال في حملتها الجديدة على وادي النيل..

- والنساء ألا يعن بشيء ؟

أجابه شمشاي ساخراً :

- مباركات هن النسوة اليهوديات ! قمن بواجبهن خير قيام . لولا هدسة ، التي غيرت اسمها اليهودي إلى إستير ، لما كان لليهود وجود منذ أيام أحشويرش .

فعقب رحوم :

- مباركات بنات حواء جميعاً ! لولا أسترا الفارسية لما كان عزرا وكهنته في هذا المكان.

- إنه يعرف هذا ، ولذا فهو لا يثق بامرأة غير يهودية ، خوفاً على قومه منها . انظر إليه ماذا يفعل ويقول .

كانا قريبين من عزرا بحيث يريانه ويسمعانه ، وقد مزق ثيابه ورداءه ونتف شعر رأسه وذقنه ، وهو يصيح في من حوله :

- الويل لكم معشر اليهود ! اتبعتم رجاسات الكنعانيين والحيثيين واليبوسيين والموآبيين والمصريين والأموريين ! اتخذتم من بناتهم لأنفسكم وبنيكم أزواجاً ، واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضي ، وكانت يد الرؤساء والولاة في هذه الخيانة أولاً .

ثم جثا على ركبتيه وهو يولول ويبسط يديه ضارعاً :

- اللهم إني أخجل وأخزى من أن أرفع يا إلهي وجهي نحوك . لأننا عبيد نحن وفي عبوديتنا لم يتركنا إلهنا بل بسط علينا رحمة أمام ملوك فارس ليعطينا حياة . والآن . فماذا نقول يا إلهنا بعد هذا ؟ لأننا قد تركنا وصاياك قائلاً إن الأرض التي تدخلون لتمتلكوها هي أرض منجسة بنجاسة شعوب الأراضي برجاساتهم . والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ، ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد ، لكي تتشددوا وتأكلوا خير الأرض وتورثوا بنيكم إياها إلى الأبد أفنعود ، يا إلهنا ، نتعدى وصاياك ونصاهر شعوب هذه الرجاسات ؟ أما تسخط علينا حتى تفنينا فلا تكون بقية ولا نجاة ؟

كانت صلاة وخطبة طويلة مكررة ، لكن منظره كان مؤثراً ودموعه تسيح على لحيته البيضاء ، فاندفع أحد الواقفين يصرخ :

- كفى يا عزرا بن يسارا . كفى ! إننا خنا إلهنا واتخذنا نساءً غريبة من شعوب الأرض.. فلنقطع الآن عهداً مع إلهنا نخرج كل النساء والذين ولدوا منهن حسب مشورة سيدي والذين يخشون وصية إلهنا وليعمل حسب الشريعة. قم ! فإن عليك الأمر ونحن معك .. تشجع ..

فرمقه عزرا بعينين ذابلتين :

- أهذا أنت يا شكنيا بن يحيئيل ؟ باركك الرب إلهنا لما قلت . لكنني لن أقوم حتى يحلف رؤساء الكهنة واللاويين وكل إسرائيل أن يعملوا حسب هذا الأمر .

ارتفعت أصوات القسم أن يفعل الجميع بما أمر ، فقام من جثوته يستحلفهم واحداً بعد اخر . قال شمشاي يخاطب رفيقه :

- هذه أول خطوة من خطوات الكاهن عزرا . انظر كم من النسوة يطلّقن اليوم ، ويخرجن من بيوتهن .

قال رحوم :

- واسفاه ! كم من أسر هانئة ستُمزق وأطفال صغار يذوقون مرارة فراق الآباء والأمهات !

- أبهذا يأمر إلههم ؟

- إنهم يضعون على شفتي الإله ما لم يقله . هكذا يفعل الكهنة دائماً .

- فلنبتعد عن هذا المكان ، يا رحوم ، حتى لا نرى أكثر مما رأينا .

فأخذه بيده منطلقاً وهو يقول :

- إن تجنبنا اليوم رؤية ما نكره فسنسمع غداً ما لا نحب .. ليست هذه سوى البداية .. فانتظر الطوفان يا شمشاي !

16

ثمان من السنوات مرت على تفجر الثورة في مصر ، وست علي انتصارها في معركتها ضد حملة أخمين . وفي أوائل السنة الثانية عشرة من حكم الملك أرتحششتا كان القائدان الفارسيان ، ميكابوز وأرتاباز ، قد أنهيا استعدادهما للهجوم على وادي النيل .

كانت أثينا تلعق جرحها الذي أحدثته اسبرطة في موقعة تاناغرا ، وبركليس ينكفئ إلى داخل أسوار المدينة المحصنة يهتم بتزيينها وينثر في ميادينها التماثيل ويرصف أسواقها ويعتني بأن يجعلها عاصمة العالم في الثقافة والفن والفلسفة والأدب . ألغى طموحه الخارجي وأزاح عن ذهنه فكرة تكوين امبراطورية كبرى تديرها أثينا ويسيّرها هو بإشارة من إصبعه ..

في مصر كانت الحالة هادئة مستقرة . انصرف الناس إلى شئونهم الخاصة ، كل يهتم بما يعنيه ، ولم يبق من ذكريات المعارك إلا أطياف أحاديث مبتورة .

عادت خيول الصحراء الليبية بفرسانها إلى الواحات ، ورجع الفلاحون إلى حقولهم ، وازدحمت الأسواق في المدن والقرى بالباعة والمشترين .. خُفِّض عدد أبراج المراقبة والحراسة وسُمح لآلاف من المجندين بالعودة إلى أعمالهم حتى لا تتعطل الزراعة والصناعة وبقية المهن في حياة الناس .. وكل عام يمضي كان يمسح من الذاكرة جزءاً مما جرى ، ويبعد التفكير في أي خطر قادم جديد . ظن الأكثرون أن عرش الطاووس لن يغامر مرة أخرى .. ولم يبق من مظاهر الحرب سوى شيئين : مجموعة من السفن الأثينية في فرع النيل الشرقي والبحيرة ، وقد تراخى بحارتها وركنوا إلى البطالة والكسل مستمتعين بشمس مصر الدافئة شتاءً ونسمات النيل والبحيرة صيفاً ويكثير من نعم الدلتا المنوعة نهاراً وليلاً . ومجموعة أخرى من الجنود معسكرين حول (القلعة البيضاء) في مدينة منف .. كانت منف مفتوحة الأبواب تموج بالحياة والحركة .. عدا (القلعة البيضاء) التي ظلت صامدة للحصار الطويل كالصخرة الصماء لا تؤثر فيها المعاول ولا تفتتها الفؤوس .

***

من أرض كنعان تتابعت فرق بعشرات الآلاف من الجنود المدربين والمجهزين بأقوى الأسلحة وآلات القتال ، في طريقها نحو الجنوب . اخترقت أرض فلسطين حيث كانت تلقى الرعاية والعناية وتزود بالمؤن ، ثم واصلت سيرها جنوباً إلى حدود مصر الشرقية . ثلاثمائة ألف كان عددها يقودها الفارسي ميكابوز . كما انطلقت في الوقت نفسه من شاطئ مدينة صور وجزيرة قبرص ثلاثمائة سفينة حربية تحمل على ظهورها آلافاً أخرى من البحارة المقاتلين ومعدات الحرب من المتجنيقات وقاذفات النار وكل ما يصلح للنزال ، وكان على رأسها أرتاباز ، حتى قاربت شاطئ مصر الشمالي .

كانت أخبار زحف الجيش البري اللجب قد طرقت أسماع أهل صا وبوباست قبل بلوغه الحدود بأسابيع قليلة ، ولم يستطع أي من إينارو وإمنروت أن يجمع من الجند أكثر من بضعة آلاف عند كل منهما . كانت الهمم قد فترت ولم تعد صيحة القتال تستثير الأرواح لتدفع بالأجساد إلى الموت في سبيل الحياة

حشد إينارو قواته في موقع ما بين مصب الفرع الشرقي من النيل والعاصمة صا ، وجمع إمنروت جنوده في مكان يقع في الشمال الشرقي من مدينة بوباست ، على أن يلتحما بعد ذلك للإطباق على جيش فارس .

كان كلاهما قريباً من ماء البحيرة ، تفصلهما مساحة من أرض الدلتا ، وفي أطرافها الجنوبية .

ولم يكن ميكابوز بالقائد الغر ، فهو رجل حنكته التجارب وليست هذه أول معركة يخوضها ، وهو استفاد من غفلة المرزبان أخمين ولم يشأ أن يقع في الفخ المنصوب كما وقع ، فلم يتقدم بجيشه كله دفعة واحدة للقاء عدوه بل اتبع سوقاً مختلفاً ؛ إذ ما أن عبر الحدود ، وقضى على المقاومة اليسيرة في حصونها ، وتقدم جنوب البحيرة في طريقه إلى وسط الدلتا ، حتى وزع جيشه إلى فيالق ، بعث جزءاً منها إلى مدينة منف ، وأجزاء أخرى إلى أهم مدينتين بعدها ، صا وبوباست . أما القسم الأكبر من الجيش فقد احتفظ به وشرع يرسل فرقاً إلى حشدي إمنروت وإينارو واحدة بعد أخرى ، حتى يشغلهما عن عشرات الآلاف من الجنود التي سيّرها جنوب خطي القتال .

بهذا الضرب من السّوق استطاع ميكابوز أن يحقق جملة أهداف . فقد فك الحصار أولاً عن (القلعة البيضاء) بضربة مفاجئة ، وحاصر كلا من صا وبوباست الضعيفتي الدفاع ثانياً ، وشدد الضغط على جيشي إينارو وإمنروت ليحصرهما بين فيالقه وماء البحيرة وفرع النيل الشرقي ،

ثالثاً . وكانت النتيجة أحد أمرين ؛ إما اللجوء إلى مواقع مأمونة أخرى في البحيرة وما يحيط بها أو الفناء .

ذهب إمنروت ببقايا جنوده شرقاً معتصماً بالمستنقعات مما أتاح الفرصة لميكابوز أن ينفرد بإينارو بالقرب من مصب فرع النيل الشرقي . وقد استعان الأخير بجنود السفن الأثينية في النيل والبحيرة ليقاتلوا معه على اليابسة . غير أنهم لم يفيدوه في شيء ، فقد كانوا جميعاً من البحارة الذين لا يحسنون القتال على البر ، ولم يكن مفر من الانسحاب واللجوء إلى جزيرة عند مصب النيل يضمها ذراعان من فرعه الكبير هناك تدعى (برسبد) وعرفت عند الإغريق (بروسوبتيس) .

***

كانت الجزيرة محصنة تحصيناً متيناً ، وقد مكنها موقعها من المقاومة سنة ونصف السنة . لم تستطع سفن أرتاباز العديدة الاقتراب من سفن أثينا ، ولم تفد منجنيقاته في دك تحصينات الجزيرة، فكان لا بد من إعمال الحيلة واتباع خدعة الحرب . لجأ الفرس إلى إحدى ذراعي النيل حيث مرسى السفن الأثينية فحولوا مجراها وسدوا عنها الماء ، وفي ليلة بدون قمر - كما يقال - استيقظ الأثينيون ليجدوا سفنهم ملتصقة بالأرض لا يمكنها الحراك ، وقد عبر عشرات الآلاف من جند ميكابوز إلى الجزيرة .

سارع الأثينيون إلى إحراق كل قطعة من قطع أسطولهم حتى لا تقع في أيدي الأعداء واستماتوا في الدفاع ، وثبت إينارو مع البقية الباقية من قواته لا يستسلم ، لكنه جرح جرحاً بليغاً في إحدى المعارك الضارية ... ولم يستسلم ..

والرجال تعرف قدر الرجال .. وكان ميكابوز من الرجال بحق .. هزه ثبات إينارو ومقاومته الباسلة رغم إدراكه أنه يخوض معركة خاسرة معروفة النتيجة مقدماً . وأثرت في نفسه هذه الصلابة العنيدة والروح المناضلة التي لا يهدأ لها أوار .. ورأى أن موت مثل هذا المحارب الشجاع جريمة في حق مثل الفروسية والبطولة النبيلة . لم يكن يحمل له في نفسه حقداً مثل حقد أخمين ، بل كان على العكس يحمل له إعجاباً فائقاً وتقديراً لا يحد . فأرسل إليه يعرض الأمان عليه وعلى من معه ويقدم له كلمة شرف بألا ينال أحداً سوء إذا أوقف المقاومة ، حقناً للدماء وطلباً لتحقيق السلام .

رأى إينارو ما عليه حال المقاتلين من تعب وإجهاد ، بعد ثمانية عشر شهراً من المقاومة وأن لا أمل في كسب المعركة بعد أن انقطعت به السبل . لم يكن يتوقع نجدة تأتيه من السماء . وقد احتل

الفرس العاصمة صا واقتحموا كل المدن الأخرى ولم يعد هناك أمل.. فقرر قبول عرض ميكابوز.

قال كيمون الذي وقف إلى جانبه يستمع إلى رسالة القائد الفارسي :

- لا .. لا تقبل يا إينارو . لا تقبل .

قال إينارو :

- إنه قدم كلمة شرفه يا كيمون .

- هه .. كلمة شرفه ! إنك تضحكني .

- تدري ما وصلنا إليه .

- إنني أدرى بهؤلاء الفرس . لن يرحموك .

- لا أريد الرحمة لنفسي .. لو رحموا هؤلاء الذين معي لكفى .

- لا يعرفون شيئاً اسمه الرحمة .. أنت تحلم .

- ميكابوز رجل شريف كما علمت .

- الأنذال من حوله يلوثون شرفه .

- لا مفر يا كيمون .

فتقدم نحو صديق عمره ومد ذراعيه يعانقه :

- لا مفر .. أن أفارقك يا عزيزي . كل ما أرجوه ألا تسقطني من حساب الثلاثة ضد الواحد . أنا لا أثق بكلمات الشرف هذه . فلتكن ربة الحظ معك .

قال هذا وانصرف متمهلاً ، وحين كاد أن يختفي عن النظر التفت إلى الوراء ولوّح بيده مودعاً وغاب .



حقق ميكابوز الهدف من حملته كاملاً ، إذ قضى على الثورة وأعاد مصر إلى حكم فارس، وأنهى الوجود الأثيني في الدلتا . أسر ستة آلاف من الأثينيين أرسلهم إلى سوسة برهاناً على انتصاره ، بيد أن بضعة آلاف منهم شقوا طريقهم عبر مريوط لاجئين إلى قورينا ، بعد أن أحرقت السفن .. ونقل إينارو ليعيش معتقلاً في (القلعة البيضاء) في مدينة منف ، التي

عـادت عاصـمة للدلتـا كما كـانت ، لا يغـادرهـا . وكـان ميكابوز من الكرم بحيث جمـعه بأهله في القلعـة. جـاءت كليـو ، وابنه إثـن رع ، وولده تكلت الأصـغر ، وابنته كـاروما الصـغرى ... فقط. ولم تكـن أمـه مـعهـم ، فقد توفيت - كـما أخبرته كليو - في أثناء حـصار صا ودفنت في مقابر أسرته .

***

سنة واحدة لبثهـا ميكابوز والياً على مصر توثقت الصلة خلالهـا بينه وبين أسيره ، وكان يزوره أحياناً في الجناح الذي خصصه لإقامته وأسـرته الصغيرة ، نفس الجناح الذي كان يقيم فيه المرزبان أخمين .

قال له يوماً يلاطفه :

- أرجو أن يكون جرحك قد التأم . كان جرحاً بليغاً .

قال إينارو :

- جرح الجسـد البليغ التأم فقد نـال علاجاً ناجعاً . الجـرح الأبلغ لن يلتئم ، فيـما أحسب ، إذ ليس له علاج .

فهم ميكابوز دلالة رده ، وكانا متكئين على أريكتين متقابلتين ، فاعتدل في جلسته وسأله :

- لماذا حاربتنا يا إينارو ؟

فأجابه :

- لنفـرض ، أيـهـا المرزبـان ، أن جـيـشـاً غـريـبـاً غـزا أرضك ، فـارس ، أكنـت تسـتـقـبله بالترحاب أم تقاتـله ؟

- لكنك بدأت القتـال . لم يأتـك جـيشـنا إلا بعـد أن تحركـت . كانـت لنا مـجـرد حاميـات في بعـض القلاع .

- كانت تحمي الاحتلال ، ولم نكن أحراراً في بلادنا .

- لكن الثمن الذي دفعته كان فادحاً .

- الحرية لا تقدر بثمن أيها السيد .

- الفرس كانوا متسامحين جداً . لم نتدخل في عـباداتكم وحياتكم اليومية . لم نفرض عليكم ديانتنا ولم نجبركم على اتخاذ لساننا لغة لكم . نحن متسامحون جداً ..

- نعم ... تسامح القوي الغالب . لكن خزانة فارس امتلأت ذهباً بعرق فلاحينا وصناعنا . أتنكر هذا ؟

- صحيح . لكن الدولة لا بد لها من مال .

- مال الآخرين ؟

- مال أقاليمها .

- التي فتحتها بالقوة ؟

- القوة تكوّن الدولة ، والدولة تستعمل القوة لحماية مصالحها .

- أتفق معك . مصالحها هي ، وليس مصلحة الآخرين .

سوّى ميكابوز عباءته وحدّق فيه طويلاً قبل أن يقول :

- يعجبني من يقاتل من أجل بلده وقضيته . أفهم هذا . ولكنك استعنت بغير مواطنيك .

- تقصد أثينا ؟

- نعم .

- لم أستعن بها في البداية .. فعلت بعد أن جاءت جيوشكم بقيادة المرزبان أخمين ، مئات الآلاف ، وكان مكوناً من أمم كثيرة . أنتم أيضاً استعنتم بغير مواطنيكم لقتالنا .

لم يحر ميكابوز جواباً ، فهو يعلم تماماً أن هذه هي الحقيقة ، فسكت . سأله إينارو :

- على ذكر أثينا .. كنت أعطيت كلمة الشرف ألا يلحق بأحد سوء إذا توقف القتال .. أليس كذلك ؟

قال ميكابوز :

- بلى .. هو كذلك .. ولم يَمْسَسْ أحداً سوء . لم يقتل أحد .

- لكنك أرسلت الآلاف منهم إلى سوسة .

- رهائن . أنت تعلم الصراع بين فارس والإغريق عموماً وليس أثينا فحسب . ثم إنهم لم يكونوا يقاتلون في سبيل بلادهم أو قضيتهم . لقد أعانوك ضدنا لإضعافنا من جهة وللانتفاع بخيرات بلادكم من جهة أخرى .

هذه المرة سكت إينارو فقد أدرك أن كلام محدثه صحيح. أردف ميكابوز بعد أن لاحظ صمته:

- أضيف إننا لم ننقل إلى سوسة أحداً من أهل البلد .

وهذه أيضاً ملاحظة صحيحة . لكن فكره كان مشغولاً بشيء آخر ، فسأل المرزبان :

- هل لي أن أسأل عن إغريقي يهمني أمره ؟

- بالطبع ... تفضل .

- شاب اسمه كيمون بن ثيوفرون . هل تراه من جملة .. الرهائن ؟

هز ميكابوز رأسه :

- وأسفاه ! لا تمكنني الإجابة عن هذا السؤال ، فليس لدينا قوائم بأسماء المرحلين إلى سوسة. لقد نقلوا على عجل .. كما تعلم .

أين أنت يا كيمون ؟ ماذا فعلت بك الأيام ؟ ماذا فعلت بنفسك ؟ ماذا فلعت أنا بك ؟

نهض ميكابوز من مجلسه منصرفاً وهو يقول :

- اسمح لي أن أقول إنني أعجبت بك مقاتلاً ومحدثاً . وقد أعطيتك عهداً بألا تصاب بِشَر ما دمت حياً .. كنت أتمنى أن يكون لقاؤنا في ظروف مختلفة عن هذه الظروف ، وكان يمكن أن نصبح صديقين .

قال إينارو وهو يقف لوقوف صاحبه :

- لا يمتنع أن نكون صديقين بعد أن كنا عدوين . أنت أيضاً مقاتل نبيل ، وقد شرفني أن أقاتل رجلاً مثلك وليس عاراً أن أهزم أمامه ..

فمد ميكابوز يده يصافحه ، وانصرف .. وإينارو يشيّعه بنظراته .

لم تطل إقامة ميكابوز بعد ذلك في منف . استدعي للعودة إلى سوسة وجاء مرزبان يدعى أرسام والياً بدلاً منه . وإذا كان الفرس قد استعادوا احتلالهم للدلتا وركزوا حامياتهم في مواقعها فإن أمراً واحداً كان ينغص عليهم وجودهم ، إذ استمر إمنروت في شن غاراته المفاجئة علي هذه المواقع محدثاً مختلف الأضرار ، متحصناً في جزيرة إلبو الصغيرة الصعبة المنال وسط المستنقعات. وكان ابنه بالإزر يقود مجموعات فدائية في هجمات ليلية تقض مضاجع الفرس ، متنقلاً من مكان إلى آخر على امتداد الدلتا الشرقية من بحيرة التمساح حتى البحيرات المرة وما حولها ، ويقوم بعمليات التخريب . كان إمنروت لا يزال يقاوم .

18

ذات يوم أبلغ إينارو بأن يتأهب للسفر في الغد مع المرزبان أرسام إلى العاصمة الفارسية . كانت هذه أوامر الإيوان .. فكتم الخبر عن كليو وأولاده ، وقضى سحابة يومه ذاك جالساً إليهم يحادثهم في مختلف الشؤون ... كان يلاعب كاروما الصغيرة ويعابث أخاها تكلت ، ولاحظت كليو أنه يسدي كثيراً من النصائح لابنه الأكبر إثن رع ، وقد صار فتى يافعاً أخضرّ شاربه واكتسب شيئاً من ملامح جده وبنية أبيه ، حتى أقبل الليل وآن للأولاد أن يأووا إلى فرشهم ويختلي أبواهم كل منهما بالآخر ، جالسين في شرفة الجناح المطلة على الجزء الغربي من مدينة منف .

كانت السماء صافية تبرق على وجهها مصابيح النجوم وبدت نجمة الزهرة تشع بوهجها القادم من بعيد . حدق فيها ثم نظر في وجه كليو وملأ منه عينيه ، وعاد ينظر إلى الزهرة من جديد .. ثم نقل بصره إلى مجموعة بيوت منف ورأى معبد رب المدينة (فتاح) يسطع ببياض طلائه ، غير بعيد من مجرى النيل المتدفق منذ الأزل في اتجاه الشمال . وعلى ضفتيه صفوف من النخيل السامق . شمل السكون ما حوله ، وكليو بجانبه لا تبدي حركة ، يتردد نفسها هادئاً وهي تتأمله في صمته الجليل .

خطر له أن يطلب منها العزف على قيثارتها ، ونظر إليها وانفرجت شفتاه ليسألها ما عنّ له ، ثم أقفلهما .. تراجع عن الفكرة ، ومضى في صمته . ابتسمت ونهضت مسرعة :

- سأعود فوراً .

بعد قليل عادت تحملها ، وجلست إلى جانبه وشرعت تعزف لحنه المفضل دون أن تنطق بكلمة. وكان قلبه يدق بعنف ، وهي تعزف وتعزف دون توقف منحنية على قيثارتها وقد تهدل شعرها على كتفيها .. كما رآها تفعل أول مرة .. وحين انتهى اللحن بلغ مسمعيهما صوت كروان آت من بعيد يردد لحنه في هدأة الليل .

وقف إينارو بقامته المديدة منتشياً فوقفت كليو بعد أن وضعت قيثارتها على أرض الشرفة. كان يريد أن يقول لها كلاماً كثيراً ، أن يعبر لها عن هيامه بها عن اعتذاره لها لما أرهقها به في رحلة حياتها معه . عن ذكرياتهما الحلوة وذكرياتهما المرة ، عن بلدة راقودة وقرية أبيس . عن الذين ماتوا ومن في طريقهم إلى الموت ، عن الأحباب والأصحاب ، عن الحرب والقتال ، والقصر الفرعوني، عن أولادهما ، عن الماضي كله ، عن كل شيء . لكن الكلمات احتبست في حلقه وظل واقفاً

يتأملها بعينين مفتوحتين لا تطرفان .. أمسك بكتفيها. ماذا يقول لها ؟ هل يخبرها بما سيحدث في الغد ؟ هل ينبئها بأنه ذاهب إلى مكان قد لا يعود منه أبداً ؟ إنها لم تتحدث عن شيء يؤلمه منذ اجتمع شملهما في هذه القلعة . لم تذكره بفقيد عزيز .. ابتلعت حزنها على كيمون ولم تأت على ذكره حتى لا تثير أساه ، وعاشت معه محنته وشاركته عذابه . ترى ما الذي سيحدث لها من بعده؟ ماذا سيحدث وهذا العبء الذي خلفه لها يثقل كاهلها ؟ فليترك للقدر أن يخط ما يشاء في لوح حياته وحياتها بعد أن حاول هو أن يخط بضعة سطور في لوح القدر .

أخذ رأسها بين يديه وخلل شعرها المتهدل بأنامله وقبلها على جبينها وضمها إلي صدره .

فأسندت رأسها إليه تنصت مفتونة إلى وجيب قلبه الكبير .

كلمة واحدة استطاع أن ينطق بها :

- حبيبتي !

كلمة واحدة استطاعت أن تنطق بها :

- حبيبي !

***

عندما أفاقت كليو في الصباح وجدت فراش إينارو خالياً . كان من الواضح أنه لم ينم فيه. وحين سألت عنه الحرس علمت أنه رحل عند الفجر برفقة المرزبان . أدركت أن رحلته ستطول .

19

حين أُدخل إينارو على ملك الملوك في إحدى قاعات القصر الجانبية وجده وحده . هكذا رغب أن يراه . أدخله كبير الحجاب .. بينما ترك المرزبان أرسام الذي اصطحبه إلى سوسة وبقية الحاشية الملكية خارج القاعة .. كان ملك الملوك جالساً على كرسي مرتفع في انتظار الرجل الأسطورة الذي شغله وشغل مملكته والدنيا كلها ثلاثة عشر عاماً .

طفق يتفحصه ، وقد زر عينيه مميلاً رأسه وهو يمسد بطنه المكور ، وإينارو يتقدم ثابت الخطو حتى وقف أمامه مباشرة . قال كبير الحجاب يأمره :

- اسجد للملك الملوك يا هذا .

فحدجه بنظرة احتقار وقال بصوت واضح جلي :

- الفرعون لا يسجد يا ذاك . من لبس التاج المزدوج لا يحني هامته لأحد .

قال أرتحشستا :

- دعه يا أردشير .. دعه . إنه يركن إلى ما أعطاه ميكابوز من أمان .

وتوجه إلى إينارو :

- لكن لا تاج على رأسك الآن ولا ريشة أيضاً .

قال إينارو :

- ليس المهم ما على الرأس . المهم ما فيها .

- وماذا في رأسك الآن يا .. يا فرعون ؟

وضحك هازئاً . فأجابه :

- يختلف عما في رأسك يا .. يا شاهنشاه .

كان تاج الطاووس يعلو هامة أرتحشستا فعدل من وضعه مثبتاً إياه كأنما يريد أن يثبت لأسيره الحقيقة الواقعة . ولم يتنبه لدلالة العبارة ، في حين أدرك أردشير معنى السخرية المبطن . قال أرتحشستا محاولاً أن يجاريه :

- الرأس التي تدبر لا تفيد إذا لم تكن معها يد تفعل .

تذكر إينارو ما حدثه به كيمون عن لقب أرتحشستا الذي أطلقه عليه الأثينيون ... ماكروكير .. اليد الطويلة. ونظر إلى ذراعيه فلاحظ أن إحداهما أطول من الأخري فعلاً . واسترسل أرتحشستا :

- يد تفعل .. يد قوية .

قال إينارو :

- يد قوية أو ضعيفة ، طويلة أو قصيرة . ليس المهم صفة اليد بل المهم ما تؤديه .

- أدت يدنا ما أردنا . امتدت إليك ونالتك وجاءت بك كما شئنا .

- هذا ليس فعلاً حسناً . سمعت من قائدكم ميكابوز أن نبيكم زرادشت يدعو لفعل الخير. وما تفعلونه ليس خيراً .

أراد أردشير أن يتدخل فأشار إليه أرتحشستا أن يمتنع ، قال له :

- نحن نعمل الخير . نحن ننصر أهورا مزدا إله النور على أهريمان الشرير رب الظلام .

قال إينارو :

- إله النور لا يأمر باستعباد الغير ونهب خيراتهم . الحرية هي النور ، هي أهورا مزدا .

- نحن أحرار .

- وتستعبدون الآخرين .

- لأن يدنا هي الأقوى .

- ستقوى عشرون يداً عليها .

- نقطعها .

- ستنمو أياد غيرها. كلما قطعتم يداً نبتت من جديد.. الأيدي المطالبة بالحرية لا تموت .

قال أرتخشستا وكأنه يختتم الحوار :

- سننظر كيف يتحقق قولك ومتى يا .... فرعون .

قال إينارو :

- سنرى يا .... شاهنشاه .

لم يضف أي منهما شيئاً ، وظلا يحدقان أحدهما في الآخر دون كلام . انحني أردشير ساجداً أمام مليكه ، وهمّ بالخروج فاستدار إينارو ذاهباً إلى سجنه الذي وضع فيه .



الفصل الرابع



1

تأتي النهايات في العادة سريعة عاجلة . وهذا ما حدث . كان ميكابوز قد أرسل إلى إقليم الأفغان ليقمع ثورة فيها ضد حكم فارس ، وطالت غيبته وغدُّو يقاتل الثائرين في جبالها الوعرة ، يحاول أن يقطع يداً هزت قبضتها للحرية من جملة العشرين يداً في المملكة المتسعة الأرجاء . ولبث إينارو في سجنه مدة ، اختلف المؤرخون في تحديدها ما بين سنتين وخمس سنوات، يمضغ ذكرياته ويعذبه التفكير في الأحباب . . وكان الملك أرتحششتا يهز رأسه ممتنعاً كلما زارته أمه :

– كلا .. يا أمي . لا أستطيع . سيغضب ميكابوز إن فعلت .

كان نحميا بن حكليا يردد على سمع أمسترا :

– إنه رأس الأفعى يا مولاتي . إذا ظل حياً لا يمكن التنبؤ بالنتائج . تذكري الراحل أخمين الذي خنقه بيديه .

فيلتهب نار الحقد في صدرها وفي روحها الرغبة في الانتقام ، وتذهب إلى ابنها ملحة :

– اقتله .. لماذا تحتفظ بهذه العقرب السامة ؟

ويجيبها :

– سيغضب ميكابوز .. يا أمي .

يوماً بعد يوم ، وشهراص بعد شهر . نحميا يثير ويمنخس بكلماته الملكة الأم ، وهي تسعى لدى ابنها المتهافت وتحاول إقناعه بأن يثأر لعمه وواليه السابق على وادي النيل ، حتى جاءت اللحظة التي انهارت فيها مقاومته وأذعن لطلبها وأمر بإعدام الفرعون الأسير .

***

في الصباح الباكر نُصبت الآلة الجهنمية وجاء الجلادون ، وحُشد الجمهور ليشهد نهاية «المتمرد» نفخت الأبواق ودقت الطبول ، وجيء بالسجين يرسف في أغلاله . اعتلى سلم المنصة المرتفعة درجة درجة على مهل ، يجرجر سلسلة الحديد محدثة صوتها على درجات السلم ... وشرع الجلادون في تنفيذ أمر الإعدام على الخازوق . وكان رجل ملتح أبيض البشرة ، محمرها ، أسود العينين ، جاوز الخمسين بقليل ، يقف مبتسماً في سعادة وهو يفرك يديه المبللتين بالعرق .

لم تسمع من الرجل المعذب أنة واحدة . ولم يصدر عنه صوت ألم . كان قد غاب عن الوجود

وركز روحه وعقله في صورة واحدة .. هناك بعيداً في دلتا النيل . ظل هكذا حتى أذنت الشمس بالغروب ، وكانت قطرات الدم تتجمع شيئاً فشيئاً وتسيل في خيط رفيع ينحدر من المنصة إلى أن يبلغ سطح الأرض ، فيكوّن بركة صغيرة قانية .

وحين سقطت الشمس في الأفق الغربي اختلج الجسد المعذب فجأة ، ومات ، وظلت عيناه مفتوحتين على سعتهما تنظران إلى الأفق .

في اللحظة ذاتها كانت فتاتان واقفتين عند جسد مسجى لعجوز طاعنة في السن ، فوق أريكة صغيرة في بيت قصي من بيوت سوسة . أغمضتا جفنيها على العينين المنطفئتين وسحبتا الغطاء على الوجه الذابل ، وجلستا حزينتين تنظران إلى شجرة السنط الوحيدة في حديقة البيت .

2

حين بلغ ميكابوز ما فعله الملك بأسيره الذي صار صديقه ، ثارت ثائرته وأحس بأنه غدر به وأسيء إلى كرامته بنقض عهده الذي عاهد وكلمة شرفه التي أعطى ، فأعلن التمرد وشرع في الزحف على سوسة ذاتها . كان ساخطاً كل السخط وغاضباً أشد الغضب ، وقد حاول أرتحششتا في البداية ضربه بحملة عسكرية لتأديبه ، لكن ميكابوز كان على أتم الاستعداد للمواجهة فهزم الحملة شر هزيمة وأظهر عزمه على الثأر لشرفه العسكري مهما كان الثمن .

قال أرتحششتا لأمه مغيضاً :

– هذه هي النتيجة .. انظري ماذا يفعل ميكابوز . قلت لك هذا مرات ولم تقتنعي . مالذي جنيناه من انتقامك الفظيع سوى أن ينقلب علينا صهري وقائد جيشي الذي حقق لنا المعجزات ؟

قالت أمسترا :

– لا تضطرب هكذا يا ولدي .. لا ترتبك . فأنت ملك الملوك .

قال بجفاء :

– ها ! ملك الملوك ! غداً يصبح ميكابوز ملكاً للملوك بدلاً مني . هكذا فعل جدي دارا بعد قمبيز ، كان قائداً من قادته فلما مات قفز دارا إلى العرش .

قالت تطمئنه :

– دعه لي . أعرف كيف أسوسه .

- تعرفين ؟ لقد قضى على الحملة التي أرسلتها لتأديبه .

- لا تخف . من لا تؤدبه الجيوش تؤدبه المرأة . نحن النساء نعرف مـدى قوتنا .. يا ولدي ... نستعملها عند الحاجة .

خطر في باله أنها تعْني ما تقول وتقدر عليه ، فهـو يدرك ضعفه هو أمام جبروت المرأة ويعرف ما حدث لأبيه أحشويرش الطاغية الجبار، وعشرات سواه ، فسكت ينتظر التوضيح .. فأوضحت :

- لدينا حيـة رقيقة لطيـفة اسمهـا أمستا ، ابنتي العـزيزة وأختك يا ملك الملوك ، أنسيـتها ؟ إن ميكابوز غـارق في هواها ، رغم أني أعلم ألاعيبهـا الصغيرة في غـيبة زوجها المفـضال المدافع عن شرفه العسكري المجيد . سأذهب بها إليه فهو لا شك مشتاق إليها جداً .

فكر قليلاً ورأى أن يدعها تجرب :

- اذهبي إليه يا أماه وحاولي جهدك .

قالت :

- سآخذ معي أرتاخور .. الخصي . إنه فتى جيد ومفيد في كل الظروف والأحوال .

قال :

- خذيه وحده ولا تأخذي معك غيره . مفهوم ؟

كانت عيونه تبلغه بكل حركة من حركات أمه ويعرف عـلاقاتها البالغة الخصوصية . فابتسمت وقالت :

- لا . لن يصحبني أحد . هذه مسألة عائلية لا يتدخل فيها الأغراب .

***

بعد بضعة أسابيع أعلن ميكابوز ولاءه لعرش الطاووس من جـديد وعاد إلى سوسة مغفوراً له ذنبه آمناً على حياته ومـاله . كان له شرط واحد اعتبره نوعاً من التـعويض ورد الاعتبار .. أن يعين ابنا إينارو وإمنروت حاكمين على ضـفتي الدلتا الغربية والشرقيـة . ولم يكن هذا الشرط يتعارض مع التقليد الفـارسي في تنصيب أبناء من يطيحونهم من ملوك الشعوب الأخـرى خلفاً لهم . كان إمنروت قد قضى فـي جزيرة إلبو الصغيـرة بمرض لم يمهله طويلاً ، وابنه باإزر لا يزال مختـفياً في المستنقعات . أما إثن رع فكان مع أمه وأخويه سجين (القلعة البيضاء) .

هكذا .. وبمرسـوم شاهنشاهي ممـهور بخاتم أرتخـششـتا ، ملك الملوك ، أصبـح باإزر حاكـماً

للضفة الشرقية ، ومقره مدينة بوباست ، وصار إثن رع حاكماً للضفة الغربية منها ، ومقره مدينة صا ، وقد أخذ كل منهما والدته وإخوته إلى حيث مقر حكمه .

3

بعد بضع سنوات جاء رجل إغريقي من سكان نكراتيس يطلب مقابلة السيدة كليو والدة حاكم صا . قال إنه كان في زيارة إلى مدينة قورينا ويحمل رسالة خاصة إليها ، فأذن له بالمقابلة وسلمها الرسالة المختومة ... فلما فضتها وجدتها مكتوبة بالإغريقية ، وشرعت تقرأها :

«أختي العزيزة الغالية جداً .. كليو

أبعث لك بأشواقي وقبلاتي .. أكتب إليك من قورينا التي وصلتها منذ زمن بعد انفلاتي ، مع عدد آخر من إغريق أثينا ، إلى مريوط . وقد أقنعت العجوز ثيوفرون - صدقي أولا تصدقي ! - حين مررت به في راقودة بأن يصحبني . إننا نحيا هنا في أرغد عيش ، وفي مدينة جميلة على قمة ما يسمونه هنا (الجبل الأخضر) في بلاد ليبيا ، تتفجر بالعيون والينابيع حيث تسود الخضرة كل مكان .. الهواء نقي جداً والخيرات وفيرة . كنت أظن أن شاعرنا الأعمى هوميروس كذاب كبير حين وصف جمال هذه البلاد ، لكنني أرى الآن أنه قصر عن وصفها ، وله عذره إذ هو لم يرَ ما رأيت .. كيف يرى وهو أعمى ؟ وقد أفاد الهواء النقي أبانا العزيز وامتنع السعال عنه . حمداً لرب الطب ، أسكليبوس ، الذي مَنّ عليه بالصحة حتى أنني أتوقع موافقته على الاقتران بعجوز مناسبة . ماذا ؟ أعني بفتاة مناسبة . ستتحسن صحته أكثر بمداومته على ملعقة من العسل الرائع هنا كل صباح وشيء من السلفيوم الممتاز ، وببعده عن رطوبة بحيرة مريوط وسباخها العطنة . أما أخوك فقد قرر الزواج من فتاة بديعة ، أمها ليبية من قبيلة الهاسا وأبوها من إغريق جزيرة ثيرا الأقدمين ، كان جده رفيقاً من رفاق باتوس . حتى متى أنتظر ؟ العجوز يرفض ، حتى الآن ، فكرة الزواج ، ويبدو أن عمره سيمتد طويلاً إلى ما لا نهاية . كل أخباركم تصلني باستمرار وأتابع آخر التطورات . تحياتي للأمير إثن رع ، وأرجو له التوفيق في منصبه الرفيع ، وطبعاً قبلاتي لتكلت وكاروما ، وقولي لهم إن خالهم مشتاق إليهم كثير الشوق . أحتاج إلى كيس كبير ليحمل تحياتي أيضاً إلى فيلق شيحو ، والسيدة المبجلة مريت إمن . آمل أن يكون لقاؤنا قريباً ، فإذا سنحت لك الفرصة فلم لا تزورين أباك وأخاك في هذا البلد الساحر ؟

أجدد سلامي واحترامي ، يا مولاتي والدة حاكم عام الدلتا الغربية .

كيمون بن ثيوفرون الأبيسي الراقودي القوريني . الإغريقي نسباً المصري مولداً الليبي داراً»

***

كان قلبها يرقص سعادة وهي تلتهم سطور الرسالة المفاجئة وتعيد قراءتها مرة بعد مرة . لم تدر ما تفعل ، فانطلقت تضحك وتبكي وهي تضم الرسالة إلى صدرها وتسترجع ما جاء فيها. وكانت كاروما ، ابنتها التي صارت فتاة يانعة صورة طبق الأصل من أمها في صباها ، مندهشة كل الدهشة لسلوك أمها الغريب . لم ترها تضحك منذ مدة طويلة ، إذ كانت دائمة الشجن ، وكانت الشعرات البيضاء اللامعة في مفرق شعرها تضفي عليها دائماً حزن الموجوعين هتفت كاروما مصعوقة .

- أمي ! ما بك يا أمي ؟ ما لك أيتها الحبيبة ؟

جذبتها إليها وضمتها إلى صدرها وشرعت تقبلها :

- أنا ؟ . أنا سعيدة . سعيدة جداً . هذا كل ما في الأمر !

4

تموت الشجرة فتنمو البذرة ، وتموت البذرة فتنمو الشجرة .

وقد ماتت ونمت مائتا شجرة ومائتا بذرة بمرور الأعوام . وفي ركن من أركان مكتبة الإسكندرية قعد رجلان تحيط بهما أكوام من لفائف ورق البردي ، وأخرى مرتبة في رفوف طويلة . قال أحدهما للآخر :

- لا .. يا إيراتوسثنيس . هذا ما أقوله دائماً : الكتاب الكبير شر كبير . النهج الهومري مضى زمنه ، وعليك بالأعمال الشعرية القصيرة المعبرة كومض البرق ، وليس تلك الملاحم ذات الرعود والأعاصير والزوابع والصواعق .

أجابه صاحبه :

- هذا أنت يا كالماخوس . أعمالك قطع فسيفساء ضئيلة ، أما أنا فأصوغ تماثيل ضخمة رائعة جليلة كتماثيل فيدياس

قال الآخر .

- قطع الفسيفساء تكون في النهاية لوحة رائعة الألوان

- ولِمَ العناء في هذه القطع المرصوصة ؟ أكتب عملاً واحداً يخلد خير من هذه القصاصات

التي سرعان ما تنثرها الريح .

– تنثرها الريح ؟ اسمع هذه وقل لي هل فعلاً ستنثرها الريح أم تظل تومض كالنجم أبد الدهر ؟

اسمع :

«إيه يا خاريس !

اعتلي قمة الجبل

وانظري من أين تأتي النار .

أية مدينة اختفت ؟

أية مدينة تحترق

وترسل الوهج ؟

إني قلقة ..

فلتطيري !

فلتحملك الريح الجنوبية !

هل يمكن أن يحدث ؟

أن تصاب حبيبتي ليبيا بسوء؟»

وتوقف كالماخوس قليلاً ينتظر رد الفعل ، فقال له إيراتوسثنيس :

– أكمل . لا بأس بها .

فمضى يقرأ :

«نعم ..

الدخان يأتي من المدينة

لكن أتوسل إليك ألا تنتحبي

فإن جزيرتك فاروس

لم تحترق .

نعم ...

إن المدينة يملأها العويل

فالناس يكون شخصاً من العظماء

وأينما جُلت ببصرك في المدن

رأيتها مجللة بالسواد .»

***

كان الاثنان شاعرين عـالمين جاءا الاسكندرية من قورينا ليؤسسا مكتـبتها التي ذاع صيتهـا فيما بعد . وكـان مختـلفي الاتجاه الأدبي وإن جـمعت بينهـما وحدة النشـأة والاهتمـام بالمعرفـة . قال إيراتوسثنيس :

– يعـجبني فـيك ، يا كالماخـوس ، رغم اختـلافي مـعك في المذهب ، جمـعك حب الاثنين : منشأك ومقامك .

قال صاحبه :

– وأنت كذلك جمعت . ولكن لِمَ لا تقول إن الاثنين واحد ؟

– في الأصل ؟ إلى حد ما .. هذا صحيح .

– بمناسبة الأصل . تعرف أنني أعد كتاباً اسمه (أيتيا) .

– آه .. الأسباب ؟ أسباب تسميات المدن والأماكن ؟

– نعـم ، وأنـا فـي حاجة إلى عونك ، فـأنت عليم باللغات القديمة على الأخص . ألم تُسَمَّ ، يا إيراتوسثنيس ، باسم «المصارع في كل ميدان» ؟

– هذا شرف عظيم لي ، ويشرفني أكثر أن تطلب أنت مني المعونة .

– المعرفة تطلب من أي مكان ومن أي كان .

– حسن . بماذا يمكنني أن أعين ؟

– اسم الاسكندرية جـاء نسبة إلى الاسكندر بـن فيليب المقدوني الذي وضع أسـاسهـا قبل أن يموت .

– بالضبط .

– ألم يكن في موقعها مدينة أو قرية مثلاً ؟

- بلى . لقد كانت هنا بلدة صغيرة اسمها (راقودة) ..

تفكّر كالماخوس قليلاً ، ثم قال :

- راقودة .. راقودة . يخيل إلى أنني سمعت هذا الاسم بطريقة ما .. ما معناه يا ترى ؟

قال إيراتوسثنيس :

- في اللغة المصرية القديمة تنطق (رع قديت) وتحرفت الآن إلى (راكوتي) ، ثم ها أنت تنطقها (راقودة) .... لا بأس .

- أنا أسألك عن معنى الاسم في الأصل .

- دعني أوضح لك . في تلك اللغة (رع قد) بمعنى : الإله رع بنَى . و(رع قديت) تعني : بناء رع . لنقل (بني رع) . هل عرفت الأصل ؟

- أحسنت . الجميل أنك لم تطل الكلام كما تفعل في ملاحمك المملة يا إيراتوسثنيس !

فتكدر هذا نوعاً ما ، ورد مدافعاً عن منهجه مخالفاً أستاذه وابن مدينته :

- قد ترى ملاحمي مملة لكنها مليئة بالمعارف مشحونة بالحكم .

فمضى كالماخوس في إغاظته :

- انتهى عصر التعليم بالشعر يا صاح . نحن في حاجة إلى ثورة في عالم الأدب والشعر بالذات ، إذ ليس المهم الكم بل الكيف .

أراد التلميذ الذي صار أستاذاً شهيراً أن يغير مجرى الحديث .. فسأل :

- قلت إنك سمعت هذا الاسم بطريقة ما . أين ؟

أجابه :

- نعم .. نعم .. في الحكايات التي تروى عن ثورة أشعلها رجل كان قريباً من هنا ، أو هنا بالذات ، ربما في المكان الذي نجلس فيه . اسمه إينارو ، وتنسج عنه حكايات كثيرة ..

- هل حدث هذا فعلاً ؟ هل هو شخصية تاريخية أم مجرد أسطورة ؟

- كان شخصية تاريخية حقيقية .. أول من كتب عنها أبو التاريخ هيرودوت في (تواريخه) ، ثم كتيسياس في مؤلفه الكبير عن (الفرس) ، كما أشار إلى بعض الأحداث المتصلة به الفيلسوف أفلاطون في مقالته بعنوان (منيكسينوس) . وسجل ثورته وما جرى فيها ثوسيديدس صاحب (تاريخ حرب البيلوبونيز) ، ويمكن أن أسرد أسماء كتاب ومؤرخين آخرين .. إن شئت .

قال إيراتوسثنيس :

– إذا لم يعرف هؤلاء الكتاب ومؤلفاتهم أمين مكتبة الاسكندرية فمن الذي يعرف ؟

– أشكرك على التحية ، ويمكنك أن تستوثق مما ذكـرت في تلك الكتب الموضوعة لفائفها على الرف .. فوق رأسك مباشرة .

عقب مداعباً :

– إنني واثق من كلامك طبعـاً .. سأقرأ قصة هذا الرجل ، وربما .. أقول ربما .. كـتبت ملحمة عنه . كل ما أرجوه ألا تكون مملة لك .

– لن تكون مملة يا عزيزي .. فإن قصته مثيرة جداً .

ثم انشغل كل منهما بمطالعة مجموعة من أوراق البردي ، وترتيب أوراق أخرى .

5

ماتت ونمت مئات الأشجار والبذور ، على مر الأعوام .

وفي ليالي الشتـاء الباردة من كل عام كان الأطفـال يتحلقون حول الجدات أمـامهن المواقد في الغرف الضيـقة من آلاف بيوت الفلاحين الـطينية الصغيرة ، عـلى امتداد دلتا نهر الـنيل ومجراه ، محدثين ضجة محببة وهم يتصايحون :

– احكي لنا يا جدتي عن إينارو .

يصيح صبي صغير :

– حكاية «إينارو والعنقاء» .. أنا أحبها . إينارو البطل يقتل العنقاء الشريرة .

فيعارضه آخر :

– لا .. لا .. نريد حكاية «درع إينارو» . هذي أحلى .

وتحاول طفلة أن ترفع صوتها على الجميع :

– نبغي حكاية «ابن إينارو والأمازونات» . ابن إينارو قوي مثل أبيه .

وحين تبدأ الجدة حديثها : «في يوم من الأيام كـان إينارو ...» – تخفت الضجة ويسود الهدوء ، وعيـون الأطفال مفتـوحة وأسمـاعهم مصغـية وهم منبهـرون بكل ما يأتيه بطلهم المحـبوب من

أعاجيب ويقوم به من خوارق .

لقد خلد . عاش في وجدان الشعب وذاكرة الناس منذ أكثر من خمسة وعشرين قرناً من الزمان ، جيلاً بعد جيل .

انتهت

ملحق الرواية

ليس في هذه الرواية وأحداثها شيء من نسج الخيال ، بل هي وقائع تاريخية معلومة مسجَّلة، وكذلك شخصياتها المهمة في تسلسل مواقفها وأسباب هذه المواقف ونتائجها .. ولم يكن للخيال من دور سوى إضافة بعض الشخصيات "المساعدة" ، أو الحوار والحركة الضروريين مما تستوجبه الحبكة الروائية في العادة .

كان أبو التاريخ ، هيرودوت ، أول من كتب عما حدث . وكان زار مصر بعد انتهاء ثورة (إينارو) بخمسة وعشرين عامًا واورد – بشيء من التفصيل – ما جرى . وهو زار مكان الموقعة التي دارت رحاها بين جيش فارس اللجب بقيادة (أخمين) وثوار دلتا النيل بقيادة (إينارو) عند "رعمس" – ورأى عظام قتلى الفريقين على الجانبين يميزهم أمر بالغ الطرافة ؛ فقد ذكر أن أهل مصر أنبأوه بأن جماجم الفرس هشة سهلة الكسر بسبب حمايتهم إياها من الشمس بخوذات يضعونها على رؤوسهم بينما تكون جماجم أهل مصر صلبة لأنهم يحلقون رؤوسهم عادةً ولا يرتدون خوذات فتظل معرضة للشمس وتصلب ! وهو استوثق من ذلك بنفسه، وقال : "وقد لاحظت الشيء ذاته في (رعمس) حيث دُمِّر الفرس بقيادة أخمين بن دارا على يد إينارو الليبي"..

إن وصف "الليبي" الذي أطلقه هيرودت على بطل روايتنا يتكرر باستمرار عند من جاء بعده من المؤرخين، ويضاف إليه لقب "ملك الليبيين" في كثير من الأحيان . والسبب في هذا أن (إينارو) ينحدر من الأسرة السادسة والعشرين حسب تقسيم (مانيثو) للتاريخ الفرعوني ، وهو التقسيم الذي أخذ به المؤرخون المحدثون ، وهي أسرة ليبية الأصل باتفاق الباحثين . وكانت هذه الأسرة قد أسست ملكها في مدينة "صا" (صا الحجر أو صان الحجر – الآن) بعد انهيار الأسرة الخامسة والعشرين النوبية (715 - 663 ق . م . افرلجي) واستمر حكمها حتى غزو الفرس بقيادة (قمبيز) (سنة 525 ق . م) .* لكن (إينارو) كان في بعض الأحيان يُنسب إلى مؤسس الأسرة،

* يضع مانيثو الحكم الفارسي الذي استمر ، حسب قوله ، نحو مائة واربعة وعشرين عاماً ممثلاً للأسرة السابعة والعشرين . أما الأسرة الثامنة والعشرون عنده فيمثلها (امرتيوس) Amyrteos (وهي الصيغة اليونانية لاسم إمنروت) لمدة ست سنوات أو ستة أشهر وعاصمته مدينة (صا) . ويجعل الأستاذ و.ج. وادل W.G.Waddell=

جده الأعلى ، المدعو "بسمتك" (بسامتيك) فيقال "إينارو بن بسامتيك" .

أما اسم والده كما ورد في الرواية (تكلت) فهو من وضع المؤلف ؛ إذ لا يوجد في المصادر ما يشير إليه . بيد أنه اسم متداول كثيراً عند فراعين مصر الليبيين من الأسرة الثانية والعشرين وفي ما يعرف بالنقوش الليبية في شمال أفريقيا .

الأحداث (بالتاريخ الإفرنجي - قبل الميلاد) :

525 غزو الفرس مصر بقيادة قمبيز .

466 تولي أرتحششتا حكم فارس بعد مقتل والده أحشويرش .

462 إعلان الثورة في الدلتا ضد حكم الفرس ..

461 بركليس يحكم أثينا ..

460 معركة (بر رعمس) ومقتل أخمين على يد إينارو .

458 الكاهن عزرا بن سرايا يذهب إلى أورشليم .

456 ميكابوز يمضي إلى كنعان لإعداد حملة ثانيةعلى مصر .

455 الهجوم الفارسي الثاني على الدلتا .

454 أسر إينارو ونقله إلى سوسة ، عاصمة فارس .

449 نهاية إينارو ..

449 تمرد ميكابوز .

448 عودة ميكابوز .

وفاة إمنروت وتعيين ابنه ، با إزر ، وابن إينارو ، إثن رع ، حاكمين على الدلتا .

= بداية عهده سنة 404 ق.م. مما يجعل من المستبعد أن يكون المقصود هو إمنروت رفيق إينارو في ثورته، ولعله حاكم آخر يحمل نفس الاسم، الأمر الذي يتكرر كثيرا في تاريخ مصر.. ويذهب الأستاذ أولمستيد A.T.Olmstead إلى أنه قد يكون حفيد إمنروت (تاريخ الامبراطورية الفارسية، ص 303) . أما الأستاذ والس بدج W. Budge في قائمته التي وضعها عن ملوك مصر فقد ذكر أن الأسرة الثامنة والعشرين مفقودة (!) . وفي تصوري أن هذه الأسرة هي فترة حكم إينارو التي استمرت ثماني سنوات (462- 454 ق.م) .

الأثر الوحيد :

إذا كان مؤرخو الإغريق واللاتين قد خلَّفوا لنا روايات ، مفصلة في بعض الأحيان ، عن ثورة (إينارو) فإن الآثار المصرية تخلو من أي تسجيل عنه . وليس هذا بمستغرب ، إذ ثمة أحداث في تاريخ مصر تروى عند أمم أخرى ولا يوجد شيء عنها في مخلفات هذا التاريخ في وادي النيل ذاته * . غير أن هناك تسجيلاً وحيداً ، حتى الآن ، تركه ألد أعداء إينارو ، بل خصيمه الشخصي نفسه، يثبت حقيقة ما حدث ..

يذكر الأستاذ "أولمستيد" في مؤلفه عن (تاريخ الامبراطورية الفارسية - ص 312) نقلاً عن "Couyat-Montet; Nos.61,89" و "C.Lenormant; Gazette archeologique, 1877, P.182" أنه عُثر على ختم اسطواني صنعه الملك الفارسي أرتحششتا "يصوِّر مقتل الثائر ، وهو لا يزال يعتمر تاج مصر المزدوج ، بينما ينتظر الإغريق المقيدون بالحبال عقابهم" . ومن المعروف أن خمسين من قادة جند الإغريق قطع أرتحششتا رؤوسهم بينما خوزق إينارو بصورة بشعة انتقاماً منه لما فعل بالفرس .

حكايات إينارو :

إن لم تكن التسجيلات الرسمية المصرية احتفظت بذكر بطل المقاومة للفرس والثورة عليهم فإن التراث الشعبي ظل متعلقاً بذكراه بعد نهايته المأساوية : إذ تحول إلى بطل شعبي مقاتل تنسج حول شخصيته الحكايات العجيبة في عالم الأساطير الغريبة ودنيا السحر المدهشة ، تماماً مثلما حدث لسيف بن ذي يزن في المأثورات العربية ، وقد جاء على ذكر هذه الحكايات الأستاذ (كتشن) في كتابه عن "الفترة الوسيطة الثالثة في مصر".. أما الأستاذة "مريم لشتهايم" فقد قامت بترجمة جملة من الشذرات المتناثرة التي عُثر عليها متصلة بهذه الحكايات ، من الديموطيقية (الكتابة الشعبية المصرية) إلى اللغة الانكليزية ، ونشرها والتعليق عليها . *(انظر قائمة المراجع)*

---

* من ذلك مثلاً قصة يوسف بن يعقوب وحديثه المفصل في التراث الديني اليهودي والإسلامي ، وقصة موسى المشهورة وما جرى للعبرانيين في مصر ، إلى جانب روايات غيرهما ذات صلة بوادي النيل ولا تسجلها الآثار المصرية الهيروغليفية نقوشاً على جدران المعابد أو كتابة على البردي .

بركليس :

ناقش عدد من المؤرخين المساعدة التي قـدمها "بركليس" (ممثل الحكم الديمقراطي في أثينا) إلى ثوار الدلتـا لصد الهـجـوم الفارسي الضـخم عليـها للقـضاء على الـثورة واسـترداد دلتـا النيل .. وأرجعـوا أسباب هذه المساعـدة إلى عوامل اقتـصادية وسياسـية داخلية ، وإلى رغـبة الأثينين في تحطيم الجناح الغـربي من الامـبراطورية الفـارسـية ، وهي العـدو الأخطر يومـذاك على أثينا وبلاد الإغريق كلهـا ؛ فقد كـان الفرس يحتلون أجـزاء كثيـرة من تلك البلاد . ثم كان هناك عـامل آخر يكمن في استقرار جاليات إغريقية كثيرة العدد في (مستوطنات) خصصت لهم في الدلتا منذ عهد الفرعون "خفرع بن بسامتيك" ، وازداد عددها في أيام "أحـمس" .. إلى جانب مستوطنتهم النامية في قورينا ، شـرق ليـبيا . وكانت العـلاقات بين الأغـارقة وحكام الدلتا تـزداد وثوقاً بمرور الأيام، ليس على المستوى الاقتصادي فحسب بل على المستوى الثقافي أيضاً .

من الطريف هنا أن نذكر أن أقدم أثر اكـتشف مكتوباً بالحرف واللغة الإغريقـيين نقش مسجل باسم الفرعون بسامتيك (الثاني) موجود على صخور معبد "أبو سمبل" في أرض الصعيد* .

ΒΑΣΙΛΕΟΣ ΕΛΘΟΝΤΟΣ ΕΣ ΕΛΕΦΑΝΤΙΝΑΝ ΨΑΜΑΤΙΧΟ
ΤΑΥΤΑ ΕΓΡΑΨΑΝ ΤΟΙ ΣΥΝ ΨΑΜΜΑΤΙΧΟΙ ΤΟΙ ΘΕΟΚΛΟΣ
ΕΠΛΕΟΝ ΗΛΘΟΝ ΔΕ ΚΕΡΚΙΟΣ ΚΑΤΥΠΕΡΘΕ ΥΙΣ Ο ΠΟΤΑΜΟΣ
ΑΝΙΗ ΑΛΟΓΛΟΣΟΣ Δ ΗΧΕ ΠΟΤΑΣΙΜΤΟ ΑΙΓΥΠΤΙΟΣ ΔΕ ΑΜΑΣΙΣ
ΕΓΡΑΦΕ ΔΑΜΕΑΡΧΟΝ ΑΜΟΙΒΙΧΟ ΚΑΙ ΠΕΛΕΦΟΣ ΟΥΔΑΜΟ

***

* George Rawlinson; Ancient Egypt, London, 1887,P.362.

المراجع

(١) الكتاب المقدس - العهد القديم - سفر عزرا ، سفر نحميا .

(2) Couyat, J.&Montet, P.; Les insircptions du Ouadi Hammamat,1912

(3) Dicks, Brian; The Ancient Persians, David & Charles, London,1979.

(4) Herodotus; The Histories (tr.Aubrey de Sélincourt), Penguin Books,1968.

(5) Kitchen, A.; The Third Intermediate Period in Egypt, Aris & Phillips, London,1973

(6) Lichtheim, Miriam; Ancient Egyptian Literature, Part 3, University of California Press, USA,1980.

(7) Manetho; Aegyptiaca (tr.W..G.Waddell), The Loeb Classical Library,1980.

(8) Olmstead, A.T.; History of the Persian Impire, Chicago,1959.

(9) Rawlinson, George; the Ancient Egypt, London,1887.

(10) Rogers, B..William; A History of Ancient Persia, London,1929.

(11) Sykes, Percy; A History of Persia, London,1958.

(12) Thycididess; The Peloponesian War (tr.M.I.Finley), Penguin Books,1972.

المؤلف
د . علي فهمي خشيم

- أمين عام مجمع اللغة العربية . طرابلس . الجماهيرية .

- أمين عام رابطة الأدباء والكتاب . طرابلس . الجماهيرية

مؤلفاته

- النزعة العقلية في تفكير المعتزلة :

دراسة في قضايا العقل والحرية عند أهل العدل والتوحيد .

الطبعة الأولى — دار مكتبة الفكر ١٩٦٦
الطبعة الثانية — المنشأة العامة للنشر ١٩٧٥

- الجبائيان .. أبو علي وأبو هاشم :

بحث في مواطن القوة والضعف عند المعتزلة في قمة ازدهارهم وبداية انهيارهم .

الطبعة الأولى — دار مكتبة الفكر ١٩٦٨

- أحمد زروق والزروقية :

دراسة عن أحد أعلام التصوف الإسلامي في شمال افريقيا . حياته وعصره ومذهبه وطريقته ..

الطبعة الأولى — دار مكتبة الفكر ١٩٧٥
الطبعة الثانية — المنشأة العامة للنشر ١٩٨٠

- الكناش :

صور من ذكريات الحياة الأولى لأحمد زروق .. بقلمه . مع مقدمة وتحقيق .

الطبعة الأولى — المنشأة العامة للنشر ١٩٨٠

- كتاب الإعانة : لأحمد زروق : تحقيق وتعليق .

الطبعة الأولى — الدار العربية للكتاب ١٩٧٩

- نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى :

ترجمة كتاب (وليام سذرن) : (W. Southern; Western Views of Islam in the Middle Ages)

مع التعليق عليه ، ومقدمة ، بالاشتراك مع د .. صلاح الدين حسن

الطبعة الأولى — دار مكتبة الفكر ١٩٧٦

- حديث الأحاديث :

مناقشة صريحة لآراء وأفكار الشيخ محمد متولي الشعراوي .

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٧٨

- نصوص ليبية :

ترجمة لكتابات مشاهير المؤرخين والجغرافيين اليونان واللاتين عن ليبيا القديمة مع مقدمات وتعليقات وشروح .

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٦٨
الطبعة الثانية - دار مكتبة الفكر ١٩٧٥

- قراءات ليبية :

مقالات مركزة عن الحياة والناس والأرض والتاريخ والأسطورة في ليبيا حتى الفتح الإسلامي .

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٦٩

- الحاجية :

من ثلاث رحلات في البلاد الليبية . رحلات الناصري والمنالي والفاسي في ليبيا محققة ومشروحة ..

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٧٤

- دفاع صبراتة Apologia :

النص الكامل لدفاع (أبوليوس المداوري) في محاكمته بمدينة صبراتة مع مقدمة تحليلية وتعليقات .

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٧٥

- الأزاهير Florides :

نماذج من كتابات وخطب (أبوليوس المداوري) .

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٧٩

- تحولات الجحش الذهبي :

رواية أبوليوس المداوري الشهيرة (Metamorphoses) مترجمة إلى العربية مع مقدمة تحليلية .

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٨٠
الطبعة الثانية - المنشأة العامة للنشر ١٩٨٤
الطبعة الثالثة مركز الحضارة العربية ١٩٩٨

- حسناء قورينا :

مسرحية (بلاوتوس) Plautus المعروفة باسم Rudens .

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٦٧

- حسان :

مسرحية (جيمس فلكر) (J. Flecker; Hassan) .

الطبعة الأولى – المنشأة العامة للنشر ١٩٧٧

- الحركة والسكون :

مجموعة مقالات وبحوث نقدية في مختلف الموضوعات التي اهتم بها الكاتب ..

الطبعة الأولى – دار مكتبة الفكر ١٩٧٣

- أيام الشوق للكلمة :

مقالات وبحوث ودراسات .

الطبعة الأولى – المنشأة العامة للنشر ١٩٧٧

- مر السحاب :

مقالات قصيرة في السياسة والأدب والاجتماع .

الطبعة الأولى – المنشأة العامة للنشر ١٩٨٤

- بحثاً عن فرعون العربي :

دراسات وبحوث في اللغة والتاريخ العربي والليبي - بنظرة جديدة للتراث الحضاري .

الطبعة الأولى – الدار العربية للكتاب ١٩٨٥

الطبعة الثانية مركز الحضارة العربية ١٩٩٨

- آلهة مصر العربية (في مجلدين) :

دراسة موسعة للدين واللغة في مصر القديمة لإثبات عروبتهما ، ثلاثة أجزاء في مجلدين ..

الطبعة الأولى – نشر مشترك – الدار الجماهيرية (ليبيا) ودار الآفاق الجديدة (المغرب) ١٩٩٠

الطبعة الثانية مركز الحضارة العربية ١٩٩٨

- سفر العرب الأمازيغ :

بحث مفصل في عروبة اللغة الأمازيغية (البربرية) ملحق به :

- **لسان العرب الأمازيغ** : معجم عربي - بربري مقارن .

الطبعة الأولى – دار نون ١٩٩٦

- هل في القرآن أعجمي ؟

نظرة جديدة إلى موضوع قديم . بحث يصحح ما شاع من وجود مفردات أعجمية في القرآن الكريم ،

يؤصل هذه المفردات ويبين عروبيتها مع مقارنات باللغات العروبية الأخرى .

الطبعة الأولى – دار الشرق الأوسط ، بيروت ١٩٩٧

- في المسألة الأمازيغية :

سلسلة "الدفاتر القومية"

الطبعة الأولى - المجلس القومي للثقافة العربية - الرباط ١٩٩٦

- إينـــــــارو :

رواية تاريخية مستوحاة من وحدة عرب مصر وعرب ليبيا في مقاومة الاحتلال الفارسي لوادي النيل في القرن الخامس ق.م.

الطبعة الأولى - المؤسسة العربية للنشر والإبداع . الدار البيضاء . المغرب . ١٩٩٥

الطبعة الثانية- مركز الحضارة العربية ١٩٩٨

- التواصل .. دون انقطاع :

دراسات في تاريخ وتراث الوطن العربي القديم .

الطبعة الأولى - الـدار الجماهيرية ١٩٩٨

-الكلام على مائدة الطعام :

مقالات في ما يتعلق بأسماء الأطعمة وما يتصل بها أو يدخل في تركيبها من مواد وأدوات .

الطبعة الأولى - الـدار الجماهيرية ١٩٩٨

-رحلة الكلمات :

مقارنات بين العربية واللغات الأوروبية لبيان الصلة الوثيقة بين العربية وهذه اللغات في أسلوب عرض مبسط .

الطبعة الأولى - دار اقرأ - مالطا / روما ١٩٨٦

الطبعة الثانية- مركـز الحضارة العربـية ١٩٩٨

-رحلة الكلمات الثانية :

الطبعة الأولى - الـدار الجماهيرية ١٩٩٨

بالإنكليزية :

-Zarruq the Suf (زروق الصوفي) :

مؤسسة (موريس الدولية) «Morris International» - لندن

المنشـأة العامـة - طرابلس ١٩٧٤

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

العنوان	المؤلف
أساطير التوراة	عاطف عبد الغنى
حماس .. حركة المقاومة الإسلامية	خالد أبو العمرين
مخابرات ومخدرات	شفيق أحمد على
فى جنازة المقاطعة العربية لإسرائيل	شفيق أحمد على
الملف السرى للسادات والتطبيع	شفيق أحمد على
عبادة الشيطان على ضفاف النيل	حسين عبد الواحد
الماسونية (الدنيا وحدها)	خليل إبراهيم حسونة
الحركات الهدامة	خليل إبراهيم حسونة
الصهيونية السياسية	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
الاستيطان الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
القدس	خليل إبراهيم حسونة
الإرهاب الأمريكي	خليل إبراهيم حسونة
يهود ضد إسرائيل	ياسر حسين
حلف الضحية والجلاد	ترجمة : زينات الصباغ
السلام الفتاك	محمد خليفة
البديل الإسرائيلى للعروبة	سيد زهران
مشروع للانتحار القومى !	مصباح قطب
غزة أريحا - المأزق والخلاص	عبدالقادر ياسين
غزة أريحا - التسوية المستحيلة	جورج المصرى
صفقة التسوية الأردنية الإسرائيلية	د. السيد عوض
سلام أم استسلام	د. أحمد الصاوى
أوهام السلام	عبد الخالق فاروق
بروتوكولات حكماء صهيون	
التلمود	
التناقض فى تواريخ وأحداث التوراة	محمد قاسم
القوة العسكرية الإسرائيلية	جمال الدين حسين
سقوط نجم مخابرات إسرائيل	جمال الدين حسين
عملية السرب الأحمر	جمال الدين حسين
الإختراق الإسرائيلى للزراعة فى مصر	صلاح بديوى
إختراق الأمن الوطنى المصرى	عبدالخالق فاروق
المياه العربية	عبدالله مرسى العقالى
الإسلام والعرش	سيد زهران
من يحمى عروش الخليج	د. أحمد ثابت
إعدام صحفى	سعيد حبيب
الكرامة الضائعة	حمادة إمام
أزمة الانتماء فى مصر	عبد الخالق فاروق
التطرف الدينى ومستقبل التغيير فى مصر	عبد الخالق فاروق
كارثة المعونة الأمريكية	جمال غيطاس
العلاقات الليبية - الأمريكية	د. السيد عوض
بان أمريكان ١٠٣ (اتهام ليبيا أم اتهام أمريكا)	مجموعة مؤلفين
حلايب	أحمد محجوب
الإخوان والعسكر	حيدر طه
القوى الخارجية فى السودان	د. السيد فليفل
نظم الحكم العنصرية فى جنوب أفريقيا	د. السيد فليفل
الشيشان	عمرو ناصف
عبد الناصر .. هذا المواطن	سليمان الحكيم
حوارات عن عبد الناصر	سليمان الحكيم
عبد الناصر .. والإخوان	سليمان الحكيم
المرأة التى أحبها عبد الناصر	شفيق أحمد على
عبد الناصر وعبد الحليم حافظ والزمن الجميل	حسن صابر
البديل الناصرى	سيد زهران
عن الناصرية والناصريين	مجدى رياض
الأقليات التاريخية فى الوطن العربى	د.أحمد الصاوى
الناصرية والتاريخ	سيد حسان
الناصرية .. الأيديولوجيا والمنهج	سيد زهران
التنمية المستقلة فى النموذج الناصرى	جورج المصرى
فلسطين الانتفاضة .. جدل الوطن والأمة	د. أحمد ثابت
كاريزما الزعامة الناصرية	د. السيد الزيات
الناصرية والتجديد	مجدى رياض
الحركة الإسلامية فى مصر (دراسة موسوعية)	صالح الوردانى
الحركة الإسلامية فى مصر	صالح الوردانى
الكلمة والسيف	صالح الوردانى
عبود الزمر .. حوارات ووثائق	أحمد رجب
المسيح فى الإسلام	ترجمة : عادل حامد
المسيحية والإسلام	حسين السيد
الحكومة والسياسة فى الإسلام	ترجمة : سيد حسان

العنوان	المؤلف
...وجيز فى بداية التكوين	عبد العزيز محمد، مصطفى المرلى
...سالة التوحيد للإمام محمد عبده	تحقيق د.محمد عمارة
...إسلام والعروبة	مجدى رياض
...يف تقرأ القرآن	محمد محمود عبد الله
...يف تجود القرآن	محمد محمود عبدالله
...ف تحفظ القرآن	محمد محمود عبد الله
...بية الإسلامية	محمد محمود عبد الله
...رآن : حل مشاكل الأمة	محمد محمود عبد الله
...س من نور الأسماء	محمد محمود عبد الله
...رف السبعة وأصول القراءات	محمد محمود عبد الله
...موا تصحّوا (الصيام والصحة)	محمد محمود عبد الله

العنوان	المؤلف
...الصينية فى العلاج والتخدير	د. لطفى سليمان
...شاب الطبية	د. موسى الخطيب
...حماية البيئة	خالد القاسمي/ وجيه البعيني

العنوان	المؤلف
...المجد الألفية فى الإسلام	د. أحمد الصاوى
...م فى تاريخ حضارة آسيا الوسطى	د. أحمد الصاوى
...النـ المتداولة فى مصر العثمانية	د. أحمد الصاوى
...النـ الإسلامية فى مصر	د. رأفت النبراوى

العنوان	المؤلف
إينـارو	د. على فهمى خشيم
...قو الجحش الذهبى لوكيوس أبوليوس	ترجمة د.على فهمى خشيم
...مسك الأحبة	خيري عبد الجواد
...العشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
...الخروج إلى النبع	محمد قطب
...حة الفردوس	نبيل عبد الحميد
...المرة	د. عبد الرحيم صديق
...حان طليقا	أحمد عمر شاهين
...ترانيت	ليلى الشربينى
...مشوار	ليلى الشربينى
...فرجل	ليلى الشربينى
...رجال عرفتهم	ليلى الشربينى

العنوان	المؤلف
...طرية الغروب	جمال الغيطانى
...مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط

العنوان	المؤلف
حرب بلاد غنم	خيرى عبدالجواد
حكايات الديب رماح	خيرى عبدالجواد
حرب أطاليا	خيرى عبدالجواد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
شجرة الخلد	سعد القرس
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
فرد حمام	يوسف فاخورى
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوه
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــد	عبده خال
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين

العنوان	المؤلف
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
قصائد حب من العراق	البيـاتى وآخرون
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
دنيـــا تناديـنـا	طارق الزياد
صلاة المودع	صبرى السيد
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
غربة الصبح	محمد الفارس
الغربة والعشق	مجدى رياض
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد
فى مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد
إذهب قبل أن أبكى	د. لطيفة صالح

هذه الليلة الطويلة	د.أحمد صدقي الدجاني
اللعبة الأبدية ... (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
ملكة القرود	محمود عبدالحافظ

آلهة مصر العربية	د . علي فهمي خشيم
رحلة الكلمات	د . علي فهمي خشيم
بحثاً عن فرعون العربي	د . علي فهمي خشيم
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغني
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدي إبراهيم
البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
أعلام من الأدب العالمي	علي عبد الفتاح
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة

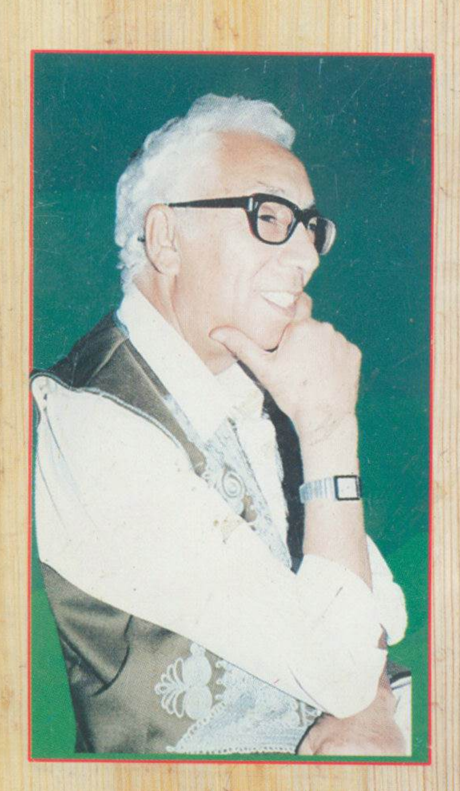
كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د . أحمد الصاوى
رمضان .. زمان	د أحمد الصاوى
القصص الشعبى فى مصر	أ. ناد خيرى ه د الجواد
إغاثة الأمة فى كشف الغمة	
الفاشوش فى حكم قراقوش	
الحكمة المدنية لابن المقفع	

ماهي السينما	صلاح أبو سيف
قضايا المونتاج المعاصر (جزءان)	د. عفت عبد العزيز
الصوت والضوضاء	د. مصطفى عبدالمطلب

عزة فى الفضاء	أم كلثوم إبراهيم
مهرجـــان	أحمد زرزور/ممدوح طلعت
العصفـــور	أحمد زرزور/محمد فرح
علمني يا أبي حوار عن الصلاة	حسن سليمان
ما قالته الغيمة الأخيرة	أحمد زرزور
ويضحك القمر	أحمد زرزور

برلنتي والمشير (القصة الحقيقية)	سيد زهران
اعترافات الأميرة جيهان	ماجدي البسيوني
الجنس والشباب الذكي (كولن ولسون)	ترجمة: أحمد عمر شاهين
تجارة الجنس جاري جوردون	ترجمة زينات الصباغ
صناعة النجوم سكوت أرنيل	ترجمة زينات الصباغ
أشهر فضائح القرن العشرين	حسن صابر
أسوأ حكام القرن العشرين	حسن صابر
نجوم في الوحل	حسن صابر
الأميرة العارية وعرش سيئ السمعة	حسن صابر
أمريكا .. حرية ، جنس وبوليتيكا	حسين عبد الواحد
بنات إبليس (نساء فى مملكة الشر)	حسين عبد الواحد
التفسير الجنسي للتطرف	حسين عبد الواحد
التطرف والعنصرية على الطريقة الأمريكية	حسين عبد الواحد
الأطباق الطائرة	حسين عبد الواحد
حسناء البنوك ومعالي الوزير	أسامة الكر
أسرار ما وراء الجنس	كمال عبد الرسول
كنز المعلومات	كمال عبد الرسول
تسلية ثقافية للكبار والصغار	أحمد عمر
الحرب العالمية الرابعة	ياسر حسين

هذه الرواية



ما بين بابل وأثينا ومنف وأورشليم وقورينا وصا .. تتقاطع الخيوط لتتجمع في قرية صغيرة على بحيرة مريوط قرب بلدة راقودة التي أصبحت فيما بعد تُعرف باسم الاسكندرية . وفي أحداث مؤثرة في تاريخ الشرق القديم تبرز شخصيات أدت أدواراً خطيرة في هذا التاريخ من مثل قمبيز وأرتحشِشتا في فارس ، وخفرع وأحمس في مصر ، وبركليس في أثينا ، وعزرا ونحميا ما بين بابل وأورشليم .. ترتبط جميعها بشخصية كانت الأهم والأخطر في دلتا النيل .. إينارو بن بسامتيك .

في هذه الرواية المؤسسة على استقراء تاريخي واقع تتصارع الأهواء والرغبات وتتدافع المصالح والمنافع ، حيث يصطدم الحب والحقد ، والخيانة والوفاء ، والأنانية والتضحية ، والقوة والضعف ، ويتلاقي ممثلو حضارات ورموز ثقافات في فترة من أهم فترات تاريخ منطقتنا .

وفي هذه الرواية يمتزج دم شعبين شقيقين منذ فجر التاريخ دفاعاً عن الأرض ودفعاً للمحتل ، وتلتقي زعامتان انبثقتا من "الأرض الحمراء" (ليبيا) و "الأرض السمراء" (مصر) لتحققا وحدة النضال انطلاقاً من وحدة الأصل والمصير .

وفي هذه الرواية يقدّم التاريخ الحقيقي لما حدث ، قال عنه ديودروس الصقلّي صاحب (المكتبة التاريخية) إنه "سيبدو لمن يقرأه شيئاً لم يُسمع به من قبل وغريباً كل الغرابة" .

(الكتاب الثالث ، فقرة ٥٢) .

